

تلاوة المسبحة

في
علم التفسير

مؤلف

الإمام أبو الشيخ محمد بن محمد بن عبد الجوزي القرشي البغدادي

٥٠٨ - ٥٩٧ هـ

الجزء الخامس

المكتبة الإسلامية

تِلْكَ الْمَسِيرَاتُ

فِي

عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تأليف

الامام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي

٥٠٨ - ٥٩٧ هـ

الجزء الخامس

المكتب الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة
للمكتب الإسلامي

لصاحبه
زهير الشاويش

الطبعة الرابعة
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

المكتب الإسلامي

بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - بريقياً: اسلامياً
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - بريقياً: اسلامياً

سورة بني اسرائيل

﴿ فصل في نزولها ﴾

هي مكية في قول الجماعة ، إلا أن بعضهم يقول : فيها مدني ، فروي عن ابن عباس أنه قال : هي مكية إلا ثمان آيات : من قوله : (وإن كادوا ليفتنونك) إلى قوله : (نصيراً) [الاسراء : ٧٣ - ٧٥] ، وهذا قول قتادة . وقال مقاتل : فيها من المدني : (وقل رب أدخلني مدخل صدق) [الاسراء : ٨٠] وقوله : (إن الدين أوتوا العلم من قبله) [الاسراء : ١٠٧] وقوله : (إن ربك أحاط بالناس) [الاسراء : ٦٠] وقوله : (وإن كادوا ليفتنونك) [الاسراء : ٧٣] وقوله : (وإن كادوا ليستفزونك) [الاسراء : ٧٦] وقوله : (ولولا أن تبنتك) والتي تليها [الاسراء : ٧٤ ، ٧٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

قوله تعالى : (سبحان) روي عن النبي ﷺ أنه سئل عن تفسير « سبحان الله » ، فقال : « تزيه لله عن كل سوء » ، وقد ذكرنا هذا المعنى في (البقرة : ٣٢) .

قال الزجاج : و « أسرى » : بمعنى : سيّر عبده ، يقال : أسريت وسريت : إذا سرت ليلاً . وقد جاءت اللغتان في القرآن ، قال الله تعالى : (والليل إذا يسر) [الفجر : ٤] .

وفي معنى التسييح هاهنا قولان .

أحدهما : أن العرب تسيح عند الأمر المعجب ، فكان الله تعالى عجب العباد مما أسدى إلى رسوله من النعمة .

والثاني : أن يكون خرج مخرج الرد عليهم ، لأنه لما حدثتهم بالاسراء ، كذبوه ، فيكون المعنى : تزه الله أن يتخذ رسولا كذابا . ولا خلاف أن المراد بعبده هاهنا : محمد ﷺ .

وفي قوله : (من المسجد الحرام) قولان .

أحدهما : أنه أسري به من نفس المسجد ، قاله الحسن ، وقتادة ، ويسنده حديث مالك بن صعصعة ، وهو في « الصحيحين »^(١) « بينا أنا في الحطيم » وربما قال بعض الرواة : في « الحجر » .

والثاني : أنه أسري به من بيت أم هانيء^(٢) ، وهو قول أكثر المفسرين ،

(١) البخاري : ١٥٤/٧ ، ومسلم . ١٥٠/١ ، وخرجه السيوطي في « الدر » : ١٤٠/٤ وزاد نسبه إلى أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن مردويه . وقوله : « ربما قال بعض الرواة : في الحجر » قال الحافظ ابن حجر : هو شك من قتادة كما بينه أحمد عن عفان عن همام ، ولفظه : « بينا أنا نائم في الحطيم ، وربما قال قتادة : في الحجر » .

(٢) حديث أم هانيء ، رواه محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح ، والكلبي متروك برة ساقط ، ورواه الطبراني في « الكبير » وفيه عبد الأعلى بن أبي المساور . قال الهينمي في « الجمع » ٧٦/١ : متروك كذاب .

فعلی هذا یعنی بالمسجد الحرام : الحرم . والحرم كلُّه مسجد ، ذكره القاضي أبو يعلى وغيره .

فأما (المسجد الأقصى) فهو بيت المقدس ، وقيل له : الأقصى ، لبُعد المسافة بين المسجدين . ومعنى (باركنا حوله) : أن الله أجرى حوله الأنهار ، وأنبت الثمار . وقيل : لأنه مقرُّ الأنبياء ، ومهبطُ الملائكة .

واختلف العلماء ، هل دخل بيت المقدس ، أم لا ؟ فروى أبو هريرة أنه دخل بيت المقدس ، وصلى فيه بالأنبياء^(١) ، ثم عُرج به إلى السماء . وقال حذيفة بن اليمان : لم يدخل بيت المقدس ولم يصل فيه ، ولا نزل عن البراق حتى عُرج به .

فإن قيل : ما معنى قوله : (إلى المسجد الأقصى) وأنتم تقولون : صعد إلى السماء ؟ فالجواب : أن الإسراء كان إلى هناك ، والمعراج كان من هناك .

وقيل : إن الحكمة في ذكر ذلك ، أنه لو أخبر بصعوده إلى السماء في بدء الحديث ، لاشتد إنكارهم ، فلما أخبر ببيت المقدس ، وبأن لهم صدقته فيما أخبرهم به من العلامات الصادقة ، أخبر بمعراجه .

قوله تعالى : (لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) يعني : مارأى ، أي : تلك الليلة من المعجائب التي أخبر بها الناس . (إنه هو السميع) لمقالة قريش ، (البصير) بها . وقد ذكرنا في كتابنا المسمى بـ « الحقائق » أحاديث المعراج ، وكرهنا الإطالة ها هنا .

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ
أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا . ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ
كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾

(١) حديث أبي هريرة رواه مسلم ١/١٥٧ ، وفي « مسند أحمد » ومسلم ١/١٤٥ ، من حديث أنس بن مالك قال : « فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، قال : « فربطته بالحلقة التي تربط به الأنبياء » ، قال : « ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين . . . » .

قوله تعالى : (وآتينا موسى الكتاب) لما ذكر في الآية الأولى إكرام محمد ﷺ ، ذكر في هذه كرامة موسى . و (الكتاب) : التوراة . (وجعلناه هدىً لبني إسرائيل) أي : دللناهم به على الهدى . (ألاّ تتخذوا) قرأ أبو عمرو : « يتخذوا » بالياء ، والمعنى : هديناهم لئلا يتخذوا . وقرأ الباقون بالتاء ، قال أبو علي : وهو على الانصراف إلى الخطاب بعد الغيبة ، مثل (الحمد لله) ثم [قال] (إياك نعبد) .

قوله تعالى : (وكيلاً) قال مجاهد : شريكاً . وقال الزجاج : ربّاً . قال ابن الأنباري : وإنما قيل للربّ : وكيل ، لكفايته وقيامه بشأن عباده ، من أجل أن الوكيل عند الناس قد علم أنه يقوم بشؤون أصحابه ، وتفقد أمورهم ، فكان الربّ وكيلاً من هذه الجهة ، لا على معنى ارتفاع منزلة الموكل وانحطاط أمر الوكيل .

قوله تعالى : (ذريةً من حملنا) قال مجاهد : هو نداء : يا ذرية من حملنا . قال ابن الأنباري : من قرأ : « ألاّ تتخذوا » بالتاء ، فانه يقول : بعد الذرية مضمراً حذف اعتماداً على دلالة ماسبق ، تلخيصه : يا ذرية من حملنا مع نوح لا تتخذوا وكيلاً ، ويجوز أن يستغني عن الإضمار بقوله : (إنه كان عبداً شكوراً) لأنه بمعنى : اشكروني كشكره . ومن قرأ : « لا يتخذوا » بالياء ، جعل النداء متصلاً بالخطاب ، و « الذرية » تنتصب بالنداء ، ويجوز نصبها بالاتخاذ على أنها مفعول ثانٍ ، تلخيص الكلام : أن لا يتخذوا ذرية من حملنا مع نوح وكيلاً . قال قتادة : الناس كلهم ذرية من أنجى الله في تلك السفينة .

قال العلماء : ووجه الإنعام على الخلق بهذا القول ، أنهم كانوا في صلب من نجا . قوله تعالى : (إنه كان عبداً شكوراً) قال سلمان الفارسي : كان إذا أكل

قال : « الحمد لله » وإذا شرب قال : « الحمد لله »^(١) . وقال غيره : كان إذا لبس ثوباً قال : « الحمد لله » فسمّاه الله عبداً شكوراً .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا . فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا . ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

قوله تعالى : (وقضينا إلى بني إسرائيل) فيه قولان .

أحدهما : أخبرناهم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : قضينا عليهم ، رواه العوفي عن ابن عباس . وبه قال قتادة ، فعلى

الأول : تكون « إلى » على أصلها ، ويكون الكتاب : التوراة ، وعلى الثاني :

تكون « إلى » بمعنى « على » ، ويكون الكتاب : الذكر الأول .

قوله تعالى : (لتُفْسِدُنَّ في الأرض) يعني : أرض مصر (مرتين)

بالمعاصي ومخالفة التوراة .

وفي مَنْ قتلوه من الأنبياء في الفساد الأول قولان .

أحدهما : زكريا ، قاله السدي عن أشياخه .

(١) ابن جرير : ١٩/١٥ ، ، وخرجه السيوطي في « الدر » : ٤/١٦٢ وزاد نُسبته إلى

الغريبي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » .

وروى الامام أحمد في « المسند » : ٣/١٠٠ ، ومسلم : ٤/٢٠٩٥ ، والترمذي ، والنسائي عن

أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضى عن العبد

أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها » .

والثاني : شعيا ، قاله ابن إسحاق . فأما المقتول من الأنبياء في الفساد الثاني : ، فهو يحيى بن زكريا . قال مقاتل : كان بين الفسادين مائتا سنة وعشر سنين . فأما السبب في قتلهم زكريا ، فانهم اتهموه بمريم ، وقالوا : منه حملت ، فهرب منهم ، فانفتحت له شجرة فدخل فيها وبقي من ردائه هذب ، فجاءم الشيطان فدلّهم عليه ، فقطعوا الشجرة بالمنشار وهو فيها . وأما السبب في قتلهم « شعيا » ، فهو أنه قام فيهم برسالة من الله ينههم عن المعاصي . وقيل : هو الذي هرب منهم فدخل في الشجرة حتى قطعوه بالمنشار ، وأن زكريا مات حتف أنفه . وأما السبب في قتلهم يحيى بن زكريا ، ففيه قولان .

أحدهما : أن ملكهم أراد نكاح امرأة لا تحلّ له ، فنهاه عنها يحيى . ثم فيها أربعة أقوال . أحدها : أنها ابنة أخيه ، قاله ابن عباس . والثاني : ابنته ، قاله عبد الله بن الزبير . والثالث : أنها امرأة أخيه ، وكان ذلك لا يصلح عندهم ، قاله الحسين بن علي عليها السلام . والرابع : ابنة امرأته ، قاله السدي عن أشياخه ، وذكر أن السبب في ذلك : أن ملك بني إسرائيل هوى بنت امرأته ، فسأل يحيى عن نكاحها ، فنهاه ، فحنقت أمها على يحيى حين نهاه أن يتزوج ابنتها ، وعمدت إلى ابنتها فزينتها وأرسلتها إلى الملك حين جلس على شرابه ، وأمرتها أن تسقيه ، وأن تعرض له ، فان أرادها على نفسها ، أبت حتى يؤتى برأس يحيى بن زكريا في طست ، ففعلت ذلك ، فقال : ويحك سلبني غير هذا ، فقالت : ما أريد إلا هذا ، فأمر ، فأُتي برأسه والرأس يتكلم ويقول : لا تحلّ لك ، لا تحلّ لك .

والقول الثاني : أن امرأة الملك رأت يحيى عليه السلام وكان قد أُعطي حسناً وجمالاً ، فأرادته على نفسه ، فأبى ، فقالت لابنتها : سلبى أباك رأس يحيى ، فأعطاهما

ما سألت ، قاله الربيع بن أنس . قال العلماء بالسَّيْر : ما زال دم يحيى يغلي حتى قتل عليه من بني إسرائيل سبعون ألفاً ، فسكن ، وقيل : لم يسكن حتى جاء قاتله ، فقال : أنا قتله ، فقتل ، فسكن .

قوله تعالى : (ولتعلنَّ علُوًّا كبيراً) أي : لتعظمنَّ عن الطاعة ولتبغُنَّ .

قوله تعالى : (فاذا جاء وعد أولاهما) أي : عقوبة أولى المرّتين (بعثنا) أي :

أرسلنا (عليكم عباداً لنا) وفيهم خمسة أقوال .

أحدها : أنهم جالوت وجنوده ، قاله ابن عباس ، وقتادة . والثاني :

« مُخْتَنَصَّرٌ » ^(١) ، قاله سعيد بن المسيب ، واختاره الفراء ، والزجاج .

والثالث : العمالقة ، وكانوا كفاراً ، قاله الحسن . والرابع : سنحاريب ^(٢) ، قاله

سعيد بن جبير . والخامس : قوم من أهل فارس ، قاله مجاهد . وقال ابن زيد :

سلط [الله] عليهم سابور ذا الأكتاف ^(٣) من ملوك فارس .

قوله تعالى : (أولي بأسٍ شديد) أي : ذوي عدد وقوة في القتال .

وفي قوله : (فجاسوا خلال الديار) ثلاثة أقوال .

أحدها : مشوا بين منازلهم ، قاله ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال

مجاهد : يتجسسون أخبارهم ، ولم يكن قتال . وقال الزجاج : طافوا خلال الديار

ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه ، و « الجوس » : طلب الشيء باستقصاء .

والثاني : قتلهم بين يوتهم ، قاله الفراء ، وأبو عبيدة .

(١) هو ملك الكلدانيين ، أغار بجملاته على مصر وفتح القدس ، وأحرقها وأجلى بني إسرائيل

إلى بابل .

(٢) هو ملك آشور بن سنجور وخليفته ، حمل على بلاد الكلدانيين واليهودية وأرمينية .

(٣) لقب بذلك ، لأنه أمر بفك أكتاف أسرى الحرب ، حارب العرب أحلاف الروم .

والثالث : عاثوا وأفسدوا ، يقال : جاسوا وحاسوا ، فهم يجوسون ويجوسون إذا فعلوا ذلك ، قاله ابن قتيبة .

فأما الخلال : فهي جمع خَلَل ، وهو الانفراج بين الشئين . وقرأ أبو رزين ، والحسن ، وابن جبیر ، وأبو المنوكل : « خَلَلَ الديار » بفتح الخاء واللام من غير ألف . (وكان وعداً مفعولاً) أي : لا بد من كونه .

قوله تعالى : (ثم رددنا لكم الكرة عليهم) أي : أظفرناكم بهم . والكرة ، معناها : الرجعة والدولة ، وذلك حين قتل داودُ جالوتَ وعاد ملكهم إليهم . وحكى الفراء أن رجلاً دعا على « مختصر » ؛ فقتله الله ، وعاد ملكهم إليهم . وقيل : غزوا ملك بابل فأخذوا ما كان في يده من المال والأسرى .

قوله تعالى : (وجعلناكم أكثر نفيراً) أي : أكثر عدداً وأنصاراً منهم . قال ابن قتيبة : النّفير والنافر واحد ، كما يقال : قدير وقادر ، وأصله : مَنْ يَنْفِرُ مع الرجل من عشيرته وأهل بيته .

﴿ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَنُوا تَتْبِيرًا . عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾
قوله تعالى : (إن أحسنتم) أي : وقلنا لكم إن أحسنتم فأطعتم الله (أحسنتم لأنفسكم) أي : عاقبة الطاعة لكم (وإن أسأتم) بالفساد والمعاصي (فلها) وفيه قولان .

أحدهما : أنه بمعنى : فإليها . والثاني : فعلها .

(فإذا جاء وعد الآخرة) جواب « فإذا » محذوف ، تقديره : فإذا جاء

وعد عقوبة المرة الآخرة من إفسادكم ، بثناهم ليسوؤوا وجوهكم ، وهذا الفساد الثاني ، هو قتلهم يحيى بن زكريا ، وقصدهم قتل « عيسى » فرُفِع ، وسلَّط الله عليهم ملوك فارس والروم فقتلوهم وسبَّوهم ، فذلك قوله : (ليسوؤوا وجوهكم) . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : « ليسوؤوا » بالياء على الجميع والهمز بين الواو والين ، والإشارة إلى المبعوثين . وقرأ ابن عامر ، وحزمة ، وأبو بكر عن عاصم : « ليسوء وجوهكم » على التوحيد ؛ قال أبو علي : فيه وجهان . أحدهما : ليسوء الله عز وجل . والثاني : ليسوء البعث . وقرأ الكسائي : « لنسوء » بالنون ، وذلك راجع إلى الله تعالى .

وفيمن بَعث عليهم في المرة الثانية قولان .

أحدهما : مختصر ، قاله مجاهد ، وقتادة . وكثير من الرواة يأبى هذا القول ، ويقولون : كان بين تخريب « مختصر » بيت المقدس ، وبين مولد يحيى بن زكريا زمان طويل .

والثاني : انطياخوس الرومي ، قاله مقاتل . ومعنى (ليسوؤوا وجوهكم) أي : ليدخلوا عليكم الحزن بما يفعلون من قتلكم وسببكم ، وخصت المساءة بالوجوه ، والمراد : أصحاب الوجوه ، لما يبدو عليها من أثر الحزن والكآبة .

قوله تعالى : (وليدخلوا المسجد) يعني : بيت المقدس (كما دخلوه) في المرة الأولى (وليتبروا) أي : ليدمروا ويخربوا . قال الزجاج : يقال اكمل شيء ينكسر من الزجاج والحديد والذهب : تبر . ومعنى (ماعلوا) أي : ليدمروا في حال علوهم عليكم .

قوله تعالى : (عسى ربكم أن يرحمكم) هذا مما وُعدوا به في التوراة . و « عسى » من الله واجبة ، فرحمهم [الله] بعد انتقامه منهم ، وعمر بلادهم ، وأعاد نعمهم

بعد سبعين سنة . (وإن عدتم) إلى معصيتنا (عُدنا) إلى عقوبتكم . قال المفسرون : ثم إنهم عادوا إلى المعصية ، فبعث الله عليهم ملوكاً من ملوك فارس والروم . قال قتادة : ثم كان آخر ذلك أن بعث الله عليهم محمداً ﷺ ، فهم في عذاب إلى يوم القيامة ، فيعطون الجزية عن يديهم وهم صاغرون .

قوله تعالى : (وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً) فيه قولان .

أحدهما : سجناً ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وقاتدة . وقال مجاهد : يحصرون فيها . وقال أبو عبيدة ، وابن قتيبة : محبساً ، وقال الزجاج : « حصيراً » : حبساً ، أخذ من قولك : حصرت الرجل ، إذا حبسته ، فهو محصور ، وهذا حصيره ، أي : محبسه ، والحصير : المنسوج ، سمي حصيراً ، لأنه حصرت طاقاته بعضها مع بعض ، ويقال للجَنَب : حصير ، لأن بعض الأضلاع محصور مع بعض . وقال ابن الأنباري : حصيراً : بمعنى : حاصرة ، فصرف من حاصرة إلى حصير ، كما صرف « مؤلم » إلى أليم .

والثاني : فراشاً ومهاداً ، قاله الحسن . قال أبو عبيدة : ويجوز أن تكون جهنم لهم مهاداً بمنزلة الحصير ، والحصير : البساط الصغير .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا . وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) قال ابن الأنباري :

« التي » وصف للجمع ، والمعنى : يهدي إلى الخصال التي هي أقوم الخصال . قال المفسرون : وهي توحيد الله والإيمان به وبرسوله والعمل بطاعته ، (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم) أي : بأن لهم (أجراً) وهو الجنة ، (وأن

الذين لا يؤمنون بالآخرة) أي : ويبشرهم بالعذاب ، لأعدائهم ، وذلك أن المؤمنين كانوا في أذى من المشركين ، فعجل الله لهم البشري في الدنيا بمقاب الكافرين .

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾

قوله تعالى : (ويدعو الإنسان بالشر) وذلك أن الإنسان يدعو في حال الضجر والغضب على نفسه وأهله بما لا يجب أن يستجاب له كما يدعو لنفسه بالخير . (وكان الإنسان عجولا) يعجل بالدعاء بالشر عند الغضب والضجر عجلته بالدعاء بالخير .

وفي المراد بالإنسان هاهنا ثلاثه أقوال .

أحدها : أنه اسم جنس يراد به الناس ، قاله الزجاج وغيره .

والثاني : آدم ، فاكتفى بذكره من ذكر ولده ، ذكره ابن الأنباري .

والثالث : أنه النضر بن الحارث حين قال : (فأمطر علينا حجارة من

السماء) [الأنفال : ٣٢] ، قاله مقاتل . وقال سلمان الفارسي : أول ما خلق الله

من آدم رأسه ، فجعل ينظر إلى جسده كيف يخلق ، قال : فبقيت رجلاه ،

فقال : يارب عجل ، فذلك قوله : (وكان الإنسان عجولا) (١) .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا

آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ

السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾

(١) ابن جرير الطبري : ٤٨/١٥ عن سلمان الفارسي ، ورواه أيضا عن ابن عباس .

قوله تعالى : (وجعلنا الليل والنهار آيتين) أي : علامتين يدلان على قدرة خالقها . (فحونا آية الليل) فيه قولان .

أحدهما : أن آية الليل : القمر ، ومحورها : ما في بعض القمر من الاسوداد . وإلى هذا المعنى ذهب علي عليه السلام ، وابن عباس في آخرين .

والثاني : آية الليل محبت بالظلمة التي جعلت ملازمة للليل ؛ فنسب المحو إلى الظلمة إذ كانت تمحو الأنوار وتبطلها ، ذكره ابن الأنباري . ويُروى أن الشمس والقمر كانا في النور والضوء سواء ، فأرسل الله جبريل فأمر جناحه على وجه القمر وطمس عنه الضوء .

قوله تعالى : (وجعلنا آية النهار) يعني : الشمس (مبصرة) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : منيرة ، قاله قتادة . قال ابن الأنباري : وإنما صلح وصف الآية بالإبصار على جهة المجاز ، كما يقال : لعب الدهر بيني فلان .

والثاني : أن معنى « مبصرة » : مبصراً بها ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : أن معنى « مبصرة » مُبَصَّرَةٌ ، فجرى « مُفْعِلٌ » مجرى « مُفَعَّلٌ » ، والمعنى : أنها تُبَصِّرُ الناس ، أي : تُرِيهِمُ الأشياء ، قاله ابن الأنباري . ومعاني الأقوال تتقارب .

قوله تعالى : (اتبتنوا فضلاً من ربكم) أي : لتبصروا كيف تصرفون في أعمالكم وتطلبون رزقكم بالنهار (ولتعلموا عدد السنين والحساب) بمحو آية الليل ، ولولا ذلك ، لم يعرف الليل من النهار ، ولم يُتَبَيَّنِ العدد . (وكل شيء) أي : ما يُحْتَاجُ إليه ، (فصنَّاه تفصيلاً) يبيِّنُه لا يلتبس معه بغيره .

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

قوله تعالى : (وكلَّ إنسانٍ) وقرأ ابن أبي عملة « وكلُّ » برفع اللام .
وقرأ ابن مسعود ، وأبيُّ ، والحسن (ألزمناه طيره) ياء ساكنة من غير ألف .
وفي الطائر أربعة أقوال .

أحدها : شقاوته وسعاده ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . قال مجاهد : مامن مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي ، أو سعيد .
والثاني : عمله ، قاله الفراء ، وعن الحسن كالتولين .

والثالث : أنه ما يصيبه ، قاله خصيف . وقال أبو عبيدة : حظُّه .
قال ابن قتيبة : والمعنى فيما أرى - والله أعلم - : أن لكل امرئ حظاً من الخير والشر قد قضاه الله [عليه] ، فهو لازم عنقه ، والعرب تقول : لكل ما لزم الإنسان : قد لزم عنقه ، وهذا لك عليّ وفي عنقي حتى أخرج منه ، وإنما قيل للحظ من الخير والشر : « طائر » ، لقول العرب : جرى له الطائر بكذا من الخير ، وجرى له الطائر بكذا من الشر ، على طريق الفأل والطيرة ، فخطبهم الله بما يستعملون ، وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطائر ، هو الذي يلزمه أعناقهم .

وقال الأزهري : الأصل في هذا أن الله تعالى لما خلق آدم ، علم المطيع من ذريته ، والعاصي ، فكتب ما علمه منهم أجمعين ، وقضى سعادة من علمه مطيعاً ، وشقاوة من علمه عاصياً ، فصار لكل منهم ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه ، فذلك قوله : (ألزمناه طائره في عنقه) .

والرابع : أنه ما ينتظير من مثله من شيء عمله ، وذِكرُ العنق عبارة عن اللزوم

له ، كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس ، هذا قول الزجاج . وقال ابن الأنباري :
الأصل في تسميتهم العمل طائراً ، أنهم كانوا بتطيرون من بعض الأعمال .

قوله تعالى : (ونُخْرِجْ لَهُ) قرأ أبو جعفر : « وَيُخْرِجُ » ياء مضمومة وفتح
الراء . وقرأ يعقوب ، وعبد الوارث : بالياء مفتوحة وضم الراء . وقرأ قتادة ، وأبو التوكل :
« وَيُخْرِجُ » ياء مرفوعة وكسر الراء . وقرأ أبو الجوزاء ، والأعرج : « وَتُخْرِجُ »
بتاء مفتوحة ورفع الراء ، (يوم القيامة كتاباً) وقرأ ابن عباس ، وعكرمة ،
والضحاك : « كتاب » بالرفع ، (بلقاء) وقرأ ابن عامر ، وأبو جعفر : « يُلْقَاهُ »
بضم الياء وتشديد القاف . وأمال حمزة ، والكسائي القاف . قال المفسرون :
هذا كتابه الذي فيه ما عمل . وكان أبو السوار العدوي إذا قرأ هذه الآية
قال : نشرتان وطيبة ، أمّا ما حيت يا ابن آدم ، فصحيفتك منشورة ، فأمل فيها
ما شئت ، فاذا مُتَّ ، طويت ، ثم إذا بُعثت ، نُشرت .

قوله تعالى : (إقرأ كتابك) وقرأ أبو جعفر : « اقرأ » بتخفيف الهمزة ،
وفيه إضمار ، تقديره ، فيقال له إقرأ كتابك . قال الحسن : بقرؤه أمياً كان
أو غير أمي ، ولقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك .
وفي معنى (حسيباً) ثلاثة أقوال .

أحدها : محاسباً . والثاني : شاهداً . والثالث : كافياً ، والمعنى : أن
الإنسان يفوض إليه حسابه ، ليعلم عدل الله بين العباد ، ويرى وجوب حجة الله
عليه ، واستحقاقه العقوبة ، ويعلم أنه إن دخل الجنة ، فبفضل الله ، لا بعمله ، وإن
دخل النار ، فبذنبه . قال ابن الأنباري : وإنما قال : (حسيباً) ، والنفس موثقة ،
لأنه يعني بالنفس : الشخص ، أو لأنه لا علامة للتأنيث في لفظ النفس ، فشبهت

بالسما والارض ، قال تعالى : (السماء منفطر به) [المزم : ١٨] ، قال الشاعر :
 [فلامُزْنَةٌ وَدَقَّتْ وَدَقَّهَا] ولا أرضَ أبقلَ إبقالها (١)
 * من اهتدى فائماً يهتدي لنفسه ومن ضل فائماً يضل
 عليها ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث
 رسولاً *

قوله تعالى : (من اهتدى فانما يهتدي لنفسه) أي : له ثواب اهتدائه ، وعليه
 عقاب ضلاله .

قوله تعالى : (ولا تزر وازرةٌ) أي : نفس وازرة (وزر أخرى) قال ابن
 عباس : إن الوليد بن المغيرة قال : اتبعوني وأنا أحمل أوزاركم ، فقال الله تعالى :
 (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ، قال أبو عبيدة : والمعنى : ولا تأثم آثمه ثم
 أخرى . قال الزجاج : يقال : وزر ، يزر ، فهو وازر ، وزراً ، ووزراً ،
 ووزرةً ، ومعناه : آثم إنمًا .

وفي تأويل هذه الآية وجهان .

أحدهما : أن الآثم لا يؤخذ بذنب غيره .

والثاني : أنه لا ينبغي أن يعمل الإنسان بالآثم ، لأن غيره عمّله ، كما

(١) قاله عامر بن جوين شاعر جاهلي ، كان خليماً فاتكاً ، وشريفاً وفياً ، والبيت في
 الكتاب : ٢٠٥/١ ، و مجاز القرآن : ٦٧/٢ ، و الطبري : ١٥٣/١٨ ،
 و القرطبي : ٢٨٩/١٢ ، و العيني : ٤٦٤/٢ ، و شواهد المنى : ٣١٣ ،
 و الخزانة : ٢١/١ . والشاهد فيه حذف التاء من أبقلت ، لأن الأرض بمعنى المكان ،
 فكانه قال : ولا مكان أبقل إبقالها ، والمزنة : السحابة ، والودق : المطر .

زاد المير ٥ م (٢)

قال الكفار : (إنا وجدنا آباءنا على أمة) [الزخرف : ٢٢] . ومعنى (حتى نبعث رسولا) أي : حتى نبين ما به نعذب ، وما من أجله ندخل الجنة .

﴿ فصل ﴾

قال القاضي أبو يعلى : في هذا دليل على أن معرفة الله لا تجب عقلا ، وإنما تجب بالشرع ، وهو بمثة الرسل ، وأنه لو مات الإنسان قبل ذلك ، لم يقطع عليه بالنار . قال : وقيل معناه : أنه لا يعذب في ما طريقه السمع إلا بقيام حجة السمع من جهة الرسول ، ولهذا قالوا : لو أسلم بعض أهل الحرب في دار الحرب ولم يسمع بالصلاة والزكاة ونحوها ، لم يلزمه قضاء شيء منها ، لأنها لم تلزمه إلا بعد قيام حجة السمع ، والأصل فيه قصة أهل قباء حين استداروا إلى الكعبة ولم يستأنفوا ، ولو أسلم في دار الإسلام ولم يعلم بفرض الصلاة ، فالواجب عليه القضاء ، لأنه قد رأى الناس يصلون في المساجد بأذان وإقامة ، وذلك دعاء إليها .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا . وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

قوله تعالى : (وإذا أردنا أن نهلك قرية) في سبب إرادته لذلك قولان .

أحدهما : ماسبق لهم في قضائه من الشقاء والثاني : عنادهم الأنبياء وتكذيبهم إياهم .

قوله تعالى : (أمرنا مترفيها) قرأ الآكثرون : « أمرنا » مخففة ، على

وزن « فعدنا » ، وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه من الأمر ، وفي الكلام إضمار ، تقديره : أمرنا مترفياً بالطاعة ، ففسقوا ، هذا مذهب سعيد بن جبير . قال الزجاج : ومثله في الكلام : أمرتك فمصيتي ، فقد علم أن المعصية مخالفة الأمر .

والثاني : « كثرنا » يقال : أمرت الشيء وأمرته ، أي : كثرته ، ومنه قولهم : مَهْرَةٌ مأمورةٌ ، أي : كثيرة النتاج ، يقال : أمر بنو فلان يأمرؤن أمراً : إذا كثروا ، هذا قول أبي عبيدة ، وابن قتيبة .

والثالث : أن معنى « أمرنا » : أمرنا ، يقال : أمرت الرجل ، بمعنى : أمرته ، والمعنى : سلطنا مترفياً بالإمارة ، ذكره ابن الأنباري . وروى خارجة عن نافع : « أمرنا » ممدودة ، مثل « آمتا » ، وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير ، وهي قراءة ابن عباس ، وأبي الدرداء ، وأبي رزين ، والحسن ، والضحاك ، ويعقوب . قال ابن قتيبة : وهي اللغة العالية المشهورة ، ومعناه : كثرنا ، أيضاً . وروى ابن مجاهد أن أبا عمرو قرأ : « أمرنا » مشددة الميم ، وهي رواية أبان عن عاصم ، وهي قراءة أبي العالية ، والنخعي ، والجحدري . قال ابن قتيبة : المعنى : جعلناهم أمراء . وقرأ أبو التوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن يعمر : « أمرنا » بفتح الهمزة مكسورة الميم مخففة . فأما المترفون ، فهم المتنعمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش ، والمفسرون يقولون : هم الجبارون والسلطون والملوك ، وإنما خص المترفين بالذكر ، لأنهم الرؤساء ، ومن عداهم تبع لهم .

قوله تعالى : (ففسقوا فيها) أي : تمردوا في كفرهم ، لأن الفسق في الكفر : الخروج إلى أفحشه . وقد شرحنا معنى « الفسق » في (البقرة : ٢٦ ، ١٩٧) .

قوله تعالى : (فحق عليها القول) قال مقاتل : وجب عليها العذاب . وقد ذكرنا معنى « التدمير » في (الأعراف : ١٣٧) .

قوله تعالى : (وكم أهلكنا من القرون) وهو جمع قرن . وقد ذكرنا اختلاف الناس فيه في (الأنعام : ۶) ، وشرحنا معنى « الخبير » و « البصير » في (البقرة) . قال مقاتل : وهذه الآية تخويف لأهل مكة .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾

قوله تعالى : (من كان يريد العاجلة) يعني : من كان يريد بعمله الدنيا ، فعبّر بالنعمة عن الاسم ، (عجلنا له فيها ما نشاء) من عرّض الدنيا ، وقيل : من البسط والتقتير ، (لمن يريد) فيه قولان .

أحدهما : لمن يريد هلكته ، قاله أبو إسحاق الفزاري .

والثاني : لمن يريد أن نمجل له شيئاً ، وفي هذا ضم لمن أراد بعمله الدنيا ، وبيان أنه لا ينال مع ما يقصده منها إلا ما قدر له ، ثم يدخل النار في الآخرة . وقال ابن جرير : هذه الآية لمن لا يوقن بالمعاد . وقد ذكرنا معنى « جهنم » في (البقرة : ۲۰۶) ، ومعنى « يصلها » في سورة (النساء : ۱۰) ، ومعنى « مذموماً مدحوراً » في (الأعراف : ۱۸) .

قوله تعالى : (ومن أراد الآخرة) يعني : الجنة (وسعى لها سعيها) أي : عمل لها العمل الذي يصلح لها ، وإنما قال : (وهو مؤمن) لأن الإيمان شرط في صحة الأعمال ، (فأولئك كان سعيهم مشكوراً) أي : مقبولاً . وشكر الله عز وجل لهم : نوابه أيام ، وتناؤه عليهم .

﴿ كَلَّا نُنمِدُّهُمْ أَوْلَادَهُمْ وَهُوَ أَوْلَادُهُمْ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِالْآخِرَةِ

أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا . لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
تَقْتَمِدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴿

قوله تعالى : (كُلاًّ نَعُدُّهُوَلَاءَ) قال الزجاج : « كُلاًّ » منصوب بـ « نَعُدُّهُ » ،
« هُوَلَاءَ » بدل من « كل » ، والمعنى : نَعُدُّ هُوَلَاءَ وَهُوَلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ . قال المفسرون :
كُلاًّ نَعُطِي مِنَ الدُّنْيَا ، الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ ، وَالْعَطَاءَ هَاهُنَا : الرِّزْقُ ، وَالْمَحْظُورُ :
الْمَنْعُ ، وَالْمَعْنَى : أَنْ الرِّزْقَ يَعْطَى الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ ، وَالْآخِرَةُ لِلْمُتَّقِينَ خَاصَّةٌ .
(أَنْظُرْ) يَا مُحَمَّدُ (كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) وَفِي مَا فَضَّلُوا فِيهِ قَوْلَانِ .

أحدهما : الرزق ، منهم مقلدٌ ، ومنهم مُكثِرٌ .

والثاني : الرزق والعمل ، فمنهم موفقٌ لعملٍ صالحٍ ، ومنهم ممنوعٌ من ذلك .
قوله تعالى : (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) الْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَالْمَعْنَى عَامٌ
لِجَمِيعِ الْمُكْفَرِينَ . وَالْمَخْذُولُ : الَّذِي لَا نَاصِرَ لَهُ ، وَالْمَخْذَلَانِ : تَرَكَ الْعُونَ . قَالَ
مِقَاتِلُ : نَزَلَتْ حِينَ دَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى مِلَّةِ آبَائِهِ .

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَفَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَانًا إِمَّا
يَبْلُغْنَهُ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ
وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ
مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنِيمَا كَمَا رَحِمْتَنِي صَغِيرًا . رَبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ
غَفُورًا ﴿

قوله تعالى : (وَقَضَى رَبُّكَ) رَوَى ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : أَمَرَ
رَبُّكَ . وَتَقُلْ عَنْهُ الضَّحَاكُ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّمَا هِيَ « وَوَصَى رَبُّكَ » فَالْتَصَقَتْ إِحْدَى

الواوین بـ « الصاد »^(۱) ، وكذلك قرأ أبي كعب ، وأبو التوكل ، وسعيد ابن جبیر : « ووصی » ، وهذا على خلاف ما انعقد عليه الإجماع ، فلا يلتفت إليه .
 وقرأ أبو عمران ، وعاصم الجحدري ، ومعاذ القاري : « وقضاء ربك » بقاف وضاد بالمد والهمز والرفع وخفض اسم الرب . قال ابن الأنباري : هذا القضاء ليس من باب الحتم والوجوب ، لكنه من باب الأمر والقرض ، وأصل القضاء في اللغة : قطع الشيء باحكام وإتقان ، قال الشاعر يرثي عمر :

قَضَيْتَ أُمُورًا ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا

بَوَائِقَ فِي أَكْثَامِهَا لَمْ تُفْتَقِ^(۲)

أراد : قطعها محكماً لها .

قوله تعالى : (وبالوالدين إحساناً) أي : وأمر بالوالدين إحساناً ، وهو البر والإكرام ، وقد ذكرنا هذا في (البقرة : ۸۳) .

قوله تعالى : (إما يبلغن) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « يبلغن » على التوحيد . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : « يبلغان »

(۱) الخبر رواه ابن جرير ۶۳/۱۵ عن الضحاك ، وفي سننه أبو إسحاق الكوفي ، وهو عبد الله بن ميسرة الحارثي ، ضعفه ابن معين ، وأحمد بن حنبل ، والنسائي ، والدارقطني ، وقال ابن أبي حاتم : ليس بشيء ، وقال ابن حبان : لا يحمل الاحتجاج بخبره ، وهشيم الراوي عن أبي إسحاق هذا - وإن كان ثقة - موصوف بالتدليس وقد عنعن في هذا الخبر .

(۲) البيت من قصيدة تروى للشهاخ كما في « حماسة أبي تمام » : ۱۰۹۰/۳ بشرح التبريزي ، و « زهر الآداب » : ۹۸۶ ، وتروى أيضاً لزرد بن ضرار كما في « البيان والتبيين » : ۳۶۴/۳ ، وتروى لجزء بن ضرار . قال التبريزي : وقال أبو ريان : الذي عندي أنه لزرد أخيه ، وفي « الأغاني » ۱۵۹/۹ : أن هذا الشعر للجن فآلته قبل أن يقتل عمر بثلاث ، فكان ذلك نبيأله قبل أن يقتل . والبوائق : جمع بائقة وهي الداهية والبلية ، وفي « الحماسة » : بوائج ، وهي رواية اللسان : بوج . والبوائج : البوائق .

على التنية . قال الفراء : جعلت « يبلغن » فعلاً لأحدهما وكررت عليها « كلاهما » . ومن قرأ « يبلغان » فانه نسي ، لأن الوالدين قد ذكرا قبل هذا ، فصار الفعل على عددهما ، ثم قال : (أحدهما أو كلاهما) على الاستثناف ، كقوله : (فعموا وصموا) [المائدة : ٧١] ثم استأنف فقال : (كثيرٌ منهم) .

قوله تعالى : (فلا تقل لها أف) قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « أف » بالكسر من غير تنوين . وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، ويعقوب ، والمفضل : « أف » بالفتح من غير تنوين . وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم : « أف » بالكسر والتنوين . وقرأ أبو الجوزاء ، وابن يعمر : « أف » بالرفع والتنوين وتشديد الفاء . وقرأ معاذ القاري ، وعاصم ، الجحدري ، وحميد بن قيس : « أفأ » مثل « تعأ » . وقرأ أبو عمران الجوني ، وأبو السماك المدوي : « أف » بالرفع من غير تنوين مع تشديد الفاء ، وهي رواية الأصمعي عن أبي عمرو . وقرأ عكرمة ، وأبو المتوكل ، وأبو رجاء ، وأبو الجوزاء : « أف » باسكان الفاء وتخفيفها ؛ قال الأخفش : وهذا لأن بعض العرب يقول : أف لك ، على الحكاية ، والرفع قبيح ، لأنه لم يجيء بعده لام . وقرأ أبو العالية ، وأبو حصين الأسدي : « أفّي » بتشديد الفاء وياء . وروى ابن الأنباري أن بعضهم قرأها : « إف » بكسر الهمزة^(١) . وقال الزجاج : فيها سبع لغات ، الكسر بلا تنوين ، وبتنوين ، والضم بلا تنوين ، وبتنوين ، والفتح بلا تنوين ، وبتنوين ، واللغة السابعة لا تجوز في القراءة : « أفّي » بالياء ، هكذا قال الزجاج . وقال ابن الأنباري : في « أف » عشرة أوجه . « أف » لك ، بفتح الفاء ، و « أف » بكسرها ، و « أف » ، و « أفأ » لك بالنصب والتنوين على مذهب الدعاء

(١) في « القرطبي » : ٢٤٣/١٠ : و « إف » لك ، بكسر الهمزة .

كما تقول : « وَبَلَاءٌ » للكافرين ، و « أُفٌ » لك ، بالرفع والتنوين ، وهو رفع باللام ، كقوله تعالى : (ويل للمطففين) [المطففون : ١] ، و « أُفٍ » لك ، بالخفض والتنوين ، تشبيهاً بالأصوات ، كقولك : « صدٍ » و « مهٍ » ، و « أُفياً » لك ، على مذهب الدعاء أيضاً ، و « أُتِي » لك ، على الإضافة إلى النفس ، و « أُفٌ » لك ، بسكون الفاء ، تشبيهاً بالأدوات ، مثل : « كم » و « هل » و « بل » ، و « إِفٌ » لك ، بكسر الألف . وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي ، قال : وتقول : « أُفٍ » منه ، و « أُفٍ » ، و « أُفٌ » ، و « أُفٍ » ، و « أُفياً » ، و « أُفٌ » ، و « أُفِي » مضاف ، و « أُفياً » ، و « أُفياً » بالألف ، ولا تقل : « أُفِي » بالياء فانه خطأ .

فأما معنى « أُفٍ » ففيه خمسة أقوال .

أحدها : أنه وسخ الظفر ، قاله الخليل . والثاني : وسخ الأذن ، قاله الأصمعي . والثالث : قلامة الظفر ، قاله تعلقب . والرابع : أن « الأُف » الاحتقار والاستصغار ، من « الأُفَف » ، والأُفَف عند العرب : القليلة ، ذكره ابن الأنباري . والخامس : أن « الأُف » مارفته من الأرض من عود أو قصبة ، حكاه ابن فارس اللغوي . وقرأت على شيخنا أبي منصور قال : معنى « الأُف » : النتن ، والتضجر ، وأصلها : نفخك الشيء يسقط عليك من تراب ورماد ، وللمكان تريد إمطة الأذى عنه ، فقيلت لكل مستنقل . قال المصنف : وأما قولهم : « تُف » ، فقد جعلها قوم بمعنى « أُف » ، فروي عن أبي عبيد أنه قال : أصل « الأُف » و « التُف » : الوسخ على الأصابع إذا قتلته . وحكى ابن الأنباري فرقاً ، فقال : قال اللغويون : أصل « الأُف » في اللغة : وسخ الأذن ، و « التُف » : وسخ الأظفار ، فاستعملتها العرب فيما يكره ويستقدرُ وبُضجر منه . وحكى الزجاج فرقاً آخر ، فقال : قد

قيل : إن « أف » : وسخ الأظفار ، و « التف » : الشيء الحقيق ، نحو وسخ الأذن ، أو الشظية تؤخذ من الأرض ، ومعنى « أف » : التثنية ، ومعنى الآية : لا تقل لها كلاماً تبرم فيه بهما إذا كبيراً وأسنأ ، فينبغي أن تتولّى من خدمتها مثل الذي توليا من القيام بشأنك وخدمتك ، (ولا تنهرها) أي : لا تكلمها ضجيراً صائحاً في وجوهها . وقال عطاء بن أبي رباح : لا تنفض يدك عليهما ، يقال : تهرته أنهره نهراً ، وانتهرته انتهاراً ، بمعنى واحد . وقال ابن فارس : نهرت الرجل وانتهرته ، مثل : زجرته . قال المفسرون : وإنما نهى عن أذاهما في الكبير ، وإن كان منبياً عنه على كل حالة ، لأن حالة الكبير يظهر فيها منها ما يضر ويؤذي ، وتكثر خدمتها .

قوله تعالى : (وقل لها قولاً كريماً) أي : ليتناً لطيفاً أحسن ما تجد . وقال سعيد بن المسيّب : قول العبد المذنب للسيد الفظ .

قوله تعالى : (واخفض لها جناح الذل من الرحمة) أي : ألين لها جانبك متذللاً لها من رحمتك إياها . وخفض الجناح قد شرحناه في (الحجر : ٨٨) . قال عطاء : جناحك : يداك ، فلا ترفعها على والديك . والجمهور يضمون الذال من « الذل » . وقرأ أبو رزين ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وقناة ، وعاصم الجحدري ، وابن أبي عمير : بكسر الذال . قال الفراء : الذل : أن تتذلّل لها ، من الذل ، والذل : أن تتذلّل ولست بذليل في الخدمة ، والذل والذلة : مصدر الذليل ، والذل ، بالكسر : مصدر الذلول ، مثل الدابة والأرض . قال ابن الأنباري : من قرأ « الذل » ، بكسر الذال ، جعله بمعنى الذل ، بضم الذال ، والذي عليه كبراء أهل اللغة أن الذل من الرجل : الذليل ، والذل من الدابة : الذلول .

قوله تعالى : (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) أي : مثل رحمتها إياي في

صغري حتى ربياني . وقد ذهب قوم إلى أن هذا الدعاء المطلق مُنسخ منه الدعاء
 لأهل الشرك بقوله : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين)
 [التوبة : ١١٣] ، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، ومقاتل .
 قال المصنف : ولا أرى هذا نسخاً عند الفقهاء ، لأنه عام دخله التخصيص ، وقد
 ذكر قريباً مما قلته ابن جرير .

قوله تعالى : (ربكم أعلم بما في نفوسكم) أي : بما تُضمرون من البرِّ
 والمعقوق ، فمن بدرت منه بادرة وهو لا يُضمِّر المعقوق ، غفر له ذلك ، وهو قوله :
 (إن تكونوا صالحين) أي : طائعين لله ، [وقيل] بارين ، وقيل : توابين ، (فانه
 كان للأوابين غفوراً) في الأواب عشرة أقوال .

أحدها : أنه المسلم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنه التواب ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ،
 وسعيد بن جبیر ، والضحاك ، وأبو عبيدة . وقال ابن قتيبة : هو التائب مرة
 بعد مرة . وقال الزجاج : هو التواب المُقلِّع عن جميع ما نهاه الله عنه ، يقال :
 قد آب بؤوباً أو بآ : إذا رجع .

والثالث : أنه المسبِّح ، رواه سعيد بن جبیر عن ابن عباس .

والرابع : أنه المطيع لله تعالى ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والخامس : أنه الذي يذكّر ذنبه في الخلاء ، فيستغفر الله منه ، قاله

عُبيد بن عمير .

والسادس : أنه المُقبل إلى الله تعالى بقلبه وعمله ، قاله الحسن .

والسابع : المصلِّي ، قاله قتادة .

والثامن : هو الذي يصلِّي بين المغرب والعشاء ، قاله ابن المنكدر .

والتاسع : الذي يصلّي صلاة الضحى ، قاله عون العقيلي .

والعاشر : أنه الذي يُذنب سراً ويتوب سراً ، قاله السدي .

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ
تَبْذِيرًا . إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ
لِرَبِّهِ كَفُورًا . وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ
تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّن سُورَةٍ ﴾

قوله تعالى : (وآت ذا القربى حقه) فيه قولان .

أحدهما : أنه قرابة الرجل من قبل أبيه وأمه ، قاله ابن عباس ، والحسن ،
فعلی هذا في حقهم ثلاثة أقوال . أحدها : أن المراد به : برهم وصلتهم . والثاني :
النفقة الواجبة لهم وقت الحاجة . والثالث : الوصية لهم عند الوفاة .

والثاني : أنهم قرابة الرسول ، قاله علي بن الحسين عليها السلام ، والسدي .
فعلی هذا ، يكون حقهم : إعطاؤهم من الخمس ، ويكون الخطاب للولاية .
قوله تعالى : (والمسكين وابن السبيل) قال القاضي أبو يعلى : يجوز أن
يكون المراد : الصدقات الواجبة ، يعني : الزكاة ، ويجوز أن يكون الحق الذي
يلزمه إعطاؤه عند الضرورة إليه . وقيل : حق المسكين ، من الصدقة ، وابن
السبيل ، من الضيافة .

قوله تعالى : (ولا تبذّر تبذيراً) في التبذير قولان .

أحدهما : أنه إتفاق المال في غير حق ، قاله ابن مسعود (١) ، وابن

(١) « الأدب المفرد » للبخاري : ٥٣٣/١ ، وابن جرير : ٧٣/١٥ ، والحاكم : ٣٦١/٢ ،
وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وخرجه السيوطي في « الدر » :
١٧٧/٤ وزاد نسبه إلى الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن
أبي حاتم ، والطبراني ، والبيهقي في « شعب الإيمان » .

عباس^(١) . وقال مجاهد : لو أنفق الرجل ماله كله في حقِّ ، ما كان مبدراً ، ولو أنفق مُدّاً في غير حق ، كان مبدراً . قال الزجاج : التبذير : النفقة في غير طاعة الله ، وكانت الجاهلية تنحر الإبل وتبذّر الأموال تطلب بذلك الفخر والسُّمعة ، فأمر الله عز وجل بالنفقة في وجهها فيما يقرب منه .

والثاني : أنه الإسراف المتلف للعال ، ذكره الماوردي . وقال أبو عبيدة : المبدّر : هو المُسرف المُفسد العائث .

قوله تعالى : (إن المبدّرين كانوا إخوان الشياطين) لأنهم يوافقونهم فيما يدعونهم إليه ، ويشاكلونهم في معصية الله ، (وكان الشيطان لربه كفوراً) أي : جاحداً لنعمته . وهذا يتضمن أن المسرف كفور للنعم .

قوله تعالى : (وإما تعرضن عنهم) في المشار إليهم أربعة أقوال .

أحدها : أنهم الذين تقدّم ذكّرهم من الأقارب والمساكين وأبناء السبيل ، قاله الأَكثرون ، فعلى هذا في علّة هذا الإعراض قولان . أحدهما : الإعسار ، قاله الجمهور . والثاني : خوف إيقاعهم ذلك في معصية الله ، قاله ابن زيد . وعلى هذا في الرحمة قولان . أحدهما : الرزق ، قاله الأَكثرون . والثاني : أنه الصلاح والتوبة ، هذا على قول ابن زيد .

والثاني : أنهم المشركون ، فالمعنى : وإما تعرضن عنهم لتكذيبهم ، قاله سعيد بن جبیر . فتحتمل إذا الرحمة وجهين . أحدهما : انتظار النصر عليهم . والثاني : الهداية لهم .

والثالث : أنهم ناس من مُزينة جاؤوا يستحملون رسولَ الله ﷺ ، فقال : « لا أجد ما أحكم عليه » ، فبكروا ، فنزلت هذه الآية ، قاله عطاء الخراساني .

(١) « الأدب المفرد » : ٥٣٤/١ ، وابن جرير : ٧٣/١٥ .

والرابع : أنها نزلت في خبّاب، وبلال، وعمّار، ومِهْجَع، ونحوهم من الفقراء، كانوا يسألون رسول الله ﷺ فلا يجد ما يطيهم، فيُعرض عنهم ويسكت، قاله مقاتل . فعلى هذا القول والذي قبله تكون الرحمة بمعنى الرِّزْق .

قوله تعالى : (فقل لهم قولاً ميسوراً) قال أبو عبيدة : لِينَا هِينَا ، وهو من اليُسْر . وللمفسرين فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه العِدَّة الحسنّة ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد .

والثاني : أنه القول الجميل ، مثل أن يقول : رزقنا الله وإياك ، قاله ابن زيد ؛ وهذا على ما تقدّم من قوله .

والثالث : أنه المداراة لهم باللسان ، على قول مَنْ قال : هم المشركون ، قاله أبو سليمان الدمشقي ؛ وعلى هذا القول ، تحتمل الآية النسخ .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا . إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيراً ﴾

قوله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) سبب نزولها : أن غلاماً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال ، إن أمي تسألك كذا وكذا ، قال : « ما عندنا اليوم شيء » ، قال : فتقول لك : اكنسي قبصك ، قال : فخلع قبصه فدفعه إليه ، وجلس في البيت حاسراً ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن مسعود (١) . وروى جابر

(١) نسبة السيوطي في « الدر » ، ١٧٨/٤ لابن جرير ، ولم تقف عليه .

ابن عبد الله نحو هذا ، فزاد فيه ، فأذّن بلال للصلاة ، وانتظروه فلم يخرج ، فشغل قلوب الصحابة ، فدخل عليه بعضهم ، فأروه عُرِيَانَا ، فنزلت هذه الآية ، والمعنى : لا تمسك يدك عن البذل كلَّ الإمساك حتى كأنها مقبوضة إلى عنقك ، (ولا تبسطها كلَّ البسط) في الإعطاء والنفقة (فتقعدَ ملوماً) تلوم نفسك ويلومك الناس ، (محسوراً) قال ابن قتيبة : تحسِرُكَ العطيةُ وتقطعك كما يحسِرُ السفر البعيرَ فيبقى منقطعاً به . قال الزجاج : المحسور : الذي قد بلغ الغاية في التعب والإعياء ، فالمعنى : فتقعدَ وقد بانغتَ في الحمل على نفسك وحالك حتى صرت بمنزلة من قد حسر . قال القاضي أبو يعلى : وهذا الخطاب أريدَ به غيرُ رسول الله ﷺ ، لأنه لم يكن يدَّخِرُ شيئاً لغيره ، وكان يجوع حتى يشدُّ الحجرَ على بطنه ، وقد كان كثير من فضلاء الصحابة ينفقون جميع ما يملكون ، فلم ينهم الله ، لصحة يقينهم ، وإنما هي من خيف عليه التحسر على ما خرج من يده ، فأما من وثق بوعده الله تعالى ، فهو غير مراد بالآية .

قوله تعالى : (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أي : يوسع على من يشاء ويضيّق ، (إنه كان بعباده خبيراً بصيراً) حيث أجرى أرزاقهم على ما علم فيه صلاحهم .

قوله تعالى : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) قد فرسناه في (الأنعام :

۱۵۱) .

قوله تعالى : (كان خطياً كبيراً) قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمة ،

والكسائي : « خِطَاءٌ » مكسورة الخاء ساكنة الطاء مهموزة مقصورة . وقرأ

ابن كثير ، وعطاء : « خِطَاءٌ » مكسورة الخاء ممدودة مهموزة . وقرأ ابن عاصم :

« خِطَاءٌ » بنصب الخاء والطاء وبالهمز من غير مدٍّ . وقرأ أبو رزين كذلك ، إلا

أنه مدّ وقرأ الحسن ، وقتادة : « خَطَّأُ » بفتح الخاء وسكون الطاء مهموز مقصور . وقرأ الزهري ، وحيد بن قيس : « خِطَا » بكسر الخاء وتنوين الطاء من غير همز ولا مدّ . قال الفراء : الخِطَاءُ : الإِثْمُ ، وقد يكون في معنى « خَطَّأُ » كما قالوا : « قَتَبُ » و « كَتَبُ » و « حِذَرُ » و « حَذَرُ » و « نَجَسُ » و « نَجَسُ » ، والخِطَاءُ ، والخِطَاءُ ، ممدود : لغات . وقال أبو عبيدة : خَطَّيْتُ وَأَخْطَأْتُ ، لغتان . وقال أبو علي : قراءة ابن كثير « خِطَاءُ » ، يجوز أن تكون مصدر « خاطأ » وإن لم يسمع « خاطأ » ولكن قد جاء ما يدل عليه ، أنشد أبو عبيدة :

الخِطَاءُ وَالخِطَاءُ وَالخِطَاءُ

وقال الأخفش : خَطِيءٌ يَخْطِئُ بِمَعْنَى « أَذْنَبَ » وليس بمعنى « أَخْطَأَ » ، لأن « أَخْطَأَ » : فيما لم يصنعه عمداً ، تقول فيما أتيتَه عمداً : « خَطَّيْتُ » ، وفيما لم تعمده : « أَخْطَأْتُ » . وقال ابن الأنباري : « الخِطَاءُ » : الإِثْمُ ، يقال : قد خَطِيءَ يَخْطِئُ : إذا أثم ، وأَخْطَأَ يَخْطِئُ : إذا فارق الصواب . وقد شرحنا هذا في (يوسف : ۹۱) عند قوله : (وإن كنا لخاطئين) .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا . وَلَا تَقْتُلُوا
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا
لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾

قوله تعالى : (ولا تقربوا الزنا) وقرأ أبو رزين ، وأبو الجوزاء ، والحسن : بالمد . قال أبو عبيدة : وقد يمد « الزنا » في كلام أهل نجد ، قال الفرزدق :

أَبَا حَاضِرٍ مَنْ يَزْنُ بِعُرْفِ زَنَاوِهِ

وَمَنْ يَشْرَبِ الخُرْطُومَ بِصَبِيحِ مُسْكَرًا^(۱)

(۱) مجاز القرآن ، ۳۷۷/۱ ، ود الجهرة ، ۲۲۵/۳ ، ود اللسان ، ود التاج ، : زنى .

وقال أيضاً :

أخضبتَ فِعْلَكَ لِلزَّيْنَاءِ وَلَمْ تَكُنْ يَوْمَ اللَّيْقَاءِ لَتَخْضِبَ الْأَبْطَالَ (١)

وقال آخر :

[كانت فريضةٌ ما تقول] كَمَا كَانَ الزَّيْنَاءُ فَرِيضَةَ الرَّجْمِ (٢)

قوله تعالى : (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ) قد ذكرناه في (الأنعام : ١٥١) .

قوله تعالى : (فقد جعلنا) قال الزجاج : الأجود إدغام الدال مع الجيم ،

والإظهار جيد بالغ ، إلا أن الجيم من وسط اللسان ، والدال من طرف اللسان ،

والإدغام جائز ، لأن حروف وسط اللسان تقرب من حروف طرف اللسان .

ووليّه : الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه ، فان لم يكن له وليٌّ ،

فالسُّلْطَانُ وَلِيّه .

وللمفسرين في السُّلْطَانِ قولان .

أحدهما : أنه الحُجَّةُ ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه الوالي ، والمعنى : (فقد

جعلنا لوليّه سلطاناً) ينصره ويُنصِفُه في حَقِّه ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : (فلا يُسْرِفُ في القتل) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ،

وعاصم : « فلا يسرف » بالياء . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : بالتاء .

وفي المشار إليه في الآية قولان .

(١) د مجاز القرآن ، : ٣٧٧/١ .

(٢) البيت للنايفة الجعدي ديوانه : ٢٣٥ طبع المكتب الاسلامي ، و د مجاز القرآن ، :

٣٧٨/١ ، و د أمالي المرتضى ، : ٢١٦/١ ، و د الانصاف في مسائل الخلاف ، : ١٦٥ ،

و د السمط ، : ٣٦٨/١ ، و د اللسان ، : زنى . وقوله : « كان الزناء فريضة الرجم »

مقلوب ، والأصل : كان الرجم فريضة الزنا .

أحدهما : أنه وليُّ المقتول . وفي المراد بإسرافه خمسة أقوال . أحدها : أن يقتل غير القاتل ، قاله ابن عباس ، والحسن . والثاني : أن يقتل اثنين بواحد ، قاله سعيد بن جبیر . والثالث : أن يقتل أشرف من الذي قُتل ، قاله ابن زيد . والرابع : أن يمثل ، قاله قتادة . والخامس : أن يتولى هو قتل القاتل دون السلطان ، ذكره الزجاج .

والثاني : أن الإشارة إلى القاتل الأول ، والمعنى : فلا يسرف القاتل بالقتل تمدياً وظلماً ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (إنه كان منصوراً) أي : مُعاناً عليه .

وفي هاء الكناية أربعة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى الولي ، فالمعنى : إنه كان منصوراً بتمكينه من القود ،

قاله قتادة ، والجمهور .

والثاني : أنها ترجع إلى المقتول ، فالمعنى : إنه كان منصوراً بقتل قاتله ،

قاله مجاهد .

والثالث : أنها ترجع إلى الدم ، فالمعنى : إن دم المقتول كان منصوراً ،

أي : مطلوباً به .

والرابع : أنها ترجع إلى القتل ، ذكر القولين الفراء .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ

أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا . وَأَوْفُوا الْكَيْلَ

إِذَا كَيْلْتُمْ وُزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ

زاد المسير ٥ م (٣)

تَأْوِيلًا . وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ
كُلُّهُ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : (ولا تقربوا مال اليتيم) قد شرحناه في (الأنعام : ١٥٢) .

قوله تعالى : (وأوفوا بالعهد) وهو عام فيما بين العبد وبين ربه ، وفيما بينه

وبين الناس . قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد .

قوله تعالى : (كان مسؤولاً) قال ابن قتيبة : أي : مسؤولاً عنه .

قوله تعالى : (وأوفوا الكيل إذا كيلتم) أي : أنموا ولا تبخسوا منه .

قوله تعالى : (وزنوا بالقسطاس) فيه خمس لغات . أحدها : « قسطاس » ،

بضم القاف وسينين ، وهذه قراءة ابن كثير ، ونافع ، وأبي عمرو ، وابن عامر ،

وأبي بكر عن عاصم هاهنا وفي (الشعراء : ١٨٢) . والثانية : كذلك ، إلا

أن القاف مكسورة ، وهذه قراءة حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم . قال

الفراء : هما لغتان . والثالثة : « قسطاص » ، بصادين . والرابعة : « قسطاس » ،

بصاد قبل الطاء وسين بعدها ، وهاتان مرويتان عن حمزة . والخامسة : « قِسطان » ،

بالنون . قرأت علي شيخنا أبي منصور اللغوي عن ابن دريد قال : القسطاس :

الميزان ، رومي معرب ، ويقال : « قسطاس » و « قِسطاس » .

قوله تعالى : (ذلك خير) أي : ذلك الوفاء خير عند الله وأقرب إليه ،

(وأحسن تأويلاً) أي : عاقبة في الجزاء .

قوله تعالى : (ولا تقف ما ليس لك به علم) قال الفراء : أصل « تقف »

من القيافة ، وهي : تتبع الأثر ، وفيه لغتان : قفا يقفوا ، وقاف يقوف ،

وأكثر القراء يجعلونها من « قفوت » ، فيحرك الفاء إلى الواو ويجزم القاف

كما تقول : لاندع . وقرأ معاذ القاري : « لاتقف » ، مثل : تقل ؛ والعرب

تقول : كُفْتُ أُنْرَهُ ، وَقَفَوْتُ ، ومثله : عات وعنا ، وقاعَ الجملُ الناقة ، و قماها : إذا ركبها . قال الزجاج : من قرأ بإسكان الفاء وضم القاف من : قاف يقوف ، فكأنه مقلوب من قفا يقفو ، والمعنى واحد ، تقول : قفوتُ الشيء أقضوه قفواً : إذا تبعت أثره . وقال ابن قتيبة : « لاتقف » ، أي : لا تُتبعه الظنون والحدس ، وهو من القفاء مأخوذ ، كأنك تقفو الأمور ، أي : تكون في أقطابها وأواخرها تنقبها ، والقائف : الذي يعرف الآثار ويتبعها ، فكأنه مقلوب عن القافي .

وللمفسرين في المراد به أربعة أقوال .

أحدها : لا ترمِ أحداً بما ليس لك به علم ، رواه العوفي عن ابن عباس .
والثاني : لا تقل : رأيتُ ، ولم تَرَ ، ولا سمعتُ ، ولم تسمع . رواه عثمان بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

والثالث : لا تُشرك بالله شيئاً ؛ رواه عطاء أيضاً عن ابن عباس .

والرابع : لا تشهد بالزور ، قاله محمد بن الحنفية .

قوله تعالى : (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك) قال الزجاج : إنما قال : (كل) ، ثم قال : (كان) ، لأن كلاً في لفظ الواحد ، وإنما قال : (أولئك) تغير الناس ، لأن كل جمع أشرت إليه من الناس وغيرهم من الموات ، تشير إليه بلفظ « أولئك » ، قال جرير :

« ذُءٌ لِمَنْ تَنَزَّلَ بَعْدَ مَنزِلَةِ اللَّيْلِ وَالْمَيْشَ بَعْدَ أَوْلَيْكَ الْآيَّامِ »^(١)

قال المفسرون : الإشارة إلى الجوارح المذكورة ، يُسأل العبد يوم القيامة فيما إذا

(١) ديوانه : ٥٥١ ، و « الفرائض » : ٢٥٦/١ ، و « الطبري » : ٨٧/١٥ ،

و « القرطبي » : ٢٦٠/١٠ .

استعملها ، وفي هذا زجر عن النظر إلى ما لا يحل ، والاستماع إلى ما يحرم ، والعزم على ما لا يجوز .

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا . كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا . ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾

قوله تعالى : (ولا تمش في الأرض مرحاً) وقرأ الضحاك ، وابن يمر : « مَرِحًا » بكسر الراء ، قال الأخفش : والكسر أجود ، لأن « مَرِحًا » اسم الفاعل ؛ قال الزجاج : وكلاهما في الجودة سواء ، غير أن المصدر أوكد في الاستعمال ، تقول : جاء زيد رَكِضًا ، وجاء زيد رَاكِضًا ، فـ « رَكِضًا » أوكد في الاستعمال ، لأنه يدل على توكيد الفعل ، وتأويل الآية : لا تمش في الأرض مختلاً فخوراً ، والمرح : الأشر والبطر . وقال ابن فارس : المرح : شدة الفرح .

قوله تعالى : (إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ) فيه قولان .

أحدهما : لن تقطعها إلى آخرها . والثاني : لن تنفذها وتنقبها . قال ابن عباس : لن تخرق الأرض بكبيرك ، ولن تبلغ الجبال طولاً بعظمتك . قال ابن قتيبة : والمعنى : لا ينبغي للعاجز أن يبذخ ويستكبر .

قوله تعالى : (كل ذلك كان سيئته) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « سَيِّئَةً » منوناً غير مضاف ، على معنى : كان خطيئةً ، فلي هذا يكون قوله : (كل ذلك) إشارة إلى المنهي عنه من المذكور فقط . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « سَيِّئُهُ » مضافاً مذكراً ، فتكون لفظة « كل » يُشار بها إلى سائر ما تقدم ذكره . وكان أبو عمرو لا يرى هذه القراءة . قال الزجاج :

وهذا غلط من أبي عمرو ، لأن في هذه الأقايب سَيِّئًا وَحَسَنًا ، وذلك أن فيها الأمر بـبِرِّ الوالدين ، وإيتاء ذي القربى ، والوفاء بالعهد ، ونحو ذلك ، فهذه القراءة أحسن من قراءة مَنْ نَصَبَ السَّيِّئَةَ ، وكذلك قال أبو عبيدة : تدبرت الآيات من قوله تعالى : (وفضى ربك ...) فوجدت فيها أموراً حسنة . وقال أبو علي : من قرأ « سَيِّئَةً » رأى أن الكلام انقطع عند قوله : (وأحسن تأويلاً) ، وأن قوله : (ولا تقف) لا حُسْنَ فيه ^(١) .

قوله تعالى : (ذلك مما أوحى إليك ربك) يشير إلى ما تقدم من الفرائض والسنن ، (من الحكمة) ، أي : من الأمور المُحْكَمَةِ والأدب الجامع لكل خير . وقد سبق معنى « المدحور » [الأعراف: ١٨] .

﴿ أَفَأَصْفُكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ تَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾

قوله تعالى : (أفأصفاكم ربكم بالبنين) قال مقاتل : نزلت في مشركي العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الرحمن . وقال أبو عبيدة : ومعنى (أفأصفاكم) : اختصم . وقال المفضل : أخلصكم . وقال الزجاج : اختار لكم صفوة الشيء . وهذا توييح للكفار ، والمعنى : اختار لكم البنين دونه ، وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه ، فاختصم بالأعلى وجعل لنفسه الأدون !

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾

قوله تعالى : (ولقد صرَّفْنَا) معنى التصريف هاهنا : التبين ، وذلك أنه

(١) أي : ليس مطوفاً على الحسن في قوله تعالى : (وأحسن تأويلاً) ، بل هو نهي عن تتبع أثر ما لا تعلم ولا بينك ، فيكون ابتداء كلام .

إِنَّمَا بَصَّرَ الْقَوْلَ لِيُبَيِّنَ . وَقَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ : « صَرَّفْنَا » بِمَعْنَى : وَجَّهْنَا ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِكَ : صَرَفْتُ إِلَيْكَ كَذَا ، أَيْ : عَدَلْتُ بِهِ إِلَيْكَ ، وَشُدِّدَ لِلتَّكْثِيرِ ، كَمَا تَقُولُ : فَتَحَّتْ الْأَبْوَابُ .

قوله تعالى : (لِيَذَّكَّرُوا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وطاسم ، وابن عامر : « لِيَذَّكَّرُوا » مشدداً . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : « لِيَذَّكَّرُوا » مخففاً ، وكذلك قرؤوا في (الفرقان : ٥٠) . والتذكُّرُ : الانعاطُ والتدبرُ . (وما يزيدهم) تصريفنا وتذكيرنا (إِلَّا نُفُوراً) قال ابن عباس : ينفرون من الحق ، ويتبعون الباطل .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَنَفَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا . يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

قوله تعالى : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون) قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « تقولون » بالياء . وقرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم : « يقولون » بالياء .

قوله تعالى : (إِذًا لَابْتَنَفَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) فيه قولان . أحدهما : لَابْتَنَفَوْا سَبِيلًا إِلَىٰ مَمَانَتِهِ وَإِزَالَةِ مَلِكِهِ ، قَالَ الْحَسَنُ ، وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ . والثاني : لَابْتَنَفَوْا سَبِيلًا إِلَىٰ رِضَا ، لِأَنَّهُمْ دُونَهُ ، قَالَ قَتَادَةُ . قوله تعالى : (عَمَّا يَقُولُونَ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر ، وحفص عن عاصم : « يقولون » بالياء . وقرأ حمزة ، والكسائي : بالياء .

قوله تعالى : (تَسْبِیحُ لِه السَّمَوَاتِ السَّبْعِ) قرأ أبو عمرو ، وحمة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « تَسْبِیح » بالتاء . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو بكر [عن] عاصم : « يَسْبِیح » بالياء . قال الفراء : وإنما حَسُنَتْ « الياء » هاهنا ، لأنه عدد قليل ، وإذا قلَّ العدد من المؤنث والمذكر ، كانت الياء فيه أحسن من التاء ، قال عز وجل في المؤنث القليل : (وقال نسوة) [يوسف : ٣٠] ، وقال في المذكر : (فاذا انسلخ الأشهر الحرم) [التوبة : ٥] . قال العلماء : والمراد بهذا التسبيح : الدلالة على أنه الخالق القادر .

قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِیحُ بِحَمْدِهِ) « إِنْ » بمعنى « ما » . وهل هذا على إطلاقه ، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنه على إطلاقه ، فكلُّ شيءٍ يَسْبِیحُهُ حتى الثوب والطعام وصرير الباب ، قاله إبراهيم النخعي .

والثاني : أنه عامٌ يراد به الخاص . ثم فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أنه كلُّ شيءٍ فيه الروح ، قاله الحسن ، وقتادة ، والضحاك . والثاني : أنه كلُّ ذي روح ، وكلُّ نامٍ من شجرٍ أو نباتٍ ؛ قال عكرمة : الشجرة تَسْبِیحُ ، والأسطوانة لا تَسْبِیحُ . وجلس الحسن على طعامٍ فقدَّموا الخِوانَ ، فقيل له : أيسْبِیحُ هذا الخِوانُ ؟ ، فقال : قد كان يَسْبِیحُ مرة . والثالث : أنه كلُّ شيءٍ لم يغيَّر عن حاله ، فاذا تغيَّر انقطع تسبيحه ؛ روى خالد بن معدان عن المقدم بن معدي كرب قال : إنَّ الترابَ ليسْبِیحُ ما لم يتلَّ ، فاذا ابتلَّ ترك التسبيح ، وإن الورقة تَسْبِیحُ مادامت على الشجرة ، فاذا سقطت تركت التسبيح ، وإن الثوب ليسْبِیحُ مادام جديداً ، فاذا توسخ ترك التسبيح .

فأما تسبيح الحيوان الناطق ، فمعلوم ، وتسبيح الحيوان غير الناطق ، فجاز أن يكون بصوته ، وجاز أن يكون بدلالته على صانعه .

وفي تسبيح الجمادات ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه تسبيح لا يعلمه إلا الله . والثاني : أنه خضوعه وخشوعه لله .

والثالث : أنه دلالة على صانعه ، فيوجب ذلك تسبيح مُبْصِرِهِ . فان قلنا : إنه

تسبيح حقيقة ، كان قوله : (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) لجميع الخلق ؛ وإن قلنا :

إنه دلالة على صانعه ، كان الخطاب للكفار ، لأنهم لا يستدثون ، ولا يعتبرون .

وقد شرحنا معنى « الحليم » و « الغفور » في (البقرة : ٢٢٥) .

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا . وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ

وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا

عَلَى أذْبَانِهِمْ نُفُورًا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ

إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا

مَسْحُورًا . أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

مَسِيلًا . وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنْآ لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا .

قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا . أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ

فَسَبِّحُوا مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ

إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا . يَوْمَ

يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَنْظُنُونَ أَنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

قوله تعالى : (حجاباً مستوراً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الحجاب : هو الأكنة على قلوبهم ، قاله قتادة .

والثاني : أنه حجابٌ يستره فلا ترونه ؛ وقيل : إنها نزلت في قوم كانوا يؤفون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن ؛ قال الكلبي : وهم أبو سفيان ، والنضر ابن الحارث ، وأبو جهل ، وأم جميل امرأة أبي لهب ، فحجب الله رسوله عن أبصارهم عند قراءة القرآن ، فكانوا يأتونه ويمرّون به ، ولا يرونه .

والثالث : أنه منَعُ الله عز وجل إياهم عن أذاه ، حكاه الزجاج .

وفي معنى (مستوراً) قولان .

أحدهما : أنه بمعنى سائر ؛ قال الزجاج : وهذا قول أهل اللغة . قال الأخفش : وقد يكون الفاعل في لفظ المفعول ، كما تقول : إنك مشؤوم علينا ، وميمون علينا ، وإنما هو شائم ويامن ، لأنه من « شَأَمَهُمْ » و « يَمَنَّهُمْ » .

والثاني : أن المعنى : حجاباً مستوراً عنكم لا ترونه ، ذكره الماوردي . وقال ابن الأنباري : إذا قيل : الحجاب : هو الطبع على قلوبهم ، فهو مستور عن الأبصار ، فيكون « مستوراً » باقياً على لفظه .

قوله تعالى : (وجعلنا على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه) قد شرحناه في (الأنعام : ٢٥) .

قوله تعالى : (وإذا ذكّرتَ ربّك في القرآن وحده) يعني : قلت : لا إله إلا الله ، وأنت تلو القرآن (ولوّا على أديبارهم) قال أبو عبيدة : أي : على أعقابهم ، (نفوراً) وهو : جمع نافر ، بمنزلة قاعد وقعود ، وجالس وجُلوس . وقال الزجاج : تحتمل منهين . أحدهما : المصدر ، فيكون المعنى : ولوّوا نافرين نفوراً . والثاني : أن يكون « نفوراً » جمع نافر .

وفي المشار إليهم قولان . أحدهما : أنهم الشياطين ، قاله ابن عباس . والثاني : أنهم المشركون ، وهذا مذهب ابن زيد .

قوله تعالى : (نحن أعلم بما يستمعون به) قال المفسرون : أمر رسول الله ﷺ

علياً عليه السلام أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين ، ففعل ذلك ، ودخل عليهم رسول الله ﷺ فقرأ عليهم القرآن ، ودعاهم إلى التوحيد ، وكانوا يستمعون ويقولون فيما بينهم : هو ساحر ، هو مسحور ، فنزلت هذه الآية : (نحن أعلم بما يستمعون به) ، أي : يستمعونه ، والباء زائدة . (إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى) قال أبو عبيدة : هي مصدر من « ناجيتُ » واسم منها ، فوصف القوم بها ، والعرب تفعل ذلك ، كقولهم : إنما هو عذاب ، وأنتم نغمٌ ، فجاءت في موضع « متناجين » . وقال الزجاج : والمعنى : وإذ هم ذوو نجوى ، وكانوا يستمعون من رسول الله ﷺ ، ويقولون بينهم : هو ساحر ، وهو مسحور ، وما أشبه ذلك من القول .

قوله تعالى : (إذ يقول الظالمون) يعني : أولئك المشركون (إن تتبعون) أي : ماتتبعون (إلا رجلاً مسحوراً) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الذي سحر فذهب بمقله ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : مخدوعاً مغروراً ، قاله مجاهد .

والثالث : له سحر ، أي : رثة ؛ وكل دابة أو طائر أو بشر يأكل

فهو : مسحور ومسحور ، لأن له سحراً ، قال لبيد :

فإن تسألينا فيم نحن فأننا عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ الْمَسْحُورِ^(١)

وقال امرؤ القيس :

أرانا مُرْصِدِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ وَنَسَحَرُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ^(٢)

(١) ديوانه : ٥٦ ، و د مجاز القرآن ، : ٣٨١/١ ، و د البيان والتبيين ، : ١٨٩/١ ،

و د الحيوان ، : ٢٢٩/٥ ، و د الطبري ، : ٩٦/١٥ ، و د القرطبي ، : ٣٧٣/١٠ ،

و د اللسان ، : سحر .

(٢) ديوانه : ٩٧ ، و د مجاز القرآن ، : ٣٨٢/١ ، و د البيان والتبيين ، : ١٨٩/١ ، —

أي : تُنذَى ، لأن أهل السماء لا يأكلون ، فأراد أن يكون مَلَكًا . ففعل هذا يكون المعنى : إن تتبعون إلا رجلاً له سحر ، خلقه الله كخلقكم ، و ليس بملك ، وهذا قول أبي عبيدة .

قال ابن قتيبة : والقول قول مجاهد ، [أي : مخدوعاً] ، لأن السحر حيلة وخديعة ، ومعنى قول لبيد « المسحر » : المملئ ، وقول امرئ القيس : « ونُحِرَ » أي : مُنمَلئ ، وكأننا نُخدَع ، والناس يقولون : سحرتني بكلامك ، أي : خدعتني ، ويدل عليه قوله : (انظر كيف ضربوا لك الأمثال) ، لأنهم لو أرادوا رجلاً ذا رثة ، لم يكن في ذلك مثل ضربوه ، فلما أرادوا مخدوعاً - كأنه بالخديعة سُحر - كان مثلاً ضربوه ، وكأنهم ذهبوا إلى أن قوماً يعلمونه ويخدعونهم . قال المفسرون : ومعنى (ضربوا لك الأمثال) يتنوا لك الأشباه ، حتى شبهوك بالساحر والشاعر والمجنون (فضلثوا) عن الحق ، (فلا يستطيعون سبيلاً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لا يجدون سبيلاً إلى تصحيح ما يعيبونك به .

والثاني : لا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى ، لأننا طبعنا على قلوبهم .

والثالث : لا يأتون سبيل الحق ، لثقله عليهم ؛ ومثله قولهم : لا أستطيع أن أنظر إلى فلان ، يعنون : أنا مبعيض له ، فنظري إليه بثقل ، ذكرهن ابن الأنباري . قوله تعالى : (أنذا كُنَّا عظاماً) قرأ ابن كثير : (أيذا) بهمزة ثم يأتي ياء ساكنة من غير مَدِّ ، (أينا) مثله ، وكذلك في كل القرآن . وكذلك روى قالون عن نافع ، إلا أن نافعاً كان لا يستفهم في (أينا) ، كان يجعل الثاني

— و د الحيوان ، : ٢٢٩/٥ ، و د الطبري ، : ٩٦/١٥ ، و د أمالي المرتضى ، : ٥٧٧/١ ، و د اللسان ، : سحر . وفي اللسان : و أرانا موضعين . . . والابيضاع : ضرب من السير السريع .

خبراً في كل القرآن، وكذلك مذهب الكسائي، غير أنه يهمز الأولى همزتين . وقرأ
عاصم، وهمزة بهمزتين في الحرفين جميعاً وقرأ ابن عامر : « إذا كُنَّا » بغير استفهام
بهمزة واحدة « آثنا » بهمزتين يمد بينهما مدة .

قوله تعالى : (وَرُقَاتًا) فيه قولان .

أحدهما : أنه التراب ، ولا واحد له ، فهو بمنزلة الدُّقَاقِ والحُطَامِ ، قاله
الفراء ، وهو مذهب مجاهد .

والثاني : أنه العظام مالم تحطم ، والرُّقَاتُ : الحُطَامُ ، قاله أبو عبيدة . وقال
الزجاج : الرُّقَاتُ : التراب . والرُّقَاتُ : كل شيء حُطِمَ وكُسِرَ ، و (خلقاً
جديداً) في معنى مجدداً .

قوله تعالى : (أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الموت ، قاله ابن عمر ، وابن عباس ، والحسن ، والأكثرون .
والثاني : أنه السماء والأرض والجبال ، قاله مجاهد .

والثالث : [أنه] ما يكبر في صدوركم ، من كل ما استعظموه من خلق الله تعالى ،
قاله قتادة .

فان قيل : كيف قيل لهم : (كونوا حجارة أو حديداً) وهم لا يقدرُونَ على
ذلك ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : إن قدرتم على تغيير حالانكم ، فكونوا حجارة أو أشدَّ منها ، فانا
نميتكم ، وننفذ أحكامنا فيكم ، ومثل هذا قولك للرجل : اصعد إلى السماء فاني لاحقك .

والثاني : تصوروا أنفسكم حجارة أو أصلب منها ، فانا سنبيدكم ،

قال الأحوص :

إِذَا كُنْتَ عَزَاهَا عَنِ اللَّهْوِ وَالصَّبِي

فَكُنْ حَجْرًا مِّنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَدًا^(١)

معناه : فتصوّر نفسك حجراً ، وهؤلاء قوم اعترفوا أن الله خالقهم ، وجحدوا البعث ، فأعلموا أن الذي ابتداء خلقهم هو الذي يحييهم .

قوله تعالى : (فَيُنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ) قال قتادة : يحرّ كونها تكديماً واستهزاءً . قال الفراء : يقال : أنفض رأسه : إذا حرّكه إلى فوق وإلى أسفل . وقال ابن قتيبة : المعنى : يحرّ كونها ، كما يحرّك الآيس من الشيء والمستبعد [له] رأسه ، يقال : نفضت سيئه : إذا تحركت .

قوله تعالى : (ويقولون متى هو ؟) يعنون البعث (قل عسى أن يكون قريباً) أي : هو قريب . ثم بين متى يكون فقال : (يوم يدعوكم) يعني : من القبور بالنداء الذي يُسمعكم ، وهو النفخة الأخيرة (فتستجيبون) أي : تجيبون . قال مقاتل : يقوم إسرافيل على صخرة بيت المقدس يدعو أهل القبور في قرن ، فيقول : أيتها العظام البالية ، وأيتها اللحوم المتمزقة ، وأيتها الشعور المتفرقة ، وأيتها العروق المتقطعة ، اخرجوا إلى فصل القضاء لتُجزوا بأعمالكم ، فيسمعون الصوت ، فيسمعون إليه .
وفي معنى (بحمده) أربعة أقوال .

أحدها : بأمره ، قاله ابن عباس ، وابن جريج ، وابن زيد .

والثاني : يخرجون من القبور وهم يقولون : سبحانك وبحمدك ، قاله

سميد بن جبير .

(١) البيت في الأغاني : ١٥/١٠٠ ، و طبقات ابن سلام : ٥٣٩ ، و الشعر والشعراء : ٥٠١ ، و دهر الآداب : ٣٥٠/١ ، و د مصارع المشاق : ٦٢ ، و رجل عزهاة وعزهاة : وهو الذي لا يقرب النساء وينقبض عنهن ويمرض ، من زهو أو كبر ، أو أنفة من الضعف والاستكانة لجهن أو سطوتهن على الرجال ، وصخرة جلمد : شديدة مجتمعة صلبة .

والثالث : أن معنى (بحمده) : بمعرفته ، وطاعته ، قاله قتادة . قال الزجاج :
تستجيون مُقَرِّين أنه خالقكم .

والرابع : تحيون بحمد الله لا بحمد أنفسكم ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً) في هذا الظن قولان .
أحدهما : أنه بمعنى اليقين .

والثاني : أنه على أصله . وأين يظنون أنهم لبثوا قليلاً ؛ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : بين النفختين ، ومقداره أربعون سنة ، ينقطع في ذلك العذاب عنهم ،
فيرون لبثهم في زمان الراحة قليلاً ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : في
الدنيا ، لعلمهم بطول اللبث في الآخرة ، قاله الحسن . والثالث : في القبور ، قاله
مقاتل . فعلى هذا إنما قصر اللبث في القبور عندهم ، لأنهم خرجوا إلى ما هو أعظم
عذاباً من عذاب القبور . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية خطاب
للمؤمنين ، لأنهم يحيون المنادي وهم يحمدون الله على إحسانه إليهم ، ويستقلون
مدة اللبث في القبور ، لأنهم كانوا غير معذبين .

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ
بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾

قوله تعالى : (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن المشركين كانوا يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بمكة ، بالقول

والفعل ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية . قاله أبو صالح
عن ابن عباس .

والثاني : أن رجلاً من الكفار شتم عمر بن الخطاب ، فهمم به عمر رضي الله عنه ،

فزلت هذه الآية ، قاله مقاتل ؛ والمعنى : وقل لعبادي المؤمنين يقولوا الكلمة التي هي أحسن . واختلفوا فيمن يقال له هذه الكلمة على قولين .
أحدهما : أنهم المشركون ، قال الحسن : تقول له : يَهْدِيكَ اللهُ ، وما ذكرنا من سبب نزول الآية يؤيد هذا القول . وذهب بعضهم إلى أنهم أمرُوا بهذه الآية بتحسين خطاب المشركين قبل الأمر بقتالهم ، ثم نُسخَت هذه الآية بآية السيف .

والثاني : أنهم المسلمون ، قاله ابن جرير . والمعنى : وقل لعبادي يقول بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاوراة والمخاطبة . وقد روى مبارك عن الحسن قال : « التي هي أحسن » أن يقول له مثل قوله ، ولكن يقول له : يرحمك الله ، ويفر الله لك . قال الأخفش : وقوله : (يقولوا) مثل قوله : (يقيموا الصلاة) ، وقد شرحنا ذلك في سورة (إبراهيم : ٣١) .

قوله تعالى : (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ) أي : يُفْسِدُ مَا بَيْنَهُمْ ، والعدوَّ المُبِين : الظاهر العداوة .

﴿ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ بِرَحْمَتِكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

قوله تعالى : (رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ) فيمن خوطب بهذا قولان .

أحدهما : أنهم المؤمنون . ثم في معنى الكلام قولان . أحدهما : (إِنْ يَشَأْ يَرْحَمُكُمْ) فينجيكم من أهل مكة ، (وَإِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ) فيسلطهم عليكم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : إِنْ يَشَأْ يَرْحَمُكَ بِالتَّوْبَةِ ، أَوْ يُعَذِّبُكَ بِالإِقَامَةِ عَلَى الذُّنُوبِ ، قاله الحسن .

والثاني : أنهم المشركون . ثم في معنى الكلام قولان . أحدهما : إن يشأ يرحمكم ، فيهدبكم للإيمان ، أو إن يشأ يعذبكم ، فيسببكم على الكفر ، قاله مقاتل . والثاني : أنه لما نزل القحط بالمشركين فقالوا : (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) [الدخان : ١٢] ، قال الله تعالى : (ربكم أعلم بكم) من الذي يؤمن ، ومن [الذي] لا يؤمن ، (إن يشأ يرحمكم) فيكشف القحط عنكم (أو إن يشأ يعذبكم) فيتركه عليكم ، ذكره أبو سليمان الدمشقي . قال ابن الأثيري : و « أو » هاهنا دخلت لسعة الأمرين عند الله تعالى ، وأنه لا يرد عنها ، فكانت ملحقة بـ « أو » المبيحة في قولهم : جالس الحسن ، أو ابن سيرين ، يعنون : قد وسعنا لك الأمر .

قوله تعالى : (وما أرسلناك عليهم وكيلاً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : كفيلاً تؤخذ بهم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : حافظاً ورباً ، قاله الفراء . والثالث : كفيلاً بهدایتهم وقادراً على إصلاح قلوبهم ، ذكره ابن الأثيري . وذهب بعض المفسرين إلى أن هذا منسوخ بآية السيف .

﴿ وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا
بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾

قوله تعالى : (وربك أعلم بمن في السموات والأرض) لأنه خالقهم ، فهدى من شاء ، وأضل من شاء ، وكذلك فضل بعض النبيين على بعض ، وذلك عن حكمة منه وعلم ، فخلق آدم بيده ، ورفع إدريس ، وجعل الذرية لنوح ، واتخذ إبراهيم خليلاً ، وموسى كلباً ، وجعل عيسى روحاً ، وأعطى سليمان ملكاً جسيماً ، ورفع محمداً ﷺ فوق السموات ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . ويجوز أن يكون المفضلون أصحاب الكتب ، لأنه ختم الكلام بقوله : (وآتينا داود زبوراً) . وقد شرحنا معنى « الزبور » في سورة (النساء : ١٦٣) .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾

قوله تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) في سبب نزولها قولان .
أحدهما : أن نقرأ من العرب كانوا يعبدون نقرأ من الجن ، فأسلم الجن والنفر من العرب لا يشعرون ، فنزلت هذه الآية والتي بعدها ، روي عن ابن مسعود .
والثاني : أن المشركين كانوا يعبدون الملائكة ، ويقولون : هي تشفع لنا عند الله ، فلما ابتلوا بالقحط سبع سنين ، قيل لهم : « ادعوا الذين زعمتم » ، قاله مقاتل ، والمعنى : قل ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة ، (فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً) له إلى غيركم .

قوله تعالى : (أولئك الذين يدعون) في المشار إليهم بـ « أولئك » ثلاثة أقوال .
أحدها : أنهم الجن الذين أسلموا ^(١) . والثاني : الملائكة . وقد سبق بيان

(١) روى البخاري : ٣٠١/٨ ، ومسلم : ٢٣٢١/٤ من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم بن أبي معمر عن عبد الله في قوله : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) قال : كان ناس من الانس يعبدون ناساً من الجن ، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم . قال الحافظ ابن حجر : أي : استمر الانس الذين كانوا يعبدون الجن على عبادة الجن ، والجن لا يرضون بذلك لكونهم أسلموا ، وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة . وروى الطبري من وجه آخر عن ابن مسعود ، فزاد فيه : والانس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون باسلامهم ، وهذا هو المعتمد في تفسير هذه الآية . اهـ .

زاد المير ه م (٤)

القولين . والثالث : أنهم المسيح ، وعزير ، والملائكة ، والشمس ، والقمر ،
قاله ابن عباس . وفي معنى « يدعون » قولان .

أحدهما : يعبدون ، أي : يدعونهم آلهة ، وهذا قول الأكثرين .

والثاني : أنه بمعنى بتضرعون إلى الله في طلب الوسيلة . وعلى هذا يكون قوله :

« يدعون » راجعاً إلى « أوائك » ، ويكون قوله : « يتفنون » تماماً للكلام . وعلى

القول الأول : يكون « يدعون » راجعاً إلى المشركين ، ويكون قوله : « يتفنون »

وصفاً لـ « أوائك » مستأنفاً . وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو عبد الرحمن :

« تدعون » بالتاء قال ابن الأثيري : فعلى هذا ، الفعل مردودٌ إلى قوله :

(فلا يملكون كشف الضر عنكم) . ومن قرأ « يدعون » بالياء ، قال : العرب

تنصرف من الخطاب إلى الغيبة إذا أمن اللبس . ومعنى « يدعون » : يدعونهم

آلهة . وقد فسرنا معنى « الوسيلة » في (المائدة : ٣٥) .

وفي قوله : (أيهم أقرب) قولان ذكرهما الزجاج .

أحدهما : أن يكون « أيهم » مرفوعاً بالابتداء ، وخبره « أقرب » ، ويكون

المعنى : يطلبون الوسيلة إلى ربهم ، ينظرون أيهم أقرب إليه فيتوسلون إلى الله به .

والثاني : أن يكون « أيهم أقرب » بدلاً من الواو في « يتفنون » ، فيكون

المعنى : يتفني أيهم هو أقرب الوسيلة إلى الله ، أي : يتقرب إليه بالعمل الصالح .

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾

قوله تعالى : (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها) « إن » بمعنى « ما » ،

والقرية الصالحة هلاكها بالموت ، والعاصية بالعذاب ، والكتاب : اللوح المحفوظ ،

والمسطور : المكتوب .

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ
وَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾

قوله تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات) سبب نزولها فيه قولان .
أحدهما : أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ،
وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا^(١) ، فقيل له : إن شئت أن تستأني بهم لعلنا
ننجي منهم ، وإن شئت نؤتيهم الذي سألوا ، فان كفروا أهلکوا كما أهلک من
كان قبلهم ، قال : « لا ، بل أستأني بهم » ، فنزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن جبیر
عن ابن عباس^(٢) .

والثاني : قد ذكرناه عن الزبير في قوله : (ولو أن قرآنا سیرت به الجبال)
[الرعد : ٣١] ، ومعنى الآية : وما منعنا إرسال الآيات التي سألوها إلا تكذيبُ
الاولين ، يعني : أن هؤلاء سألوا الآيات التي استوجب بتكذيبها الأولون العذاب ،
فلم يرسلها ثلثا يكذب بها هؤلاء ، فهلكوا^(٣) كما هلك أولئك ، وسنة الله في
الأمم أنهم إذا سألوا الآيات ثم كذبوا بها عذبهم .

قوله تعالى : (وآتيناهمود الناقة مبصرة) قال ابن قتيبة : أي : بينة ، يريد :
مبصرة بها . قال ابن الأنباري : ويجوز أن تكون مبصرة ، ويصلح أن يكون
المعنى : مبصر مشاهدوها ، فنسب إليها فعل غيرها تجوزاً ، كما يقال : لا أرينك
ها هنا ، فأدخل حرف النهي على غير المنهي عنه ، إذ المعنى : لا تحضر ها هنا ، حتى

(١) في الأصل : فيزرعون .

(٢) « مسند أحمد » : ٩٦/٤ وإسناده صحيح ، وفيه « وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا ،
بدل « فيزرعوا » ، وذكره ابن كثير في « التفسير » : ٤٧/٣ ، و « التاريخ » : ٥٢/٣ وقال :
وهكذا رواه النسائي عن جرير .
(٣) في الأصل : فيهلكون .

إذا جئتُ لم أرك فيه . ومن قرأ « مَبْصَرَةٌ » بفتح الميم والصاد ، فعناه : المبالغة في وصف الناقة بالتيان ، كقولهم : « الولد جَبِينَةٌ » (۱) .

قوله تعالى : (فظلموا بها) قال ابن عباس : فجحدوا بها . وقال الأخفش : بها كان ظلمهم .

قوله تعالى : (وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً) أي : نخوف العباد ليتعظوا . وللمفسرين في المراد بهذه الآيات أربعة أقوال .

أحدها : أنها الموت الذريع (۲) ، قاله الحسن . والثاني : معجزات الرسل جعلها الله تعالى تخويفاً للمكذبين . والثالث : آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي . والرابع : تقلب أحوال الإنسان من صغرٍ إلى شبابٍ ، ثم إلى كهولةٍ ، ثم إلى مشيبٍ ، ليعتبر بتقلب أحواله فيخاف عاقبة أمره ، ذكر هذه الأقوال الثلاثة الماوردي ، ونسب القول الأخير منها إلى إمامنا أحمد رضي الله عنه .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾

قوله تعالى : (وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أحاط علمه بالناس ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الربيع ابن أنس . وقال مقاتل : أحاط علمه بالناس ، يعني : أهل مكة ، أن يفتحها لرسوله ﷺ .

(۱) وما روي من أنه ﷺ قال : « الولد ثمرة القلب ، وإنه جبنة مبخلة محزنة ، فهو ضعيف ، رواه أبو يعلى ، والبزار ، قال المناوي : قال الزين العراقي ، وتبعه الهيثمي : وفيه عطية الموفى ، وهو ضعيف .

(۲) الموت الذريع ، أي : الربيع الفاسي ، لا يكاد الناس يتدافتون .

والثاني : أحاطت قدرته بالناس ، فهم في قبضته ، قاله مجاهد .

والثالث : حال بينك وبين الناس أن يقتلوك ، لتبلغ رسالته ، قاله

الحسن ، وقتادة .

قوله تعالى : (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) في هذه الرؤيا قولان .

أحدهما : أنها رؤيا عين ، وهي ما رأى ليلة أُسري به من العجائب والآيات .

روى عكرمة عن ابن عباس قال : هي رؤيا عين رآها ليلة أُسري به ، وإلى هذا

المعنى ذهب الحسن ، وسعيد بن جبیر ، ومجاهد ، وعكرمة ، ومسروق ، والنخعي ،

وقتادة ، وأبو مالك ، وأبو صالح ، وابن جريج ، وابن زيد في آخرين . فملى هذا

يكون معنى الفتنة : الاختبار ، فإن قوماً آمنوا بما قال ، وقوماً كفروا . قال

ابن الأباري : المختار في هذه الرؤية أن تكون بقظة ، ولا فرق بين أن يقول

القائل : رأيت فلاناً رؤية ، ورأيت رؤيا ، إلا أن الرؤية يقل استعمالها في المنام ،

والرؤيا يكثر استعمالها في المنام ، ويجوز كل واحد منها في المعنيين .

والثاني : أنها رؤيا منام ^(١) . ثم فيها قولان . أحدهما : أن رسول الله ﷺ

(١) روى البخاري ٣٠١/٨ عن ابن عباس رضي الله عنها (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك

إلا فتنة للناس) قال : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به . قال الحافظ

ابن حجر ٣٠٢/٨ : زاد سعيد بن منصور عن سفيان في آخر الحديث : رأيت رؤيا منام . وقال

أبو جعفر بن جرير الطبري ١١٣/١٥ : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : عنى به

رؤيا رسول الله ﷺ ما رأى من الآيات والمعبر في طريقه إلى بيت المقدس ليلة أُسري به . قال : وإنا

قلنا : ذلك أولى بالصواب ، لاجتماع الحجة من أهل التأويل على أن هذه الآية إنما نزلت في

ذلك ، وإياه عنى الله عز وجل بها . فإذا كان ذلك كذلك ، فتأويل الكلام : وما جعلنا

رؤياك التي أريناك ليلة أُسرينا بك من مكة إلى بيت المقدس ، إلا فتنة للناس ، بقول : إلا بلاء

للناس الذين ارتدوا عن الإسلام لما أخبروا بالرؤيا التي رآها عليه الصلاة والسلام ، وللمشركين

من أهل مكة الذين ازدادوا لساعهم ذلك من رسول الله ﷺ غادياً في غيبهم ، وكفراً إلى كفرهم .

كان قد أُريَ أنه يدخل مكة ، هو وأصحابه ، وهو يومئذ بالمدينة ، فمَجَل قبل الأجل ، فردّه المشركون ، فقال أناس : قد رُدَّ ، وكان حدثنا أنه سيدخلها ، فكان رجوعهم فتنهم ، رواه العوفي عن ابن عباس (١) . وهذا لا ينافي حديث المعراج ، لأن هذا كان بالمدينة ، والمعراج كان بمكة . قال أبو سليمان الدمشقي : وإنما ذكره ابن عباس على وجه الزيادة في الإخبار لنا أن المشركين بمكة افتنوا برؤيا عينه ، والمنافقين بالمدينة افتنوا برؤيا نومه . والثاني : أنه أُريَ بني أمية على المنابر ، فساءه ذلك ، فقبل له : إنها الدنيا يُعطونها ، فسُرِّيَ عنه (٢) . فالفتنة هاهنا : البلاء ، رواه علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب ، وإن كان مثل هذا لا يصح ، ولكن قد ذكره عامة المفسرين .

وروى ابن الأنباري أن سعيد بن المسيب قال : رأى رسول الله ﷺ يوماً على منابر ، فشقَّ ذلك عليه ، وفيه نزل : (والشجرة الملعونة في القرآن) ، قال : ومعنى قوله : (إلا فتنة للناس) : إلا بلاء للناس . قال ابن الأنباري : فن ذهب إلى أن الشجرة رجال رآهم النبي ﷺ في منامه يصعدون على المنابر ، احتج بأن الشجرة يكنى بها عن المرأة لتأنيثها ، وعن الجماعة لاجتماع أغصانها . قالوا : ووقعت اللعنة بهؤلاء الذين كنى عنهم بالشجرة . قال المفسرون : وفي الآية تقديم وتأخير ، تقديره : وما جعلنا الرؤيا والشجرة إلا فتنة للناس .

وفي هذه الشجرة ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها شجرة الزقوم ، رواه عكرمة عن ابن عباس (٣) ، وبه قال

(١) والعوفي ضعيف .

(٢) قال ابن كثير ٤٩/٣ : وهو غريب ضعيف .

(٣) روى البخاري : ٣٠٢/٨ عن ابن عباس : (والشجرة الملعونة في القرآن) قال : —

بجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومسروق ، والنخعي ، والجمهور . وقال مقاتل : لما ذكر الله تعالى شجرة الزقوم ، قال أبو جهل : يامعشر قريش إن محمداً يخوفكم بشجرة الزقوم ، ألسن تعلمون أن النار تحرق الشجر ؟ ومحمد يزعم أن النار تنبت الشجر ، فهل تدرون ما الزقوم ؟ فقال عبد الله بن الزبير : إن الزقوم بلسان بربر : التمر والزبد ، فقال أبو جهل : يا جارية ابغينا تمراً وزبداً ، فجاءته به ، فقال لمن حوله : تزقّموا من هذا الذي يخوفكم به محمدٌ ، فأنزل الله تعالى : (ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً) . قال ابن قتيبة : كانت فتنهم بالرؤيا قولهم : كيف يذهب إلى بيت المقدس ، ويرجع في ليلة ؟ ! وبالشجرة قولهم : كيف يكون في النار شجرة ؟ ! .

وللعلماء في معنى « الملعونة » ثلاثة أقوال . أحدها : المذمومة ، قاله ابن عباس . والثاني : الملعون آكلها ، ذكره الزجاج ، وقال : إن لم يكن في القرآن ذكر لعنبا ، ففيه لعن آكلها ؛ قال : والعرب تقول لكل طعام مكروه وضارٍ : ملعون ؛ فأما قوله : (في القرآن) فالمعنى : التي ذكرت في القرآن ، وهي مذكورة في قوله : (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) [الدخان : ٤٣ ، ٤٤] . والثالث : أن معنى « الملعونة » : المسبّعة عن منازل أهل الفضل ، ذكره ابن الأثير .

— شجرة الزقوم . قال الحافظ ابن حجر : وهذا هو الصحيح ، وذكره ابن أبي حاتم عن بضعة عشر نفساً من التابعين . وقال أبو جعفر بن جرير الطبري : وأولى القولين في ذلك عندنا قول من قال : عني بها شجرة الزقوم ، لاجتماع الحجّة من أهل التأويل على ذلك . ونصبت (الشجرة الملعونة) عطفاً بها على الرؤيا ، فتأويل الكلام إذن : وما جعلنا الرؤيا التي أريناك ، والشجرة الملعونة في القرآن ، إلا فتنه للناس ، فكانت فتنهم في الرؤيا ما ذكرت من ارتداد من ارتد ، وتنادي أهل الشرك في شركهم حين أخبرهم رسول الله ﷺ بما أراه الله في مسيره إلى بيت المقدس ليلة أسري به ، وكانت فتنهم في الشجرة الملعونة ما ذكرنا من قول أبي جهل والمشركين معه : يخبرنا محمد أن في النار شجرة نابتة ، والنار تأكل الشجر ، فكيف تنبت فيها ؟ !

والقول الثاني : أن الشجرة الملعونة هي التي تلتوي على الشجر ، يعني : الكشوثي^(١) ، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أن الشجرة كناية عن الرجال على ما ذكرنا عن سعيد بن المسيب . قوله تعالى : (ونحوفهم) قال ابن الأباري : مفعول « نحوفهم » محذوف ، تقديره : ونحوفهم العذاب ، (فما يزيدم) أي : فما يزيدم التخويف (إلا طغياناً) ؛ وقد ذكرنا معنى الطغيان في (البقرة : ١٥) ، وذكرنا هناك تفسير قوله : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) [البقرة : ٣٤] .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا . قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا . قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا . وَاسْتَفْزَزَ مِنْ اسْتِطْعَمَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمُ بِخَيْبِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتُهُمْ وَمَا يَمْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

قوله تعالى : (آسجد) قرأه الكوفيون : بهمزتين . وقرأه الباقون : بهمزة مطوَّلة ؛ وهذا استفهام إنكار ، يعني به : لم أكن لأفعل . قوله تعالى : (لمن خلقت طيناً) قال الزجاج : « طيناً » منصوب على وجهين .

(١) قال الجوهري : الكشوث : نبت يتعلق بأغصان الشجر ، من غير أن يضرب برق في الأرض ، قال الشاعر :

هو الكشوثُ فلا أصلٌ ولا ورقٌ ولا نسيماً ولا ظيلٌ ولا ثمرٌ

أحدهما : التمييز ، المعنى : لمن خلقته من طين . والثاني : على الحال ، المعنى : أنشأته في حال كونه من طين . ولفظ (قال أرأيتك) جاء هاهنا بغير حرف عطف ، لأن المعنى : قال أسجد لمن خلقت طيناً ، وأرأيتك ، وهي في معنى : أخبرني ، والكاف ذكرت في المخاطبة تأكيداً ، والجواب محذوف ، والمعنى : أخبرني عن هذا الذي كرمت عليّ ، لم كرمته عليّ وقد خلقتني من نار وخلقته من طين ؟ ! فحذف هذا ، لأن في الكلام دليلاً عليه .

قوله تعالى : (لئن أخرتن إلى يوم القيامة) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمر : « أخرتني » بياه في الوصل . ووقف ابن كثير بالياء . وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمة ، والكسائي بغير ياء في وصل ولا في وقف (١) .

قوله تعالى : (لأحتنكن ذريتَهُ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لأستولين عليهم ، قاله ابن عباس ، والفراء . والثاني : لأضلينهم ، قاله ابن زيد . والثالث : لأستأصلنهم ؛ يقال : احتنك الجرادُ ماعلى الأرض : إذا أكله ؛ واحتنك فلانُ ماعند فلان من العلم : إذا استقصاه ، فالمعنى : لا تودنهم كيف شئت ، هذا قول ابن قتيبة .

فإن قيل : من أين علم الغيب . فقد أجبتنا عنه في سورة (النساء : ١١٩) .

قوله تعالى : (إلا قليلاً) قال ابن عباس : هم أولياء الله الذين عصمهم .

قوله تعالى : (قال اذهب) هذا اللفظ يتضمن إنظاره ؛ (فن تبعك) ، أي : تبع أمرك منهم ، يعني : ذرية آدم . والموقور : الموفر . قال ابن قتيبة : يقال : وفرتُ ماله عليه ، ووفرتُهُ ، بالتخفيف والتشديد .

(١) أي : بغير ياء في الوصل والوقف .

قوله تعالى : (واستَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ) قال ابن قتيبة : اسْتَخِفَّ ،
ومنه تقول : اسْتَفَزَّني فلان .

وفي المراد بصوته قولان . أحدهما : أنه كل داعٍ دعا إلى معصية الله ، قاله
ابن عباس . والثاني : أنه الغناء والمزامير ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم) أي : صِيحَ (بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ) واحشهم
عليهم بالإغراء ؛ يقال : أَجْلَبَ القومَ وجَلَّبُوا : إذا صاحوا . وقال الزجاج : المعنى :
اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكاييدك ؛ فلي هذا تكون الباء زائدة . قال ابن قتيبة :
والرَّجُلُ : الرَّجَالَةُ ؛ يقال : رَاجِلٌ وَرَجُلٌ ، مثل تاجر وتجر ، وصاحب
وصحْب . قال ابن عباس : كلَّ خيلٍ تسير في معصية الله ، وكلَّ رَجُلٍ يسير
في معصية الله ^(١) . وقال قتادة : إن له خيلاً وَرَجُلًا من الجن والإنس . وروى
حفص عن عاصم : « بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ » بكسر الجيم ، وهي قراءة ابن عباس ،
وأبي رزين ، وأبي عبد الرحمن السلمي . قال أبو زيد : يقال : رَجُلٌ رَجِلٌ :
للراجل ، ويقال : جاءنا حافياً رَجِلاً . وقرأ ابن السميع ، والجدري : « بِخَيْلِكَ
وَرَجَالِكَ » برفع الراء وتشديد الجيم مفتوحة وبألف بعدها . وقرأ أبو المتوكل ،
وأبو الجوزاء ، وعكرمة : « وَرَجَالِكَ » بكسر الراء وتخفيف الجيم مع ألف .
قوله تعالى : (وشاركهم في الأموال) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنها ما كانوا يحرِّمونونه من أنعامهم ، رواه عطية عن ابن عباس .

(١) في « الطبري » ، عن ابن عباس قوله : (وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ) قال : خيله :
كلَّ راكبٍ في معصية الله ، ورجله : كل راجلٍ في معصية الله .

والثاني : الأموال التي أصيبت من حرام ، قاله مجاهد . والثالث : التي أنفقوها في معاصي الله ، قاله الحسن . والرابع : ما كانوا يذبحون لآلهتهم ، قاله الضحاك .
فأما مشاركته إياهم في الأولاد ، ففيها أربعة أقوال .
أحدها : أنهم أولاد الزنا ، رواه عطية عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، والضحاك .

والثاني : المؤودة من أولادهم ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .
والثالث : أنه تسمية أولادهم عبيداً لأنهم ، كعبد شمس ، وعبد العزى ، وعبد مناف ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .
والرابع : مامَجَسُوا وهودُوا ونصَرُوا ، وصبغُوا من أولادهم غير صبغة الإسلام ، قاله الحسن ، وقتادة .

قوله تعالى : (وَعِدِّمْ) قد ذكرناه في قوله : (يعدم ويعنيهم . . .)
إلى آخر الآية [النساء : ١٢٠] . وهذه الآية لفظها لفظ الأمر ، ومعناها التهديد ، ومثلها في الكلام أن تقول للإنسان : اجهد جهدك فسترى ما ينزل بك . قال الزجاج : إذا تقدم الأمر نهي عما يؤمر به ، فعناه التهديد والوعيد ، تقول للرجل : لا ندخلن هذه الدار ؛ فإذا حاول أن يدخلها قلت : ادخلها وأنت رجل ، فلست تأمره بدخولها ، ولكنك تُوعده وتهديده ، ومثله : (اعملوا ما شئتم) [فصلت : ٤٠] ، وقد نُهوا أن يعملوا بالمعاصي . وقال ابن الأنباري : هذا أمر معناه التهديد ، تقديره : إن فعلت هذا عاقبتك وعدتُ بك ، فنقل إلى لفظ الأمر عن الشرط ، كقوله : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) [الكهف : ٢٩] .

قوله تعالى : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) قد شرحناه في (الحجر : ٤٢) .

قوله تعالى : (وكفى بربك وكيلًا) قال الزجاج : كفى به وكيلًا لا وليًا له
يعصمهم من القبول من إبليس .

﴿ رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ
فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا . وَإِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ
مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ
الْإِنْسَانُ كَفُورًا . أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا . أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ
فِيهِ نَارًا أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ
بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا . وَلَقَدْ كَرَّمْنَا
بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

قوله تعالى : (ربكم الذي يزجي لكم الفلك) أي : يسيرها . قال الزجاج :
يقال : زجيت الشيء ، أي : قدمته (١) .

قوله تعالى : (لتبتغوا من فضله) أي : في طلب التجارة .

وفي « من » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها زائدة . والثاني : أنها للتبويض . والثالث : أن المفعول محذوف ،
والتقدير : لتبتغوا من فضله الرزق والخير ، ذكرهن ابن الأنباري .

قوله تعالى : (إنه كان بكم رحيمًا) هذا الخطاب خاص للمؤمنين ، ثم خاطب
المشركين فقال : (وإذا مسكم الضر في البحر) يعني : خوف الغرق (ضلَّ

(١) كذا الأصل ، « قدمته » والذي في كتب اللغة والتفسير « دفعته برفق » ، وانظر ما ذكره

المؤلف عند قوله تعالى : (وجئنا يبضاعة مزجاة) (٢٧٧/٤) .

مَنْ تَدْعُونَ) أي : يَضِلُّ من يدعون من الآلهة، إلا الله تعالى . ويقال : ضلَّ بمعنى غاب ، يقال : ضلَّ الماء في اللَّبْنِ : إذا غاب ، والمعنى : أنكم أخلصتم الدعاء [لله] ، ونسيتم الأنداد . وقرأ مجاهد ، وأبو المتوكل : « ضلَّ مَنْ يَدْعُونَ » بالياء . (فلما نجَّاكم إلى البرِّ أعرضتم) عن الإيمان والإخلاص (وكان الإنسان) يعني الكافر (كفوراً) بنعمة ربه . (أفأمنتم) إذا خرجتم من البحر (أن يخسف بكم) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « نخسف بكم » « أو نرسل » « أن نعبدكم » « فرسل » « فنغرقكم » بالتون في الكل . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمة ، والكسائي ، بالياء في الكلِّ . ومعنى (نخسف بكم جانب البر) ، أي : نغيبكم ونذهبكم في ناحية البر ، والمعنى : إن حكيم نافذ في البر تقوذه في البحر ، (أو نرسل عليكم حاصباً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الحاصب : حجارة من السماء ، قاله قتادة .

والثاني : أنه الريح العاصف تمصب ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد للفرزدق :

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الرِّيحِ نَضْرِبُهُمْ

بِحَاصِبِ كَنْدِيفِ القُطْنِ مَنْشُورِ^(١)

وقال ابن قتيبة : الحاصب : الريح ، سميت بذلك لأنها تحصب ، أي : ترمي بالحصباء ، وهي الجصى الصغار . وقال ابن الأثير : قال اللغويون : الحاصب : الريح التي فيها الحصى . وإنما قال في الريح : « حاصباً » ولم يقل : « حاصبة » لأنه وصف لزم الريح ولم يكن لها مذكر تنتقل إليه في حال ، فكان بمنزلة قولهم : « حائض » للمرأة ، حين لم يُقَلَّ : رجل حائض . قال : وفيه جواب آخر ،

(١) ديوانه : ٢٦٢ ، و « مجاز القرآن » : ٣٨٥/١ ، و « الكامل » : ٧٧٢/٢ و « الطبري » :

١٢٤/١٥ ، و « القرطبي » : ٢٩٢/١٠ .

وهو أن نعت الريح عُريُّ من علامة التأنيت ، فأشبهت بذلك أسماء المذكر ، كما قالوا : السماء أمطر ، والأرض أنبت .

والثالث : أن الحاصب : التراب الذي فيه حصباء ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (ثم لا تجدوا لكم وكيلاً) أي : مانعاً وناصرأ .

قوله تعالى : (أم أمنتم أن يعيدكم فيه) أي : في البحر (تارة أخرى) أي : مرة

أخرى ، والجمع : تارات . (فيرسل عليكم قاصفاً من الريح) قال أبو عبيدة : هي التي تقصف كل شيء . قال ابن قتيبة : القاصف : [الريح التي] تقصف الشجر ، أي : تكسره .

قوله تعالى : (فيُنزِرِكم) وقرأ أبو المتوكل ، و [أبو] جعفر ، وشيبة ، ورويس :

« فتفرقكم » بالتاء ، وسكون الغين ، وتخفيف الراء . وقرأ أبو الجوزاء ، وأيوب :

« فينرِقِم » بالياء ، وفتح الغين ، وتشديدها ^(١) . وقرأ أبو رجاء مثله ، إلا أنه

بالتاء ، (بما كفرتم) أي : بكفركم حيث نجوتم في المرة الأولى ، (ثم لا تجدوا لكم

علينا به تبعاً) قال ابن قتيبة : أي : من يتبع بدمائكم ، أي : يطالبنا . قال عبد الله

ابن عمرو رضي الله عنهما : ربح العذاب أربع ، اثنتان في البر ، واثنتان في البحر ،

فاللّتان في البرّ : الصّرصر ، والمعقيم ، واللّتان في البحر : العاصف ، والقاصف .

قوله تعالى : (ولقد كرّمنا بني آدم) أي : فضّلناهم . قال أبو عبيدة :

و « كرّمنا » أشدّ مبالغة من « أكرمنا » .

وللمفسرين فيها فضّلوا به أحد عشر قولاً .

أحدها : أنهم فضّلوا على سائر الخلق غير طائفة من الملائكة : جبريل ،

وميكائيل ، وإسرافيل ، ومَلَك الموت ، وأشباههم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

(١) أي : تشديد الراء .

فعلی هذا يكون المراد : المؤمنین منهم ، ويكون تفضيلهم بالإيمان . والثاني : أن سائر الحيوان يأكل بفيه ، إلا ابن آدم فإنه يأكل بيده ، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس . وقال بعض المفسرين : المراد بهذا التفضيل : أكلهم بأيديهم ، ونظافة ما يقتاتونه ، إذ الجن يقتاتون العظام والرّوث . والثالث : فضّلوا بالعقل ، روي عن ابن عباس . والرابع : بالنطق والتمييز ، قاله الضحاك . والخامس : بتعديل القامة وامتدادها ، قاله عطاء . والسادس : بأن جعل محمداً ﷺ منهم ، قاله محمد بن كعب . والسابع : فضّلوا بالمطاعم واللذات في الدنيا ، قاله زيد بن أسلم . والثامن : بحسن الصورة ، قاله يمان . والتاسع : بتسليطهم على غيرهم من الخلق ، وتسخير سائر الخلق لهم ، قاله محمد بن جرير . والعاشر : بالأمر والنهي ، ذكره الماوردي . والحادي عشر : بأن جعلت اللّٰحي للرجال ، والنوايب للنساء ، ذكره الثعلبي .

فان قيل : كيف أطلق ذكر الكرامة على الكل ، وفيهم الكافر المهان ؟ فالجواب من وجهين . أحدهما : أنه عامل الكل معاملة المكرّم بالنعم الوافرة . والثاني : أنه لما كان فيهم من هو بهذه الصفة ، أجرى الصفة على جماعتهم ، كقوله : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) [آل عمران : ١١٠] . قوله تعالى : (وحملناهم في البر) على أكباد رطبة ، وهي : الإبل ، والخيول ، والبغال ، والحير ، (و) في (البحر) على أعواد يابسة ، وهي : السفن . (وورزقناهم من الطيبات) فيه قولان .

أحدهما : الحلال . والثاني : المستطاب في الذوق .

قوله تعالى : (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) فيه قولان .

أحدهما : أنه على لفظه ، وأنهم لم يفضلوا على سائر المخلوقات . وقد ذكرنا

عن ابن عباس أنهم فضّلوا على سائر الخلق غير طائفة من الملائكة . وقال غيره : بل الملائكة أفضل .

والثاني : أن معناه : وفضلناهم على جميع من خلقنا . والعرب تضع الأكثر والكثير في موضع الجمع ، كقوله : (يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) [الشعراء : ٢٢٣] . وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « المؤمن أكرم على الله عز وجل من الملائكة الذين عنده » (١) .

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْتِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا . وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

قوله تعالى : (يوم ندعو) قال الزجاج : هو منصوب على معنى : اذكر (يوم ندعو كل أناس بإمامهم) والمراد به : يوم القيامة . وقرأ الحسن البصري : « يوم يدعو » بالياء (كل) بالنصب . وقرأ أبو عمران الجوني : « يوم يدعى » بياء مرفوعة ، وفتح العين ، وبعدها ألف ، « كل » بالرفع . وفي المراد بإمامهم أربعة أقوال .

أحدها : أنه رئيسهم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وروى عنه سعيد بن جبیر أنه قال : إمام هدى ، أو إمام ضلالة .

(١) عزاه الحافظ في « تخريج أحاديث الكشاف » : ١٠٠ للبيهقي في « الشعب » من رواية حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة موقوفاً . وأبو المهزم بتشديد الزاي المكسورة التميمي البصري ، اسمه يزيد ، وقيل : عبد الرحمن بن سفيان ، قال الحافظ في « التقريب » : متروك ، ورواه ابن ماجه : ١٣٠١/٢ ، من طريق أبي المهزم عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ « المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض ملائكته » ، وهو ضعيف ، لضعف أبي المهزم .

والثاني : عملهم ، رواه عطية عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وأبو العالية .
والثالث : نبيهم ، قاله أنس بن مالك ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، ومجاهد
في رواية .

والرابع : كتابهم ، قاله عكرمة ، ومجاهد في رواية . ثم فيه قولان . أحدهما :
أنه كتابهم الذي فيه أعمالهم ، قاله قتادة ، ومقاتل . والثاني : كتابهم الذي أنزل
عليهم ، قاله الضحاك ، وابن زيد . فعلى القول الأول يقال : يامتّبي موسى ،
يامتّبي عيسى ، يامتّبي محمد ؛ ويقال : يامتّبي رؤساء الضلالة . وعلى الثاني :
يامن عمل كذا وكذا . وعلى الثالث : يا أمة موسى ، يا أمة عيسى ، يا أمة محمد .
وعلى الرابع : يا أهل التوراة ، يا أهل الإنجيل ، يا أهل القرآن . أو يا صاحب الكتاب
الذي فيه عمل كذا وكذا .

قوله تعالى : (فأولئك يقرؤون كتابهم) معناه : يقرؤون حسناتهم ، لأنهم
أخذوا كتبهم بأيديهم .

قوله تعالى : (ولا يُظلمون قليلاً) أي : لا ينقصون من ثوابهم بقدر القليل ،
وقد بيّناه في سورة (النساء : ٤٩) .

قوله تعالى : (ومن كان في هذه أعمى) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر :
« أعمى فهو في الآخرة أعمى » مفتوحتي الميم . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر
عن عاصم بكسر الميم . وقرأ أبو عمرو : « في هذه أعمى » بكسر الميم ، « فهو
في الآخرة أعمى » بفتحها .

وفي المشار إليها بـ « هذه » قولان .

أحدهما : أنها الدنيا ، قاله مجاهد . ثم في معنى الكلام خمسة أقوال . أحدها :

زاد المير ه م (ه)

من كان في الدنيا أعمى عن معرفة قدرة الله في خلق الأشياء ، فهو عمًا وُصِف له في الآخرة أعمى ، رواه الضحاك عن ابن عباس . والثاني : من كان في الدنيا أعمى بالكفر ، فهو في الآخرة أعمى ، لأنه في الدنيا تُقبَلُ توبته ، وفي الآخرة لا تُقبَلُ ، قاله الحسن . والثالث : من عمي عن آيات الله في الدنيا ، فهو عن الذي غيَّب عنه من أمور الآخرة أشدَّ عمىً . والرابع : من عمي عن نِعَمِ الله التي بيَّنَّها في قوله : (ربُّكم الذي يزجي لكم الفُلكَ في البحر) إلى قوله : (تفضيلاً) فهو في الآخرة أعمى عن رشاده وصلاحه ، ذكرها ابن الأنباري . والخامس : من كان فيها أعمى عن الحُجَّةِ ، فهو في الآخرة أعمى عن الجنة ، قاله أبو بكر الوراق . والثاني : أنها النِّعم . ثم في الكلام قولان . أحدهما : من كان أعمى عن النِّعم التي تُرى وتُشاهد ، فهو في الآخرة التي لم تُر أعمى ، رواه عكرمة عن ابن عباس . والثاني : من كان أعمى عن معرفة حق الله في هذه النِّعم المذكورة في قوله : (ولقد كرَّمنا بني آدم) ولم يؤدِّ شكرها ، فهو فيما بينه وبين الله مما يُتقَرَّب به إليه أعمى (وأضل سبيلاً) ، قاله السدي . قال أبو علي الفارسي : ومعنى قوله : (في الآخرة أعمى) أي : أشدَّ عمىً ، لأنه كان في الدنيا يمكنه الخروج عن عمائه بالاستدلال ، ولا سبيل له في الآخرة إلى الخروج من عماءه . وقيل : معنى العمى في الآخرة : أنه لا يهتدي إلى طريق الثواب ، وهذا كلُّه من عمى القلب . فان قيل : لم قال : (فهو في الآخرة أعمى) ولم يقل : أشدَّ عمىً ، لأن العمى خِلقة بمنزلة الحُمرة ، والزُرقة ، والمرب تقول : ما أشدَّ سواد زيد ، وما أبين زُرقة عمرو ، وقلنا يقولون : ما أسود زيداً ، وما أزرق عمراً ؟ فاجواب : أن المراد بهذا العمى عمى القلب ، وذلك يتزايد ويحدث منه

شيء بعد شيء ، فيخالف الخلق اللازِمة التي لا تزيد ، نحو عمى العين ، والبياض ،
والحرة ، ذكره ابن الأنباري .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ
عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَاتُخَذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ
كِدْتَ تَرُكِنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ
وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَآتَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا . وَإِنْ كَادُوا
لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ
إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ
لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ) في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أن وفد ثقيف أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : متبعنا باللات سنة ،
وحرّم واديننا كما حرّمت مكة ، فأبى ذلك ، فأقبلوا يُكثرون مسألتهم ، وقالوا :
إنا نحب أن نعرف العرب فضلنا عليهم ، فان خشيت أن يقول العرب : أعطيتهم
مالم نعطنا ، فقل : الله أمرني بذلك ؛ فأمسك رسول الله ﷺ [عنهم] ، وداخلهم الطمع ،
فزلت هذه الآية ، رواه عطاء عن ابن عباس . وروى عطية عن ابن عباس أنهم
قالوا : أجلنا سنة ، ثم نسلم ونكسر أصنامنا ، فهم أن يؤجّبناهم ، فزلت هذه الآية (١) .

والثاني : أن المشركين قالوا للذي ﷺ : لانكف عنك إلا بأن تُلمّ
بالهتنا ، ولو بأطراف أصابعك ، فقال رسول الله ﷺ : « ما عليّ لو فعلت
والله يعلم إني لكاره » ؛ فزلت هذه الآية ، قاله سعيد بن جبير ، وهذا باطل

(١) ابن جرير الطبري : ١٣٠/١٥ بسند ضعيف جداً .

لا يجوز أن يُظنَّ برسول الله ﷺ ، ولا ما ذكرنا عن عطية من أنه ممَّ أن يُنظِّرهم سنة ، وكل ذلك مُحال في حقه وفي حق الصحابة أنهم رَوَوْا عنه .

والثالث : أن قريشاً خَلَوْا برسول الله ليلةً إلى الصباح يَكْتُمونه ويفخِّمونه ، ويقولون : أنت سيدنا وابن سيدنا ، وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون ، ثم عصمه الله من ذلك ، ونزلت هذه الآية ، قاله قتادة .

والرابع : أنهم قالوا الرسول الله ﷺ : اطرده عنك سُقَاط الناس ، ومواليهم ، وهؤلاء الذين رانحتهم رائحة الضأن ، وذلك أنهم كانوا يلبسون الصوف ، حتى نجالسك ونسمع منك ، فهم رسول الله ﷺ أن يفعل ما يستدعي به إسلامهم ، فنزلت هذه الآيات ، حكاه الزجاج ؛ قال : ومعنى الكلام : كادوا يفتنونك ، ودخلت « إن » واللام للتوكيد . قال المفسرون : وإنما قال : « كيفتونك » ، لأن في إعطائهم ما سألوا مخالفةً لحكم القرآن .

قوله تعالى : (لتفترى) أي : لتتخلق (علينا غيره) وهو قولهم : قل الله أمرني بذلك ، (وإذا) لو فعلت ذلك (لا تخذوك خيلاً) أي : والوك وصافوك . قوله تعالى : (ولولا أن نبنتك) على الحق ، لعصمتنا إياك (لقد كدت تركن إليهم) أي : همت وقاربت أن تميل إلى مرادم (شيئاً قليلاً) قال ابن عباس : وذلك حين مكثت عن جوابهم ، والله أعلم بنية . وقال ابن الأنباري : الفعل في الظاهر للذي ﷺ ، وفي الباطن للمشركين ، وتقديره : لقد كادوا يُركنونك إليهم ، وينسبون إليك ما يشتهونه مما نكرهه ، فنسب الفعل إلى غير فاعله عند أمن اللبس ، كما يقول الرجل للرجل : كدت تقتل نفسك اليوم ، يريد : كدت تفعل فعلاً يقتلك غيرك من أجله ؛ فهذا من المجاز والاتساع . وشبهه

بهذا قوله : (فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون) [البقرة : ١٣٢] ، وقول القائل :
لأرينتك في هذا الموضع .

قوله تعالى : (إذا لأذقناك) المعنى : لو فعلت ذلك الشيء القليل (لأذقناك
ضعف الحياة) أي : ضعف عذاب الحياة (وضعف) عذاب (الممات) ، ومثله
قول الشاعر :

[نُبِتْتُ أَنْ النَّارَ بَعْدَكَ أُوقِدَتْ]

وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كَلْبُ الْمَجْلِسِ^(١)

أي : أهل المجلس . وقال ابن عباس : ضعف عذاب الدنيا والآخرة . وكان
رسول الله ﷺ معصوماً ، ولكنه تخويف لأُمَّته ، لئلا يركن أحد من المؤمنين
إلى أحد من المشركين في شيء من أحكام الله وشرائعه .

قوله تعالى : (وإن كادوا ليستفزوا نك من الأرض) في سبب نزولها قولان .
أحدهما : أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ، حسدته اليهود على مقامه
بالمدينة ، وكرهوا قربه ، فأتوه ، فقالوا : يا محمد أنبي أنت ؟ قال : نعم ، قالوا :
فوالله لقد علمت ما هذه بأرض الأنبياء ، وأن أرض الأنبياء الشام ، فإن كنت
نبياً فانت الشام ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس^(٢) . وقال
سعيد بن جبير : هم رسول الله ﷺ أن يشخص عن المدينة ، فنزلت هذه الآية .

(١) البيت لعدي بن ربيعة في « الأمالي » : ٩٥/١ ، و « الحماسة » : ٩٢٩/٢ ، ومعنى قوله :
« نبئت أن النار بعدك أوقدت » : أنه كان لا توقد بحضرتة نار ، لعظم ناره وعمومه بطامه ،
وقيل : إنه أراد نار الحرب التي كانت تارت بينهم بقتل كليب فركدت أحقاباً .
(٢) قال الحافظ ابن كثير في « التفسير » : ٥٣/٣ : وهذا القول ضعيف ، لأن هذه الآية
مكية ، وسكنى المدينة بعد ذلك .

وقال عبد الرحمن بن غنم : لما قالت له اليهود هذا ، صدق ما قالوا ، وغزا غزوة نبوك لا يريد إلا الشام ، فلما بلغ تبوك ، نزلت هذه الآية ^(١) .

والثاني : أنهم المشركون أهل مكة همّوا باخراج رسول الله ﷺ من مكة ، فأمره الله بالخروج ، وأنزل هذه الآية إخباراً عما همّوا به ، قاله الحسن ، وبجاهد . وقال قتادة : همّ أهل مكة باخراجه من مكة ، ولو فعلوا ذلك ما توطّروا ، ولكن الله كفّهم عن إخراجه حتى أمره بالخروج . وقيل : ما لبثوا بعد ذلك حتى بعث الله عليهم القتل ييدر . فعلى القول الأول ، المشار إليهم : اليهود ، والأرض : المدينة . وعلى الثاني : هم المشركون ، والأرض : مكة . وقد ذكرنا معنى « الاستفزاز » آنفاً [الاسراء : ٦٤] ، وقيل : المراد به هاهنا : القتل ، ليخرجوه من الأرض كلياً ، روي عن الحسن .

قوله تعالى : (وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : « خلفك » . وقرأ ابن عامر ، وحمة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « خلافاك » . قال الأخفش « خلافاك » في معنى خلفك ، والمعنى : لا يلبثون بعد خروجك (إلا قليلاً) أي : لو أخرجوك لاستأصلناهم بعد خروجك بقبائل ، وقد جازاهم الله على ما همّوا به ، فقتل صناديد المشركين ييدر ، وقتل من اليهود بني قريظة ، وأجلى النضير . وقال ابن الأنباري : معنى الكلام : لا يلبثون

(١) قال الحافظ ابن كثير بعد أن ذكر خبر عبد الرحمن بن غنم عن اليهقي : وفي هذا الاسناد نظر ، والأظهر أن هذا ليس بصحيح ، فإن النبي ﷺ لم يفر تبوك عن قول اليهود ، وإنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ) ، ولقوله تعالى : (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) ، وغزاها ليقصّ وابتقم عن قتل أهل مؤنة من أصحابه ، والله أعلم .

على خِلافك ومخالفتك ، فسقط حرف الخفض . وقرأ أبو رزين ، وأبو المتوكل : « خُلَافُكَ » بضم الخاء ، وتشديد اللام ، ورفع الفاء .

قوله تعالى : (سُنَّةٌ مِّنْ قَدِ أَرْسَلْنَا) قال الفراء : نصب السُّنَّةَ على العذاب المُضْمَر ، أي : بعددِ بَوْنِ كَسُنَّتْنَا فِيمَنْ أَرْسَلْنَا . وقال الأخفش : المعنى : سُنَّهَا سُنَّةٌ . وقال الزجاج : انتصب بمعنى « لا يلبثون » وتأويله : إِنَّا سَنَنَّا هَذِهِ السُّنَّةَ فِيمَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ أَنَّهُمْ إِذَا أُخْرِجُوا نَبِيَّهُمْ أَوْ قَتَلُوهُ ، لَمْ يَلْبَثِ الْعَذَابُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ .

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا . وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا . وَقُلْ رَبِّ ادْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِّنْ لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا . وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

قوله تعالى : (أقم الصلاة) أي : أدِّها (لِدُلُوكِ الشَّمْسِ) أي : عند دُلُوكِهَا . وذكر ابن الأنباري في « اللام » قولين . أحدهما : أنها بمعنى « في » . والثاني : أنها مؤكدة ، كقوله : (رَدِفَ لَكُمْ) [النمل: ٧٢] . وقال أبو عبيدة : دُلُوكِهَا : من عند زوالها إلى أن تغيب . وقال الزجاج : مِثْلُهَا وَقْتُ الظَّهِيرَةِ دُلُوكٍ ، وَمِثْلُهَا لِلْغُرُوبِ دُلُوكٍ . وقال الأزهري : معنى « الدُّلُوكِ » في كلام العرب : الزوال ، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار : دَالِكَةٌ ، وإذا أفلت : دَالِكَةٌ ، لأنها في الحالين زائلة .

وللمفسرين في المراد بالدُّلوك هاهنا قولان .

أحدهما : أنه زوالها نصف النهار . روى جابر بن عبد الله قال : دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه ، فطعموا عندي ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج رسول الله ﷺ وقال : « اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس » (١) ؛ وهذا قول ابن عمر ، وأبي برزة ، وأبي هريرة ، والحسن ، والشعبي ، وسعيد بن جبير ، وأبي العالية ، ومجاهد ، وعطاء ، وعبيد بن عمير ، وقتادة ، والضحاك ، ومقاتل ، وهو اختيار الأزهري . قال الأزهري : لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس ، فيكون المعنى : أقم الصلاة من وقت زوال الشمس إلى غسق الليل ، فيدخل فيها الأولى ، والعصر ، وصلاتا غسق الليل ، وهما المشاءان ، ثم قال : (وقرآن الفجر) ، فهذه خمس صلوات .

والثاني : أنه غروبها ، قاله ابن مسعود (٢) ، والنخعي ، وابن زيد ، وعن ابن عباس كلقولين ، قال الفراء : ورأيت العرب تذهب في الدُّلوك إلى غيبوبة الشمس ، وهذا اختيار ابن قتيبة ، قال : لأن العرب تقول : دَلَكَ النجم : إذا غاب ؛ قال ذو الرمة :

مَصَابِيحٌ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُهَا مُنْجُومٌ وَلَا بِالْأَفَلَاتِ الدَّوَالِكِ (٣)

(١) رواه الطبري : ١٣٧/١٥ ، عن ابن أبي ليلى عن رجل عن جابر بن عبد الله ، ورواه أيضاً عن نبيح المنزي عن جابر بن عبد الله ، ونبيح المنزي : مجهول .

(٢) رواه ابن جرير : ١٣٤/١٥ ، والحاكم : ٣٦٣/٢ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وذكره الهيثمي في « الجمع » ٥١/٧ وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، وخرجه السيوطي في « الدر » ١٩٥/٤ وزاد نسبه إلى عبدالرزاق ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، من طرق عن ابن مسعود .

(٣) ديوانه : ٥١١ طبع المكتب الاسلامي ، و « غريب القرآن » : ٢٦٠ ، و « تفسير —

وتقول في الشمس : دلكتُ بِرَاحٍ^(١) ، يريدون : غربت ، والناظر قد وضع كفه على حاجبه ينظر إليها ، قال الشاعر :

والشمسُ قد كادتْ تَكُونُ دَنَفًا أدفعُها بالراحِ كسي تَزَحْلَفًا^(٢)

فشبها بالمريض [في] الدَّنَف ، لأنها قد همت بالغروب كما قارب الدَّنَف الموت ، وإنما ينظر إليها من تحت الكف ليعلم كم بقي لها إلى أن تغيب ، ويتوقى الشعاع بكفه . فعلى هذا ، المراد بهذه الصلاة : المغرب . فأما غسق الليل ، فظلامه .

وفي المراد بالصلاة المتعلقة بنسق الليل ثلاثة أقوال .

أحدها : العشاء ، قاله ابن مسعود . والثاني : المغرب ، قاله ابن عباس . قال القاضي أبو يعلى : فيحتمل أن يكون المراد بيان وقت المغرب ، أنه من غروب الشمس إلى غسق الليل . والثالث : المغرب والعشاء ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (وقرآنَ الفجر) المعنى : وأقم قراءة الفجر . قال المفسرون : المراد به : صلاة الفجر . قال الزجاج : وفي هذا فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لانكون إلا بقراءة ، حين سميت الصلاة قرآناً .

— القرطبي ، : ٣٠٣/١٠ ، و البحر المحيط ، : ٦٨/٦ ، و اللسان ، و د التاج ، : ذلك . مصابيح : يعني الابل تصبح في مباركها ، والآفات : الغائبات ، يقال : أفل النجم : إذا غاب ، والدوالك : يقال : دلكت الشمس : إذا غابت أو دنت للمغيب .

(١) راح ، بفتح الباء : اسم للشمس ، ومن كسر الباء ، فانه يعني أنه يضع الناظر كفه على حاجبه من شعاعها لينظر .

(٢) البيت للمعجاج ، ديوانه : ٨٢ ، و تهذيب الألفاظ ، : ٣٩٣ ، و مجاز القرآن ، : ٣٨٨/١ ، و غريب القرآن ، : ٢٦٠ ، و الطبري ، : ١٣٧/١٥ ، و تفسير القرطبي ، : ٣٠٣/١٠ ، و د الجهرة ، : ٢١٨/٢ ، وفي اللسان ، : زحلف . يقال للشمس إذا مالت للمغيب ، وزالت عن كبد السماء نصف النهار : قد زحلفت .

قوله تعالى : (إن قرآن الفجر كان مشهوداً) روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : « تشهد ملائكة الليل ، وملائكة النهار » (١) .

قوله تعالى : (ومن الليل فتهجد به) قال ابن عباس : فصل بالقرآن . قال مجاهد ، وعلقمة ، والأسود : التهجد بعد النوم . قال ابن قتيبة : تهجدت : سهرت ، وهجدت : نمت . وقال ابن الأنباري : التهجد هاهنا بمعنى : التيقظ والسهر ، واللغويون يقولون : هو من حروف الأضداد ؛ يقال للنائم : هاجد ومتهجد ، وكذلك للساهر ، قال النابغة :

وَلَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطِ رَاهِبٍ عَبْدَ إِلَهِ صَرُورَةٍ مُتَهَجِّدٍ
لَرَنَا لِبَهْجَتِهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا وَخَالَهُ رَشْدًا وَإِنْ لَمْ يَرشُدِ (٢)

يعني بالتهجد : الساهر ، وقال ليبيد :

قَالَ هَجْدُنَا فَقَدْ طَالَ الشَّرَى [وَقَدَرْنَا إِنْ خَنَّا الدَّهْرَ غَفْلًا] (٣)

(١) د المسند ، : ٢٣٨/١٣ ، وابن ماجه : ٢٢٠/١ ، والنسائي : ٢٤١/١ ، و د الترمذي ، : ١٤١/٢ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وروى الامام أحمد في المسند ، : ١٧٢/١٢ ، و د البخاري ، : ٣٠٢/٨ ، و د مسلم ، ٤٥٠/١ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « تفضل صلاة في الجميع على صلاة الرجل وحده خمساً وعشرين درجة » قال : « ونجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر » قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) .

(٢) البيتان في ديوانه : ٣١ ، و د مختار الشعر الجاهلي ، : ١٨٦/١ ، و د أضداد ابن الأنباري ، : ٥٢ . والأشمت : الذي دب في رأسه الشيب ، والضرورة : الذي لم يذنب مطلقاً ، أو الذي لم يتزوج .

(٣) ديوانه : ١٨٢ ، و د الاقتضاب ، : ١٨٤ ، و د الخزانة ، : ٢٨/٢ ، و د أضداد ابن الأنباري ، : ٥١ ، و د أضداد ابن السكيت ، : ١٩٤ ، و د أضداد الحلبي ، : ٦٧٩ ، و د اللسان ، : هجد ، وسرى ، وصلة البيت قبله : —

أي : نَوَمْنَا . وقال الأزهري : المتَّجِد : القائم إلى الصلاة من النوم . وقيل له : متَّجِد ، لإلقائه الهُجُود عن نفسه ، كما يقال : تَحَرَّج وتَأْتَم .

قوله تعالى : (نَافِلَةٌ لَكَ) النافلة في اللغة : ما كان زائداً على الأصل .

وفي معنى هذه الزيادة في حقه قولان .

أحدهما : أنها زائدة فيما فُرض عليه ، فيكون المعنى : فريضة عليك ، وكان

قد فرض عليه قيام الليل ، هذا قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير .

والثاني : أنها زائدة على الفرض ، وليست فرضاً ؛ فالمعنى : تطوعاً وفضيلة .

قال أبو أمامة ، والحسن ، ومجاهد : إنما النافلة للنبي ﷺ خاصة . قال مجاهد :

وذلك أنه قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فما زاد على فرضه فهو نافلة

له وفضيلة ، وهو لغيره كفارة ^(١) . وذكر بعض أهل العلم : أن صلاة الليل كانت

فرضاً عليه في الابتداء ، ثم رخص له في تركها ، فصارت نافلة . وذكر ابن الأنباري

في هذا قولين .

أحدهما : يقارب مقاله مجاهد ، فقال : كان رسول الله ﷺ إذا تنفل

وَجُودٍ مِنْ سُبَابَاتِ الْكُرَى عَاطِفِ النَّمْرِقِ صَدَقِ الْمُبْتَذِلِ

والجود : الذي يجهد من الناس وغيره ، وقوله : عاطف النمروق ؛ يريد : عطف غرقته وتناها

فنام ، وصدق المتذل ، أي : جلد قوي لا يغير عند ابتذاله نفسه ولا يسقط . قال ابن السيد

في شرح البيتين : وصف نفسه بالجلد في السفر ، وكثرة السهر حتى يتأذى رفيقه بذلك ،

فيقول له : خلينا ننام ونستريح . . . قد قدرنا على ما يزيد ، ووصلنا إلى ما نحب ، إن غفل عنا

الدهر ولم يفسد علينا أمرنا ، فليمَّ نجهد أنفسنا بطول الشرى ، ونغنع أعيننا للذيذ الكرى ١٢ .

(١) د السند ، : ٢٩١/٣ ، والترمذي : ١٤٢/٢ وقال : حديث حسن صحيح ، ونقله

ابن كثير في تفسيره ، : ٥٨/٣ ، وأقر تصحيح الترمذي إياه ، وصححه أيضاً الشيخ

أحمد شاكر . وفي سننه قابوس بن أبي ظبيان الجنبي ، لينة الحافظ في التلخيص .

لا يقدر له أن يكون بذلك ماحياً للذنوب ، لأنه قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وغيره إذا تنفَّلَ كان راجياً ، ومقدراً محو السيئات عنه بالتنفل ، فالنافلة لرسول الله ﷺ زيادة على الحاجة ، وهي لغيره مفتقر إليها ، ومأمول بها دفع المكروه . والثاني : أن النافلة للنبي ﷺ وأُمَّته ، والمعنى : ومن الليل فتهجدوا به نافلة لكم ، فخطب النبي ﷺ بخطاب أُمَّته .

قوله تعالى : (عسى أن يبعثك ربك) « عسى » من الله واجبة ، ومعنى « يبعثك » يقيمك (مقاماً محموداً) وهو الذي يحمده لأجله جميع أهل الموقف . وفيه قولان .

أحدهما : أنه الشفاعة للناس يوم القيامة ، قاله ابن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وابن عمر ، وسلمان الفارسي ، وجابر بن عبد الله ، والحسن ، وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد (١) .

والثاني : يجلسه على العرش يوم القيامة . روى أبو وائل عن عبد الله أنه قرأ هذه الآية ، وقال : يُقَمَّده على العرش ، وكذلك روى الضحاك عن ابن عباس ، وليث عن مجاهد .

قوله تعالى : (وقل رب أدخلني مدخل صدق) وقرأ الحسن ، وعكرمة ، والضحاك ، وحמיד بن قيس ، وقتادة ، وابن أبي عجلة بفتح الميم في « مدخل »

(١) في صحيح البخاري ، عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً ، كل أمة تتبع نبيها ، تقول : يا فلان اشفع ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ ، فذلك يوم يمسه الله المقام الحمود . قال الحافظ ابن حجر في « تخریج أحاديث الكشاف » : وفي الباب عن أنس عند البخاري في التوحيد ، وعن ابن مسعود عند النسائي والحاكم ، وله طريق آخر عند أحمد والحاكم مطولاً ، وعن كعب بن مالك عند الحاكم ، وأصله عند مسلم ، وعن جابر عند أحمد والحاكم ، واختلف في وصله وإرساله على الزهري عن علي بن الحسين وعن أبي سعيد عند الترمذي وابن ماجه ، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند ابن مردويه .

و « مخرج » . قال الزجاج : المدخل ، بضم الميم : مصدر أدخلته مُدخلاً ، ومن قال :
مَدخل صدق ، فهو على أدخلته ، فدخل مَدخل صدق ، وكذلك شرح
« مخرج » مثله .

وللمفسرين في المراد بهذا المدخل والمخرج أحد عشر قولاً .

أحدها : أدخلني المدينة مدخل صدق ، وأخرجني من مكة مخرج صدق .
روى أبو ظبيان عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ بمكة ، ثم أمر بالهجرة ،
فزلت عليه هذه الآية . وإلى هذا المعنى ذهب الحسن في رواية سعيد بن جبير ،
وقتادة ، وابن زيد .

والثاني : أدخلني القبر مُدخل صدق ، وأخرجني منه مُخرج صدق ، رواه
العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أدخلني المدينة ، وأخرجني إلى مكة ، يعني : لفتحها ، رواه أبو صالح
عن ابن عباس .

والرابع : أدخلني مكة مدخل صدق ، وأخرجني منها مخرج صدق ، فخرج منها
آمناً من المشركين ، ودخلها ظاهراً عليها يوم الفتح ، قاله الضحاك .
والخامس : أدخلني مُدخل صدق الجنة ، وأخرجني مخرج صدق من مكة إلى
المدينة ، رواه قتادة عن الحسن .

والسادس : أدخلني في النبوة والرسالة ، وأخرجني منها مخرج صدق ، قاله
بجاهد ، يعني : أخرجني مما يجب علي فيها .

والسابع : أدخلني في الإسلام ، وأخرجني منه ، قاله أبو صالح ؛ يعني : من
أداء ماوجب علي فيه إذا جاء الموت .

والثامن : أدخلني في طاعتك ، وأخرجني منها ، أي ، سالماً غير مقصر في أدائها ، قاله عطاء .

والتاسع : أدخلني النار ، وأخرجني منه ، قاله محمد بن المنكدر .

والعاشر : أدخلني في الدين ، وأخرجني من الدنيا وأنا على الحق ، ذكره الزجاج .

والحادي عشر : أدخلني مكة ، وأخرجني إلى حنين ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

وأما إضافة الصدق إلى المُدخل والمُخرج ، فهو مدح لهما . وقد شرحنا هذا

المعنى في سورة (يونس : ٢) .

قوله تعالى : (واجعل لي من لدنك) أي : من عندك (سلطاناً) وفيه

ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه تسلط على الكافرين بالسيف ، وعلى المنافقين بأقامة الحدود ، قاله

الحسن . والثاني : أنه الحجة البيّنة ، قاله مجاهد . والثالث : الملك العزيز الذي

يُتَهَرَّبُ به العصاة ، قاله قتادة . وقال ابن الأنباري : وقوله : (نصيراً) يجوز أن

يكون بمعنى مُنصِراً ، ويصلح أن يكون تأويله ناصراً .

قوله تعالى : (وقل جاء الحق ، وزهق الباطل) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن الحق : الإسلام ، والباطل : الشرك ، قاله أبو صالح عن

ابن عباس . والثاني : أن الحق : القرآن ، والباطل : الشيطان ، قاله قتادة . والثالث :

أن الحق : الجهاد ، والباطل : الشرك ، قاله ابن جريج . والرابع : الحق : عبادة

الله ، والباطل : عبادة الأوثان ، قاله مقاتل . ومعنى « زهق » : بطل واضمحلاً .

وكل شيء هلك وبطل فقد زهق . وزهقت نفسه : تلفت .

وروى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ دخل مكة وحول البيت ثلاثمائة

وستون صنماً ، فجعل يطمئنها ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً (۱) .

فان قيل : كيف قلتم : إن « زهق » بمعنى بطل ، والباطل موجود معمول عليه عند أهله ؟

فالجواب : أن المراد من بطلانه وهلكته : وضوح عيبه ، فيكون هالكاً عند المتدبر الناظر .

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوشِفاءَ وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ
وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً ﴾

قوله تعالى : (ونزل من القرآن ماهوشفاء) « من » هاهنا لبيان الجنس ، فجميع القرآن شفاء . وفي هذا الشفاء ثلاثة أقوال .

أحدها : شفاء من الضلال ، لما فيه من الهدى . والثاني : شفاء من السقم ، لما فيه من البركة . والثالث : شفاء من البيان للفرائض والأحكام .

وفي « الرحمة » قولان . أحدهما : النعمة . والثاني : سبب الرحمة .

قوله تعالى : (ولا يزيد الظالمين) يعني المشركين (إلا خساراً) لأنهم يكفرون به ، ولا ينتفعون بمواعظه ، فيزيد خسارهم .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا . قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾

(۱) البخاري : ۳۰۳/۸ ، ومسلم : ۱۴۰۸/۳ ، والترمذي : ۱۴۲/۳ من طرق عن سفيان ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود

قوله تعالى : (وإذا أنعمنا على الإنسان) قال ابن عباس : الإنسان هاهنا : الكافر ، والمراد به الوليد بن المغيرة . قال المفسرون : وهذا الإنعام : سعة الرزق ، وكشف البلاء . (ونأى بجانبه) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : « ونأى » على وزن « نعى » بفتح النون والهمزة . وقرأ ابن عامر : « ناء » مثل « باع » . وقرأ الكسائي ، وخلف عن سليم عن حمزة : « وناء » بامالة النون والهمزة . وروى خلاد عن سليم : « نئي » بفتح النون ، وكسر الهمزة ؛ والمعنى : تباعد عن القيام بحقوق النعم ، وقيل : تعظم وتكبر . (وإذا مسه الشر) أي : نزل به البلاء والفقر (كان يؤوساً) أي : قنوطاً شديد اليأس ، لا يرجو فضل الله .

قوله تعالى : (قل كلُّ يعمل على شاكلته) فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : على ناحيته ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير . قال الفراء : الشاكلة : الناحية ، والجديلة ، والطريقة ، سمعت بعض العرب يقول : وعبد الملك إذ ذاك على جديته ، وابن الزبير على جديته ، يريد : على ناحيته . وقال أبو عبيدة : على ناحيته وخليقته . وقال ابن قتيبة : على خليقته وطبيعته ، وهو من الشكل . يقال : لست على شكلي ، ولا شاكلي وقال الزجاج : على طريقته ، وعلى مذهبه .

والثاني : على نيته ؛ قاله الحسن ، ومعاوية بن قرة . وقال الليث : الشاكلة من الأمور : ما وافق فاعله .

والثالث : على دينه ، قاله ابن زيد . وتحرير المعنى : أن كل واحد يعمل على طريقته التي تشاكل أخلاقه ، فالكافر يعمل ما يشبه طريقته من الإعراض عند النعم واليأس عند الشدة ، والمؤمن يعمل ما يشبه طريقته من الشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ، والله يجازي الفريقين . وذكر أبو صالح عن ابن عباس : أن

هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) [التوبة : ٥] ،
وليس بشيء .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ
مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

قوله تعالى : (ويسألونك عن الروح) في سبب نزولها قولان .
أحدهما : أن رسول الله ﷺ أمر بناس من اليهود ، فقالوا : سألوه عن
الروح ؟ فقال بعضهم : لا نسأله ، فيستقبلكم بما تكرهون . فأتاه نفر منهم ،
فقالوا : يا أبا القاسم : ما تقول في الروح ؟ فسكت ، ونزلت هذه الآية ، قاله
ابن مسعود (١) .

والثاني : أن اليهود قالت لقريش : سلوا محمداً عن ثلاث ، فإن أخبركم عن
اثنين وأمسك عن الثالثة فهو نبي ؛ سلوه عن فتية فقدوا ، وسلوه عن ذي القرنين ،
وسلوه عن الروح . فسألوه عنها ، ففسر لهم أمر الفتية في الكهف ، وفسر لهم
قصة ذي القرنين ، وأمسك عن قصة الروح ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطاء عن
ابن عباس .

(١) د السند : ٢٥٤/٥ ، والبخاري : ٣٠٣/٨ ، ومسلم : ٢١٥٢/٤ ، والترمذي : ١٤٢/٢ ،
وانظر ابن كثير ٦٠/٣ في الكلام على سبب نزول هذه الآية . وأخرج أحمد والترمذي وصححه
والنسائي وابن المنذر وابن حبان والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنها قال : قالت
قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسال هذا الرجل ، فقال : سلوه عن الروح ، فسألوه ، فنزلت
(ويسألونك عن الروح قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) قالوا : أوتينا
علماً كثيراً ؛ أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وأنزل الله تعالى :
(قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا
بمثله مدداً) .

زاد المسير ٥ م (٦)

وفي المراد بالروح هاهنا ستة أقوال .

أحدها : أنه الروح الذي يحيا به البدن ، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس . وقد اختلف الناس في ماهية الروح ، ثم اختلفوا هل الروح النفس ، أم هما شيئان فلا يحتاج إلى ذكر اختلافهم لأنه لا برهان على شيء من ذلك وإِنما هو شيء أخذوه عن الطب والفلاسفة ؛ فأما السلف ، فانهم أمسكوا عن ذلك ، لقوله تعالى : (قل الروح من أمر ربي) ، فلما رأوا أن القوم سألوا عن الروح فلم يجابوا ، و لوحي ينزل ، والرسول حي ، علموا أن السكوت عما لم يُحَظَّ بحقيقة علمه أولى .

والثاني : أن المراد بهذا الروح : ملك من الملائكة على خيطة هائلة ، روى عن علي عليه السلام ، وابن عباس ، ومقاتل .
والثالث : أن الروح : خلق من خلق الله عز وجل صورهم على صور بني آدم ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

والرابع : أنه جبريل عليه السلام ، قاله الحسن ، وقتادة .

والخامس : أنه القرآن ، روى عن الحسن أيضاً .

والسادس : أنه عيسى بن مريم ، حكاه الماوردي . قال أبو سليمان الدمشقي : قد ذكر الله تعالى الروح في مواضع من القرآن ، فعالب ظني أن الناقلين نقلوا تفسيره من موضعه إلى موضع لا يليق به ، وظنوه مثله ، وإِنما هو الروح الذي يحيى به ابن آدم . وقوله : (من أمر ربي) أي : من علمه الذي منع أن يعرفه أحد .
قوله تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) في المخاطبين بهذا قولان .
أحدهما : أنهم اليهود ، قاله الأكثر كثرون .

والثاني : أنهم جميع الخلق ، عليهم قليل بالإضافة إلى علم الله عز وجل ، ذكره الماوردي .

فان قيل : كيف الجمع بين هذه الآية ، وبين قوله تعالى : (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) [البقرة : ٢٦٩] ؟

فالجواب : أن ما أوتيته الناس من العلم ، وإن كان كثيراً ، فهو بالإضافة إلى علم الله قليل .

﴿ وَائْتِنَا شَيْئًا كَلِمَةً نُنزِّلُهَا بِالسَّمَوَاتِ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ تِمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا . إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾

قوله تعالى : (وائتن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك) قال الزجاج : المعنى : لو شئنا لمحوناه من القلوب والكتب ، حتى لا يوجد له أثر ، (ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً) أي : لا تجد من يتوكل [علينا] في رد شي منه ، (إلا رحمة من ربك) هذا استثناء ليس من الأول ، والمعنى : لكن الله رحمتك فأثبت ذلك في قلبك وقلوب المؤمنين . وقال ابن الأنباري : المعنى : لكن رحمة من ربك تمنع من أن تُسلب القرآن ، وكان المشركون قد خاطبوا نساء من المسلمين في الرجوع إلى دين آبائهم ، فهدم الله عز وجل بسلب النعمة ، فكان ظاهر الخطاب للرسول ، ومعنى التهدد للأمة . وقال أبو سليمان : « ثم لا تجد لك به » أي : بما فعله بك ، من إذهاب ما عندك « وكيلاً » بدفنا عما يزيدك . وروي [عن] عبد الله ابن مسعود أنه قال : يسرى على القرآن في ليلة واحدة ، فيجيء جبريل من جوف الليل ، فيذهب به من صدورهم ومن بيوتهم ، فيصبحون لا يقرؤون آية ،

ولا يحسنونها^(۱) . ورد أبو سليمان الدمشقي صحة هذا الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً »^(۲) ، وحديث ابن مسعود مروى من طرُقِ حسان ، فيحتمل أن يكون النبي ﷺ أراد بالعلم ما سوى القرآن ، فان العلم ما يزال ينقرض حتى يكون رفع القرآن آخر الأمر^(۳) .

﴿ قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

قوله تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن) قال المفسرون : هذا تكذيب للنضر بن الحارث حين قال : « لو شئنا لقلنا مثل هذا » . والمثل الذي طلب منهم : كلام له نظم كنظم القرآن ، في أعلى طبقات البلاغة . والظهير : المعين .

(۱) ذكره الحافظ ابن حجر في « الفتح » ۱۳/۱۳ من رواية الطبراني عن عبد الله بن مسعود قال : « ولينزعن القرآن من بين أظهركم ، يسرى عليه ليلاً ، فيذهب من أجواف الرجال فلا يبقى في الأرض منه شيء » ، وقال الحافظ : وسنده صحيح ، لكنه موقوف .

(۲) البخاري ۱/۱۷۴ ، ومسلم ۴/۲۰۵۸ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، ولفظه في البخاري « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

(۳) روى ابن ماجه رقم (۴۰۴۹) بسند قوي عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يدرس الاسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدري ما صيام ولا صلاة ولا نكاح ولا صدقة ، وليسرى على كتاب الله عز وجل في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية ، وتبقى طوائف من الناس ، الشيخ الكبير ، والمعجوز ، يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة : « لا إله إلا الله » فزججنا قلوبها » ، فقال له صلة : ماتني عنهم « لا إله إلا الله » وم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نكاح ولا صدقة ، فأعرض عنه حذيفة ، ثم ردها عليه ثلاثاً ، كل ذلك بعرض عنه حذيفة ، ثم أقبل عليه في الثالثة ، فقال : يا صلة ، تنجيهم من النار ، ثلاثاً . قال في « الزوائد » : إسناده صحيح .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا . وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُؤْيَاكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾

قوله تعالى : (ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن) قد فسّرناه في هذه السورة [الاسراء : ٤١] ، والمعنى : من كل مثل من الأمثال التي يكون بها الاعتبار (فأبى أكثر الناس) يعني أهل مكة (إلا كفوراً) أي : جحوداً للحق وإنكاراً .
قوله تعالى : (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) سبب نزول هذه الآية وما يتبعها ، أن رؤساء قريش ، كعتبة ، وشيبة ، وأبي جهل ، وعبد الله بن أبي أمية ، والنضر بن الحارث في آخرين ، اجتمعوا عند الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تنعذروا فيه ، فبئسوا إليه : إن أشرف قومك قد اجتمعوا ليكلّموك ، فجاءهم سريعاً ، وكان حريصاً على رشدهم ، فقالوا : يا محمد ، إنا والله لانعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفّمت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فان كنت إنما جئت بهذا لتطلب مالا ، جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا ، سوذناك علينا ، وإن كان هذا الرئي الذي يأتيك قد غلب عليك ، بذلنا أموالنا في طلب الطيب لك حتى نبرئك منه ، أو ننعذر فيك . فقال رسول الله ﷺ : « إن اتقبلوا

مِنبِي [ماجئكم به] ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه ^(١) عليّ ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم . قالوا : يا محمد ، فإن كنتَ غيرَ قابلٍ مِنّا ما عرضنا ، فقد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أضيقَ بلاداً ولا أشدَّ عيشاً منا ، سل لنا ربك يُسيرَ لنا هذه الجبال التي ضيّقت علينا ، ويُجري لنا أنهاراً ، ويبعث من مضي من آباؤنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخاً صدوقاً ، فساءلهم عما تقول : أحق هو ؟ فإن فعلت صدقناك ، فقال رسول الله ﷺ : « ما بهذا بُعثتُ ، وقد أبلغتكم ما أرسلتُ به » ؛ قالوا : فسَلْ رَبَّكَ أَنْ يبعثَ مَلَكاً يصدِّقُكَ ، وسله أن يجعل لك جناناً ، وكنوزاً ، وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك ؛ قال : « ما أنا بالذي يسأل ربه هذا » ؛ قالوا : فأسقط ^(٢) السماء [علينا] كما زعمت بأن ربك إن شاء فعل ؛ فقال : « ذلك إلى الله عز وجل » ؛ فقال قائل منهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، وقال عبد الله بن أبي أمية : لا تؤمن لك حتى تتخذ إلى [السماء] سُلماً ، وترقى فيه وأنا أنظر ، وتأتي بنسخة منشورة معك ، وتقر من الملائكة يشهدون لك ، فانصرف رسول الله ﷺ حزينا لما رأى من مبادئهم إياه ، فأنزل الله تعالى : (وقالوا لن نؤمن لك . . .) الآيات ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

قوله تعالى : (حتى تفجر) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « حتى تُفجِّر » بضم التاء ، وفتح الفاء ، وتشديد الجيم مع الكسرة . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « حتى تَفجِّر » بفتح التاء ، وتسكين الفاء ، وضم الجيم مع التخفيف . فمن ثقل ، أراد كثرة الانفجار من الينبوع ، ومن خفف ، فلأن

(١) في الأصل : تردوا . (٢) في الأصل : فتسقط ، والتصحيح من الطبري ، وابن كثير ، والدر .

الينبوع واحد . فأما الينبوع : فهو عين ينبع الماء منها ؛ قال أبو عبيدة : هو يَفْعُول ، من نبع الماء ، أي : ظهر وفار .

قوله تعالى : (أو تكون لك جنة) أي : بستان (فتفجر الأنهار) أي : تفتحها وتجريها (خلالها) أي : وسط تلك الجنة .

قوله تعالى : (أو تُسْقَطَ السماء) وقرأ مجاهد ، وأبو مجلز ، وأبو رجا ، وحמיד ، والجحدري : « أو تُسْقَطُ » بفتح التاء ، ورفع القاف « السماء » بالرفع .

قوله تعالى : (كِسْفًا) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمة ، والكسائي : « كِسْفًا » بتسكين السين في جميع القرآن إلا في (الروم : ٤٨) فانهم حرّكوا

السين . وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم بتحريك السين في الموضعين ، وفي باقي القرآن بالتسكين . وقرأ ابن عامر هاهنا بفتح السين ، وفي باقي القرآن بتسكينها .

قال الزجاج : من قرأ « كِسْفًا » بفتح السين ، جعلها جمع كِسْفَةٍ ، وهي : القطعة ، ومن قرأ « كِسْفًا » بتسكين السين ، فكأنهم قالوا : أُسْقِطُهَا طبقاً علينا ؛ واشتقاقه

من كسفتُ الشيء : إذا غطيته ، يعنون : أسقطها علينا قطعة واحدة . وقال ابن الأنباري : من سكتن قال : تأويله : سترأ وتغطية ، من قولهم : قد انكسفت الشمس :

إذا غطاها ما يحول بين الناظرين إليها وبين أنوارها .

قوله تعالى : (أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : عياناً ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، وابن جريج ، ومقاتل . وقال أبو عبيدة : معناه : مقابلة ، أي : معاينة ، وأنشد للأعشى :

نُصَالِحُكُمْ حَتَّى تَبُوءُوا بِمِثْلِهَا

كَصَرْخَةِ حُبْلَى بِسَرْتِهَا قَبِيلُهَا^(١)

(١) « الطبري » ، ١٦٢/١٥ . وهو في ملحق ديوان الأعشى ٢٥٦ برواية « شواهد الكشاف » ،

٢٤٧ ، و « اللسان » : قبل . وعجز البيت في « الاصلاح » ، ١٦٠ ، و « فتح الباري » ، ٢٩٨/٨ .

أي : قابِلَتُهَا . و يروى : وَجَّهَتْهَا [يعني بدل : يسرتها] .

والثاني : كَفِيلاً أَنْكَ رَسُولَ اللَّهِ ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره

الفراء ، قال : القَبِيلُ ، والكَفِيلُ ، والزعيم ، سواء ؛ تقول : قَبَلْتُ ، وكَفَلْتُ ، وزَعَمْتُ .

والثالث : قَبِيلَةٌ قَبِيْلَةٌ ، كل قبيلة على حَدِّتها ، قاله الحسن ، ومجاهد . فأما

الزخرف ، فالمراد به الذهب ، وقد شرحنا أصل هذه الكلمة في (يونس : ٢٤) ،

و « ترقى » : بمعنى « تصعد » ؛ يقال : رَقَيْتُ أَرْقَى رُقِيًّا .

قوله تعالى : (حتى نُنزِلَ عَلَيْنا كتاباً) قال ابن عباس : كتاباً من رب

العالمين إلى فلان بن فلان يصبح عند كل واحد منا يقرؤه .

قوله تعالى : (قل سبحان ربي) قرأ نافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمة ،

والكسائي : « قل » . وقرأ ابن كثير ، وابن عامر : « قال » ، وكذلك هي في

مصاحف أهل مكة والشام ، (هل كنتُ إلا بشراً رسولاً) ، أي : أن هذه

الأشياء ليست في قوى بشر .

فإن قيل : لم اقتصر على حكاية « قالوا » من غير إيضاح الرد ؟

فالجواب : أنه لما خصهم بقوله تعالى : (قل ائن اجتمعت الإنس والجن

على أن يأنوا بمثل هذا القرآن) فلم يكن في وسعهم ، عجزهم ، فكأنه يقول : قد

أوضحت لكم بما سبق من الآيات ما يدل على نبوتِّي ، ومن ذلك التحدِّي بمثل

هذا القرآن ، فأما عننكم فليس في وسعي ، ولا هم ألحوا عليه في هذه الأشياء ،

ولم يسألوه أن يسأل ربه ، فردَّ قولهم بكونه بشراً ، فكفى ذلك في الردِّ .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا

أُبَعثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا . قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمشُونَ

مُطْمَئِنِّينَ لَنزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا . قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ
شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿

قوله تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا) قال ابن عباس : يريد أهل مكة .
قال المفسرون : ومعنى الآية : وما منعهم من الإيمان (إذ جاءهم الهدى) وهو
البيان والإرشاد في القرآن (إلا أن قالوا) [أي : إلا] قولهم في التعجب والإنكار :
(أبعث الله بشراً رسولاً) ؟ وفي الآية اختصار ، تقديره : هلا بعث الله ملكاً
رسولاً ، فأجيبوا على ذلك بقوله تعالى : (قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون
مطمئنين) أي : مستوطنين الأرض . ومعنى الطمأنينة : السكون ؛ والمراد من
الكلام أن رسول كل جنس ينبغي أن يكون منهم .

قوله تعالى : (قل كفى بالله شهيداً) قد فسرناه في (الرعد : ٤٣) (إنه
كان بعباده خبيراً بصيراً) قال مقاتل : حين اختص الله محمداً بالرسالة .

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ
أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً
وَبُكماً وَصُمّاً مَا أَوْهَمُ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً . ذَلِكَ
جَزَاءُ هُمْ بِآثَمِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا
إِنَّا لَنَبْعَثُونَ خَلْقًا جَدِيداً . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ
فِيهِ فَأَتَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً . قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خِزَائِنَ
رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً ﴿

قوله تعالى : (من يهدي الله فهو المهتدي) قرأ نافع ، وأبو عمرو بالياء في
الوصل ، وحذفها في الوقف . وأثبتها يعقوب في الوقف ، وحذفها الاكثر في

الحالين . « من يهد الله » قال ابن عباس : من يرد الله هداه (فهو المهتد ومن يُضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه) يهدونهم .

قوله تعالى : (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه يمشيهم على وجوههم ، وشاهده ما روى البخاري ومسلم في « صحيحهما » من حديث أنس بن مالك أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : « إن الذي أمشاه على رجله في الدنيا ، قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » (١) .

والثاني : أن المعنى : ونحشرهم مسحوبين على وجوههم ، قاله ابن عباس .

والثالث : نحشرهم مسرعين مبادرين ، فعبر بقوله : « على وجوههم » عن الإسراع ، كما تقول العرب : قد مرَّ القوم على وجوههم : إذا أسرعوا ، قاله ابن الأنباري .

قوله تعالى : (عمياً وبكماً وصماً) فيه قولان .

أحدهما : عمياً لا يرون شيئاً يسرهم ، وبكماً لا ينطقون بحجة ، وصماً لا يسمعون شيئاً يسرهم ، قاله ابن عباس . وقال في رواية : عمياً عن النظر إلى ما جعل لأوليائه ، وبكماً عن مخاطبة الله ، وصماً عما مدح به أوليائه ، وهذا قول الأكثرين .

والثاني : أن هذا الحشر في بعض أحوال القيامة بعد الحشر الأول . قال مقاتل : هذا يكون حين يقال لهم : (اخسئوا فيها) [المؤمنون : ١٠٨] فيصيرون عمياً بكماً صماً لا يرون ولا يسمعون ولا ينطقون بعد ذلك .

قوله تعالى : (كلما خبَّت) قال ابن عباس : أي : سكنت . قال المفسرون : وذلك أنها تأكلهم ، فاذا لم تُبق منهم شيئاً وصاروا فجاً ولم تجد شيئاً تأكله ،

(١) البخاري : ٣٧٨/٨ ، ومسلم : ٢١٦١/٤ .

سكنت ، فيعادون خلقاً جديداً ، فتعود لهم . وقال ابن قتيبة : يقال : خبت النار : إذا سكن لهبها . قالهيب يسكن ، والجر يعمل ، فان سكن اللهب ، ولم يُطفأ الجمر ، قيل : خمدت تخمُدُ خموداً ، فان طفت ولم يبق منها شيء ، قيل : خمدت تخمُدُ خموداً . ومعنى (زدناهم سميراً) : ناراً تسمر ، أي : تلهب . وما بعد هذا قد سبق تفسيره [الاسراء : ٤٩] إلى قوله : (قادر على أن يخلق مثاهم) أي : على أن يخلقهم مرة ثانية ، وأراد بـ « مثاهم » إياهم ، وذلك أن مثل الشيء مساوٍ له ، فجاز أن يعبر به عن نفس الشيء ، يقال : مثلك لا يفعل هذا ، أي : أنت ، ومثله قوله : (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به) [البقرة : ١٣٧] ، وقد تم الكلام عند قوله : (مثاهم) ، ثم قال : (وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه) يعني : أجل البعث (فأبى الظالمون إلا كفوراً) أي : جحوداً بذلك الأجل . قوله تعالى : (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي) قال الزجاج : المعنى :

لو تملكون أنتم ، قال الملمس :

وَلَوْ غَيْرُ أَخْوَالِي أَرَادُوا نَقِيصَتِي نَصَبْتُ لَهُمْ فَوْقَ الْعَرَانِينَ مِيسَمًا^(١)

المعنى : لو أراد غير أخوالي .

وفي هذه الخزائن قولان .

أحدهما : خزائن الأرزاق . والثاني : خزائن النعم ، فيخرج في الرحمة قولان .

أحدهما : الرزق . والثاني : النعمة . وتحرير الكلام : لو ملكتم ما يملكه

الله عز وجل لا مسكنكم عن الإنفاق خشية الفاقة . (وكان الإنسان) يعني : الكافر

(قنورا) أي : بخيلاً ممسكاً ؛ يقال : قتر يقتر ، وقتر يقتر ، إذا قصر

في الإنفاق . وقال الماوردي : لو ملك أحد من المخلوقين من خزائن الله تعالى ، لما جاد

(١) البيت في اللسان : : نقص .

كجود الله تعالى ، لأمرين . أحدهما : أنه لا بد أن يُمسِك منه لنفقتة ومنفقتة .
والثاني : أنه يخاف الفقر ، والله تعالى منزّه في جُوده عن الحالين .

ثم إن الله تعالى ذكر إنكار فرعون آيات موسى ، تشبيهاً بحال هؤلاء المشركين ،
فقال : (ولقد آتينا موسى تسع آيات) وفيها قولان .

أحدهما : أنها بمعنى المعجزات والدلالات ، ثم اتفق جمهور المفسرين على سبع
آيات منها ، وهي : يده ، والمعصا ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ،
والدم ، واختلفوا في الآيتين الأخرتين على ثمانية أقوال . أحدها : أنها لسانه والبحر
الذي فلق له ، رواه العوفي عن ابن عباس ؛ يعني بلسانه : أنه كان فيه عقدة فحلّها
الله تعالى له . والثاني : البحر والجبل الذي نُتق فوقهم ، رواه الضحاك عن ابن
عباس . والثالث : السنون ونقص الثمرات ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه
قال مجاهد ، والشعبي ، وعكرمة ، وقتادة . وقال الحسن : السنون ونقص الثمرات
آية واحدة . والرابع : البحر والموت أرسل عليهم ، قاله الحسن ، ووهب .
والخامس : الحَجْر والبحر ، قاله سعيد بن جبیر . والسادس : لسانه وإلقاء المعصا
مرتين عند فرعون ، قاله الضحاك . والسابع : البحر والسنون ، قاله محمد بن
كعب . والثامن : ذكره [محمد بن إسحاق عن] محمد بن كعب أيضاً ، فذكر
السبع الآيات الأولى ، إلا أنه جعل مكان يده البحر ، وزاد الطمسة والحجر ،
يعني قوله : (اطمس على أموالهم) [يونس : ٨٨] .

والثاني : أنها آيات الكتاب ، روى أبو داود السجستاني من حديث صفوان
ابن عسال ، أن يهودياً قال لصاحبه : تعال حتى نسأل هذا النبي ، فقال الآخر : لا نقل :
إنه نبيٌّ ، فانه لو سمع ذلك ، صارت له أربعة أعين ؛ فأَتياه ، فسألاه عن تسع آيات
يبينات ، فقال : « لا تُشركوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ،

ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تأكلوا الرِّبَا، ولا تمشوا بالبري إلى السلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تقذفوا المحصنات، ولا تفرُّوا من الزَّحف، وعليكم خاصة يهودُ ألا تعدُّوا في السبتِ»، قال : فقبلاً يده، وقالوا : نشهد أنك نبيٌّ (١).

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَثَلٌ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا . قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا . فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا . وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

قوله تعالى : (فاسأل بني إسرائيل) قرأ الجمهور : « فاسأل » على معنى الأمر لرسول الله ﷺ . وإنما أمر أن يسأل من آمن منهم عما أخبر [به] عنهم ، ليكون حجة

(١) كذا ذكر المؤلف الحديث من رواية أبي داود السجستاني عن صفوان بن عسال ، ولمزه في سنن أبي داود ، عن صفوان ، بل هو في مسند أحمد ، ٢٣٩/٤ ، و سنن الترمذي ٩٨/٢ ، والنسائي ، وابن ماجه رقم (٣٧٠٥) . ولفظه في الترمذي : فقبلوا يديه ورجليه ، وقالوا : نشهد أنك نبي ، قال : « فما منعكم أن تتبعوني ؟ » قالوا : إن داود عليه السلام دعا ربه أن لا يزال من ذريته نبي ، وإنما نخاف إن تبناك أن تقتلنا اليهود . وقال الترمذي في آخره : هذا حديث حسن صحيح . وقال ابن كثير في تفسيره ، ٦٧/٣ : وهو حديث مشكل ، وعبد الله بن سلمة - أحد الرواة - في حفظه شيء ، وقد تكلموا فيه ، ولله اشبه عليه التسع الآيات بالشر الكلمات ، فإنها وصايا في التوراة لاتنطق لها بقيام الحجية على فرعون ، والله أعلم . أما الذي في سنن أبي داود ، فهو من حديث ابن عمر في قصة رقم (٢٦٤٧) : فدوثنا - يعني من النبي ﷺ - فقبلنا يده ، وجاء مخضماً برقم (٥٢٢٣) ، وهو في سنن أبي داود ، أيضاً رقم (٥٢٢٥) من حديث زارع وكان في وفد عبد القيس قال : لما قدمنا المدينة ، فجعلنا نتبادر من رواحلتنا فنقبل يد النبي ﷺ ورجله . . . الحديث .

على من لم يؤمن منهم . وقرأ ابن عباس : « فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ » ، [على معنى]
الخبر عن موسى أنه سأل فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل . (فقال له فرعونُ
إِنِّي لَأُظَنُّكَ) أي : لأحسبك (ياموسى مسحوراً) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مخدوعاً ، قاله ابن عباس . والثاني : مسحوراً قد سحرته ، قاله
ابن السائب . والثالث : ساحراً ، فوضع مفعولاً في موضع فاعلٍ ، هذا مروى
عن الفراء ، وأبي عبيدة . فقال موسى : (لقد علمت) قرأ الجمهور بفتح
التاء . وقرأ علي عليه السلام بضمها ، وقال : والله ما علمت عدو الله ، ولكن موسى
هو الذي علم ، فبأن ذلك ابن عباس ، فاحتج بقوله تعالى : (وجحدوا بها
واستيقنتها أنفسهم) [النمل : ١٤] . واختار الكسائي وثعلب قراءة علي عليه السلام ،
وقد رويت عن ابن عباس ، وأبي رزين ، وسعيد بن جبير ، وابن عمر . واحتج
من نصرها بأنه لما نسب موسى إلى أنه مسحور ، أعلمه بصحة عقله بقوله :
« لقد علمت » ، والقراءة الأولى أصح ، لاختيار الجمهور ، ولأنه قد أبان موسى
من المعجزات ما أوجب علم فرعون بصدقه ، فلم يرد عليه إلا بالتعلل والمدافعة ،
فكانه قال : لقد علمت بالدليل والحجة « ما أنزل هؤلاء » بني الآيات . وقد
شرحنا معنى « البصائر » في (الأعراف : ٢٠٣) .

قوله تعالى : (وإني لأظنك) قال أكثر المفسرين : الظن هاهنا بمعنى العلم ،
على خلاف ظن فرعون في موسى ، وسوى بينهما بعضهم ، فجعل الأول بمعنى
العلم أيضاً .

وفي المنثور ستة أقوال .

أحدها : أنه الملمون ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .
والثاني : المغلوب ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثالث : الناقص العقل ، رواه

ميهون بن مهران عن ابن عباس . والرابع : المُهَلِّك ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال أبو عبيدة ، وابن قتيبة . قال الزجاج : يقال : مُنبر الرجل ، فهو مشبور : إذا أُهْلِكَ . والخامس : الهالك ، قاله مجاهد . والسادس : المنوع من الخير ؛ تقول العرب : ما تبرك عن هذا ، أي : ما منعك ، قاله الفراء .

قوله تعالى : (فأراد أن يستفزهم من الأرض) يعني : فرعون أراد أن يستفز بني إسرائيل من أرض مصر . وفي معنى « يستفزهم » قولان . أحدهما : يستأصلهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : يستخفهم حتى يخرجوا ، قاله ابن قتيبة . وقال الزجاج : جائز أن يكون استفزازهم إخراجهم منها بالقتل أو بالتنحية . قال العلماء : وفي هذه الآية تنبيه على نصره رسول الله ﷺ ، لأنه لما خرج موسى فطلبه فرعون ، هلك فرعون وملك موسى ، وكذلك أظهر الله نبيه بعد خروجه من مكة حتى رجع إليها ظاهراً عليها .

قوله تعالى : (وقتلنا من بعده) أي : من بعد هلاك فرعون (لبني إسرائيل اسكنوا الأرض) وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : فلسطين والأردن ، قاله ابن عباس . والثاني : أرض وراء الصين ، قاله مقاتل . والثالث : أرض مصر والشام .

قوله تعالى : (فإذا جاء وعد الآخرة) يعني : القيامة (جئنا بكم لفيماً) أي : جميعاً ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وابن قتيبة . وقال الفراء : لفيماً ، أي : من هاهنا ومن هاهنا . وقال الزجاج : اللفيف : الجماعات من قبائل شتى .

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا
 وَنَذِيرًا . وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَا
 تَنْزِيلًا . قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ
 قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لَلَّذِيقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ
 رَبِّنَا إِنَّ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لَلَّذِيقَانِ يَبْكَونَ
 وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾

قوله تعالى : (وبالحق أنزلناه) الهاء كناية عن القرآن ، والمعنى : أنزلنا القرآن
 بالأمر الثابت والدين المستقيم ، فهو حق ، ونزوله حق ، وما تضمنه حق .
 وقال أبو سليمان الدمشقي : « وبالحق أنزلناه » أي : بالتوحيد ، « وبالحق نزل »
 يعني : بالوعد والوعيد ، والأمر والنهي .

قوله تعالى : (وقرآنا فرقناه) قرأ علي عليه السلام ، وسعد بن أبي وقاص ،
 وأبي بن كعب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو رزين ، ومجاهد ، والشعبي ،
 وقتادة ، والأعرج ، وأبو رجا ، وابن محيصن : « فرقناه » بالتشديد . وقرأ
 الجمهور بالتخفيف .

فأما قراءة التخفيف ، ففي معناها ثلاثة أقوال .

أحدها : يئنا حلاله وحرامه ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : فرقنا فيه بين الحق والباطل ، [قاله الحسن] .

والثالث : أحكناه وفضلناه ، كقوله تعالى : (فيها يُفرق كلُّ أمر

حكيم) [الدخان : ٤] ، قاله الفراء . وأما المشددة ، فمعناها : أنه أنزل متفرقا ، ولم

ينزل جملة واحدة . وقد يئنا في أول كتابنا هذا مقدار المدة التي نزل فيها .

قوله تعالى : (لتقرأه على الناس على مُكْنَثٍ) قرأ أنس ، والشعبي ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو رجا ، وأبان عن عاصم ، وابن محيصن : بفتح الميم : والمعنى : على نُؤْدَة وترسُل ليتدبَّروا معناه .

قوله تعالى : (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا) هذا تهديد الكفار [أهل مكة ، والبهاء كناية عن القرآن . (إن الذين أوتوا العلم) وفيهم ثلاثة أقوال .
أحدها : أنهم ناس من أهل الكتاب ، قاله مجاهد .
والثاني : أنهم الأنبياء عليهم السلام ، قاله ابن زيد .
والثالث : طلاب الدين ، كأبي ذر ، وسلمان ، وورقة بن نوفل ، وزيد ابن عمرو ، قاله الواحدي .

وفي هاء الكناية في قوله : (من قبله) قولان .
أحدهما : أنها ترجع إلى القرآن ، والمعنى : من قبل نزوله .
والثاني : ترجع إلى رسول الله ﷺ ، قاله ابن زيد . فعلى الأول (إذا يتلى عليهم) القرآن . وعلى قول ابن زيد (إذا يتلى عليهم) ما أنزل إليهم من عند الله .

قوله تعالى : (يَخْرِونَ الْأَذْقَانَ) اللام هاهنا بمعنى « على » . قال ابن عباس : قوله « للأذقان » أي : للوجوه . قال الزجاج : الذي يَخْرِهُ وهو قائم ، إنما يَخْرِهُ لوجهه ، والدَّقْنُ : مُجْتَمِعُ اللَّحْيَيْنِ ، وهو عضو من أعضاء الوجه ، فإذا ابتدأ يَخْرِهُ ، فأقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض الدقن . وقال ابن الأنباري : أول ما يلقى الأرض من لذي يَخْرِهُ قبل أن يصوبَ جبهته ذقنه ، فلذلك قال :

رأد المسير ه م (٧)

« الأذقان » . ويجوز أن يكون المعنى : يَخْرِثُونَ للوجوه ، فاكتفى بالذقن من الوجه كما يُكْتَفَى بالبعض من الكلِّ ، وبالنوع من الجنس .

قوله تعالى : (ويقولون سبحان ربنا) نَزَّهُوا الله تعالى عن تكذيب المكذِبين بالقرآن ، وقالوا : (إن كان وعد ربنا) بانزال القرآن وبعث محمد ﷺ (لمفعولاً) واللام دخلت للتوكيد . وهوؤلاء قوم كانوا يسمعون أن الله باعث نبياً من العرب ، ومُنزِلٌ عليه كتاباً ، فلما عاينوا ذلك ، حمدوا الله تعالى على إنجاز الوعد ، (وَيَخْرِثُونَ للأذقان) كرر القول ليدل على تكرار الفعل منهم . (ويزيدهم خشوعاً) أي : يزيدهم القرآن تواضعاً . وكان عبد الأعلى التيمي يقول : من أوتي من العلم ما لا يُبْكِيه ، كَخَلِيقٍ أَنْ لَا يَكُونَ أُوتِيَ علماً ينفعه ، لأن الله تعالى نعمت العلماء فقال : « إن الذين أوتوا العلم ... » إلى قوله : « يكون » .

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليُّ مِنْ الدُّنْيَا وَكَبِيرًا ﴾

قوله تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ...) الآية . هذه الآية نزلت على سيدنا . [نزل] أولها إلى قوله : (الحسنی) على سبب ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله ﷺ تهجد ذات ليلة بمكة ، فجعل يقول في سجوده : « يا رحمن ، يا رحيم » ، فقال المشركون : كان محمدٌ يدعو إلهاً واحداً ، فهو الآن

يدعو إلهين اثنين : الله ، والرحمن ، ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون : مسيلة ، فأنزل الله هذه الآية ، قاله ابن عباس (١) .

والثاني : أن رسول الله ﷺ كان يكتب في أول ما أوحى إليه : باسمك اللهم ، حتى نزل : (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) [النمل : ٣٠] ، فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال مشركو العرب : هذا الرحيم نعرفه ، فما الرحمن ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله ميمون بن مهران .

والثالث : أن أهل الكتاب قالوا لرسول الله ﷺ : إنك لتثقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم ، فنزلت هذه الآية ، قاله الضحاك . فأما قوله : (ولا تجهر بصلاتك) فنزل على سبب ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله ﷺ كان يرفع صوته بالقرآن بمكة ، فيسب المشركون القرآن ومن أتى به ، فخفض رسول الله ﷺ صوته بعد ذلك حتى لم يسمع أصحابه ، فأنزل الله تعالى : « ولا تجهر بصلاتك » أي : بقراءتك ، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، (ولا تخافت بها) عن أصحابك ، فلا يسمعون ، قاله ابن عباس (٢) .

والثاني : أن الأعرابي كان يجهر في التشهد ويرفع صوته ، فنزلت هذه الآية ، هذا قول عائشة .

والثالث : أن رسول الله ﷺ كان يصلّي بمكة عند الصفا ، فجهر بالقرآن في صلاة الغداة ، فقال أبو جهل : لا تقتر على الله ، فخفض النبي ﷺ صوته ، فقال

(١) أخرجه ابن جرير الطبري : ١٨٢/١٥ عن مكحول أن النبي ﷺ كان يتهد بمكة ... الخ ، وهو مرسل .

(٢) « الطبري » : ١٨٤/١٥ ، وأحمد في « المسند » : ٢١٥/١ ، والبخاري : ٣٠٧/٨ ، ومسلم .

أبو جهل للمشركين : ألا ترون ما فعلت بابن أبي كبشة ! رددته عن قراءته ،
فزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

فأما التفسير ، فقوله : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) المعنى : إن شئتم
فقولوا : يا الله ، وإن شئتم فقولوا : يا رحمن ، فإنها يرجعان إلى واحد ، (أيًا ماتدعوا)
المعنى : أي أسماء الله تدعوا ؛ قال الفراء : و « ما » قد تكون صلة ، كقوله :
(عما قليل ليصبحن نادمين) [المؤمنون : ٤٠] ، وتكون في معنى : « أي »
معادة لما اختلف لفظها .

قوله تعالى : (ولا تجهر بصلاتك) فيه قولان .

أحدهما : أنها الصلاة الشرعية . ثم في المراد بالكلام ستة أقوال .
أحدها : لا تجهر بقراءتك ، ولا تخافت بها ، فكأنه نهي عن شدة الجهر
بالقراءة ، وشدة المخافة ، قاله ابن عباس . فعلى هذا في تسمية القراءة بالصلاة
قولان ذكرهما ابن الأثيري . أحدهما : أن يكون المعنى : فلا تجهر بقراءة صلاتك .
والثاني : أن القراءة بعض الصلاة ، فنابت عنها ، كما قيل لعيسى : كلمة الله ، لأنه
بالكلمة كان .

والثاني : لانصل مراعاة للناس ، ولا تدعها مخافة الناس ، قاله ابن عباس أيضاً .

والثالث : لا تجهر بالتشهد في صلاتك ، روي عن عائشة في رواية ، وبه

قال ابن سيرين .

والرابع : لا تجهر بفعل صلاتك ظاهراً ، ولا تخافت بها شديد الاستتار ، قاله عكرمة .

والخامس : لا تُحسِنُ علانياتها ، وتُسِيءُ سريرتها ، قاله الحسن .

والسادس : لا تجهر بصلاتك كلياً ، ولا تخافت بجميعها ، فاجهر في صلاة

الليل ، وخافت في صلاة النهار ، على ما أمرناك به ، ذكره القاضي أبو يعلى .

والقول الثاني : أن المراد بالصلاة : الدعاء ، وهو قول عائشة ، وأبي هريرة ، ومجاهد .
 قوله تعالى : (ولا تخافت بها) المخافتة : الإخفاء ، يقال : صوت خفيت .
 (وابتغ بين ذلك سبيلاً) أي : اسلك بين الجهر والمخافتة طريقاً . وقد روي عن
 ابن عباس أنه قال : نُسخت هذه الآية بقوله : (واذكر ربك في نفسك تضرعاً
 وخيفة ، ودون الجهر من القول) [الأعراف : ۲۰۵] ، وقال ابن السائب : نُسخت
 بقوله : (فاصدع بما تؤمر) [الحجر : ۹۴] ؛ وعلى التحقيق ، وجود النسخ هاهنا بعيد .
 قوله تعالى : (ولم يكن له شريك في الملك) وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ،
 وطلحة بن مصرف : « في الملك » بكسر الميم . (ولم يكن له وليٌ من الدُّل)
 قال مجاهد : لم يحالف أحداً ، ولم يبتغ نصر أحد ؛ والمعنى : أنه لا يحتاج إلى موالاته
 أحدٍ لدُّلٍ بإحققه ، فهو مستغن عن الولي والنصير . (وكبَّره تكبيراً) أي :
 عظَّمه تعظيماً تاماً .



سورة الكهف

﴿ فصل في نزولها ﴾

روى أبو صالح عن ابن عباس أن سورة (الكهف) مكية ، وكذلك قال الحسن ، ومجاهد ، وقتادة . وهذا إجماع المفسرين من غير خلاف نعلمه ، إلا أنه قد روي عن ابن عباس ، وقتادة أن منها آية مدنية ، وهي قوله : (واصبر نفسك) [الكهف : ٢٨] . وقال مقاتل : من أولها إلى قوله تعالى : (صيداً جزأً) [الكهف : ٨] مدني ، وقوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) [الكهف : ١٠٧ ، ١٠٨] الآيتان مدنية ، وباقيها مكي . وروى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من حفظ عشر آيات من أول (الكهف) ثم أدرك الدجال لم يضره ، ومن حفظ خواتيم سورة (الكهف) كانت له نوراً يوم القيامة »^(١) .

(١) ذكره بهذا اللفظ السيوطي في « الدرر » : ٢٠٩/٤ من رواية أبي عبيد ، وابن مردويه ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وروى أحمد في « المسند » : ٤٤٩/٤ ، ومسلم في « صحيحه » ، ٥٥٥/١ ، وأبو داود في « سننه » ، رقم (٤٣٢٣) عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة (الكهف) عصم من الدجال » ، ورواه أحمد ٤٤٦/٤ عن أبي الدرداء بلفظ : « من قرأ عشر آيات من آخر الكهف ... » ورواه مسلم وأبو داود من حديث قتادة به ، ورواه الترمذي : ١١٢/٢ عن أبي الدرداء بلفظ : « من قرأ ثلاث آيات من أول (الكهف) عصم من فتنة الدجال » وقال : هذا حديث حسن صحيح .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ
عِوَجًا . قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَا كَثِيرٌ فِيهِ آيَاتٌ
لِلَّذِينَ يَعْلَمُونَ . وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ يُدْعُوا لِلْحَمْدِ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ
الْحَقُّ مِنْ عِلْمِهِمْ وَمَا يُعَلِّمُونَ الْكُتُبَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الْكِتَابَ وَالَّذِينَ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْكِتَابَ الْحَكِيمَ . وَإِنْ
يُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ
وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ
إِلَّا كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا
بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

قوله تعالى : (الحمد لله) قد شرحناه في أول « الفاتحة » . والمراد بعبد
ها هنا : محمد ﷺ ، وبالكتاب : القرآن ، تمدح بانزاله ، لأنه إنعام على الرسول
خاصة ، وعلى الناس عامة . قال العلماء باللغة والتفسير : في هذه الآية تقديم وتأخير ،
تقديرها : أنزل على عبده الكتاب (قيمياً) أي : مستقيماً عدلاً . وقرأ أبو رجاء ،
وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن يعمر ، والنخعي ، والأعمش : « قيمياً »
بكسر القاف ، وفتح الباء ، وقد فسرناه في (الأنعام : ١٦١) .

قوله تعالى : (ولم يجعل له عوجاً) أي : لم يجعل فيه اختلافاً ، وقد سبق
بيان العوج في (آل عمران : ٩٩) .

قوله تعالى : (لينذر بأساً شديداً) أي : عذاباً شديداً ، (من لدنه) أي :
من عنده ، ومن قبله ، والمعنى : لينذر الكافرين (ويبشر المؤمنين الذين يعملون
الصالحات أن لهم) أي : بأن لهم (أجراً حسناً) وهو الجنة . (ما كثر)

أي : مقيمين ، وهو منصوب على الحال . (وينذر) بعذاب الله (الذين قالوا
 اتخذ الله ولداً) وهم اليهود حين قالوا : عزيزُ ابنِ الله ، والنصارى حين قالوا :
 المسيح ابن الله ، والمشركون حين قالوا : الملائكة بنات الله ، (ما لهم به) أي :
 بذلك القول (من علم) لأنهم قالوا : افتترى على الله ، (ولا آباءهم) الذين قالوا
 ذلك ، (ككبرت) أي : عظمت (كلمة) الجمهور على النصب . وقرأ
 ابن مسعود ، والحسن ، ومجاهد ، وأبو رزين ، وأبو رجا ، ويحيى بن يعمر ،
 وابن محيصن ، وابن أبي عمير : « كلمة » بالرفع . قال الفراء : من نصب ، أضمر :
 كبرت تلك الكلمة كلمة ، ومن رفع ، لم يضم شيئاً ، كما تقول : عظمت
 قولك . وقال الزجاج : من نصب ، فالمعنى : كبرت مقالتهم : اتخذ الله ولداً كلمة ،
 و « كلمة » منصوب على التمييز . ومن رفع ، فالمعنى : عظمت كلمة هي قولهم :
 اتخذ الله ولداً .

قوله تعالى : (تخرج من أفواههم) أي : إنها قول بالضم لا صحة لها ،
 ولا دليل عليها ، (إن يقولون) أي : ما يقولون (إلا كذبا) . ثم عاتبه على حزنه
 لقوت ما كان يرجو من إسلامهم ، فقال : (فملك باخع نفسك) وقرأ سعيد
 ابن جبير ، وأبو الجوزاء ، وقتادة : « باخع نفسك » بكسر السين ، على الإضافة .
 قال المفسرون واللغويون : فملك مملك نفسك ، وقاتل نفسك ، وأنشد أبو عبيدة
 لذي الرمة :

ألا أيهدأ الباخعُ الوجدُ نفسهُ لبشي نحتتهُ عن يديه المقاديرُ^(١)
 أي : نحتته .

(١) ديوانه طبع المكتب الاسلامي صفحة (٣٣٨) ، و د الطبري ، : ١٩٤/١٥ ،
 و د مجاز القرآن ، : ٣٩٣/١ ، و د القرطبي ، : ٣٤٨/١٠ ، و د الصحاح ، و د الراغب ،
 و د الأساس ، و د اللسان ، و د التاج ، : بجمع ، و د فتح الباري ، : ٣٠٨/٨ .

فان قيل : كيف قال : (فلعلك) والغالب عليها الشك ، والله عالم بالأشياء قبل كونها ؟

فالجواب : أنها ليست بشك ، إنما هي مقدرة تقدير الاستفهام الذي يعنى به التقرير ، فالمعنى : هل أنت قاتل نفسك ؟ لا ينبغي أن يطول أساك على إعراضهم ، فان من حكمنا عليه بالشقوة لا تجدي عليه الحسرة ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (على آثارهم) أي : من بعد توليتهم عنك (إن لم يؤمنوا بهذا الحديث) يعني : القرآن (أسفا) وفيه أربعة أقوال .

أحدها : حزننا ، قاله ابن عباس ، وابن قتيبة . والثاني : جزعاً ، قاله مجاهد . والثالث : غضباً ، قاله قتادة . والرابع : ندماً ، قاله السدي . وقال أبو عبيدة : ندماً وتلهفاً وأسى . قال الزجاج : الأسف : المبالغة في الحزن ، أو الغضب ، يقال : قد أسف الرجل ، فهو أسيف ، قال الشاعر :

أرَى رَجُلًا مِنْهُمْ أَسِيفًا كَأَنَّمَا يَضُمُّ إِلَى كَشْحِيهِ كَفًّا مُخَضَّبًا (١)
وهذه الآية يشير بها إلى نهي رسول الله ﷺ عن كثرة الحرص على إيمان قومه لئلا يؤدي ذلك إلى هلاك نفسه بالأسف .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيُنبِلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾

قوله تعالى : (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنهم الرجال ، رواه سعيد بن جبیر عن ابن عباس . والثاني : العلماء ،

(١) قاله الأعشى الكبير ميمون بن قيس ديوانه : ١١٥ ، و « اللسان » : أسف .
والأسيف : الحزين والغضبان ومن لا يكاد يسمن ، لأن الحقد يأكله .

رواه مجاهد عن ابن عباس . فعلى هذين القولين نكون « ما » في موضع « من » لأنها في موضع إبهام ، قاله ابن الأنباري . والثالث : أنه ماعليها من شيء ، قاله مجاهد . والرابع : النبات والشجر ، قاله مقاتل . وقول مجاهد أعم ، يدخل فيه النبات ، والماء ، والمعادن ، وغير ذلك .

فان قيل : قد نرى بعض ماعلى الأرض سمجاً وليس بزينة .

فالجواب : أنا إن قلنا : إن المراد [به] شيء مخصوص ، فالمعنى : إنا جعلنا بعض ماعلى الأرض زينة لها ، فخرج مخرج العموم ، ومعناه الخصوص . وإن قلنا : هم الرجال أو العلماء ، فلهبأدبهم أو لدلالتهم على خالقهم . وإن قلنا : النبات والشجر ، فلأنه زينة لها تجري مجرى الكسوة والحلية . وإن قلنا : إنه عام في كل ماعليها ، فلكونه دائماً على خالقه ، فكأنه زينة الأرض من هذه الجهة .

قوله تعالى : (لنبلوهم) أي : لنختبر الخلق ، والمعنى : لنعاملهم معاملة المبتلى .

قال ابن الأنباري : من قال : إن « ما على الأرض » يعني به النبات ، قال : الماء والميم ترجع إلى سكان الأرض المشاهدين الزينة ، ومن قال : « ما على الأرض » الرجال ، ردَّ الماء والميم على « ما » لأنها بتأويل الجميع ، ومعنى الآية : لنبلوهم فنرى أيهم أحسن عملاً ، هذا ، أم هذا . قال الحسن : أيهم أزهد في الدنيا . وقد ذكرنا في هذه الآية أربعة أقوال في سورة (هود : ٧) . ثم أعلم الخلق أنه بفني جميع ذلك ، فقال تعالى : (وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً) قال الزجاج : الصعيد : الطريق الذي لانبات فيه . وقال ابن الأنباري : قال اللغويون : الصعيد : التراب ، ووجه الأرض . فأما الجرُّز ، فقال الفراء : أهل الحجاز يقولون : أرض جرُّز ، وجرُّز . وأسد تقول : جرُّز ، وجرُّز ، وتميم تقول : أرض جرُّز ، وجرُّز ، بالتخفيف ، وقال أبو عبيدة : الصعيد الجرُّز : الغايظ الذي لا يُنبت شيئاً . ويقال للسنة

المُجْدِبَةُ : جُرُزٌ ، وَسِنُونُ أَجْرَازٍ ، لَجْدُوبَتِهَا ، وَقَلَّةٌ مَطْرَهَا ، وَأَنْشَدَ :
 قَدْ جَرَفْتُهُنَّ السِّنُونُ الْأَجْرَازُ^(١)

وقال الزجاج : الجرز : الأرض التي لا ينبت فيها شيء ، كأنها تأكل النبات أكلًا .
 وقال ابن الأنباري : قال اللغويون : الجرز : [الأرض] التي لا يبقى بها نبات ، تحرق كل
 نبات يكون بها . وقال المفسرون : وهذا يكون يوم القيامة ، يجعل الله الأرض
 مستوية لا نبات فيها ولا ماء .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنْ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا . إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . فَضَرْبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا . ثُمَّ بَعَثْنَاَهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾

قوله تعالى : (أَمْ حَسِبْتَ أَنْ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ) نزلت على سبب
 قد ذكرناه عند قوله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) [الإسراء : ٨٥] .
 وقال ابن قتيبة : ومعنى « أَمْ حَسِبْتَ » : أَحْسِبْتَ . فأما « الْكَهْفِ » فقال
 المفسرون : هو المغارة في الجبل ، إلا أنه واسع ، فاذا صغر ، فهو غار . قال
 ابن الأنباري : قال اللغويون : الكهف بمنزلة الغار في الجبل .
 فأما الرقيم ، ففيه ستة أقوال .

أحدها : أنه لوح من رصاص كانت فيه أسماء الفتية مكتوبة ليعلم من
 اطلع عليهم يوماً من الدهر ما قصتهم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال

(١) د الطبري ، : ١٥/١٩٧ ، و د مجاز القرآن ، : ٣٩٤/١ ، و د اللسان ، : جرز .

وهب بن منبّه ، وسعيد بن جبير في رواية ، ومجاهد في رواية . وقال السدي : الرقيم :
 صخرة كُتِبَ فيها أسماء الفتيّة ، وجُعِلت في سُور المدينة . وقال مقاتل : الرقيم : كتاب
 كتبه رجلان صالحان ، وكانا يكتمان إيمانها من الملك الذي فرّ منه الفتيّة ، كتب
 أمر الفتيّة في لوح من رصاص ، ثم جعلاه في تابوت من نحاس ، ثم جعلاه في
 البناء الذي سَدُّوا به باب الكهف ، فقالوا : لعل الله أن يُطْلِعَ على هؤلاء
 الفتيّة أحداً ، فيعلمون أمرهم إذا قرؤوا الكتاب . وقال الفراء : كُتِبَ في اللوح
 أسماءهم ، وأنسائهم ، ودينهم ، وممن كانوا . قال أبو عبيدة ، وابن قتيبة : الرقيم :
 الكتاب ، وهو فمیل بمعنى مفعول ، ومنه : كتاب مرقوم ، أي : مكتوب .
 والثاني : أنه اسم القرية التي خرجوا منها ، قاله كعب . والثالث : اسم الجبل ،
 قاله الحسن ، وعطية . والرابع : أن الرقيم : الدواة ، بلسان الروم ، قاله عكرمة
 ومجاهد في رواية . والخامس : اسم الكلب ، قاله سعيد بن جبير . والسادس :
 اسم الوادي الذي فيه الكهف ، قاله قتادة ، والضحاك .

قوله تعالى : (كانوا من آياتنا عجبا) قال المفسرون : معنى الكلام :
 أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا ! قد كان في آياتنا ما هو أعجب منهم ، فان
 خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم . وقال ابن عباس : الذي
 آتيتك من الكتاب والسنة والعلم ، أفضل من شأنهم .

قوله تعالى : (إذ أوى الفتيّة) قال الزجاج : معنى : أَوْأَ إليه : صاروا
 إليه ، وجعلوه مأواهم . والفتية : جمع فتى ، مثل غُلام وغُلِمة ، وصبي وصبية .
 و« فِعْلَةٌ » من أسماء الجمع ، وليس يناء يقاس عليه ؛ لا يجوز غُرَابٌ وَغَرِبةٌ ،
 ولا غُنيٌّ وَغَنِيةٌ . وقال بعض المفسرين : الفتيّة : بمعنى الشبان . وقد ذكرنا عن

القتبي أن الفتى : بمعنى الكامل من الرجال ، ويدنّاه في قوله تعالى : (من فتيانكم المؤمنات) [النساء : ٢٥] .

قوله تعالى : (فقالوا ربنا آتنا من لدنك) أي : من عندك (رحمة) أي : رزقاً (وهيباً لنا) أي : أصلح لنا (من أمرنا رشداً) أي : أرشدنا إلى ما يقربنا منك . والمعنى : هيباً لنا من أمرنا ما نصيب به الرشداً . والرشداً والرشداً ، والرشاد : نقيض الضلال .

تلخيص قصة أصحاب الكهف

اختلف العلماء في بُدُوِّ أمرهم ، وسبب مصيرهم إلى الكهف ، على ثلاثة أقوال . أحدها . أنهم هربوا ليلاً من ملكهم حين دعاهم إلى عبادة الأصنام ، فروا براع له كلب ، فتبعهم على دينهم ، فأووا إلى الكهف بتعبدون ، ورجل منهم يتتبع لهم أرزاقهم من المدينة ، إلى أن جاءهم يوماً فأخبرهم أنهم قد ذكروا ، فبكوا وتعوذوا بالله من الفتنة ، فضرب الله تعالى على آذانهم ، وأمر الملك فسداً عليهم الكهف ، وهو يظنهم أيقاظاً ، وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم ، وكلبهم قد غشيه ما غشيه . ثم إن رجلين مؤمنين يكتمان إيمانها كتباً أسماءهم وأنسابهم وخبرهم في لوح من رصاص ، وجعلاه في تابوت من نحاس في البنيان ، وقالوا : لعل الله يُطلع عليهم يوماً مؤمنين ، فيعلمون خبرهم ، هذا قول ابن عباس . وقال عبيد بن عمير : فقَدَّهم قومهم فطلبوهم ، فعمى الله عليهم أمرهم ، فكتبوا أسماءهم وأنسابهم في لوح : فلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم في شهر كذا ، في سنة كذا ، في مملكة فلان ، ووضعوا اللوح في خزانة الملك ، وقالوا : لبيكونن لهذا شأن .

والثاني : أن أحد الحواريين جاء إلى مدينة أصحاب الكهف ، فأراد أن يدخلها ، فقيل له : إن على بابها صنماً لا يدخلها أحد إلا سجد له ، فكره أن يدخلها ، فأتى حماماً قريباً من المدينة ، فكان يعمل فيه بالأجر ، وعلقه فتية من أهل المدينة ، فجعل يخبرهم عن خبر السماء والأرض ، ونخب الآخرة ، فأمنوا به وصدقوه ، حتى جاء ابن الملك يوماً بامرأة ، فدخل معها الحمام ، فأنكر عليه الحواري ذلك ، فسبه ودخل ، فمات وماتت المرأة في الحمام ، فأتى الملك ، فقيل له : إن صاحب الحمام قتل ابنك ، فالتمس فهرب ، فقال : من كان يصحبه ؟ فسُمي له الفتية ، فالتمسوا فخرجوا من المدينة ، فرؤا على صاحب لهم في زرع ، وهو على مثل أمرهم ، فانطلق معهم ومعه كلب حتى آواهم الليل إلى الكهف ، فدخلوه فقالوا : نبيت هاهنا ، ثم نصبح إن شاء الله قترّون رأبكم ، فضرب الله على آذانهم فناموا ؛ وخرج الملك ، وأصحابه يتبعونهم ، فوجدوهم قد دخلوا الكهف ، فكلما أراد رجل أن يدخل [الكهف] أرب ، فقال قائل للملك : أليس قلت : إن قدرت عليهم قتلهم ؟ قال : بلى ، قال : فابن عليهم باب الكهف حتى يموتوا جوعاً وعطشاً ، ففعل ، هذا قول وهب بن منبه .

والثالث . أنهم كانوا أبناء عظماء المدينة وأشرفهم ، خرجوا فاجتمعوا وراء المدينة على غير ميعاد ، فقال رجل منهم ، هو أسنهم : إني لأجد في نفسي شيئاً ما أظن أحداً يجده ، فقالوا : ما تجد ؟ قال : أجد في نفسي أن ربي رب السموات والأرض ، فقاموا جميعاً فقالوا : ربنا رب السموات والأرض ، فأجمعوا أن يدخلوا الكهف ، فدخلوا ، فلبثوا ما شاء الله ، هذا قول مجاهد . وقال قتادة : كانوا أبناء ملوك الروم ، فتفرّدوا بدينهم في الكهف ، فضرب الله على آذانهم .

﴿ فصل ﴾

فأما سبب بعث أصحاب الكهف من نومهم ، فقال عكرمة : جاءت أمةٌ مسلمةٌ ، وكان ملكهم مسلماً ، فاختلفوا في الروح والجسد ، فقال قائل : يُبعث الروح والجسد . وقال قائل : يبعث الروح وحده ، والجسد تأكله الأرض فلا يكون شيئاً ، فشق اختلافهم على الملك ، فانطلق قلبس المسوح ، وقعد على الرماد ، ودعا الله أن يبعث لهم آية تبين لهم ، فبعث الله أصحاب الكهف . وقال وهب ابن منبه : جاء راعٍ قد أدركه المطر إلى الكهف ، فقال: لو فتحت هذا الكهف ، وأدخلته غنمي من المطر ، فلم يزل يعالجه حتى فتحه ، ورد الله إليهم أرواحهم حين أصبحوا من الغد . وقال ابن السائب : احتاج صاحب الأرض التي فيها الكهف أن يبني حظيرة لغمه ، فهدم ذلك السد ، فبنى به ، فانفتح باب الكهف . وقال ابن إسحاق : ألقى الله في نفس رجل من أهل البلد أن يهدم ذلك البنيان فيبني به حظيرة لغمه ، فاستأجر عاملين ينزحان تلك الحجارة ، فنزعاها ، وفتحا باب الكهف ، فجلسوا فرحين ، فسلم بعضهم على بعض لا يرون في وجوههم ولا أجسادهم شيئاً يكرهونه ، وإنما هم على هيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن ملكهم في طلبهم ، فصلتوا ، وقالوا ليمليخا صاحب نفقتهم : انطلق فاستمع ، ما نذكر به ، وابتغ لنا طعاماً ، فوضع ثيابه ، وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها ، وخرج فرأى الحجارة قد نزعت عن باب الكهف ، فعجب ، ثم مرَّ مستخفياً متخوفاً أن يراه أحد فيذهب به إلى الملك ، فلما رأى باب المدينة رأى عليه علامة تكون لأهل الإيمان ، فعجب ، وخيّل إليه أنها ليست بالمدينة

التي يعرف ، ورأى ناساً لا يعرفهم ، فجعل يتعجب ويقول : لعلتي نائم ؛ فلما دخلها رأى قوماً يحلفون باسم عيسى ، فقام مسنداً ظهره إلى جدار ، وقال في نفسه : والله ما أدري ما هذا ، عشية أمس لم يكن على [وجهه] الأرض من يذكر عيسى إلا قُتل ، واليوم أسممهم يذكرونه ، لعل هذه ليست المدينة التي أعرف ، والله ما أعرف مدينة قرب مدينتنا ، فقام كالحيران ، وأخرج ورقاً فأعطاه رجلاً وقال : بعني طعاماً ، فنظر الرجل إلى نقشه فعجب ، ثم ألقاه إلى آخر ، فجعلوا يتطرحونه بينهم ، ويتمجبون ، ويتشاورون ، وقالوا : إن هذا قد أصاب كنزاً ، ففرق منهم ، وظنهم قد عرفوه ، فقال : أمسكوا طعامكم فلا حاجة بي إليه ، فقالوا له : من أنت يافتى ؟ والله لقد وجدت كنزاً وأنت تريد أن تخفيه ، شاركنا فيه وإلا أتينا بك إلى السلطان فيقتلك ، فلم يدر ما يقول ، فطرحوا كساءه في عنقه وهو يبكي ويقول : فرّق بيني وبين إخوتي ، ياليتهم يعلمون مالقيت ، فأتوا به إلى رجلين كانا يدبران أمر المدينة ، فقالا : أين الكنز الذي وجدت ؟ قال : ما وجدت كنزاً ، ولكن هذه ورق آبائي ، ونقش هذه المدينة وضربها ، ولكن والله ما أدري ماشأني ، ولا ما أقول لكم ، قال مجاهد : وكان ورق أصحاب الكهف مثل أخفاف الإبل ، فقالوا : من أنت ، وما اسم أيك ؟ فأخبرهم ، فلم يجدوا من يعرفه ، فقال له أحدهما : أنظن أنك تسخر منا وخزان هذه البلدة بأيدينا ، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار ؟ إني سأمر بك فتعذب عذاباً شديداً ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز ، فقال يعليخا : أنبؤني عن شيء أسألكم عنه ، فان فعلمت صدقتكم ، قالوا : سل ، قال : ما فعل الملك دقيانوس ؟ قالوا : لانعرف اليوم على وجه الأرض ملكاً يسمى دقيانوس ، وإنما هذا ملك كان منذ زمان طويل ، وهلكت بعده قرون كثيرة ، فقال : والله ما بصدقتي أحد بما أقوله ، لقد كُنّا

فتية ، وأكرهنا الملكُ على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت ، فهربنا منه عشية
 أمسِ فنعنا ، فلما اتبهننا خرجتُ أشترى لأصحابي طعاماً ، فاذا أنا كما ترون ،
 فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي ، فانطلقوا معه وسائر أهل المدينة ، وكان
 أصحابه قد ظنوا لإبطائه عليهم أنه قد أخذ ، فبينما هم يتخوفون ذلك ، إذ سمعوا
 الأصوات وجلبة الخيل ، فظنوا أنهم رُسلُ دقيانوس ، فقاموا إلى الصلاة ، وسلم
 بعضهم على بعض ، فسبق يعلينا إليهم وهو يبكي ، فبكوا معه ، وسألوه عن
 شأنه ، فأخبرهم خبره ، وقصَّ عليهم النبأَ كلَّه ، فمرفوا أنهم كانوا نياماً بأمر الله
 تعالى ، وأنما أوقفوا ليكونوا آية للناس ، ونصديقاً للبعث ؛ ونظر الناس في
 المسطور الذي فيه أسماؤهم وقصتهم ، فمجبوا ، وأرسلوا إلى ملكهم ، فجاء ،
 واعتق القومَ ، وبكى ، فقالوا له : نستودعك الله ونقرأ عليك السلام ، حفظك
 الله ، وحفظ ملكك ، فينا الملك قائم ، رجعوا إلى مضاجعهم ، وتوفى الله عز وجل
 أنفسهم ، فأمر الملك أن يُجعل لكل واحد منهم تابوت من ذهب ، فلما
 أمسوا رأهم في المنام ، فقالوا : إنا لم نُخلق من ذهب وفضة ، ولكن خلقنا
 من تراب ، فارتكنا كما كننا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله عز وجل منه ،
 وحجبتهم الله عز وجل حين خرجوا من عندهم بالرعب ، فلم يقدر أحد أن
 يدخل عليهم ، وأمر الملك فجعل على باب الكهف مسجداً بصلّى فيه ، وجعل
 لهم عيداً عظيماً يؤتى كل سنة . وقيل : إنه لما جاء يعلينا ومعه الناس ، قال :
 دعوني أدخل إلى أصحابي فأبشّرهم ، فانهم إن رأوكم معي أربتموهم ، فدخل
 فبشّرهم ، وقبض الله روحه وأرواحهم ، فدخل الناس ، فاذا أجساد لا ينكرون
 منها شيئاً ، غير أنها لا أرواح فيها ، فقال الملك : هذه آيةٌ بعثنا الله لكم .

زاد السير ٥ م (٨)

قوله تعالى : (فضربنا على آذانهم) قال الزجاج : المعنى : أغناهم ومنعناهم
السمع ، لأن النائم إذا سمع انبته . و (عدداً) منصوب على ضربين .
أحدهما : على المصدر ، المعنى : تُعَدُّ عدداً .

والثاني : أن يكون نعتاً للسنين ، المعنى : سنين ذات عدد ، والفائدة في
ذِكْر العدد في الشيء المعدود ، توكيد كثرة الشيء ، لأنه إذا قلَّ فهم
مقداره ، وإذا كثر احتيج إلى أن يُعَدَّ العدد الكثير . (ثم بعثناهم) من
نومهم ، يقال لكل من خرج من الموت إلى الحياة ، أو من النوم إلى الانتباه :
مبعوث ، لأنه قد زال عنه ما كان يحبه عن التصرف والانبعاث . وقيل : معنى
(سنين عدداً) : أنه لم يكن فيها شهور ولا أيام ، وإنما هي كاملة ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (لنعلم أيُّ الحزبين) قال المفسرون : أي : لئرى . وقال بعضهم :
المعنى : لتعلموا أنتم . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو عمران ، والنخعي : « لِيُعَلِّمَ »
بضم الياء ، على ما لم يُسَمَّ فاعله « أيُّ الحزبين » ، ويعني بالحزبين : المؤمنين
والكافرين من قوم أصحاب الكهف . (أحصى لما لبثوا) أي : لتعلم أهؤلاء
أحصى للأمد أو هؤلاء ، فكأنه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف بعد
خروجهم من بينهم ، فبعثهم الله ليبين ذلك ويظهر . قال قتادة : لم يكن للفريقين
علم بلبثهم ، لا للمؤمنينهم ، ولا للكافرينهم . قال مقاتل : لما بعثوا زال الشك وعرفت
حقيقة البعث . وقال القاضي أبو يعلى : معنى الكلام : بعثناهم ليظهر المعلوم في
اختلاف الحزبين في مدة لبثهم ، لما في ذلك من العبرة .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ
وَزِدْنَا لَهُمُ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا

شَطَطًا . هَوْلًا قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٤﴾
 قوله تعالى : (نحن نقص عليك نبأهم) أي : خبر الفتية (بالحق)
 أي : بالصدق .

قوله تعالى : (وزدناهم هدى) أي : ثبتناهم على الإيمان ، (وربطنا على قلوبهم) أي : ألهمناها الصبر (إذ قاموا) بين يدي ملكهم دقيانوس (فقالوا ربنا رب السموات والأرض) وذلك أنه كان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ، فمصم الله هؤلاء حتى عصوا ملكهم . وقال الحسن : قاموا في قومهم فدعواهم إلى التوحيد . وقيل : هذا قولهم بينهم لما اجتمعوا خارج المدينة على ما ذكرنا في أول القصة . فأما الشطط ، فهو الجور . قال الزجاج : يقال : شطَّ الرجل ، وأشطَّ : إذا جار . ثم قال الفتية : (هؤلاء قومنا) يعنون الذين كانوا في زمن دقيانوس (اتخذوا من دونه آلهة) أي : عبدوا الأصنام (لولا) أي : هلا (يأتون عليهم) أي : على عبادة الأصنام (بسُلطان بَيِّن) أي : بحُجَّةٍ . وإنما قال : « عليهم » والأصنام مؤنثة ، لأن الكفار نحلوها العقل والتمييز ، فجرت بجرى المذكورين من الناس .

قوله تعالى : (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً) فزعم أن له شريكاً !! .
 ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْأَىٰ إِلَيْهِ الْكَهْفُ
 يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا . وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ
 وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ

مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ
وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وإذ اعتزلتموهم) قال ابن عباس : هذا [قول] عليّنا ، وهو
رئيس أصحاب الكهف ، قال لهم : وإذ اعتزلتموهم ، أي : فارقتموهم ، يريد :
عبدة الأصنام ، (وما يعبدون إلا الله) فيه قولان .
أحدهما : واعتزلتم ما يعبدون ، إلا الله ، فإن القوم كانوا يعبدون الله ويعبدون
معه آلهة ، فاعتزل الفتية عبادة الآلهة ، ولم يعتزلوا عبادة الله ، هذا قول عطاء
الخراساني ، والفراء .

والثاني : وما يعبدون غير الله ؛ قال قتادة : هي في مصحف عبد الله :
« وما يعبدون من دون الله » ، وهذا تفسيرها .

قوله تعالى : (فأووا إلى الكهف) أي : اجملوه مأواكم ، (ينشر لكم
ربكم من رحمته) أي : يبسط عليكم من رزقه ، (ويهيئ لكم من أمركم مرفقا)
قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحزمة ، والكسائي : « مرفقا » بكسر
الميم ، وفتح الفاء . وقرأ نافع ، وابن عامر : « مرفقا » بفتح الميم ، وكسر
الفاء . قال الفراء : أهل الحجاز يقولون : « مرفقا » بفتح الميم وكسر الفاء ، في
كل مرفق ارتفعت به ، ويكسرون مرفق الإنسان ، والعرب قد يكسرون
الميم منها جميعا . قال ابن الأنباري : معنى الآية : ويهيئ لكم بدلا من أمركم
الصعب مرفقا ، قال الشاعر :

فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيان^(١)

(١) البيت للأحول الكندي في اللسان ، و « التاج » : طها ، و « البحر » : ١٠٧/٦ ،

و « روح المساني » : ٢٠٤/١٥ .

معناه : فليت لنا بدلاً من ماء زمزم . قال ابن عباس : « ويهيبى لكم » :
يسهل عليكم ما تخافون من الملك وظلمه وبأتكم باليسر والرفق، واللطف .

قوله تعالى : (وترى الشمس إذا طلعت) المعنى : لو رأيتها لرأيت ما وصفنا .
(تزاور) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « تَزَاوَرُ » بتشديد الزاي .
وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « تَزَاوَرُ » خفيفة . وقرأ ابن عامر : « تَزَوَرُ »
مثل : « تَحْمَرُ » . وقرأ أبي بن كعب ، وأبو مجلز ، وأبو رجا ، والجحدري :
« تَزَوَارُ » باسكان الزاي ، وبالف ممدودة بعد الواو من غير همزة ، مشددة الراء .
وقرأ ابن مسعود ، وأبو المتوكل ، وابن السميع : « تَزَوَائِرُ » بهمزة قبل الراء ،
مثل : « تَزَوَاعِرُ » . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو السماك : « تَزَوَرُ » بفتح التاء
والزاي وتشديد الواو المفتوحة خفيفة الراء ، مثل : « تَكْوَرُ » ، أي : تميل
وتعدل . قال الزجاج : أصل « تزاور » : تزاور ، فأدغمت التاء في الزاي ، و (تقرضهم)
أي : تعدل عنهم وتتركهم ، وقال ذو الرمة :

إِلَى ظَمْنٍ يَقْرَضُنْ أَجْوَازَ مُشْرِفٍ شِمَالاً وَعَنْ أَيْمَانِهِنَّ الْقَوَارِسُ^(١)
يقرضن : يتركن . وأصل القرَض : القطع والتفرقة بين الأشياء ، ومنه قولك :
أقرضني درهماً ، أي : اقطع لي من مالك درهماً . قال المفسرون : كان كهفهم بازاء
بنات نمش في أرض الروم ، فكانت الشمس تميل عنهم طالمةً وغاربةً لاتدخل
عليهم فتؤذيهم بحرّها وتغير ألوانهم . ثم أخبر أنهم كانوا في متسع من الكهف
بنالهم فيه برد الريح ، ونسيم الهواء ، فقال : (وهم في فجوة منه) قال أبو عبيدة :
أي : [في] مُتَسَّعٍ ، والجميع : فَجَوَات ، وفجاء ، بكسر الفاء . وقال الزجاج : إنما

(١) ديوانه طبع المكتب الاسلامي : ٤٠٣ ، و د مجاز القرآن : ٣٩٦/١ ، و د الطبري :

٢١١/١٥ . و مشرف والفوارس : موضعان بنجد كما في « معجم ما استعجم » .

صَرَفُ الشَّمْسِ عَنْهُمْ آيَةً مِنْ آيَاتِ ، وَلَمْ يَرْضَ قَوْلَ مَنْ قَالَ : كَانَ كَهْفَهُمْ بَازَاءَ
بَنَاتِ نَعَشٍ .

قوله تعالى : (ذلك من آيات الله) يشير إلى ما صنعه بهم من اللطف في
هدايتهم ، وصرف أذى الشمس عنهم ، والرعب الذي ألقى عليهم حتى لم يقدر الملك
الظالم ولا غيره على أذاهم . « من آيات الله » أي : من دلائله على قدرته ولطفه .
(من يهد الله فهو المهتد) هذا بيان أنه هو الذي تولى هداية القوم ، ولولا ذلك
لم يهتدوا .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ آيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ
الشِّمَالِ وَكَنُوبُهُمْ بِأَسِطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ
لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ﴾

قوله تعالى : (وَتَحْسَبُهُمْ آيْقَاطًا) أي : لو رأيتمهم لحسبتم آيقاطاً . قال الزجاج :
الأيقاط : المتبهون ، واحدم : يَقِظُ ، وَيَقْظَانُ ، وَالْجَمِيعُ : أَيْقَاطٌ ، وَالرُقُودُ : النيام .
قال الفراء : واحد الأيقاظ : يَقْظُ ، وَيَقِظُ . قال ابن السائب : وإنما يُحْسَبُونَ
أيقاظاً ، لأن أعينهم مفتحة وهم نيام . وقيل : لتقلبهم يمينا وشمالاً . وذكر
بعض أهل العلم : أن وجه الحكمة في فتح أعينهم ، أنه لو دام طَبَقَهَا لَذَابَتْ .

قوله تعالى : (وَنُقَلِّبُهُمْ) وقرأ أبو رجاء : « وَتَقَلِّبُهُمْ » بناء مفتوحة ،
وسكون القاف ، وتخفيف اللام المكسورة . وقرأ أبو الجوزاء ، وعكرمة :
« وَنُقَلِّبُهُمْ » مثلها ، إلا أنه بالنون . (ذات اليمين) أي : على أيمنهم وعلى
شمالهم . قال ابن عباس : كانوا يُقَلِّبُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّتَيْنِ ، سِتَّةَ أَشْهُرٍ عَلَى هَذَا
الْجَنْبِ ، وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ عَلَى هَذَا الْجَنْبِ ، لثَلَاثًا تَأْكُلُ الْأَرْضَ لِحُومِهِمْ . وقال مجاهد :
كانوا ثلاثمائة عام على شِقِّ وَاحِدٍ ، ثُمَّ قَلَّبُوا نَسْعَ سِنِينَ .

قوله تعالى : (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) أخبر أن الكلب كان على مثل حالهم في النوم ، وهو في رأي العين منتبه . وفي الوصيد أربعة أقوال .

أحدها : أنه الفناء فناء الكهف ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والفراء . قال الفراء : يقال : الوَصِيدُ والأَصِيدُ لغتان ، مثل الإِكَفِافِ والوَكَافِ . وأرخت الكتاب وورخت ، ووكدت الأمر وأكّدت ؛ وأهل الحجاز يقولون : الوَصِيدُ ، وأهل نجد يقولون : الأَصِيدُ ، وهو : الحظيرة والفناء .

والثاني : أنه الباب ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال السدي . وقال ابن قتيبة : فيكون المعنى : وكلبهم باسط ذراعيه بالباب ، قال الشاعر :

بِأَرْضِ قَضَاءٍ لَا يُسَدُّ وَصِيدُهَا عَلِيٌّ وَمَعْرُوفِي بِهَا غَيْرُ مُنْكَرٍ^(١)

والثالث : أنه الصعيد ، وهو التراب ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، ومجاهد في رواية عنها .

والرابع : أنه عتبة الباب ، قاله عطاء . قال ابن قتيبة : وهذا أعجب إليّ ، لأنهم يقولون : أوصد بابك ، أي : أغلقه ، ومنه قوله : (إنها عليهم مؤصدة) [المئزة : ٨] ، أي : مُطَبِّقَةٌ مُغْلَقَةٌ ، وأصله أن تلتصق الباب بالعتبة إذا أغلقته ، ومما بوضح هذا أنك إذا جعلت الكلب بالفناء ، كان خارجاً من الكهف ، وإن جعلته بعتبة الباب ، أمكن أن يكون داخل الكهف ، والكهف وإن لم يكن له باب وعتبة ، فانما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت ، فاستعير .

قوله تعالى : (لو اطلّمت عليهم) [وقرأ الأعمش ، وأبو حصين : « لو اطلّمت »

(١) البيت لسعيد بن وهب العبسي ، وهو في « غريب القرآن » : ٢٦٥ ، و « البحر المحيط » :

٩٣/٦ ، و « القرطبي » : ٣٥١/١٠ ، ٣٧٣ .

بضم الواو [(لَوَلَّيْتْ مِنْهُمْ فِرَارًا) رهبة لهم (ولمليت) قرأ عاصم ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، وحمة ، والكسائي : « وَلَمْ لِيْتْ » خفيفة مهموزة . وقرأ ابن كثير ، ونافع : « وَلَمْ لِيْتْ » مشددة مهموزة ، (رُعْبًا) [أي] : فزعاً وخوفاً ، وذلك أن الله تعالى منعهم بالرعب لثلاث يدخل إليهم أحد . وقيل : إنهم طالت شعورهم وأظفارهم جداً ، فلذلك كان الرأي لهم لو رآهم هرب مرعوباً ، حكاية الزجاج .

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاَهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا . إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴾

قوله تعالى : (وكذلك بعثناهم) أي : وكما فعلنا بهم ما ذكرنا ، بعثناهم من تلك النومة (ليتساءلوا) أي : ليكون بينهم تساؤل وتنازع واختلاف في مدة لبثهم ، فيفيد تساؤلهم اعتبار المتعبرين بحالهم . (قال قائل منهم كم لبثتم) أي : كم مرراً علينا منذ دخلنا هذا الكهف ؟ (قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم) وذلك أنهم دخلوا غُدوةً ، وبعثهم الله في آخر النهار ، فلذلك قالوا : « يوماً » ، فلما رأوا الشمس قالوا : « أو بعض يوم » (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) قال ابن عباس : القائل لهذا يميلخا رئيسهم ، ردَّ عليهم ذلك إلى الله تعالى . وقال في رواية أخرى : إننا قاله مكسلينا ، وهو أكبرهم . قال أبو سليمان : وهذا يوجب أن تكون نفوسهم قد حدثت لهم أنهم قد لبثوا أكثر مما ذكروا . وقيل : إننا قالوا ذلك ، لأنهم رأوا أظفارهم وأشعارهم قد طالت جداً .

قوله تعالى : (فابعثوا أحداً) قال ابن الأنباري : إننا قال : « أحدكم » ،

ولم يقل : واحدكم ، لئلا يلتبس البعض بالمدوح المعظم ، فان العرب تقول : رأيت أحد القوم ، ولا يقولون : رأيت واحد القوم ، إلا إذا أرادوا المعظم ، فأراد بأحدهم : بعضهم ، ولم يُرد شريفهم .

قوله تعالى : (بِوَرِقِكُمْ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « بِوَرِقِكُمْ » الراء مكسورة خفيفة . وقرأ أبو عمرو ، وحمة ، وأبو بكر عن عاصم ساكنة الراء . وعن أبي عمرو : « بورقكم » مدغمة يُشْمِها شيئاً من التثقل ؛ قال الزجاج : نصير كافاً خالصة . قال الفراء : الوراق لغة أهل الحجاز ، وتميم يقولون : الوراق ، وبعض العرب يكسرون الواو ، فيقولون : الوراق . قال ابن قتيبة . الوراق : الفضة ، دراهم كانت أو غير دراهم ، يدل ذلك على ذلك حديث عرفة أنه اتخذ أنفاً من ورق^(١) .

قوله تعالى : (إلى المدينة) يعنون التي خرجوا منها ، واسمها دقوس ،

ويقال : هي اليوم طرسوس .

قوله تعالى : (فليَنْظُرْ أَيُّهَا) قال الزجاج : المعنى : أي أهلها (أزكى

طعاماً) وللمفسرين في معناه ستة أقوال .

أحدها : أحل ذبيحة ؛ قاله ابن عباس ، وعطاء ، وذلك أن عامة أهل

بلدكم كانوا كفاراً ، فكانوا يذبحون للطواغيت ، وكان فيهم قوم يُخفون إيمانهم .

والثاني : أحل طعاماً ، قاله سعيد بن جبير ؛ قال الضحاك : وكانت أكثر

أموالهم غصباً . وقال مجاهد : قالوا لصاحبهم : لا تتبع طعاماً فيه ظلم ولا غصب .

والثالث : أكثر ، قاله عكرمة . والرابع : خير ، أي : أجود ، قاله قتادة .

(١) رواه أبو داود في سننه ، رقم (٤٢٣٢) ، والنسائي : ١٦٣/٨ ، والترمذي في جامعه :

٢٠٩/١ عن عرفة بن ساعد قال : أصيب أني يوم الكلاب في الجاهلية ، فاتخذت أنفاً من ورق ، فأتيت

علي ، فأمرني رسول الله ﷺ أن اتخذ أنفاً من ذهب ، قال الترمذي : هذا حديث حسن ، وقد روي

عن غير واحد من أهل العلم أنهم شددوا أسنانهم بالذهب ، وفي هذا الحديث حجة لهم . اهـ .

والخامس : أطيب ، قاله ابن السائب ، ومقاتل ، والسادس : أرخص ، قاله
يمان بن رباب . قال ابن قتيبة : وأصل الزكاة : النماء والزيادة .

قوله تعالى : (فليأتكم برزق منه) أي : بما تأكلونه . (ولئيتلطف) أي :
ليدقق النظر فيه ، وليحتل لثلا يطَّلَع عليه . (ولا يُشعِرَنَّ بِكُمْ) أي :
ولا يُخَبِّرَنَّ أحداً بمكانكم . (إن يظهروا) أي : يطلِّعوا ويُسرفوا
عليكم ، (يرجوكم) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : يقتلوكم ، قاله ابن عباس . وقال الزجاج : يقتلوكم بالرجم . والثاني :
يرجوكم بأيديهم ، استكاراً لكم ، قاله الحسن . والثالث : بالسنتهم شتماً لكم ،
قاله مجاهد ، وابن جريج .

قوله تعالى : (أو يُعيدوكم في مِلَّتِهِمْ) أي : يردوكم في دينهم ، (ولن تُفلحوا
إذا أبدأ) أي : إن رجعت في دينهم ، لم تسعدوا في الدنيا ولا في الآخرة .

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا
عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبَّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ
لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾

قوله تعالى : (وكذلك أعتونا عليهم) أي : وكما أنعمنا وبعثناهم ، أطلعنا
وأظهرنا عليهم . قال ابن قتيبة : وأصل هذا أن من عثر بشيء وهو غافل ،
نظر إليه حتى يعرفه ، فاستعير العثار مكان التبيين والظهور ، ومنه قول الناس :
ما عثرت على فلان بسوء قط ، أي : ما ظهرت على ذلك منه .

قوله تعالى : (ليعلموا) في المشار إليهم بهذا العلم فولان .

أحدهما : أنهم أهل بلدهم حين اختصموا في البعث ، فبعث الله أهل الكهف ليعلموا (أن وعد الله) بالبعث والجزاء (حَقٌّ) وأن القيامة لا شك فيها ، هذا قول الأكثرين .

والثاني : أنهم أهل الكهف ، بعثهم ليرَوِّا بعد علمهم أن وعد الله حق ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (إذ يتنازعون) يعني : أهل ذلك الزمان . قال ابن الأثيري : المعنى : إذ كانوا يتنازعون ، ويجوز أن يكون المعنى : إذ تنازعوا . وفي ما تنازعوا فيه خمسة أقوال .

أحدها : أنهم تنازعوا في البنيان ، والمسجد . فقال المسلمون : نبينا عليهم مسجداً ، لأنهم على ديننا ؛ وقال المشركون : نبينا عليهم بنياناً ، لأنهم من أهل سُئِنَّا ، قاله ابن عباس . والثاني : أنهم تنازعوا في البعث ، فقال المسلمون : بُعث الأرواح والأجساد ، وقال بعضهم : بُعث الأرواح دون الأجساد ، فأرأهم الله تعالى بعث الأرواح والأجساد بعثه أهل الكهف ، قاله عكرمة . والثالث : أنهم تنازعوا ما يصنعون بالفتية ، قاله مقاتل . والرابع : أنهم تنازعوا في قدر مكثهم . والخامس : تنازعوا في عددهم ، ذكرها الثعالبي .

قوله تعالى : (ابنوا عليهم بنياناً) أي : استروهم من الناس بأن تجعلوهم وراء ذلك البنيان . وفي القائلين لهذا قولان .

أحدهما : أنهم مشركو ذلك الزمان ، وقد ذكرناه عن ابن عباس .

والثاني : أنهم الذين أسلموا حين رأوا أهل الكهف ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (قال الذين غلبوا على أمرهم) قال ابن قتيبة : يعني المطاعين

والرؤساء ، قال المفسرون : وهم الملك وأصحابه المؤمنون اتخذوا عليهم مسجداً .
قال سعيد بن جبیر : بنى عليهم الملك بيعة .

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ
كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي
أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُنَارِقْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا . وَلَا تَقُولَنَّ لِيْ شَيْءٌ إِنِّي فَاعِلٌ
ذَلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى
أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾

قوله تعالى : (سيقولون ثلاثة) قال الزجاج : « ثلاثة » مرفوع بخبر الابتداء ،
المعنى : سيقول الذين تنازعوا في أمرهم [هم] ثلاثة . وفي هؤلاء القائلين قولان .
أحدهما : أنهم نصارى نجران ، ناظروا رسول الله ﷺ في عِدَّة أهل الكهف ،
فقالَت الملكيَّة : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقالت اليعقوبية : هم خمسة سادسهم كلبهم ،
وقالت النسطورية : هم سبعة وثمانهم كلبهم ، فنزلت هذه الآية ، رواه الضحاك
عن ابن عباس .

والثاني : أنهم أهل مدينتهم قبل ظهورهم عليهم ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (رجماً بالغيب) أي : ظناً غير يقين ، قال زهير :

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذَقْتُمْ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ^(۱)
فأما دخول الواو في قوله : (وثمانهم كلبهم) ولم تدخل فيما قبل هذا ، ففيه
أربعة أقوال .

(۱) ديوانه : ۱۸ ، و د الطبري ، : ۲۲۶/۱۵ ، و د القرطبي ، : ۳۸۳/۱۰ ،

و د اللسان ، : رجم .

أحدها : أن دخولها وخروجها واحد ، قاله الزجاج .

والثاني : أن ظهور الواو في الجملة الثامنة^(١) دلالة على أنها مرادة في الجملتين المتقدمتين ، فأعلم بذكرها هاهنا أنها مرادة فيما قبل ، وإنما حذفت تخفيفاً ، ذكره أبو نصر في شرح « اللع » .

والثالث : أن دخولها يدل على انقطاع القصة ، وأن الكلام قد تم ، ذكره الزجاج أيضاً ، وهو قول مقاتل بن سليمان ، فإن الواو تدل على تمام الكلام قبلها ، واستئناف ما بعدها ؛ قال الثعلبي : فهذه واو الحكم والتحقيق ، كأن الله تعالى حكى اختلافهم ، فم الكلام عند قوله : (ويقولون سبعة) ، ثم حكم أن ثامنهم كلبهم . وجاء في بعض التفسير أن المسلمين قالوا عند اختلاف النصارى : هم سبعة ، فحقيق الله قول المسلمين .

والرابع : أن العرب تعطف بالواو على السبعة ، فيقولون : ستة ، سبعة ، وثمانية ، لأن العقد عندهم سبعة ، كقوله : (التائبون العابدون ...) إلى أن قال في الصفة الثامنة : (والناهون عن المنكر) [التوبة : ١١٢] ، وقوله في صفة الجنة : (وفتحت أبوابها) وفي صفة النار : (فتحت أبوابها) [الزمر : ٧١ - ٧٣] ، لأن أبواب النار سبعة ، وأبواب الجنة ثمانية ، ذكر هذا المعنى أبو إسحاق الثعلبي .

وقد اختلف العلماء في عددهم على قولين .

أحدهما : أنهم كانوا سبعة ، قاله ابن عباس .

والثاني : ثمانية ، قاله ابن جريج ، وابن إسحاق . وقال ابن الأثيري : وقيل :

معنى قوله : (وثمانهم كلبهم) : صاحب كلبهم ، كما يقال : السخاء حاتم ، والشعر زهير ، أي : السخاء سخاء حاتم ، والشعر شعر زهير . وأما أسماؤهم ، فقال هشيم :

(١) أي في قوله تعالى : (وثمانهم كلبهم) .

مكسلينا ، وعلينا ، وطرينوس ، وسدينوس ، وسرينوس ، ونواسس ، ويرانوس ،
وفي التفسير خلاف في أسمائهم فلم أطل به .

واختلفوا في كليهم لمن كان على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان لراع مرّوا به فتبعهم الراعي والكلب ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه كان لهم بتصيدون عليه ، قاله عبيد بن عمير .

والثالث : أنهم مرّوا بكلب فتبعهم ، فطردوه ، فعاد ، ففعلوا ذلك به مراراً ،

فقال لهم الكلب : ما تريدون مني ؟ ! لا تخشوا جاني أنا أحب أحبّاء الله ، فناموا

حتى أحرسكم ، قاله كعب الأحمير .

وفي اسم كليهم أربعة أقوال .

أحدها : قطير ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : اسمه الرقيم ، وقد

ذكرناه عن سعيد بن جبير . والثالث : قطمور ، قاله عبد الله بن كثير . والرابع :

سحران ، قاله شعيب الجبائي . وفي صفته ثلاثة أقوال .

أحدها : أحمر ، حكاه الثوري . والثاني : أصفر ، حكاه ابن إسحاق . والثالث :

أحمر الرأس ، أسود الظهر ، أبيض البطن ، أبلق الذنب ، ذكره ابن السائب .

قوله تعالى (رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ) حرك الياء ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ،

وأسكنها الباقون .

قوله تعالى : (مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) أي : ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس . قال

عطاء : يعني بالقليل : أهل الكتاب . قال ابن عباس : أنا من ذلك القليل ، ثم

سبعة ، إن الله عدّهم حتى انتهى إلى السبعة .

قوله تعالى : (فَلَا تُنْمِرُ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا) قال ابن عباس ، وقتادة :

لا تُتَمَارِ أَحَدًا ، حسبك ما قصصتُ عليكَ من أمرهم . وقال ابن زيد : لا تُتَمَارِ في عِدَّتِهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا أَنْ تَقُولَ لَهُمْ : لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ ، لَيْسَ كَمَا تَعْلَمُونَ . وقيل : « إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا » بِحِجَّةٍ وَاضِحَةٍ ، حَكَاهُ الْمَوْرِدِيُّ . وَالْمِرَاءُ فِي اللُّغَةِ : الْجِدَالُ ؛ يُقَالُ : مَارَى يُمَارِي مُمَارَاةً وَمِرَاءً ، أَي : جَادَلَ . قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : مَعْنَى الْآيَةِ : لَا تَجَادَلْ إِلَّا جِدَالَ مُتَيْقِنٍ عَالِمٍ بِحَقِيقَةِ الْخَبْرِ ، إِذَ اللَّهُ تَعَالَى أَلْقَى إِلَيْكَ مَا لَا يَشُوبُهُ بَاطِلٌ . وَتَفْسِيرُ الْمِرَاءِ فِي اللُّغَةِ : اسْتِخْرَاجُ غَضَبِ الْمُجَادِلِ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : مَرَيْتُ الشَّاةُ : إِذَا اسْتِخْرَجْتَ لَبْنَهَا .

قوله تعالى : (ولا تستفت فيهم) أي : في أصحاب الكهف ، (منهم) قال ابن عباس : يعني : من أهل الكتاب . قال الفراء : أتاه فريقان من النصارى ، نسطوري ، ويعقوبي ، فسألهم النبي ﷺ عن عددهم ، فسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ . قوله تعالى : (ولا تقولنَّ شيءًا إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) سبب نزولها أن قريشاً سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين ، وعن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، فقال : غداً أخبركم بذلك ، ولم يقل : إن شاء الله ، فأبطل عليه جبريل خمسة عشر يوماً لتركه الاستثناء ، فشقَّ ذلك عليه ، ثم نزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . ومعنى الكلام : ولا تقولنَّ شيءًا : إني فاعل ذلك غداً ، إلا أن تقول : إن شاء الله ، فحذف القول .

قوله تعالى : (واذكر ربك إذا نسيت) قال ابن الأنباري : معناه : واذكر ربك بعد تقضي النسيان ، كما تقول : اذكر لعبد الله - إذا صلتى - حاجتك ، أي : بعد انقضاء الصلاة .

وللمفسرين في معنى الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المعنى : إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت ، فقل : إن شاء الله ، ولو كان بعد يوم أو شهر أو سنة ، قاله سعيد بن جبير ، والجمهور .
والثاني : أن معنى « إذا نسيت » : إذا غضبت ، قاله عكرمة ، قال ابن الأنباري : وليس يعمد ، لأن الغضب يُنتج النسيان .
والثالث : إذا نسيت الشيء فاذا ذكر الله ليذكرك إياه ، حكاه الماوردي .

❦ فصل ❦

وفائدة الاستثناء أن يخرج الخالف من الكذب إذا لم يفعل ما حلف عليه ، كقوله في قصة موسى : (ستجدني إن شاء الله صابراً) [الكهف : ٧٠] ، ولم يصبر ، فسليم من الكذب لوجود الاستثناء في حقه . ولا تختلف الرواية عن أحمد أنه لا يصح الاستثناء في الطلاق والعتاق ، وأنه إذا قال : أنت طالق إن شاء الله ، وأنت حرٌّ إن شاء الله ، أن ذلك يقع ، وهو قول مالك ؛ وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يقع شيء من ذلك . وأما اليمين بالله تعالى ؛ فإن الاستثناء فيها يصح ، بخلاف الطلاق ، وكذلك الاستثناء في كل ما يكفر ، كالظهار ، والنذر ، لأن الطلاق والعتاق لفظه لفظ إيقاع ، وإذا علق به المشيئة ، علمنا وجودها ، لوجود لفظ الإيقاع من جهته ، بخلاف سائر الأيمان ، لأنها ليست بموجبات للحكم ، وإنما تتعلق بأفعال مستقبلية .

وقد اختلف في الوقت الذي يصح فيه الاستثناء على ثلاثة أقوال .
أحدها : أنه لا يصح الاستثناء إلا موصولاً بالكلام ، وقد روي عن أحمد نحو هذا ، وبه قال أكثر الفقهاء .

والثاني : أنه يصح ما دام في المجلس ، قاله الحسن وطاووس ، وعن أحمد نحوه .
والثالث : أنه لو استثنى بعد سنة ، جاز ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد
ابن جبير ، وأبو العالية . وقال ابن جرير الطبري : الصواب للإنسان أن يستثنى ولو بعد
حتة في يمينه ، فيقول : إن شاء الله ، ليخرج بذلك مما أزمه الله في هذه الآية ،
فيسقط عنه الحرج ، فأما الكفارة فلا تسقط عنه بحال ، إلا أن يكون الاستثناء
موصولاً بيمينه ، ومن قال : له تثنياه ولو بعد سنة ، أراد سقوط الحرج الذي
يلزمه بترك الاستثناء دون الكفارة .

قوله تعالى : (وقل عسى أن يهديني ربي) قرأ نافع ، وأبو عمرو :
« يهديني ربي » ياء في الوصل [دون] الوقف . وقرأ ابن كثير ياء في الحالين .
وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحزمة ، والكسائي بغير ياء في الحالين .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : عسى أن يعطيني ربي من الآيات والدلالات على النبوة ما يكون
أقرب في الرشد وأدل من قصة أصحاب الكهف ، ففعل الله له ذلك ، وآتاه
من علم غيوب المرسلين ما هو أوضح في الحجّة وأقرب إلى الرشد من خبر
أصحاب الكهف ، هذا قول الزجاج .

والثاني : أن قريشاً لما سألت رسول الله ﷺ أن يخبرهم خبر أصحاب الكهف ،
قال : « غداً أخبركم » كما شرحنا في سبب نزول الآية (١) ، فقال الله تعالى له : (وقل
عسى أن يهديني ربي) أي : عسى أن يعرفني جواب مسائلكم قبل الوقت الذي
حدّثته لكم ، ويعجل لي من جهته الرشد ، هذا قول ابن الأنباري .

(١) في الصفحة (١٢٧) وقد أورد ابن كثير في تفسيره : ٣ / ٧١ من رواية
محمد بن إسحاق مطولاً .
زاد السير ٥ م (٩)

﴿ وَابْتُئِسُوا فِي كُفْرِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ وَأَزْدَادُوا نِسْجًا . قُلِ اللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ
مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾

قوله تعالى : (ولبئسوا في كفرهم ثلاثمائة سنين) قرأ ابن كثير ، ونافع ،
وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « ثلاثمائة سنين » منوناً . وقرأ حمزة ،
والكسائي : « ثلاثمائة سنين » مضافاً غير منون . قال أبو علي : العدد المضاف إلى
الآحاد قد جاء مضافاً إلى الجميع ، قال الشاعر :

وَمَا زَوَّدُونِي غَيْرَ سَحَقِ عِيَامَةٍ وَخَمْسِمِئَةٍ مِنْهَا قَسِيٌّ وَزَائِفٌ^(١)

وفي هذا الكلام قولان .

أحدهما : أنه حكاية عما قال الناس في حقهم ، وليس بمقدار لبئسهم ، قاله
ابن عباس ، واستدل عليه فقال : لو كانوا لبئسوا ذلك ، لما قال : (الله أعلم بما لبئسوا) ،
وكذلك قال قتادة ، وهذا قول أهل الكتاب .

والثاني : أنه مقدار ما لبئسوا ، قاله عبيد بن عمير ، ومجاهد ، والضحاك ،
وابن زيد ؛ والمعنى : لبئسوا هذا القدر من يوم دخلوه إلى أن بعثهم الله وأطلع
الخلق عليهم .

قوله تعالى : (سنين) قال الفراء ، وأبو عبيدة ، والكسائي ، والزجاج :
التقدير : سنين ثلاثمائة . وقال ابن قتيبة : المعنى : أنها لم تكن شهوراً ولا أياماً ،
وإنما كانت سنين . وقال أبو علي الفارسي : « سنين » بدل من قوله : « ثلاثمائة » .
قال الضحاك : نزلت : (ولبئسوا في كفرهم ثلاثمائة) فقالوا : أياماً ، أو شهوراً ،
أو سنين ؟ فنزلت : « سنين » ولذلك قال : « سنين » ، ولم يقل : سنة .

(١) البيت لزريد كما في الصحاح ، و« اللسان » : ما ي ، و« جمع البيان » ، ١٤٤/١٥ .

قوله تعالى : (وازدادوا تسماً) يعني : تسع سنين ، فاستغنى عن ذكر السنين بما تقدم من ذكرها . ثم أعلم أنه أعلم بقدر مدة لبثهم من أهل الكتاب المختلفين فيها ، فقال : (قل الله أعلم بما لبثوا) قال ابن السائب : قالت نصارى نجران : أما الثلاثمائة ، فقد عرفناها ، وأما التسع ، فلا علم لنا بها ، فنزل قوله تعالى : (قل الله أعلم بما لبثوا) وقيل : إن أهل الكتاب قالوا : إن للفتية منذ دخلوا الكهف إلى يومنا هذا ثلاثمائة وتسع سنين ، فرد الله تعالى عليهم ذلك ، وقال : « قل الله أعلم بما لبثوا » بعد أن قبض أرواحهم إلى يومكم هذا ، لا يعلم ذلك غير الله . وقيل : إنما زاد التسع ، لأنه تفاوت ما بين السنين الشمسية والسنين القمرية ، حكاها الماوردي .

قوله تعالى : (أبصِرْ به وأسمع) فيه قولان .

أحدهما : أنه على مذهب التعجب ، فالمعنى : ما أسمع الله به وأبصر ، أي : هو عالم بقصة أصحاب الكهف وغيرهم ، هذا قول الزجاج ، وذكر أنه إجماع العلماء . والثاني : أنه في معنى الأمر ، فالمعنى : أبصِرْ بيدَيْنِ الله وأسمع ، أي : بصر بهدى الله وسمع ، فترجع الهاء إما على الهدى ، وإما على الله عز وجل ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (ما لهم من دونه) أي : ليس لأهل السموات والأرض من دون الله من ناصر ، (ولا يُشرك في حكمه أحداً) ولا يجوز أن يحكم حاكم بغير ما حكم به ، وليس لأحد أن يحكم من ذات نفسه فيكون شريكاً لله عز وجل في حكمه . وقرأ ابن عامر : « ولا تُشرك » جزمًا بالتاء ، والمعنى : لا تشرك أيها الإنسان .

﴿ وَانزلُ مَا أوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ
وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلتَحِداً . وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ
تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾

قوله تعالى : (وانزل ما أوحى إليك) في هذه التلاوة قولان .

أحدهما : أنها بمعنى القراءة . والثاني : بمعنى الاتِّباع . فيكون المعنى على الأول :

اقرأ القرآن ، وعلى الثاني : اتَّبِعْهُ واعمل به . وقد شرحنا في (الأنعام : ١١٥)

معنى (لا مبدل لكلماته) .

قوله تعالى : (ولن تجد من دونه ملتحداً) قال مجاهد ، والفراء : ملجأً .

وقال الزجاج : مَعْدِلًا عن أمره ونهيه . وقال غيرهم : موضعاً تميل إليه في الاتجاه .

قوله تعالى : (واصبر نفسك) سبب نزولها أن المؤلفَةَ قلوبهم جاؤوا إلى

رسول الله ﷺ : عينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وذووم ، فقالوا :

يا رسول الله : لو أنك جلست في صدر المجلس ، ونحيت هؤلاء عنا ، - بضون

سلمان وأبذرٍ وقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف - جلسنا إليك ،

وأخذنا عنك ، فنزلت هذه الآية إلى قوله : (إنا أعتدنا للظالمين ناراً) ، فقام

رسول الله ﷺ بتمسهم ، حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد بذكرون الله ،

قال : « الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أممي ،

معكم المحيا ومعكم الميات » هذا قول سلمان الفارسي ^(١) . ومعنى قوله :

(١) د الطبري : ٢٣٦/١٥ ، ود أسباب النزول ، للواحدي : ١٧١ ، ود القرطبي : ٣٩١/١٠ ، ود الدر : ٢١٩/٤ ، وذكره ابن كثير في « التفسير » : ٨١/٣ من رواية

الطبراني ، وقد تقدم الحديث بنحوه ٤٤/٣ فارجع إليه .

(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) أي : احبسها معهم على أداء الصلوات (بالقدادة والعشي) . وقد فسرنا هذه الآية في (الأنعام : ٥٢) إلى قوله تعالى : (ولا تعد عينك عنهم) أي : لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الغنى والشرف ؛ وكان عليه السلام حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم ، ولم يكن مريداً لزينة الدنيا قط ، فأمر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين .

قوله تعالى : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) سبب نزولها أن أمية بن خلف الجمحي ، دعا رسول الله ﷺ إلى طرد الفقراء عنه ، وتقريب صناديد أهل مكة ، فنزلت هذه الآية ، رواه الضحاك عن ابن عباس (١) . وفي رواية أخرى عنه أنه قال : هو عينة وأشباهه . ومعنى « أغفلنا قلبه » : جعلناه غافلاً . وقرأ أبو مجلز : « من أغفلنا » بفتح اللام ، ورفع باء القلب . « عن ذكرنا » : عن التوحيد والقرآن والإسلام ، (واتبع هواه) في الشرك . (وكان أمره فرطاً) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه أفرط في قوله ، لأنه قال : إنا رؤوس مضر ، وإن نُسلم يُسلم الناس بعدنا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : ضياعاً ، قاله مجاهد . وقال أبو عبيدة : سرفاً ونضييعاً . والثالث : ندماً ، حكاه ابن قتيبة عن أبي عبيدة . والرابع : كان أمره التفريط ، والتفريط : تقديم العجز ، قاله الزجاج .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَفِيضُوا يُغْاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

(١) أسباب النزول ، : ١٧٢ ، ود القرطبي ، : ٣٩٢/١٠ ، ود الدر ، : ٢٢٠/٤ .

قوله تعالى : (وقل الحق من ربكم) قال الزجاج : المعنى : وقل الذي أتيتكم به ، الحق من ربكم .

قوله تعالى : (فن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : فمن شاء الله فليؤمن ، روي عن ابن عباس ^(١) .

والثاني : أنه وعيد وإنذار ، وليس بأمر ، قاله الزجاج .

والثالث : أن معناه : لا تنفعون الله بإيمانكم ، ولا تضرُّونه بكفركم ، قاله

الماوردي . وقال بعضهم : هذا إظهار للغنى ، لا إطلاق في الكفر .

قوله تعالى : (إنا أعتدنا) أي : هيئنا ، وأعددنا ، وقد شرحناه في قوله :

(وأعدت لهم متكاً) [يوسف : ٣١] . فأما الظالمون ، فقال المفسرون : هم

الكافرون . وأما الشرادق ، فقال الزجاج : الشرادق : كل ما أحاط بشيء ،

نحو الشققة في المضرب ، أو الحائط المشتعل على الشيء . وقال ابن قتيبة :

الشرادق : الحجرة التي تكون حول القسطاط . وقرأت على شيخنا أبي منصور

اللغوي ، قال : الشرادق فارسي معرب ، وأصله بالفارسية سرآدار ، وهو الدهليز ،

قال الفرزدق :

كَمَنِّيَّتُهُمْ حَتَّى إِذَا مَا لَقِيَّتَهُمْ تَرَكْتَ لَهُمْ قَبْلَ الضَّرَابِ الشَّرَادِقَا ^(٢)

وفي المراد بهذا الشرادق قولان .

أحدهما : أنه سُرادق من نار ، قاله ابن عباس . روى أبو سعيد الخدري

عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لِشُرَادِقِ النَّارِ أَرْبَعَةٌ جُدْرٌ كَثْفٌ ، كُلُّ جِدَارٍ

مِنْهَا مَسِيرَةٌ أَرْبَعِينَ سَنَةً » ^(٣) . وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس ، قال :

(١) قال ابن جرير الطبري : عن ابن عباس : فمن شاء الله له الايمان آمن ، ومن شاء الله له الكفر كفر .

(٢) ديوانه : ٥٨٦/٢ ، و « المرئب » : ٢٠٠ .

(٣) رواه أحمد في « المسند » : ٢٩/٣ من حديث دراج أبي السمع عن أبي الهيثم ، —

السرادق : لسان من النار ، يخرج من النار فيحيط بهم حتى يفرغ من حسابهم .
والثاني : أنه دخان يحيط بالكفار يوم القيامة ، وهو الظل ذو ثلاث شعب
الذي ذكره الله تعالى في (المرسلات : ٣٠) ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (وَإِن يَسْتَعِينُوا) أي : مما هم فيه من العذاب وشدة العطش
(يُغاثوا بماء كالمُهل) وفيه سبعة أقوال .

أحدها : أنه ماء غليظ كدُردي الزيت ، رواه العوفي عن ابن عباس .
والثاني : أنه كل شيء أذيب حتى انماح ، قاله ابن مسعود . وقال
أبو عبيدة ، والزجاج : كل شيء أذبه من نحاس أو رصاص أو نحو ذلك ،
فهو مهل .

والثالث : قيع ودم أسود كعكر الزيت ، قاله مجاهد .

والرابع : أنه الفضة والرصاص يذابان ، روي عن مجاهد أيضاً .

والخامس : أنه الذي انتهى حره ، قاله سعيد بن جبيرة .

والسادس : [أنه] الصديد ، ذكره ابن الأنباري . قال مغيث بن سمي : هذا
الماء هو ما يسيل من عرق أهل الموقف في الآخرة وبكأهم ، وما يجري منهم من
دم وقيع ، يسيل ذلك إلى وادي جهنم ، قطبخته جهنم ، فيكون أول ما يُغاث
به أهل النار .

والسابع : أنه الرماد الذي يُنفض عن الخبزة إذا خرجت من التَّنُّور ،
حكاه ابن الأنباري .

— ورواه الترمذي في « جامعته » : ٨٢/٢ ، وابن جرير الطبري في « تفسيره » : ٢٣٩/١٥ من
حديث رشدين بن سعد عن دراج عن أبي الهيثم ، ورشدين بن سعد ضعيف ، ودراج عن
أبي الهيثم ضعيف .

قوله تعالى : (يشوي الوجوه) قال المفسرون : إذا قرّبه إليه سقطت فروة وجهه فيه . ثم ذمّه ، فقال : (بئس الشراب وساءت) النار (مُرْتَفَقًا) وفيه خمسة أقوال .

أحدها : منزلاً ، قاله ابن عباس . والثاني : مجتمعا ، قاله مجاهد . والثالث : متكأً ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد لأبي ذؤيب :
إني أرفقت فبت الليل مُرْتَفَقًا كأن عيني فيها الصاب مذبوح^(١)
وذبحه : انفجاره ؛ قال الزجاج : « مرتفقاً » منصوب على التمييز ؛ ومعنى مرتفقاً : متكأً على المرفق . والرابع : ساءت مجلساً ؛ قاله ابن قتيبة . والخامس : ساءت مطلباً للمرفق ، لأن من طلب رفقاً من جهتها ، عدمه ، ذكره ابن الأنباري . ومعاني هذه الأقوال تتقارب . وأصل المرفق في اللغة : ما يرتفق به .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُجَلِّسُونَ فِيهَا مِنْ أُسُورٍ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِعِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال الزجاج : خبر « إن » هاهنا على ثلاثة أوجه .

(١) « ديوان المهذلين » : ١٠٤/١ ، و « شرح أشعار المهذلين » : ١٢٠/١ ، و « مجاز القرآن » : ٤٠٠/١ ، و « الطبري » : ٢٤١/١٥ ، و « القرطبي » : ٣٩٥/١٠ ، و « الكشاف » : ٣٨٩/٢ ، و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : صوب ، و « شواهد التنقي » : ٧٢ . والصاب : شجرة مروة .

أحدها : أن يكون على إضمار : (إنا لانُضِيع أجر من أحسن عملاً) منهم ، ولم يحتاج إلى ذكر « منهم » لأن الله تعالى قد أعلمنا أنه محببٌ عمل غير المؤمنين .
والثاني : أن يكون خبر « إن » : (أولئك لهم جنات عدن) ، فيكون قوله : (إنا لانُضِيع) قد فصل به بين الاسم وخبره ، لأنه يحتوي على معنى الكلام الأول ، لأن من أحسن عملاً بمنزلة الذين آمنوا .
والثالث : أن يكون الخبر : (إنا لانُضِيع أجر من أحسن عملاً) ، بمعنى : إنا لانُضِيع أجرهم .

قال المفسرون : ومعنى (لانُضِيع أجر من أحسن عملاً) أي : لاترك أعماله تذهب ضياعاً ، بل نُجازيه عليها بالثواب .
فأما الأَساور ، فقال الفراء : في الواحد منها ثلاث لغات : إسوار ، وسوار ، وسُوار ؛ فمن قال : : إسوار ، جمعهُ أساور ، ، ومن قال : سِوار أو سُوار ، جمعهُ أسورة ، وقد يجوز أن يكون واحد أسورة وأساور : سِوار ؛ وقال الزجاج : الأَساور جمع أسورة ، وأسورة جمع سِوار ، يقال : سِوار اليد ، بالكسر ، وقد حكى : سُوار . قال المفسرون : لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأَساور في اليد والتيجان على الرؤوس ، جعل الله ذلك لأهل الجنة . قال سعيد بن جبیر : يُحلى كل واحدٍ منهم بثلاثة^(١) من الأَساور ، واحدٍ من فضة ، وواحدٍ من ذهب ، وواحدٍ من لؤلؤ وياقوت .

فأما « السُّندُسُ » و« الإِسْتَبْرَقُ » ، فقال ابن قتيبة : السُّندُسُ : رقيق الديباج ، والإِسْتَبْرَقُ ثخينه . وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي ، قال : السُّندُسُ : رقيق الديباج ، ، لم يختلف أهل اللغة في أنه معرَّب ، قال الراجز :
وليلة من الليالي حنْدِسٍ لون حواشيها كلون السُّندُسِ

(١) في الأصل : ثلاثة .

والاستبرق : غايظ الديباج ، فارسي معرب ، وأصله إستفْرَه . وقال ابن دريد :
إِسْتَرَوْه ، ونقل من العجمية إلى العربية ، فلو حُقِر « إستبرق » ، أو
كُسِر ، لكان في التحقير « أُبِيرِق » ، وفي التفسير « أبارق » بحذف السين ،
والتاء جميعاً .

قوله تعالى : (متكئين فيها) الاتكاء : التحامل على الشيء . قال أبو عبيدة :
والأرائك : الفرش في الحِجَال ، ولان تكون الأريكة إلا بحجالة وسرير . وقال
ابن قتيبة : الأرائك : الشرر في الحِجَال ، واحدها : أريكة . وقال ثعلب :
لان تكون الأريكة إلا سريراً في قبة عليه شواره ومتاعه ؛ قال ابن قتيبة :
الشوار ، مفتوح الشين ، وهو متاع البيت . وقال الزجاج : الأرائك : الفرش
في الحِجَال . قال : وقيل : إنها الفرش ، وقيل : الأسيرة ، وهي على الحقيقة :
الفرش كانت في حِجَال لهم .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ
أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا . كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ
آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا . وَكَانَ
لَهُ شَرٌّ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ
نَفْرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ
هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ
خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾

قوله تعالى : (واضرب لهم مثلاً رجلين) روى عطاء عن ابن عباس ،
قال : هما ابنا ملك كان في بني إسرائيل نوقبي وتركها ، فأتخذ أحدهما الجنان
والقصور ، وكان الآخر زاهداً في الدنيا ، فكان إذا عمل أخوه شيئاً من زينة

الدنيا ، أخذ مثل ذلك فقدّمه لآخرته ، حتى نفد ماله ، فضربها الله عز وجل مثلاً للمؤمن والكافر الذي أبطرته النعمة . وروى أبو صالح عن ابن عباس : أن المسلم لما احتاج ، تعرّض لأخيه الكافر ، فقال الكافر : أين ما ورتت عن أهلك ؟ فقال : أنفقته في سبيل الله ، فقال الكافر : لكني ابتعت به جنانا وغنماً ، وبقراً ، والله لا أعطيتك شيئاً أبداً حتى تتبع ديني ، ثم أخذ بيد المسلم فأدخله جنانه يطوف به فيها ، ويرغبه في دينه . وقال مقاتل : اسم المؤمن يملخا ، واسم الكافر قرطس ، وقيل : قطرس ، وقيل : هذا المثل [ضرب] لعبيدة بن حصن وأصحابه ، ولسلمان وأصحابه .

قوله تعالى : (وحففناهما بنخل) الحفّ : الإحاطة بالشيء ، ومنه قوله : (حافيتين من حول العرش) [الزمر : ۷۵] . والمعنى : جعلنا النخل مطيفاً بها . وقوله : (وجعلنا بينها زرعاً) إعلام أن عمارتهما كاملة .

قوله تعالى : (كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا) قال الفراء : لم يقل : آتتا ، لأن « كَلِمَاتُ » تثنان لا تُفرد واحدهما ، وأصله : « كَلٌّ » ، كما تقول للثلاثة : « كَلٌّ » ، فكان القضاء أن يكون للثنتين ما كان للجمع ، وجاز توحيدها على مذهب « كَلٌّ » ، وتأنيته جائز للتأنيث الذي ظهر في « كَلِمَاتُ » ، وكذلك فاعل بـ « كَلَّا » و « كَلْنَا » و « كَلٌّ » ، إذا أضفتين إلى معرفة وجاء الفعل بـ « كَلٌّ » فوجد واجم ، فمن التوحيد قوله تعالى : (وَكَلَّمَهُمْ آتِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) [مريم : ۹۶] ، ومن الجمع : (وَكَلَّلُوا أُتُوهُ دَاخِرِينَ) [النمل : ۸۷] ، والعرب قد تفعل ذلك أيضاً في « أَي » فيؤنثون ويذكرون ، قال الله تعالى : (وَمَا نَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) [لقمان : ۳۴] ، ويجوز في الكلام « بَأَيِّ أَرْضٍ » ، وكذلك

(في أيّ صورة ماشاء ركّبتك) [الانفطار : ٨] ، ويجوز في الكلام « في أيّت » ،
قال الشاعر :

بأيّ بلاءٍ أمّ بأيّة نعمةٍ تقدّم قبلي مسلمٌ والمهلّب

قال ابن الأنباري : « كلتا » وإن كان واقماً في المعنى على اثنتين ، فإن لفظه لفظ
واحدة مؤنثة ، فغلب اللفظ ، ولم يستعمل المعنى ثقةً بمعرفة المخاطب به ؛ ومن
العرب من يؤثر المعنى على اللفظ ، فيقول : « كلتا الجنة آتنا أكلها » ، ويقول
آخرون : « كلتا الجنة آتى أكله » ، لأن « كلتا » تفيد معنى « كل » ،
قال الشاعر :

وكلتاها قد خطّ لي في صحيفتي فلا الموت أهواه ولا العيش أروح

يعني : وكلّهما قد خط لي ، وقد قالت العرب : كلّم ذاهب ، وكلّم ذاهبون .
فوحّدوا للفظ « كلّ » وجمعوا لتأويلها . وقال الزجاج : لم يقل « آتنا » ،
لأن لفظ « كلتا » لفظ واحدة ، والمعنى : كل واحدة منها آتت أكلها (ولم نظلم)
أي : لم تنقص (منه شيئاً وفجرنا خلالها نهراً) فأعلمنا أن شربها كان من ماء
نهر ، وهو من أغزر الشرب . وقال الفراء : إنما قال : « فَجَرْنَا » بالتشديد ، وهو
نهر واحد ، لأن النهر يمتد ، فكان التفجّر فيه كلفه . قرأ أبو رزين ، وأبو مجلز ،
وأبو العالية ، وابن يعمر ، وابن أبي عمير : « وفَجَرْنَا » بالتخفيف . وقرأ
أبو مجلز ، وأبو المتوكل : « خِلَلِهَا » . وقرأ أبو العالية ، وأبو عمران : « نهراً »
بسكون الهاء .

قوله تعالى : (وكان له) يعني : للأخ الكافر (نَمْر) قرأ ابن كثير ، ونافع ،
وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « وكان له نَمْر » ، « وأحيط بثمره » بضمين .
وقرأ عاصم : « وكان له نَمْر » ، « وأحيط بثمره » بفتح التاء والميم فيها .

وقرأ أبو عمرو: « تُمْر » و « بُمْره » بضمة واحدة وسكون الميم . قال الفراء :
 الثَّمَر ، بفتح التاء والميم : المأكول ، وبضمها : المال . وقال ابن الأنباري :
 الثَّمَر ، بالفتح : الجمع الأول ، والثَّمَر ، بالضم : جمع الثَّمَر ، يقال : ثَمَرَ ،
 وُثِر ، كما يقال : أسد ، وأسد ، ويصلح أن يكون الثَّمَر جمع الثمار ، كما
 يقال : حمار وُحُر ، وكتاب وكتُب ؛ فمن ضم ، قال : الثَّمَر أعم ، لأنها
 تحمل الثمار المأكولة ، والأموال المجموعة . قال أبو علي الفارسي : وقراءة أبي عمرو :
 « تُمْر » يجوز أن تكون جمع ثمار ، ككتاب ، وكتُب ، فتخفف ، فيقال :
 كتُب ، ويجوز أن يكون « تُمْر » جمع ثَمرة ، كبَدنة وِبُدْن ، وخَشبة ،
 وخُشب . ويجوز أن يكون (تُمْر) واحداً ، كعُنُق ، وُطْب .

وقد ذكر المفسرون في قراءة من ضم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه المال الكثير من صنوف الأموال ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الذهب ، والفضة ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه جمع ثَمرة ، قال الزجاج : يقال : ثَمرة ، وثمار ، وثمر .

فإن قيل : ما الفائدة في ذِكْر الثمر بعد ذِكْر الجنّتين ، وقد علم أن

صاحب الجنة لا يدخل من ثمر ؛ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه لم يكن أصل الأرض ملكاً له ، وإنما كانت له الثمار ، قاله

ابن عباس .

والثاني : أن ذِكْر الثمر دليل على كثرة ما يملك من الثمار في الجنّتين

وغيرها ، ذكره ابن الأنباري .

والثالث : إنا قد ذكرنا أن المراد بالثمر الأموال من الأنواع ، وذكرنا

أنها الذهب ، والفضة ، وذلك يخالف الثمر المأكول ؛ قال أبو علي الفارسي : من قال : هو الذهب ، والورق ، فانما قيل لذلك : "تمر على التناول ، لأن الثمر نماء في ذي الثمر ، وكونه هاهنا بالجنى أشبه من الذهب والفضة . ويقوي ذلك : (وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها) ، والإيقاع من الورق ، لا من الشجر . قوله تعالى : (فقال) يعني الكافر (لصاحبه) المؤمن (وهو يحاوره) أي : يراجعه الكلام ويجاوبه .

وفيما تحاورا فيه قولان .

أحدهما : أنه الإيمان والكفر .

والثاني : طلب الدنيا ، وطلب الآخرة . فأما « النفر » فهم الجماعة ، ومثلهم : القوم والرهط ، [ولا واحد لهذه الألفاظ من لفظها . وقال ابن فارس اللغوي] : النفر : عدة رجال من ثلاثة إلى العشرة . وفيمن أراد بنفَره ثلاثة أقوال .

أحدها : عبيده ، قاله ابن عباس . والثاني : ولده ، قاله مقاتل . والثالث : عشيرته ورهطه ، قاله أبو سليمان .

قوله تعالى : (ودخل جنته) يعني : الكافر (وهو ظالم لنفسه) بالكفر ؛ وكان قد أخذ بيد أخيه فأدخله معه ؛ (قال ما أظن أن تبعد هذه أبداً) أنكر فناء الدنيا ، وفناء جنته ، وأنكر البعث والجزاء بقوله : (وما أظن الساعة قائمة) وهذا شك [منه] في البعث ، ثم قال : (ولئن رُددتُ إلى ربي) أي : كما تزعم أنت . قال [ابن عباس] : يقول : إن كان البعث حقاً (لأجدنَّ خيراً منها) قرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وحمة ، والكسائي : « خيراً منها » ، وكذلك هي في مصاحف أهل البصرة والكوفة . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : « خيراً منها » بزيادة

ميم على التنية ، وكذلك هي في مصاحف أهل مكة والمدينة والشام . قال أبو علي :
الإفراد أولى ، لأنه أقرب إلى الجنة المفردة في قوله : (ودخل جنته) ، والتنية
لا تمتنع ، لتقدم ذكر الجننتين .

قوله تعالى : (مُنْقَلَبًا) أي : كما أعطاني هذا في الدنيا ، سيعطيني في الآخرة
أفضل منه .

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ
مِنْ تُرَابٍ مِّنْ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ لَكَ رَجُلًا . لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي
وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ
لَافْتَوَىٰ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِّنْكَ مَالًا وَوَلَدًا . فَعَسَىٰ رَبِّي
أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ
فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا . أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ
لَهُ طَلَبًا ﴾

قوله تعالى : (قال له صاحبه) يعني : المؤمن (وهو يحاوره أكفرت بالذي
خالقك من تراب) يعني : خلق أباك آدم (ثم من نطفة) يعني : ما أنشأ هو
منه ، فلما شك في البعث كان كافرًا .

قوله تعالى : (لكننا هو الله ربِّي) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ،
وحمزة ، والكسائي ، وقالون عن نافع : « لكن هو الله ربِّي » ، بإسقاط الألف
في الوصل ، وإثباتها في الوقف . وقرأ نافع في رواية المسيبي بإثبات الألف
وصلاً ووقفاً . وأثبت الألف ابن عامر في الحالين . وقرأ أبو رجاء : « لكن »
باسكان النون خفيفة من غير ألف في الحالين . وقرأ ابن يعمر : « لكن » بتشديد
النون من غير ألف في الحالين . وقرأ الحسن : « لكن أنا هو الله ربِّي »

باسكان نون « لكن » وإثبات « أنا » . قال الفراء : فيها ثلاث لغات : لكننا ، ولكن ، ولكنّه بالهاء ، أنشدني أبو ثروان :

وترمينني بالطرف أي أنت مذنب وتقلينني لكن إيتاك لا أقلي^(١)
وقال أبو عبيدة : مجازه : لكن أنا هو الله ربي ، ثم حذفت الألف الأولى ،
وأدغمت إحدى التونين في الأخرى فشدت . قال الزجاج : وهذه الألف تحذف
في الوصل ، وتثبت في الوقف ، فأما من أثبتها في الوصل كما ثبتت في الوقف ،
فهو على لغة من يقول : أنا قت ، فأثبت الألف ، قال الشاعر :

أنا سيف العشيّة فاعرفوني [حميداً قد أذريت السّناما]^(٢)
وهذه القراءة جيدة ، لأنّ الهمزة قد حذفت من « أنا » ، فصار إثبات الألف
عوضاً من الهمزة .

قوله تعالى : (ولولا إذ دخلت جنتك) أي : وهلاً ؛ ومعنى الكلام
التوبيخ . قال الفراء : (ماشاء الله) في موضع رفع ، إن شئت رفعته باضمار
هو ، يريد : [هو] ماشاء الله ؛ وإن شئت أضمرت فيه : ماشاء الله كان ؛ وجاز طرح
جواب الجزاء ، كما جاز في قوله : (فان استطعت أن تتغي نفقا في الأرض) [الأنعام : ٣٥] ،
ليس له جواب ، لأنه معروف . قال الزجاج : وقوله : (لا قوة إلا بالله) الاختيار
النصب بغير تنوين على النفي ، كقوله : (لا ريب فيها) [الكهف : ٢١] ، ويجوز :
« لا قوة إلا بالله » على الرفع بالابتداء ، والخبر « بالله » ، المعنى : لا يقوى أحد
في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله تعالى ، ولا يكون له إلا ماشاء الله .

(١) البيت غير منسوب في القرطبي ، : ٤٠٥/١٠ ، و البحر ، : ١٢٨/٦ ، و روح

المعاني ، : ٢٥٥/١٥ .

(٢) الطبري ، : ٢٤٧/١٥ ، و القرطبي ، : ٤٠٥/١٠ ، و خزائن الأدب ، ٣٩٠/٢ .

قوله تعالى : (إن ترن) قرأ ابن كثير : « إن ترني أنا » و « يؤتيني خيراً » ياء في الوصل والوقف . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ياء في الوصل . وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحزمة ، بحذف الياء فيها وصلماً ووقفاً . (أنا أقل) وقرأ ابن أبي عمير : « أنا أقل » برع اللام . قال الفراء : « أنا » هاهنا عماد إن نصبت « أقل » ، واسم إذا رفعت « أقل » ^(١) ، والقراءة بهما جائز .

قوله تعالى : (فحسى ربِّي أن يؤتيني خيراً من جنتك) أي : في الآخرة ، (ويرسلَ عليها حساباً) وفيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه العذاب ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والضحاك . وقال أبو صالح عن ابن عباس : ناراً من السماء ^(٢) .

والثاني : قضاءً من الله يقضيه ، قاله ابن زيد .

والثالث : صرامي من السماء ، واحدها : حسابانة ، قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة . قال النَّضْر بن شَمِيل : الحُسابان : سهام يرمي بها الرجل في جوف قصبة مُتَنَزِع في القوس ، ثم يرمي بعشرين منها دفعة ، فعلى هذا القول يكون المعنى : ويرسل عليها صرامي من عذابه ، إما حجارة أو برداً أو غيرها مما يشاء من أنواع العذاب . والرابع : أن الحسابان : الحساب ، كقوله : (الشمس والقمر بحسبان) [الرحمن : ٥] أي : بحساب ، فيكون المعنى : ويرسل عليها عذاباً بحساب ما كسبت بداه ، هذا قول الزجاج .

قوله تعالى : (فتصبح صعيداً زلقاً أو يُصبحَ ماؤها غوراً) قال ابن قتيبة : الصعيد : الأملس المستوي ، والزلق : الذي تنزل عنه الأقدام ، والغور : الغائر ،

(١) وكذلك قال الطبري : ٢٤٨/١٥ . (٢) في نسخة الرباط : نازل من السماء .

زاد السير ٥ م (١٠)

فجعل المصدر صفة ، يقال : ماء غَوْرٌ ، ومياه غَوْرٌ ، ولا يثنى ، ولا يجمع ، ولا يؤنث ، كما يقال : رجلٌ نَوْمٌ ، ورجلٌ صَوْمٌ ، ورجلٌ فِطْرٌ ، ورجالٌ نَوْمٌ ، [ونساء نَوْمٌ] ، ونساء صَوْمٌ . ويقال للنساء إذا نُحِنَ : نَوْحٌ ، والمعنى : يذهب ماؤها غائراً في الأرض ، أي : ذاهباً فيها . (فلن تستطيع له طلباً) فلا يبقى له أثر تطلبه به ، ولا تناله الأيدي ولا الأرشية . وقال ابن الأثيري : « غَوْرًا » إذا غَوَّرَ ، فسقط المضاف ، وخلفه المضاف إليه ، والمراد بالطلب هاهنا : الوصول ، فقام الطلب مقامه لأنه سببه . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو المتوكل : « غَوْرًا » برفع الغين والواو [الأولى] جميعاً ، [وواو بعدها] .

﴿ وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأَصْبَحَ بِقَلْبِهِ كَفِيهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا بَيْتَنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا . هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾

قوله تعالى : (وأحيط بشمره) أي : أحاط الله العذاب بشمره ، وقد سبق معنى الشمر . (فأصبح بقلبه كفيه) أي : بضرب يده على يده ، وهذا فعل النادم ، (على ما أنفق فيها) أي : في جنته ، و « في » هاهنا بمعنى « على » . (وهي خاوية) أي : خالية ساقطة (على عروشها) والعروش : السقوف ؛ والمعنى : أن حيطانها قائمة والسقوف قد تهدمت فصارت في قرارها ، فصارت الحيطان كأنها على السقوف . (ويقول باليتني لم أشرك بربي أحداً) فأخبر الله تعالى أنه لما سلبه ما أنعم به عليه ، وحقق ما أنذره [به] أخوه في الدنيا ، ندم على شركه حين لا تنفع الندامة . وقيل : إنما يقول هذا في القيامة . (ولم تكن له فئة) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم : « ولم تكن » بالثاء . وقرأ حمزة ،

والكسائي ، وخلف : « ولم يكن » بالياء . والفئة : الجماعة (ينصرونه) أي : يمنونه من عذاب الله .

قوله تعالى : (هنالك الولاية) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم : « الولاية » بفتح الواو و (لله الحق) خفصاً . وقرأ حمزة : « الولاية » بكسر الواو ، و « لله الحق » بكسر القاف أيضاً . وقرأ أبو عمرو بفتح الواو ، ورفع « الحق » ، وواقفه الكسائي في رفع القاف ، لكنه كسر « الولاية » ، قال الزجاج : معنى الولاية في [مثل] تلك الحال : تبين نصرة ولي الله . وقال غيره : هذا الكلام عائد إلى ما قبل قصة الرجلين . فأما من فتح واو « الولاية » فإنه أراد الموالاة والنصرة ، ومن كسر ، أراد السلطان والملك على ما شرحنا في آخر (الأفعال : ٧٢) .
فعلى قراءة الفتح ، في معنى الكلام قولان .

أحدهما : أنهم يتولون الله تعالى في القيامة ، ويؤمنون به ، ويتبرؤون مما كانوا يبدون ، قاله ابن قتيبة .

والثاني : هنالك يتولّى الله أمر الخلائق ، فينصر المؤمنين ويخذل الكافرين . وعلى قراءة الكسر ، يكون المعنى : هنالك السلطان لله . قال أبو علي : من كسر قاف « الحق » ، جعله من وصف الله عز وجل ، ومن رفعه جعله صفة للولاية .
فإن قيل : لم نمت الولاية وهي مؤنثة بالحق وهو مصدر ، فعنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري .

أحدهما : أن تأنيثها ليس حقيقياً ، فحملت على معنى النصر ، والتقدير : هنالك النصر لله الحق ، كما حملت الصبحة على معنى الصباح في قوله : (وأخذ الذين ظلموا الصبحة) [هود : ٦٧] .

والثاني : أن الحق مصدر يستوي في لفظه المذكر والمؤنث والائتان

والجمع ، فيقال : قولك حق ، وكلتك حق ، وأقوالكم حق . ويجوز ارتفاع الحق على المدح للولاية ، وعلى المدح لله تعالى باضمار « هو » .

قوله تعالى : (هو خير ثواباً) أي : هو أفضل ثواباً ممن يُرجى ثوابه ، وهذا على تقدير أنه لو كان غيره يثيب لكان ثوابه أفضل .

قوله تعالى : (وخير عُقبا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي : « عُقْباً » مضمومة القاف . وقرأ عاصم ، وحمة : « عُقْباً » ساكنة القاف . قال أبو علي : ما كان [على] « فُعْلٌ » جاز تخفيفه ، كالعُنُق ، والطُنْب . قال أبو عبيدة : العُقْب ، والعُقْب ، والعُقْب ، والمعْقبي ، والعاقبة ، بمعنى ، وهي الآخرة ، والمعنى : عاقبة طاعة الله خير من عاقبة طاعة غيره .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ﴾

قوله تعالى : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا) أي : في سرعة تفادها وذهابها ، وقيل : في تصرف أحوالها ، إذ مع كل فرحة ترحمة ، وهذا مفسر في سورة (بونس : ٢٤) إلى قوله : (فأصبح هشيماً) . قال الفراء : الهشيم : كل شيء كان رطباً فيس . وقال الزجاج : الهشيم : النبات الجاف . وقال ابن قتيبة : الهشيم من النبات : المتفتت ، وأصله من هشمت الشيء : إذا كسرتة ، ومنه سمي الرجل هاشماً . (وتذروه الرياح) تنسفه . وقرأ أبي ، وابن عباس ، وابن أبي عملة : « تُذْرِيهِ » برفع الناء وكسر الراء بعدها ياء ساكنة وهاء مكسورة . وقرأ ابن مسعود كذلك ، إلا أنه فتح الناء . والمقتدر : مُفْتَعِلٌ ، من قَدَرْتُ . قال المفسرون : (وكان الله على كل شيء) من الإنشاء والإفناء (مقتدراً) .

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

قوله تعالى : (المالُ والبنونَ زينة الحياة الدنيا) هذا ردُّ على المشركين الذين كانوا يفتخرون بالأموال والأولاد، فأخبر الله تعالى أن ذلك مما يُتزين به في الدنيا، [لا] مما ينفع في الآخرة.

قوله تعالى : (والباقيات الصالحات) فيها خمسة أقوال .

أحدها : أنها « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »؛ روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن عجزتم عن الليل أن تكابدوه ، وعن العدو أن تجاهدوه ، فلا تعجزوا عن قول : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فقولوها ، فأنهن الباقيات الصالحات »^(١) ، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء ، وبه قال مجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، والضحاك . وسئل عثمان ابن عفان رضي الله عنه عن الباقيات الصالحات ، فقال هذه الكلمات ، وزاد فيها : « ولا حول ولا قوة إلا بالله »^(٢) . وقال سعيد بن المسيب ، ومحمد بن كعب القرظي مثله سواء .

والثاني : « أنها لا إله إلا الله ، والله أكبر ، والحمد لله ، ولا قوة إلا بالله » ، رواه علي بن أبي طالب عليه السلام عن رسول الله ﷺ^(٣) .

والثالث : أنها الصلوات الخمس ، رواه سعيد بن جبیر عن ابن عباس ، وبه قال ابن مسعود ، ومسروق ، وإبراهيم .

(١) أورده السيوطي في « الدر » : ٢٢٥/٤ من رواية ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) أورده السيوطي في « الدر » : ٢٢٥/٤ من رواية أحمد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن عثمان رضي الله عنه .
(٣) أورده السيوطي في « الدر » : ٢٢٥/٤ من رواية ابن مردويه عن علي رضي الله عنه .

والرابع : الكلام الطيب ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والخامس : هي جميع أعمال الحسنات ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ،

وبه قال قتادة ، وابن زيد .

قوله تعالى : (خير عند ربك ثواباً) أي : أفضل جزاءً (وخير أملاً) أي :

خير مما تؤملون ، لأن آمالكم كواذب ، وهذا أمل لا يكذب .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ
فَلَمْ يُفَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا . وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِثْمُنَا
كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا .
وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ
يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أُخْصِمَهَا
وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ
اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَمَنْ لَكُمْ عَدُوٌّ
بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا . مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾

قوله تعالى : (ويوم نُسَيِّرُ الجبال) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر :

« ويوم نُسَيِّرُ » بالتاء « الجبال » رفعاً . وقرأ نافع ، وعاصم ، وحزرة ، والكسائي :

« نُسَيِّرُ » بالنون « الجبال » نصباً . وقرأ ابن محيصن : « ويوم نَسِيرُ » بفتح

الناء وكسر السين وتسكين الياء « الجبال » بالرفع . قال الزجاج : « ويوم »

منصوب على معنى : اذكر ، ويجوز أن يكون منصوباً على : والباقيات الصالحات

خير يومٍ تسيرُ الجبال . قال ابن عباس : تُسيرُ الجبال عن وجه الأرض ، كما يُسيرُ السحاب في الدنيا ، ثم تكسر فتكون في الأرض كما خرجت منها .

قوله تعالى : (وترى الأرض بارزة) وقرأ عمرو بن العاص ، وابن السميع ، وأبو العالية : « وترى الأرض بارزة » برفع التاء والضاد . وقرأ أبو رجاء المطاردي كذلك ، إلا أنه فتح ضاد « الأرض » .

وفي معنى « بارزة » قولان . أحدهما : [ظاهرة] فليس عليها شيء من جبل أو شجر أو بناء ، قاله الأثرون . والثاني : بارزاً أهلها من بطنها ، قاله الفراء . قوله تعالى : (وحشرناهم) يعني المؤمنين والكافرين (فلم تغادر) قال ابن قتيبة : أي : فلم تُخلف ، يقال : غادرت كذا : إذا خلفته ، ومنه سمي الغدير ، لأنه ماءٌ تخلفه السيول . وروى أبان : « فلم تغادر » بالتاء .

قوله تعالى : (وعرضوا على ربك صفاً) إن قيل : هذا أمر مستقبل ، فكيف عُبر [عنه] بالماضي ؟ فالجواب : أن ما قد علم الله وقوعه ، يجري مجرى المعائن ، كقوله : (ونادى أصحاب الجنة) [الأعراف : ٤٣] .

وفي معنى قوله : (صفاً) أربعة أقوال .

أحدها : أنه بمعنى : جميعاً ، كقوله : (ثم اتوا صفاً) [طه : ٦٤] ،

قاله مقاتل .

والثاني : أن المعنى : وعرضوا على ربك مصفوفين ، هذا مذهب البصريين .

والثالث : أن المعنى : وعرضوا على ربك صفوفاً ، فتاب الواحد عن

الجميع ، كقوله : (ثم نُخْرِجُكُمْ طفلاً) [الحج : ٥] .

والرابع : أنه لم يَنْغِبْ عن الله منهم أحد ، فكانوا كالصف الذي تسهل الإحاطة

بجملته ، ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري . وقد قيل : إن كل أمة وزمرة صفٌ .

قوله تعالى : (لقد جئتمونا) ، فيه إضمار « فيقال لهم » .

وفي المخاطبين بهذا قولان . أحدهما : أنهم الكُفَل . والثاني : الكُفَار ، فيكون اللفظ عامّاً ، والمعنى خاصّاً . وقوله : (كما خلقناكم أول مرة) مفسر في (الأنعام : ٩٤) . وقوله : (بل زعمتم) خطاب للكفار خاصة ، والمعنى : زعمتم في الدنيا (أن لن نجعل لكم موعداً) للبعث ، والجزاء .

قوله تعالى : (ووُضِعَ الكتاب) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الكتاب الذي سَطِرَ فيه ما تعمل الخلائق قبل وجودهم ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه الحساب ، قاله ابن السائب . والثالث : كتاب الأعمال ، قاله مقاتل . وقال ابن جرير : وُضِعَ كتاب أعمال العباد في أيديهم ، فعلى هذا ، الكتاب اسم جنس .

قوله تعالى : (فترى المجرمين) قال مجاهد : [هم] الكافرون . وذكر بعض أهل العلم أن كل مجرمٌ ذُكِرَ في القرآن ، فالمراد به : الكافر .
قوله تعالى : (مشفقين) أي : خائفين (مما فيه) من الأعمال السيئة (ويقولون ياويلتنا) هذا قول كل واقع في هلكة . وقد شرحنا هذا المعنى في قوله : (يا حسرتنا) [الأنعام : ٣١] .

قوله تعالى : (لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها) هذا على ظاهره في صغير الأمور وكبيرها ؛ وقد روى عكرمة عن ابن عباس ، قال : الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : القهقهة . وقد يُتوهَّم أن المراد بذلك صغائر الذنوب وكبائرها ، وليس كذلك ، إذ ليس الضحك والتبسم ، مجردهما من الذنوب ، وإنما المراد أن التبسم من صغائر الأفعال ، والضحك فعل كبير ، وقد روى الضحاك عن ابن عباس ، قال : الصغيرة : التبسم والاستهزاء بالمؤمنين ، والكبيرة : القهقهة

بذلك ؛ فلي هذا بكون ذنباً من الذنوب لمقصود فاعله ، لا لنفسه . ومعنى « أحصاها » : عدّها وأثبتها ، والمعنى : وجدتُ مُحصاةً . (ووجدوا ما عملوا حاضراً) أي : مكتوباً مُثبتاً في الكتاب ، وقيل : رأوا جزاءه حاضراً . وقال أبو سليمان : الصحيح عند المحققين أن صغار المؤمنين الذين أُعدوا العفو عنها إذا اجتنبوا الكبائر ، إنما يعفى عنها في الآخرة بعد أن يراها صاحبها .

قوله تعالى : (ولا يظلم ربك أحداً) قال أبو سليمان : لانتقص حسنات المؤمن ، ولا يزداد في سيئات الكافر . وقيل : إن كان للكافر فعل خير ، كعتق رقبة ، وصدقة ، خُفِّفَ عنه به من عذابه ، وإن ظلمه مسلم ، أخذ الله من المسلم ، فصار الحق لله .

ثم إن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يذكر هؤلاء المتكبرين عن مجالسة الفقراء قصة إبليس وما أوردته الكبر ، فقال : (وإذ قلنا) أي : اذكر ذلك . وفي قوله : (كان من الجن) قولان .

أحدهما : أنه من الجن حقيقة ، لهذا النص ؛ واحتج قائلو هذا بأن له ذرية - وليس للملائكة ذرية - وأنه كفر ، والملائكة رسل الله ، فهم معصومون من الكفر . والثاني : أنه كان من الملائكة ، وإنما قيل : « من الجن » ، لأنه كان من قبيل من الملائكة يقال لهم : الجن ، قاله ابن عباس ؛ وقد شرحنا هذا في (البقرة : ٣٤) .

قوله تعالى : (ففسق عن أمر ربه) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : خرج عن طاعة ربه ، تقول العرب : فسقت الرطبة من قشرها : إذا خرجت منه ، قاله الفراء ، وابن قتيبة .

والثاني : أتاه الفسق لما أمر فعصى ، فكان سبب فسقه عن أمر ربه ، قال

الزجاج : وهذا مذهب الخليل وسيبويه ، وهو الحق عندنا .

والثالث : ففسق عن ردِّ أمر ربه ، حكاه الزجاج عن قطرب .

قوله تعالى : (أَفْتَحْنُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي) [أي] : توألوهم بالاستجابة

لهم ؛ قال الحسن ، وقسادة : ذريته : أولاده ، وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم .

قال مجاهد : ذريته : الشياطين ، ومن ذريته زَلَنْبُور صاحب راية إبليس بكل سوق ،

ونبئر ، وهو صاحب المصائب ، والأعور صاحب الرياء ، وميسنوط صاحب

الأخبار يأتي بها فيطرحها على أفواه الناس ، فلا يوجد لها أصل ، وداسم صاحب

الإنسان إذا دخل بيته ولم يسلم ولم يذكر اسم الله ، فهو يأكل معه إذا أكل .

قال بعض أهل العلم : إذا كانت خطيئة الإنسان في كِبْر فلا تَرَجُّه ، وإن

كانت في شهوة فارجه ، فان ممصية إبليس كانت بالكِبْر ، وممصية آدم بالشهوة .

قوله تعالى : (بئس للظالمين بدلاً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : بئس الاتخاذ للظالمين بدلاً . والثاني : بئس الشيطان . والثالث :

بئس الشيطان والذريَّة ، ذكرهنَّ ابن الأنباري .

قوله تعالى : (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض) وقرأ أبو جعفر ،

وشيبة : « ما أشهدناهم » بالنون والألف .

وفي المشار إليهم أربعة أقوال .

أحدها : إبليس وذريته . والثاني : الملائكة . والثالث : جميع الكفار . والرابع :

جميع الخلق ؛ والمعنى : إني لم أشاورهم في خلقهم ؛ وفي هذا بيان للفناء عن

الأعوان ، وإظهار كمال القدرة .

قوله تعالى : (ولا خَلَقَ أَنفُسَهُمْ) أي : ما أشهدت بعضهم خَلَقَ بعض ،
ولا استغنت ببعضهم على إيجاد بعض .

قوله تعالى : (وما كنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ) [يعني : الشياطين] (عَضُدًا)
أي : أنصاراً وأعواناً . والعَضُدُ يستعمل كثيراً في معنى العون ، لأنه قِوَامُ
[اليد] ، قال الزجاج : والاعتضاد : التقوي وطلب المعونة ، يقال : اعتضدت
بفلان ، أي : استغنت به .

وفي ما تبقى اتخذهم عضداً فيه قولان .

أحدهما : أنه الولايات ، والمعنى : ما كنت لأولي المضلين ، قاله مجاهد .
والثاني : أنه خلق السموات والأرض ، قاله مقاتل . وقرأ الحسن ،
والجحدري ، وأبو جعفر : « وما كنت » بفتح التاء .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا . وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ
فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾

قوله تعالى : (ويوم يقول) وقرأ حمزة : « تقول » بالنون ، يعني : يوم
القيامة (نادوا شركائي) أضاف الشركاء إليه على زعمهم ، والمراد : نادوهم لدفع
العذاب عنهم ، أو الشفاعة لهم ، (الذين زعمتم) أي : زعمتموهم شركاء (فدعوهم
فلم يستجيبوا لهم) أي : لم يجيبوهم ، (وجعلنا بينهم) في المشار إليهم قولان .
أحدهما : أنهم المشركون والشركاء . والثاني : أهل الهدى وأهل الضلالة .
وفي معنى (موبقاً) ستة أقوال .

أحدها : مهلكاً ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك . وقال ابن قتيبة :

مَهْلِكًا يَنْهَمُ وَيَبِينُ آهَتَهُمْ فِي جَهَنَّمَ ، وَمِنْهُ يُقَالُ : أَوْبَقْتَهُ ذَنْبُهُ ، [أَي : أَهْلَكْتَهُ] .
 قَالَ الزَّجَّاجُ : [الْمَعْنَى] : جَعَلْنَا مِنْهُمُ مِنَ الْعَذَابِ مَا يُؤَبِّقُهُمْ ، أَي : يَهْلِكُهُمْ ، فَالْمَوْبِقُ (١) :
 الْمَهْلِكُ ، يُقَالُ : وَبِقَ ، وَيَبِقُ ، وَيَبِقُ ، وَبِقًا ؛ وَوَبِقَ ، وَوَبِقًا ، وَوَبِقًا ، فَهُوَ وَابِقٌ ؛
 وَقَالَ الْفَرَّاءُ : جَعَلْنَا تَوَاصُلَهُمْ فِي الدُّنْيَا مَوْبِقًا ، أَي : مَهْلِكًا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ،
 فَالْبَيِّنُ ، عَلَى هَذَا الْقَوْلِ ؛ بِمَعْنَى التَّوَاصُلِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ)
 [الْأَنْعَامُ : ٩٤] عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ ضَمَّ النُّونَ .

وَالثَّانِي : أَنَّ الْمَوْبِقَ : وَادٍ عَمِيقٌ يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ أَهْلِ الضَّلَالَةِ وَأَهْلِ الْهُدَى ،
 قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو .

وَالثَّلَاثُ : أَنَّهُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ، وَبِجَاهِدٍ .

وَالرَّابِعُ : أَنَّ مَعْنَى الْمَوْبِقِ : الْعِدَاوَةُ ، قَالَ الْحَسَنُ .

وَالخَامِسُ : أَنَّهُ الْمَحْبِسُ ، قَالَ الرَّيِّعُ بْنُ أَنَسٍ .

وَالسَّادِسُ : أَنَّهُ الْمَوْعِدُ ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ .

قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : إِنْ قِيلَ : لَمْ قَالَ : « مَوْبِقًا » وَلَمْ يَقُلْ : « مَوْبِقًا » ،

بِضَمِّ الْمِيمِ ، إِذْ كَانَ مَعْنَاهُ عَذَابًا مَوْبِقًا ؛

فَالْجَوَابُ : أَنَّهُ اسْمُ مَوْضِعٍ لِمَحْبِسٍ فِي النَّارِ ، وَالْأَسْمَاءُ لَا تُؤْخَذُ بِالْقِيَاسِ ،

فَيُعْلَمُ أَنَّ « مَوْبِقًا » : مَفْعِلٌ ، مِنْ أَوْبَقَهُ اللَّهُ : إِذَا أَهْلَكَهُ ، فَتَنْفَعُ الْمِيمُ ، كَمَا

تَنْفَعُ فِي « مَوْعِدٍ » وَ « مَوْلِدٍ » وَ « مَحْتِدٍ » إِذَا سَمَّيْتَ الشَّخْصَ بِهِمْ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ) أَي : مَا يَنْوِيهَا وَهِيَ تَنْفِيزٌ حَقِيقًا عَلَيْهِمْ .

وَالْمُرَادُ بِالْمَجْرُمِينَ : الْكُفَّارُ . (فَظَنُّوا) أَي : أُيْقِنُوا (أَنَّهُمْ مُوَاقِمُوهَا) أَي :

(١) فِي الْأَصْلِ : « فَالْوَضِعُ » بَدَلًا مِنْ كَلِمَةِ « فَالْمَوْبِقُ » ، وَلَدَلَهُ سَهْوٌ مِنَ النَّاسِخِ .

داخلوها . ومعنى الواقعة : ملابسة الشيء بشدة (ولم يجدوا عنها مصرفاً) أي :
معدلاً ؛ والمصرف : الموضع الذي يُصرف إليه ، وذلك أنها أحاطت بهم
من كل جانب ، فلم يقدرُوا على الهرب .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ
الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ
الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمْ
الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾

قوله تعالى : (ولقد صرّفنا في هذا القرآن) قد فسرناه في (بني إسرائيل : ٤١) .

قوله تعالى : (وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً) فيمن نزلت قولان .

أحدهما : أنه النضر بن الحارث ، وكان جداله في القرآن ، قاله ابن عباس .

والثاني : أبي بن خلف ، وكان جداله في البعث حين أتى بعظم قد رم ،

فقال : أيقدر الله على إعادة هذا ؟ ! قاله ابن السائب . قال الزجاج : كل ما يعقل

من الملائكة والجن يجادل ، والإنسان أكثر هذه الأشياء جدلاً .

قوله تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا) قال المفسرون : يعني : أهل مكة

(إذ جاءهم الهدى) وهو : محمد ﷺ ، والقرآن ، والإسلام (إلا أن تأتيهم

سنة الأولين) وهو : أنهم إذا لم يؤمنوا عذبوا .

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : ما منعهم من الإيمان إلا طلب أن تأتيهم سنة الأولين ،

قاله الزجاج .

والثاني : وما منع الشيطان الناس أن يؤمنوا إلا لأن تأتيهم سنة الأولين ،

أي : منعهم رُشدَهُمْ لكي يقع العذاب بهم ، ذكره ابن الأثير .

والثالث : ما منعمهم إلا أنبي قد قدرت عليهم العذاب . وهذه الآية فيمن قُتل بيدر وأحد من المشركين ، قاله الواحدي .

قوله تعالى : (أو يأتيهم العذاب) ذكر ابن الأنباري في « أو » [هاهنا] ثلاثة أقوال .
أحدها : أنها بمعنى الواو .

والثاني : أنها لوقوع أحد الشيتين ، إذ لا فائدة في بيانه .

والثالث : أنها دخلت للتبويض ، أي : أن بعضهم يقع به هذا ، وهذه

الأقوال الثلاثة قد أسلفنا بيانها في قوله عز وجل : (أو كصيب من السماء)

[البقرة : ١٩] .

قوله تعالى : (قُبُلًا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر :

« قِبَلًا » بكسر القاف وفتح الباء . وقرأ عاصم ، وحزمة ، والكسائي : « قُبُلًا »

بضم القاف والباء . وقد يئنا على القراءتين في (الأنعام : ١١١) . وقرأ أبي

ابن كعب ، وابن مسعود : « قَبِيلًا » بوزن فَعِيل . وقرأ أبو الجوزاء ،

وأبو المتوكل « قِبَلًا » بفتح القاف من غير ياء ، قال ابن قتيبة : أراد استئنافاً .

فان قيل : إذا كان المراد بسنة الأولين العذاب ، فما فائدة التكرار بقوله :

(أو يأتيهم العذاب) ؟

فالجواب : أن سنة الأولين أفادت عذاباً مبهماً يمكن أن يتراخى وقته ،

وتختلف أنواعه ، وإتيان العذاب قُبُلًا أفاد القتل يوم بدر . قال مقاتل : « سنة

الأولين » : عذاب الأمم السالفة ؛ « أو يأتيهم العذاب قِبَلًا » ، أي : عياناً

قتلاً بالسيف يوم بدر .

﴿ وَمَا أَرْسَلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ

الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي

وَمَا أَنْذِرُوا هَزُورًا . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَمَعْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا . وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا . وَنَبِّئْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَمَعْنَا لِهَلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (ويجادل الذين كفروا بالباطل) قال ابن عباس : يريد : المستهزئين والمقتسمين وأتباعهم . وجدالهم بالباطل : أنهم ألزموه أن يأتي بالآيات على أهوائهم (ليُدْحِضُوا به الحق) أي : ليُبْطِلُوا ماجاء به محمد ﷺ . وقيل : جدالهم : قولهم : (إذا كنا عظاماً ورفاتاً) [الاسراء : ٤٩] ، (إذا ضللتنا في الأرض) [السجدة : ١٠] ، ونحو ذلك ليبتلوا به ماجاء في القرآن من ذكر البعث والجزاء . قال أبو عبيدة : ومعنى « ليُدْحِضُوا » : ليُزِيلُوا ويذهبوا ، يقال : مكان دحض ، أي : مزال لا يثبت فيه قدم ولا حافر .

قوله تعالى : (وانسخدوا آياتي) يعني القرآن . (وما أنذروا) أي : خوَّفوا به من النار والقيامة (هزواً) أي : مهزواً به .

قوله تعالى : (ومن أظلم) قد شرحنا هذه الكلمة في (البقرة : ١١٤) . و (ذكّر) بمعنى : وعظ . وآيات ربه : القرآن ، وإعراضه عنها : تهاونه بها . (ونسي ما قدمت يدها) أي : ما ساف من ذنوبه ؛ وقد شرحنا ما بعد هذا في (الأنعام : ٢١) إلى قوله : (وإن تدعهم إلى الهدى) وهو : الإيمان والقرآن (فلن يهتدوا) هذا إخبار عن علمه فيهم .

قوله تعالى : (وربك الغفور ذو الرحمة) إذ لم يعاجلهم بالمقوبة . (بل لهم

موعد) للبعث والجزاء (لن يجدوا من دونه موثلاً) قال الفراء : الموثل : المنجى ، وهو الملجأ في المعنى ، لأن المنجى ملجأً ، والعرب تقول : إنه لِيُؤاتِلُ إلى موضعه ، أي : يذهب إلى موضعه ، قال الشاعر :

لَا وَاةَلْتُ نَفْسُكَ خَلِيَّتَهَا لِلْعَامِرِيَّتَيْنِ ، وَلَمْ تُتَكَلَّمْ^(١)

يريد : لانبجت نفسك ، وأنشد أبو عبيدة للأعشى :

وَقَدْ أَخَالِسُ رَبَّ الْبَيْتِ غَفْلَتَهُ وَقَدْ يُحَادِرُ مِنِّي نَمَّ مَائِثِلُ^(٢)

أي : ماينجو . وقال ابن قتيبة : الموثل : الملجأ . يقال : وأل فلان إلى كذا : إذا لجأ .

فان قيل : ظاهر هذه الآية يقتضي أن تأخير العذاب عن الكفار برحمة الله ،

ومعلوم أنه لانصيب لهم في رحمة .

فعنه جوابان . أحدهما : [أن] الرحمة هاهنا بمعنى النعمة ، ونعمة الله لا يخلو منها

مؤمن ولا كافر . فأما الرحمة التي هي الغفران والرضى ، فليس للكافر فيها نصيب .

والثاني : أن رحمة الله محظورة على الكفار يوم القيامة ، فأما في الدنيا ، فإنهم

ينالون منها العافية والرزق .

قوله تعالى : (وتلك القرى) يريد : التي قصصنا عليك ذكراها ، والمراد :

أهلها ، ولذلك قال : (أهلكناهم) والمراد : قوم هود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب .

قال الفراء : قوله : (لَمَّا ظَلَمُوا) معناه : بعدما ظلموا .

(١) البيت غير منسوب في الطبري ، : ٢٦٩/١٥ ، و القرطبي ، : ٨/١١ ،

و اللسان ، : وأل .

(٢) ديوانه بشرح الدكتور محمد حسين ص ٥٩ ، و الطبري ، : ٢٦٩/١٥ ، و د مجاز

القرآن ، : ٤٠٨/١ ، و القرطبي ، : ٨/١١ .

قوله تعالى : (وجعلنا لهم لهم) قرأ الأكثر بضم الميم وفتح اللام ؛
قال الزجاج : وفيه وجهان .

أحدهما : أن يكون مصدراً ، فيكون المعنى : وجعلنا لإهلاكهم .

والثاني : أن يكون وقتاً ، فالمعنى : لوقت هلاكهم .

وقرأ أبو بكر عن عاصم بفتح الميم واللام ، وهو مصدر مثل الهلاك . وقرأ

حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام ، ومعناه : لوقت إهلاكهم .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ لَأَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ بَيْتِي مِنَ الْبَحْرِ مِثْرًا

أَوْ أَمْضِي حُقُبًا . فَلَمَّا بَلَغَا بَلْعًا جَمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيًا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ

سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا . فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلِهِ آتَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ

لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا . قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ

فَأَنبَتِ الْحُوتُ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ

سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا . قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَيَّ

آثَارِهِمَا قَصَصًا . فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا

وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾

قوله تعالى : (وإذ قال موسى لقتله لَأَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ بَيْتِي مِنَ الْبَحْرِ مِثْرًا

عليه السلام في هذا السفر ، ما روى ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ

قال : « إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل : أي الناس أعلم ؟ فقال :

أنا ، فغضب الله عز وجل عليه إذ لم يردِّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه أن لي

عبداً بجمع البحرين هو أعلم منك ؛ قال موسى : يارب فكيف لي به ؟ قال :

تأخذ معك حوتاً فتجمله في مكث ، فحينما فقدت الحوت فهو ثم . فانطلق

زاد المسير ٥ م (١١)

معه فتاه يوشع بن نون ، حتى إذا أتيا الصخرة ، وضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر ، فآخذ سبيله في البحر سرّياً ، وأمسك الله عن الحوت جريّة الماء ، فصار عليه مثل الطاق ^(١) . فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا ببقية يومها وليلتها ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً ، قال : ولم يجد موسى النّصيب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ، فقال فتاه : (أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة . . .) إلى قوله : (عجبا) . قال : فكان للحوت سرّياً ، ولموسى ولفتاه عجبا ، فقال موسى : (ذلك ما كنا نبغي ، فارتدا على آثارهما قصصاً) قال : رجعا بقصّان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فاذا هو مسجدٌ بثوب ، فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنتى بأرضك السلام ^(٢) ! من أنت ؟ قال : أنا موسى ، قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم أنتك لتعلمني مما علمت رشداً ، قال : إنك لن تستطيع معي صبراً يا موسى ، إني على علمٍ من علم الله لا تعلمه علمنيه ، وأنت على علمٍ من علم الله علمك لا أعلمه ؛ فقال موسى : ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ؛ فقال له الخضر : فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ؛ فانطلقا يمشيان على الساحل ، فرّت سفينة فكأموهم أن يحملوهم ، فمرفوا الخضر فحملوه بغير نول ^(٣) ؛ فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقَدوم ، فقال له موسى : قوم قد حملونا بغير نول عمدت

(١) الطاق : عقد البناء ، وجمعه : طيقان ، وأطواق - وهو الأراج (بيت بيني طولاً ، أو السف) - وما عقد أعلاه من البناء وبقي ماتحته خالياً .

(٢) أي : من أين السلام في هذه الأرض التي لا يعرف فيها السلام . قال العلماء :

« أنشئ ، تأتي بمعنى : أين ، ومعنى ، وحيث ، وكيف .

(٣) أي : بغير أجر ، والنول والنوال : العطاء .

إلى سفينتهم (فخرقتها لتُخرِقَ أهلها...) إلى قوله : (عُسْرًا) ؟ ! قال : وقال رسول الله ﷺ : « كانت الأولى من موسى نسياناً » ، وجاء عصفور فوق على حرف السفينة ، فنقر في البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما علمي وعلمك من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يشيان على الساحل ، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقبله فقتله ، فقال له موسى : (أقتلت نفساً زاكية) إلى قوله : (يريد أن ينقض) فقال الخضر بيده [هكذا] ^(١) ، فأقامه ، فقال موسى : قوم أنينام فلم يطعمونا ، ولم يضيّفونا (لو شئتَ لاتّخذتَ عليه أجراً) ! (قال هذا فراق بيني وبينك...) الآية . هذا حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم في « الصحيحين » ^(٢) ، وقد ذكرنا إسناده في كتاب « الحقائق » فأثرنا الاختصار هاهنا .

فأما التفسير ، فقوله تعالى : (وإذ قال موسى) المعنى : واذكر ذلك . وفي موسى قولان .

أحدهما : أنه موسى بن عمران ، قاله الأكثرون . ويدل عليه ما روي في « الصحيحين » من حديث سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نَوْفًا البِكَالِيَّ يزعم أن موسى بن إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخضر ، قال :

(١) قوله : فقال الخضر بيده هكذا ، أي : أشار بيده فأقامه ، وهذا تعبير بأفضل عن القول ، وهو شائع .

(٢) البخاري : ١٥٣/١ و ٣٠٨/٦ و ٣١٠/٨ ، ومسلم : ١٨٤٧/٤ ، ورواه الترمذي ١٤٣/٢ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

كذب عدو الله^(١) ، أخبرني أبي بن كعب . . . فذكر الحديث الذي قدمناه آنفاً^(٢) .

والثاني : أنه موسى بن ميثا ، قاله ابن إسحاق ، وليس بشيء ، للحديث الصحيح الذي ذكرناه . فأما فتاه فهو يوشع بن نون من غير خلاف . وإنما سمي فتاه ، لأنه كان يلازمه ، ويأخذ عنه العلم ، ويخدمه .

ومعنى (لا أبرح) : لا أزال . وليس المراد به : لا أزول ، لأنه إذا لم يُزل لم يقطع أرضاً ، فهو مثل قولك : ما برحت أنظر عبد الله ، أي : ما زلت ، قال الشاعر :
إذا أنتَ لم تَبْرَحْ تُوَدِّيْ أمانَةَ وتحمِلْ أُخرى أفرحتك الودائع^(٣)
أي : أثقتك ، والمعنى : لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين ، أي : ملتقاهما ، وهو الموضع الذي وعده الله بقاء الخضر فيه ، قال قتادة : بحر فارس ، وبحر الروم ، فبحر الروم نحو المغرب ، وبحر فارس نحو المشرق .

وفي اسم البلد الذي يجمع البحرين قولان .

أحدهما : إفريقية ، قاله أبي بن كعب . والثاني : طنجة ، قاله محمد بن كعب القرظي . قوله تعالى : (أو أمضي حُقباً) وقرأ أبو رزين ، والحسن ، وأبو مجلز ، وقاتادة ، والجحدري ، وابن يعمر : « حُقباً » بإسكان الكاف . قال ابن قتيبة : الحُقبُ : الدَّهر ، والحِقبُ : السِّنون ، واحدها حِقْبَة ، ويقال : حُقبٌ وحُقبٌ ، كما يقال : قُقلٌ وقُقلٌ ، وهزُؤٌ وهزُؤٌ ، وكُفؤٌ وكُفؤٌ ، وأُكُكُلٌ

(١) قوله : كذب عدو الله ، قال العلماء : هو على وجه الاغلاظ والزجر عن مثل قوله ، لا أنه بمتقد أنه عدو الله حقيقة ، إذا قاله مبالغة في إنكار قوله ، لمخالفة قول رسول الله ﷺ ، وكان ذلك في حال غضب ابن عباس ، لشدة إنكاره ، وحال الغضب تطلق الألفاظ ولا تزداد بها حقائقها .

(٢) البخاري : ٣١٠/٨ ، ومسلم : ١٨٤٧/٤ .

(٣) البيت لبهس المذري في اللسان ، : فرح .

وَأَكُلُ ، وَسُحُتْ وَسُحُتْ ، وَرُعِبَ وَرُعِبَ ، وَنَكَرَ وَنَكَرَ ، وَأُذِنَ
وَأُذِنَ ، وَسُحِقَ وَسُحِقَ ، وَبُعِدَ وَبُعِدَ ، وَشُغِلَ وَشُغِلَ ، وَتُلُتْ وَتُلُتْ ،
وَعُذِرَ وَعُذِرَ ، وَنُذِرَ وَنُذِرَ ، وَعُمِرَ وَعُمِرَ .

وللمفسرين في المراد بالحُقْب هاهنا ثمانية أقوال .

أحدها : أنه الدهر ، قاله ابن عباس . والثاني : ثمانون سنة ، قاله عبد الله
ابن عمرو ، وأبو هريرة . والثالث : سبعون ألف سنة ، قاله الحسن . والرابع :
سبعون سنة ، قاله مجاهد . والخامس : سبعة عشر ألف سنة ، قاله مقاتل بن حيان .
والسادس : أنه ثمانون ألف سنة ، كل يوم ألف سنة من عدد الدنيا . والسابع :
أنه سنة بلغة قيس ، ذكرها الفراء . والثامن : الحُقْب عند العرب وقت غير
محدود ، قاله أبو عبيدة . ومعنى الكلام : لأزال أسير^١ ، ولو احتجت أن أسير حُقْباً .

قوله تعالى : (فلما بلغنا) يعني : موسى وقتاه (بجمعَ بَيْنِهِمَا) يعني :
البحرين (نسيا حوتها) وكانا قد تزودا حوتاً مالحاً في زَيْل^(١) فكانا يصيبان
منه عند الغداء والمشاء ، فلما انتهيا إلى الصخرة على ساحل البحر وضع فتاه المِكتَل ،
فأصاب الحوتَ بللُ البحر . وقيل : توشأ يوشع من عين الحياة فاتضح على الحوت
الماء ، فعاش ، فتحرك في المِكتَل ، فانسرب في البحر ، وقد كان قيل لموسى :
تزوّد حوتاً مالحاً ، فاذا فقدته وجدتَ الرجل . وكان موسى حين ذهب الحوت
في البحر قد مضى لحاجة ، فعزم فتاه أن يخبره بما جرى فنسي . وإنما قيل :
« نسيا حوتها » توسعاً في الكلام ، لأنها جميعاً تزوداه ، كما يقال : نسي القوم
زادهم ، وإنما نسيه أحدم . قال الفراء : ومثله قوله : (يخرج منها اللؤلؤ والمرجان)
[الرحمن : ٢٢] ، وإنما يخرج ذلك من الملح ، لا من العذب . وقيل : نسي يوشع

(١) الزَيْل : القفّة ، والجمع : زَيْل ومثله الزَيْيل ، والزَيْيل ، والجمع : زنايل .

أن يحمل الحوت، ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء، فلذلك أُضيف النسيان إليهما .
قوله تعالى : (فاتخذ سبيله في البحر سرباً) أي : مسلماً ومذهباً . قال
ابن عباس : جعل الحوت لايمس شيئاً من البحر إلا يمس حتى يكون صخرة .
وقال قتادة : جعل لايسلك طريقاً إلا صار الماء جامداً . وقد ذكرنا في حديث
أبي بن كعب أن الماء صار مثل الطاق على الحوت ^(١) .

قوله تعالى : (فلما جاوزا) ذلك المكان الذي ذهب فيه الحوت ، أصابها
مايصيب المسافر من النَّصَب ، فدعا موسى بالطعام ، فقال : (آتنا غداءنا) وهو
الطعام الذي يؤكل بالغداة . والنَّصَب : الإعياء . وهذا يدل على إباحة إظهار مثل
هذا القول عندما يلحق الإنسان من الأذى والتعب ، ولا يكون ذلك شكوى .
(قال) يوشع لموسى (أرايت إذ أوتينا إلى الصخرة) أي : حين نزلنا هناك
(فاني نسيتُ الحوت) فيه قولان .

أحدهما : نسيتُ أن أخبرك خبر الحوت . والثاني : نسيت حمل الحوت .
قوله تعالى : (وما أنسانيه) قرأ الكسائي : « أنسانيه » بامالة السين [مع كسر
الهاء] . وقرأ ابن كثير : « أنسانيه » بابتداء ياء في الوصل بعد الهاء . وروى
حفص عن عاصم : « أنسانيه إلا » بضم الهاء [في الوصل] .
قوله تعالى : (واتخذ سبيله في البحر عجباً) الهاء في السبيل ترجع إلى الحوت .
وفي المُتَّخِذِ قولان .

أحدهما : أنه الحوت ، ثم في الخبر عنه قولان .
أحدهما : أنه الله عز وجل ، ثم في معنى الكلام ثلاثه أقوال . أحدها :
فاتخذ سبيله في البحر بُري عجباً ، ويُحدث عجباً . والثاني : أنه لما قال الله تعالى :

(١) انظر الصفحة (١٦١) .

(واتخذ سبيله في البحر) ، قال : اعجبوا لذلك عجباً ، وتنبهوا لهذه الآية .
والثالث : أن إخبار الله تعالى انقطع عند قوله : « في البحر » فقال موسى : عجباً ،
لما شوهد من الحوت . ذكر هذه الأقوال ابن الأثير .

والثاني : [أن] المُخْبِر عن الحوت يوشع ، وصف لموسى ما فعل الحوت .
والقول الثاني : أن المتخذ موسى ، اتخذ سبيل الحوت في البحر عجباً ،
فدخل في المكان الذي مرّ فيه الحوت ، فرأى الخضر . وروى عطية عن
ابن عباس قال : رجع موسى إلى الصخرة فوجد الحوت ، فجعل الحوت يضرب
في البحر ، ويتبعه موسى ، حتى انتهى به إلى جزيرة من جزائر البحر ، فلقى الخضر .
قوله تعالى : (قال) يعني : موسى (ذلك ما كنّا نبغي) أي : ذلك الذي
نطلب من العلامة الدالة على مطلوبنا . قرأ ابن كثير : « نبغي » ياء في الوصل
والوقف . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، ياء في الوصل . وقرأ ابن عامر ،
وعاصم ، وحمزة ، بحذف الياء في الحالين .

قوله تعالى : (فارتدا على آثارهما) قال الزجاج : أي : رجعا في الطريق الذي
سلكاه ، يقصّان الأثر . والقصص : انبعاث الأثر .

قوله تعالى : (فوجدنا عبداً من عبادنا) يعني : الخضر .

وفي اسمه أربعة أقوال .

أحدها : اليسع ، قاله وهب ، ومقاتل . والثاني : الخضر بن عاميا .

والثالث : أرميا بن حلفيا ، ذكرها ابن المنادي : والرابع : بليا بن ملكان ، ذكره
علي بن أحمد النيسابوري .

فأما تسميته بالخضر ، ففيه قولان .

أحدهما : أنه جلس في فروة بيضاء فاخضرت ، رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ^(١) . والفروة : الأرض اليابسة .
والثاني : أنه كان إذا جلس اخضرت ما حوله ، قاله عكرمة . وقال مجاهد :
كان إذا صلى اخضرت ما حوله . وهل كان الخضر نبياً ، أم لا ؟ فيه قولان ،
ذكرها أبو بكر بن الأباري ، وقال : كثير من الناس يذهب إلى أنه كان نبياً^(٢) ، وبعضهم يقول : كان عبداً صالحاً . واختلف العلماء هل هو باقٍ إلى يومنا هذا ، على قولين حكاهما الماوردي ، وكان الحسن يذهب إلى أنه مات ، وكذلك كان ابن المنادي من أصحابنا يقول ، ويقبح قول من يرى بقاءه ، ويقول : لا يثبت حديث في بقاءه^(٣) . وروى أبو بكر النقاش أن محمد بن إسماعيل البخاري سئل عن الخضر وإلياس : هل هما في الأحياء ؟ فقال : كيف يكون ذلك وقد قال النبي ﷺ : « لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد » !^(٤) .
فوله تعالى : (آتيناها رحمة من عندنا) في هذه الرحمة ثلاثة أقوال .

(١) روى الامام أحمد في « المسند » عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في الخضر قال : « إنا سمي خضراً ، لأنه جلس على فروة بيضاء ، فاذا هي تهتز من تحته خضراء ، وجاء في « صحيح البخاري » ٣٠٩/٦ عن همام عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إنا سمي الخضر ، لأنه جلس على فروة بيضاء ، فاذا هي تهتز من خلفه خضراء » . قال ابن كثير : والمراد بالفروة هاهنا : الخشيش اليابس ، وهو المشيم من النبات .
(٢) قال ابن كثير ٩٩/٣ عند قوله تعالى على لسان الخضر عليه السلام (وما فعلته عن أمري) : وما فعلته عن أمري ، أي : لكي أمرت به ، ووقفت عليه ، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام ، مع ما تقدم من قوله تعالى : (فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلماها من لدنا علماً) . وقال الآلوسي في « روح المعاني » ٢٩٣/١٥ : الجمهور على أنه نبي .
(٣) ومن جزم بأنه غير موجود الآن ، البخاري ، وأبراهيم الحربي ، وأبو يعلى بن الفراء ، وأبو طاهر العبادي ، وأبو بكر بن العربي ، وطائفة ، وعمدتهم الحديث الآتي « لا يبقى على رأس مائة سنة . . . الخ . والأخبار التي تدل على بقاءه ، ضعيفة .
(٤) البخاري : ١٨٨/١ ، ومسلم : ١٩٦٥/٤ ، باختلاف يسير في ألفاظه .

أحدها : أنها النبوة ، قاله مقاتل . والثاني : الرقة والحنو على من يستحقه ، ذكره ابن الأنباري . والثالث : النعمة ، قاله أبو سليمان الدمشقي .
قوله تعالى : (وعلمناه من لدنا) أي : من عندنا (علماً) قال ابن عباس :
أعطاه علماً من علم الغيب .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ
رُشْدًا . قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ
مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا . قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي
لَكَ أَمْرًا ﴾

قوله تعالى : (أن تعلمني) قرأ ابن كثير : « تعلمني مما » باثبات الياء في
الوصل والوقف . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ياء في الوصل . وقرأ ابن عامر ،
وعاصم بحذف الياء في الحالين .

قوله تعالى : (مما علمت رشداً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ،
وحمة ، والكسائي : « رُشداً » بضم الراء ، [وإسكان الشين] خفيفة . وقرأ أبو عمرو :
« رَشْدًا » بفتح الراء والشين . وعن ابن عامر بضمها . والرشد ، والرشد : لغتان ،
كالشغل والنخل ، والمعجم والمعجم ، والعرب والعرب ، والمعنى : أن
تعلمني علماً ذا رشد . وهذه القصة قد حررت على الرحلة في طلب العلم ، وإتباع
المفضول للفاضل طلباً للفضل ، وحثت على الأدب والتواضع للمصحوب .

قوله تعالى : (إنك لن تستطيع معي صبراً) قال ابن عباس : لن تصبر على
صنعي ، لأنني علمت من غيب علم ربي .
وفي هذا الصبر وجهان .

أحدهما : على الإنكار . والثاني : عن السؤال .

قوله تعالى : (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبيراً) الخبير : علمك بالشيء ؛ والمعنى : كيف تصبر على أمر ظاهره مُشكر ، وأنت لا تعلم باطنه؟! قوله تعالى : (متجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً) قال ابن الأنباري : نبي العصيان منسوق على الصبر^(١) . والمعنى : متجدني صابراً ولا أعصي إن شاء الله .

﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا . فَإِنِ انْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنُ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا . فَإِنِ انْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَتَتَاهُ قَالَ أَفْتَلْتَنَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنُ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا . فَإِنِ انْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا . قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾

قوله تعالى : (فلا تسألني) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمة ، والكسائي : « فلا تسألني » ساكنة اللام . وقرأ نافع : « فلا تسألني » مفتوحة اللام مشددة النون . وقرأ ابن عامر في رواية الداجوني : « فلا تسألني عن

(١) أي : معطوف على الصبر ، والنحويون يسمون حروف المطف : حروف النسق .

شيء « بتحرك اللام من غير ياء ، والنون مكسورة . والمعنى : لا تسألني عن شيء مما أفعله (حتى أحدث لك منه ذكراً) أي : حتى أكون أنا الذي أبيتك لك ، لأن علمه قد غاب عنك .

قوله تعالى : (خرقها) أي : شقها . قال المفسرون : قلع منها لوحاً ، وقيل : لوحين مما يلي الماء ، فحشاها موسى بثوبه وأنكر عليه ما فعل بقوله : (أخرقتها لتغرق أهلها) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « لتغرق » بالتاء « أهلها » بالنصب . وقرأ حمزة ، والكسائي : « ليغرق » بالياء « أهلها » برفع اللام . (لقد جئت شيئاً إمرأ) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : منكرأ ، قاله مجاهد . وقال الزجاج : عظيماً من المنكر . والثاني : عجباً ، قاله قتادة ، وابن قتيبة . والثالث : داهية ، قاله أبو عبيدة .

قوله تعالى : (لا تؤاخذني بما نسيت) في هذا النسيان ثلاثة أقوال . أحدها : أنه على حقيقته ، وأنه نسي ، روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ « أن الأولى كانت نسياناً من موسى »^(١) والثاني : أنه لم ينس ، ولكنه من معاريف الكلام ، قاله أبي بن كعب ، وابن عباس .

والثالث : أنه بمعنى الترك . فالمعنى : لا تؤاخذني بما تركته مما عاهدتك عليه ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (ولا تُرهقني) قال الفراء : لا تُعجلني . وقال أبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والزجاج : لا تُغشني . قال أبو زيد : يقال : أرهقته عسراً : إذا كلفته ذلك . قال الزجاج : والمعنى : عاملني باليسر ، لا بالعسر .

(١) هذه قطعة من الحديث الطويل الذي تقدم في الصفحات (١٦١ - ١٦٣) .

قوله تعالى : (فانطلقاً) يعني : موسى والخضر . قال الماوردي : يحتمل أن يوشع تأخر عنها ، لأن الإخبار عن اثنين ، ويحتمل أن يكون معها ولم يذكر لأنه تبع لموسى ، فاقصر على حكم المتبوع .
قوله تعالى : (حتى إذا لقيا غلاماً) اختلفوا في هذا الغلام هل كان بالغاً ، أم لا ؟ على قولين .

أحدهما : أنه لم يكن بالغاً ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والأكثر .
والثاني : أنه كان شاباً قد قبض على لحيته ، حكاه الماوردي عن ابن عباس أيضاً ، واحتج بأن غير البالغ لم يجز عليه قلم ، فلم يستحق القتل . وقد يُسمى الرجل غلاماً ، قالت ليلي الأخيلية تمدح الحجاج :
[شفاها من الداء المضال الذي بها] غلامٌ إذا هزّ القناة سقاها (١)
وفي صفة قتله له ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه اقتلع رأسه ، وقد ذكرناه في حديث أبيّ . والثاني : كسر عنقه ، قاله ابن عباس . والثالث : أضجعه وذبحه بالسكين ، قاله سعيد بن جبير .
قوله تعالى : (أقتلت نفساً زاكية) قرأ الكوفيون ، وابن عامر : « زكّية » بغير ألف ، والياء مشددة . وقرأ الباقر بالألف من غير تشديد . قال الكسائي :
هما لغتان بمعنى واحد ، وهما بمنزلة القاسية ، والقسيّة .
وللمفسرين فيها ستة أقوال .

أحدها : أنها التائبة ، روي عن ابن عباس أنه قال : الزكّية : التائبة ، [وبه] قال الضحاك .

(١) الأغاني طبع الدار ٢٤٨/١١ ، ود القرطبي : ٢١/١١ ، ود البحر المحيط ، ١٥٠/٦ ،
ود روح المعاني ، ٣١٠/١٥ ، وقوله :
إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة تبسّع أقصى دلتها لشفاها

والثاني : أنها المسلمة ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أنها الزكية التي لم تبلغ الخطايا ، قاله سعيد بن جبير .

والرابع : أنها الزكية النامية ، قاله قتادة . وقال ابن الأنباري : القويعة في تركيبها .

والخامس : أن الزكية : المطهرة ، قاله أبو عبيدة .

والسادس : أن الزكية : البريئة التي لم يظهر ما يوجب قتلها ، قاله الزجاج .

وقد فرّق بعضهم بين الزاكية ، والزكيّة ، فروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه

قال : الزاكية : التي لم تذب قط ، والزكية : التي أذبت ثم تابت . وروي عن أبي عبيدة أنه قال : الزاكية في البدن ، والزكية في الدين .

قوله تعالى : (بغير نفس) أي : بغير قتل نفس (لقد جئت شيئاً نكراً)

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « نكراً » خفيفة في كل

القرآن ، إلا قوله : (إلى شيءٍ نُكْر) [القمر : ٦] ، وخفف ابن كثير أيضاً « إلى شيءٍ

نُكْرٍ » . وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « نُكْرًا » و « إلى شيءٍ

نُكْرٍ » مثقل . والمخفف إنما هو من المثل ، كالعُنُق ، والمُنُق ، والنُكْر ، والنُكْر .

قال الزجاج : والمعنى : لقد أتيت شيئاً نكراً . ويجوز أن يكون معناه : جئت

بشيءٍ نكر ، فلما حذف الباء ، أفضى الفعل فنصب نكراً ، و « نكراً » أقل

منكراً من قوله : « إمرأاً » لأن تفريق مَنْ في السفينة كان عنده أنكر من قتل

نفس واحدة .

قوله تعالى : (قال ألم أقل لك) .

إن قيل : لم ذكر « لك » هاهنا ، واختزله من الموضع الذي قبله ؟

فالجواب : أن إثباته للتوكيد ، واختزاله لوضوح المعنى ، وكلاهما معروف

عند الفصحاء . تقول العرب : قد قلت لك : اتق الله . وقد قلت لك : يا فلان اتق الله ، وأنشد ثعلب :

قد كنتُ حذرتُك آلَ المصطلقِ وقتُ : يا هذا أطعني وانطلقِ
فقوله : يا هذا ، توکید لا یختل الكلام بسقوطه . وسمعت الشيخ أبامحمد الخشاب يقول : وقَّره في الأول ، فلم يواجهه بكاف الخطاب ، فلما خالف في الثاني ، واجهه بها .

قوله تعالى : (إن سألتك عن شيء) أي : سؤال توبيخ وإنكار (بعدها) أي :
بعد هذه المسألة (فلا تصاحبني) وقرأ كذلك معاذ القاري ، وأبو نهيك ، وأبو المتوكل ،
والأعرج ، إلا أنهم شدَّدوا النون . قال الزجاج : ومعناه : إن طلبتُ صحبتك
فلا تُتَابِعني على ذلك . وقرأ أبي بن كعب ، وابن أبي عملة ، ويعقوب : « فلا تُصَحِّبني »
بفتح التاء من غير ألف . وقرأ ابن مسعود ، وأبو العالية ، والأعمش كذلك ،
إلا أنهم شددوا النون . وقرأ أبو رجاء ، وأبو عثمان النهدي ، والنخعي ، والجحدري :
« تُصَحِّبني » بضم التاء ، وكسر الحاء ، وسكون الصاد والباء . قال الزجاج :
فيها وجهان .

أحدهما : لا تُتَابِعني في شيء أتمسه منك . يقال : قد أصحب المهر : إذا انتقاد .
والثاني : لا تُصَحِّبني علماً من علمك .

(قد بلغت من لدني) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمة ،
والكسائي : « من لدني » مثقل . وقرأ نافع : « من لدني » بضم الدال مع تخفيف
النون . وروى أبو بكر عن عاصم : « من لدني » بفتح اللام مع تسكين الدال .
وفي رواية أخرى عن عاصم : « لدني » بضم اللام وتسكين الدال . قال الزجاج :

وأجودها تشديد النون ، لأن أصل « لدن » الإسكان ، فإذا أضفتها إلى نفسك زدت نوناً ، ايسلم سكون النون الأولى ، تقول : من لدن زيد ، فتسكين النون ثم تضيف إلى نفسك ، فتقول : من لدني ، كما تقول : عن زيد وعني . فأما إسكان دال « لدني » فانهم أسكنوها ، كما تقول في عضد : عضد ، فيحذفون الضم . قال ابن عباس : يريد : إنك قد أعذرت فيما بيني وبينك ، يعني : أنك قد أخبرني أنني لا أستطيع معك صبراً .

قوله تعالى : (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية) فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها أنطاكية ، قاله ابن عباس . والثاني : الأبلّة ، قاله ابن سيرين .

والثالث : باجروان ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (استطعنا أهلها) أي : سألام الضيافة (فأبوا أن يضيفوها) روى المفضل عن عاصم : « يُضيفوها » بضم الياء الأولى وكسر الضاد وتخفيف الياء الثانية . وقرأ أبو الجوزاء كذلك ، إلا أنه فتح الياء [الأولى] وقرأ الباقون : « يضيفوها » بفتح الضاد وتشديد الياء الثانية وكسرها . قال أبو عبيدة : ومعنى يضيفوها : ينزلونها منزل الأضياف ، يقال : ضيفت أنا ، وأضافني الذي ينزلي . وقال الزجاج : يقال : ضيفت الرجل : إذا نزلت عليه ، وأضفته : إذا أنزلته وقرينته . وقال ابن قتيبة : [يقال] : ضيفت الرجل : إذا أنزلته منزلة الأضياف ، ومنه هذه الآية ، وأضفته : أنزلته ، وضيفته : نزلت عليه . وروى أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال : « كانوا أهل قرية ثاماً » (١) .

قوله تعالى : (فوجدنا فيها جداراً) أي : حائطاً . قال ابن فارس : وجمعه

(١) رواه مسلم : ١٨٥٢/٤ بلفظ « حتى إذا أتيا أهل قرية ثاماً » وهو قطعة من

حديث طويل .

جُدْر ، والجَدْر : أصل الحائظ . ومنه حديث الزبير : « ثم دع الماء يرجع إلى الجدر »^(١) ، والجيدر : القصير .

قوله تعالى : (يريد أن ينقض) وقرأ أبي بن كعب ، وأبو رجا ، « ينقض » بألف ممدودة ، وضاد معجمة ؛ وقرأ ابن مسعود ، وأبو العالية ، وأبو عثمان النهدي : « ينقض » بألف ومدة وضاد غير معجمة ، وكله بلا تشديد . قال الزجاج : فعنى : ينقض : يسقط بسرعة ، وينقض ، غير معجمة : ينشق طولاً ، يقال : انقضت سنه : إذا انشقت . قال ابن مقسم : انقضت سنه ، وانقضت - بالصاد ، والضاد - على معنى واحد .

فان قيل : كيف نسبت الإرادة إلى ما لا يعقل ؟

فالجواب : أن هذا على وجه المجاز تشبيهاً بمن يعقل ، ويريد : لأن هيأته في التهيؤ للوقوع قد ظهرت كما يظهر من أفعال المرئيين القاصدين ، فوصف بالإرادة إذ كانت الصورتان واحدة ، وقد أضافت العرب الأفعال إلى ما لا يعقل تجوئاً ، قال الله عز وجل : (ولما سكنت عن موسى الغضب) [الأعراف : ١٥٤] ، والغضب لا يسكت ، وإنما يسكت صاحبه ، وقال : (فاذا عزم الأمر) [محمد : ٢١] ، وأنشدوا من ذلك :

إِنَّ دَهْرًا يَلْفُ شَمْلِي بِجُمْلٍ كَزَمَانٍ يَهْمُ بِالْإِحْسَانِ^(٢)

وقال آخر :

(١) في البخاري ٢٢٧/٥ : « اسق بازير ثم احبس حتى يبلغ الجدر » وهو في النائي :

١٣٩/٨ ، وهو جزء من حديث طويل .

(٢) البيت غير منسوب في « تأويل مشكل القرآن » : ١٠٠ ، و « الطبري » : ٢٨٩/١٥ ،

و « القرطبي » : ٢٦/١١ ، و « أمالي المرتضى » : ٥٥/٤ ، و « الصناعتين » : ٢١٤ ،

و « اللسان » ، و « التاج » : دهر ، وقد نسبة الألويسي في « روح المعاني » : ٦/١٦ إلى حسان

ابن ثابت ولم نجده في ديوانه .

يُرِيدُ الرَّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ وَيُرْغَبُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلٍ^(١)
وقال آخر :

ضحكوا والدهرُ عنهم ما كنتُ ثم أبكام دماً لما نطقُ
وقال آخر :

يشكرونيَّ جملِي طولَ السرى [صبراً جميلاً فكلاماً مبتلى]^(٢)
وهذا كثير في أشعارهم .

قوله تعالى : (فأقامه) أي : سواه ، لأنه وجده مائلاً .

وفي كيفية مافعل قولان . أحدهما : أنه دفعه يده فقام . والثاني : هدمه ثم
قعد بينيه ، روي القولان عن ابن عباس .

قوله تعالى : (لو شئتَ لَتَخِذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو :
« لَتَخِذْتُ » بكسر الخاء ، غير أن أبا عمرو كان يدغم الذال ، وابن كثير بظهرها .
وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي : « لَاتَخِذْتُ » وكلاهما
أدغموا ، إلا حفصاً عن عاصم ، فإنه لم يدغم مثل ابن كثير . قال الزجاج : يقال :
تَخِذَ بَتَّخِذُ فِي مَعْنَى : اتَّخَذَ يَتَّخِذُ . وإنما قال له هذا ، لأنهم لم يضيفوها .

قوله تعالى : (قال) يعني : الخضر (هذا) يعني : الإنكار عني (فراق
بيني وبينك) أي : هو المفرق بيننا . قال الزجاج : المعنى : هذا فراق بيننا ،

(١) البيت في « تأويل مشكل القرآن » : ١٠٠ ، و « مجاز القرآن » : ٤١٠/١ ،
ونسبه محققه للحارثي و « الطبري » : ٢٨٩/١٥ ، و « الصناعتين » : ٢١٢ ، و « اللسان » : رود ،
و « القرطبي » : ٢٦/١١ ، ونسبه الزنجيري في « الكشف » : ٣٩٨/٢ للراعي .

(٢) الرجز غير منسوب في « مجاز القرآن » : ٣٠٣/١ ، و « تأويل مشكل القرآن » :
٧٩ ، و « الطبري » : ٢٨٩/١٥ ، و « القرطبي » : ١٥٢/٩ ، و « اللسان » و « التاج » : شكا .

زاد السير ٥ م (١٢)

أي : فراق اتصالنا ، وكرر « بين » توكيداً ، ومثله في الكلام : أخزى الله الكاذب مني ومنك . وقرأ أبو رزین ، وابن السميع ، وأبو العالية ، وابن أبي عبله : « هذا فِرَاقٌ » بالتنوين « بيني وبينك » بنصب النون . قال ابن عباس : كان قول موسى في السفينة والغلّام ، لربّه ، وكان قوله في الجدار ، لنفسه ، لطلب شيء من الدنيا . ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأرَدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا . وَأَمَّا الْفُلَّامُ فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا . فَأرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا . وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾

قوله تعالى : (فكانت لمساكين) في المراد بمسكنتهم قولان .

أحدهما : أنهم كانوا ضعفاء في أكسابهم . والثاني : في أبدانهم . وقال كعب :

كانت لعشرة إخوة ، خمسة زمني ، وخمسة يعملون في البحر .

قوله تعالى : (فأردت أن أعيبها) أي : أجعلها ذات عيب ، يعني بخرقها ،

(وكان وراءهم) فيه قولان .

أحدهما : أمامهم ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وأبو عبيدة ، وابن قتبية . وقرأ

أبي بن كعب ، وابن مسعود : « وكان أمامهم ملك » .

والثاني : خلفهم ؛ قال الزجاج : وهو أجود الوجهين . فيجوز أن يكون

رجوعهم في طريقهم كان عليه ، ولم يعلموا بخبره ، فأعلم الله تعالى الخضر خبره .

قوله تعالى : (يأخذ كل سفينة غصباً) أي : كل سفينة صالحة . وفي قراءة أبي بن كعب [بن كعب] : « كل سفينة صحيحة » . قال الخضر : إنما خرقتها ، لأن الملك إذا رآها منخرقة تركها ورقمها أهلها فاتقموا بها .

قوله تعالى : (وأما الغلام) روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « وأما الغلام فكان كافراً » . وروى أبي بن كعب عن رسول ﷺ أنه قال : « إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ، ولو عاش لأرهب أبويه طغياناً وكفراً » (١) . قال الربيع بن أنس : كان الغلام على الطريق لا يمر به أحد إلا قتله أو غصبه ، فيدعو ذلك عليه وعلى أبويه . وقال ابن السائب : كان الغلام لصاً ، فاذا جاء من يطلبه حلف أبواه أنه لم يفعل .

قوله تعالى : (فخشنا) في القائل لهذا قولان .

أحدهما : الله عز وجل . ثم في معنى الخشية المضافة إليه قولان . أحدهما : أنها بمعنى العلم . قال الفراء : معناه : فعلنا . وقال ابن عقيل : المعنى : فعلنا فعل الخاشي . والثاني : الكراهة ، قاله الأخصس ، والزجاج .

والثاني : أنه الخضر ، فتكون الخشية بمعنى الخوف للأمر المتوهم ، قاله ابن الأنباري . وقد استدل بعضهم على أنه من كلام الخضر بقوله : (فأردنا أن يبدلها ربها) . قال الزجاج : المعنى : فأراد الله ، لأن لفظ الخبر عن الله تعالى هكذا أكثر من أن يحصى . ومعنى (يرهقها) : يحملها على الرهق ، وهو الجهل . قال أبو عبيدة : « يَرْهِقُهَا » : يَفْشِيهَا . قال سعيد بن جبیر : خشينا

(١) رواه مسلم في « صحيحه » : ٢٠٥٠/٤ ، وأبو داود في « سننه » رقم (٤٧٠٥) ، والترمذي في « جامع » : ١٤٤/٢ ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٢٣٧/٤ وزاد نسبه لسدائقه بن أحمد في « زوائد المسند » ، وابن مردويه .

أن يحملها حُبُّه على أن يدخلها في دينه . وقال الزجاج : فرحا به حين ولد ، وحرنا عليه حين قتل ، ولو بقي كان فيه هلاكها ، فرضي أمرؤ بقضاء الله (١) ، فان قضاء الله للمؤمن فيما يكره ، خير له من قضاؤه فيما يحب .

قوله تعالى : (فأردنا أن يبدلنا ربها) قرأ ابن كثير ، وأبو بكر عن عاصم : « أن يُبدلَها » بالتخفيف . وقرأ نافع ، وأبو عمرو بالتشديد .

قوله تعالى : (خيراً منه زكاةً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ديناً ، قاله ابن عباس . والثاني : عملاً ، قاله مقاتل . والثالث : صلاحاً ، قاله الفراء .

قوله تعالى : (وأقربَ رُحماً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وحمة ، والكسائي : « رُحماً » ساكنة الحاء ، وقرأ ابن عامر : « رُحماً » مثقلة . وعن أبي عمرو كالقراءتين . وقرأ ابن عباس ، وابن جبير ، وأبو رجاء : « رَحماً » بفتح الراء ، وكسر الحاء .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : أوصل للرحم وأبرّ للوالدين ، قاله ابن عباس ، وقتادة . وقال الزجاج : أقرب عطفاً ، وأمسّ بالقرابة . ومعنى الرُحْم والرُحْم في اللغة : المطف والرحمة ، قال الشاعر :

وكيف بظلم جاريةٍ ومنها اللينُ والرُحْمُ (٢)

والثاني : أقرب أن يُرحمًا به ، قاله الفراء . وفيما بُدِّلَ به قولان .

(١) في « الطبري » ، وابن كثير عن قتادة : فليرض امرؤ بقضاء الله .

(٢) البيت غير منسوب في « مجاز القرآن » : ٤١٣/١ ، و « القرطبي » : ٣٧/١١ ،

و « اللسان » ، و « التاج » : رحم .

أحدهما : جارية ، قاله الأَكثرون . وروى عطاء عن ابن عباس ، قال :
أبدلها به جارية ولدت سبعين نبياً .

والثاني : غلام مسلم ، قاله ابن جريج .

قوله تعالى : (وأما الجدار فكان لفلان يمين في المدينة) يعني : القرية
المذكورة في قوله : (أتيا أهل قرية) ، قال مقاتل : واسمها : أصرم ، وصرم .
قوله تعالى : (وكان تحته كنزٌ لهما) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان ذهباً وفضة ، رواه أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ (١) .
وقال الحسن ، وعكرمة ، وقتادة : كان مالاً .

والثاني : أنه كان لوحاً من ذهب ، فيه مكتوب : عجبا لمن أيقن بالقدر ثم هو
يَنصَب ، عجبا لمن أيقن بالنار كيف يضحك ، عجبا لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ،
عجبا لمن يوقن بالرزق كيف يتعب ، عجبا لمن يؤمن بالحساب كيف ينقل ، عجبا
لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، أنا الله الذي لا إله إلا أنا ،
محمد عبدي ورسولي ؛ وفي الشق الآخر : أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ،
خلقتُ الخير والشر ، فطوبى لمن خلقته للخير وأجبرته على يديه ، والويل لمن
خلقته للشر وأجبرته على يديه ، رواه عطاء عن ابن عباس . قال ابن الأنباري :
فسمي كنزاً من جهة الذهب ، وجعل اسمه هو المغلَّب .

والثالث : كنز علم ، رواه العوفي عن ابن عباس . وقال مجاهد : صُحِفَ
فيها عِلْم ، وبه قال سعيد بن جبير ، والسدي . قال ابن الأنباري : فيكون
المعنى على هذا القول : كان تحته مثل الكنز ، لأنه يُتَعَجَّلُ من نفعه أفضل مما

(١) رواه الترمذي : ١٤٤/٣ من حديث مكحول عن أم الدرداء عن أبي الدرداء ، ورواه

الحاكم أيضاً عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

يُنَال من الأموال . قال الزجاج : والمعروف في اللغة : أن الكنز إذا أُفرد ، فمعناه : المال المدفون المدَّخَر ، فاذا لم يكن المال ، قيل : عنده كنز علم ، وله كنز فهم ، والكنز هاهنا بالمال أشبه ، وجائز أن يكون الكنز كان مالاً ، مكتوب فيه علم ، على ماروي ، فهو مال وعِلْم عظيم .

قوله تعالى : (وكان أبوهما صالحاً) قال ابن عباس : حَفِظًا بصلاح أبيهما ، ولم يذكر منهما صلاحاً . وقال جعفر بن محمد عليه السلام : كان بينهما وبين ذلك الأب الصالح سبعة آباء . وقال مقاتل : كان أبوهما ذا أمانة .

قوله تعالى : (فأراد ربك) قال ابن الأنباري : لما كان قوله : « فأردتُ » « وأردنا » كل واحد منهما يصلح أن يكون خبراً عن الله عز وجل ، وعن الخضر ، أتبعهما بما يحصر الإرادة عليه ، ويزيلها عن غيره ، ويكشف البُنية من اللفظتين الأوليين . وإنما قال : « فأردتُ » « فأردنا » « فأراد ربك » ، لأن العرب تؤثر اختلاف الكلام على اتِّفاقه مع تساوي المعاني ، لأنه أعذب على الألسن ، وأحسن موقفاً في الأسماع ، فيقول الرجل : قال لي فلان كذا ، وأنبأني بما كان ، وخبرني بما نال . فأما « الأشدُّ » فقد سبق ذكره في مواضع [الأنعام : ١٥٢ ، ويوسف : ٢٢ ، والاسراء : ٣٤] ولو أن الخضر لم يُقيم الحائط لتُقضى وأخذ ذلك الكنز قبل بلوغها .

قوله تعالى : (رحمةً من ربك) أي : رحمة الله بذلك . (وما فعلته عن أمري) قال قتادة : كان عبداً مأموراً^(١) .

فأما قوله : (تَسَطَّع) فإن « استطاع » و « استطاع » بمعنى واحد .

(١) وهذا يدل على أنه كان نبياً ، وأن ما صدر منه كان بوحى من الله عز وجل . قال الطبري : وما فعلت باموسى جميع الذي رأيتني فعلته ، عن رأيي ومن تلقاء نفسي ، وإذ فعلته عن أمر الله إياي به . وانظر الصفحة (١٦١) .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا . إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا . فَأَتْبَعَ سَبَبًا . حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا . قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا . وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

قوله تعالى : (ويسألونك عن ذي القرنين) قد ذكرنا سبب نزولها عند قوله تعالى : (ويسألونك عن الروح) [الاسراء : ٨٥] (١) .

واختلفوا في اسم ذي القرنين على أربعة أقوال .

أحدها : عبد الله ، قاله علي عليه السلام ، وروي عن ابن عباس أنه عبد الله ابن الضحاك . والثاني : الاسكندر ، قاله وهب . والثالث : عيَّاش ، قاله محمد بن علي ابن الحسين . والرابع : الصعب بن جابر بن القلمس ، ذكره ابن أبي خيثمة . وفي علّة تسميته بذوي القرنين عشرة أقوال .

أحدها : أنه دعا قومه إلى الله تعالى ، فضربوه على قرنه فهلك ، فغبر زمانا ، ثم بعثه الله ، فدعاهم إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فهلك ، فذانك قرناه ، قاله علي عليه السلام . والثاني : أنه سمي بذوي القرنين ، لأنه سار إلى مغرب الشمس وإلى مطلعها ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثالث : لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس . والرابع : لأنه رأى في المنام كأنه امتد من السماء إلى الأرض وأخذ بقرني الشمس ، فقص ذلك على قومه ، فسمي بذوي القرنين . والخامس : لأنه

(١) انظر القول الثاني في الصفحة (٨١) من هذا الجزء .

مَلِك الروم وفارس . والسادس : لأنه كان في رأسه شبه القرنين ، رويت هذه الأقوال الأربعة عن وهب بن منبه . والسابع : لأنه كانت له غدیرتان من شعر ، قاله الحسن . قال ابن الأنباري : والعرب تسمي الضفیرین من الشعر غدیرتین ، وجہرتین ، وقرنین ؛ قال : ومن قال : سمي بذلك لأنه ملك فارس والروم ، قال : لأنها عالیان علی جانبین من الأرض يقال لهما : قرنان . والثامن : لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذوي شرف . والتاسع : لأنه انقرض في زمانه قرنان من الناس ، وهو حي . والمعاشر : لأنه سلك الظلمة والنور ، ذكر هذه الأقوال الثلاثة أبو إسحاق الثعلبي .

واختلفوا هل كان نبياً ، أم لا ؟ علی قولین .

أحدهما : أنه كان نبياً ، قاله عبد الله بن عمرو ، والضحاك بن مزاحم .

والثاني : أنه كان عبداً صالحاً^(١) ، ولم يكن نبياً ، ولا ملكاً ، قاله علي

عليه السلام . وقال وهب : كان ملكاً ، ولم يوح إليه .

وفي زمان كونه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه من القرون الأولى من ولد يافث بن نوح ، قاله علي عليه السلام .

والثاني : أنه كان بعد ثمود ، قاله الحسن . ويقال : كان عمره ألفاً وستمائة سنة .

والثالث : [أنه] كان في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، قاله وهب .

قوله تعالى : (سألوا عليكم منه ذكراً) أي : خبراً يتضمن ذكره . (إنا مكنا

له في الأرض) أي : سهّلنا عليه السير فيها . قال علي عليه السلام : إنه أطاع الله ،

فسخر له السحاب فحمّله عليه ، ومدّ له في الأسباب ، وبسط له الثور ، فكان

(١) ذكر ابن جرير الطبري عن أبي الطفيل قال : سمعت علياً وسأله عن ذي القرنين ،

أنبيأ كان ؟ قال : كان عبداً صالحاً .

الليل والنهار عليه سواء . وقال مجاهد : مَلِكَ الأَرْضِ أَرْبَعَةٌ : مؤمنان ، وكافران ؛
فالمؤمنان : سليمان بن داود ، وذو القرنين ؛ والكافران : النمرود ، وبختنصر .
قوله تعالى : (وآتينا من كل شيء سبباً) قال ابن عباس : علماً ينسب به
إلى ما يريد . وقيل : هو العلم بالطرق والمسالك .

قوله تعالى : (فأتبع سبباً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « فاتَّبِعَ
سبباً » « ثم اتَّبَعَ سبباً » « ثم اتَّبَعَ سبباً » مشددات التاء . وقرأ عاصم ،
وابن عامر ، وحمة ، والكسائي : « فأتبع سبباً » « ثم أتبع سبباً » « ثم أتبع سبباً »
مقطوعات . قال ابن الأنباري : من قرأ « فاتَّبَعَ سبباً » فعناه : قفا الأثر ،
ومن قرأ « فأتبع » فعناه : لحق ؛ يقال : اتَّبَعَنِي فلان ، أي : تَبِعَنِي ، كما يقال :
أَلْحَقَنِي فلان ، بمعنى : لَحِقَنِي . وقال أبو علي : « أتبع » تقديره : أتبع سبباً
سبباً ، فاتَّبِعَ ما هو عليه سبباً ، والسبب : الطريق ، والمعنى : تبع طريقاً يؤديه إلى
مَغْرِبِ الشَّمْسِ . وكان إذا ظهر على قوم أخذ منهم جيشاً فسار بهم إلى غيرهم .

قوله تعالى : (وجدها تغرب في عين حمئة) قرأ ابن كثير ، ونافع ،
وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : « حمئة » ، وهي قراءة [ابن عباس . وقرأ]
ابن عامر ، وحمة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « حامية » ، وهي قراءة
عمرو ، وعلي ، وابن مسعود ، والزيبر ، ومعاوية ، وأبي عبد الرحمن ، والحسن ،
وعكرمة ، والنخعي ، وقتادة ، وأبي جعفر ، وشيبة ، وابن محيصن ، والأعمش ،
كلهم لم يهز . قال الزجاج : فمن قرأ : « حمئة » أراد في عَيْنِ ذاتِ حَمَاءَةٍ .
يقال : حَمَّاتُ البئر : إذا أخرجت حَمَاءَتَهَا ؛ وأَحْمَاءُهَا : إذا أَلْقِيَتْ فِيهَا الحَمَاءَةُ .
[وحمئت] فهي حمئة : إذا صارت فيها الحَمَاءَةُ . ومن قرأ : « حامية » بغير همز ،
أراد : حارة . وقد تكون حارة ذات حَمَاءَةٍ . وروى قتادة عن الحسن ، قال :

وجدتها تَغْرُبُ في ماءٍ يغلي ككفَيانِ القدورِ (ووجد عندها قَوْماً) لباسهم
جلود السِّباع ، وليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس من الدوابِّ إذا غربت
نحوها ، وما لفظت العين من الحيتان إذا وقعت فيها الشمس . وقال ابن السائب :
وجد عندها قوماً مؤمنين وكافرين ، يعني عند العين . وربما توهم متوهم أن هذه
الشمس على عِظَمِ قدرها تنوص بذاتها في عين ماء ، وليس كذلك . فإنها أكبر
من الدنيا مراراً ، فكيف تَسَعُها عين [ماء ؛ ! .] وقيل : إن الشمس بقدر
الدنيا مائة وخمسين مرّة ، وقيل : بقدر الدنيا مائة وعشرين مرّة ، والقمر بقدر
الدنيا ثمانين مرّة . وإنما وجدها تغرب في العين كما يرى راكب البحر الذي لا يرى
طرفه أن الشمس تغيب في الماء ، وذلك لأن ذا القرنين انتهى إلى آخر البنيان
فوجد عيناً حَمِيئة ليس بعدها أحد .

قوله تعالى : (قلنا يا ذا القرنين) فمن قال : إنه نبي ، قال : هذا القول وحي ؛

ومن قال : ليس نبي ، قال : هذا إلهام .

قوله تعالى : (إما أن نُعَذِّبَ) قال المفسرون : إما أن تقتلهم إن أبوا

ما ندعوم إليه ، وإما أن نأسرهم ، فتبصّروم الرشد . (قال أمّا مَنْ ظَلَمَ) أي :

أشرك (فسوف نُعَذِّبُهُ) بالقتل إذا لم يرجع عن الشرك . وقال الحسن : كان

يطبخهم في القدور ، (ثم يُرَدُّ إلى ربِّه) بعد العذاب (فيعذبه عذاباً نُكْرَاً) بالنار .

قوله تعالى : (فله جزاء الحسنى) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ،

وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « جزاء الحسنى » برفع مضاف . قال القراء :

« الحسنى » : الجنة ، وأضيف الجزاء إليها ، وهي الجزاء ، كقوله : (إنه لَحَقُّ

اليقين) [الحاقة : ٥١] و (دينُ القِيَمَةِ) [البيّنة : ٥] (ولدار الآخرة) [النحل : ٣٠] .

قال أبو علي الفارسي : المعنى : فله جزاء الخلال الحسنى ، لأن الإيمان والعمل الصالح

خلال . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وخلف ، ويعقوب : « جزاء »

بالنصب والتونين ؛ قال الزجاج : وهو مصدر منصوب على الحال ، المعنى : فله الحسنى مجزياً بها جزاءً . وقال ابن الأثيري : وقد يكون الجزاء غير الحسنى إذا تأول الجزاء بأنه الثواب ؛ والحسنى : الحسنه المكتسبة في الدنيا ، فيكون المعنى : فله ثواب ما قدم من الحسنات .

قوله تعالى : (وسنقول له من أمرنا يُسراً) أي : تقول له قولاً جميلاً .
 ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا . حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا . كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾

قوله تعالى : (ثم أتبع سبباً) أي : طريقاً آخر يوصله إلى المشرق . قال قتادة : مضى يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل الرجال إلا من آمن حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قوماً في أسرابٍ عرابة ، ليس لهم طعام إلا ما أحرقته الشمس إذا طلعت ، فاذا توسطت السماء خرجوا من أسرابهم في طلب معاشهم مما أحرقته الشمس . وبلغنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان ، فيقال : إنهم الزنج . قال الحسن : كانوا إذا غربت الشمس خرجوا يتراعون كما يتراعى الوحش . وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وأبو مجاز ، وأبو رجا ، وابن محيصن : « مَطْلِعَ الشَّمْسِ » بفتح اللام . قال ابن الأثيري : ولا خلاف بين أهل العربية في أن المَطْلِعَ ، والمَطْلَعُ كلاهما بمعنى بهما المكان الذي تطلع منه الشمس . ويقولون : ما كان على فَعَلٍ يَفْعُلُ ، فالمصدر واسم الموضع يأتيان على المَفْعَلِ ، كقولهم : المَدْخَلُ ، للدخول ، والموضع الذي يُدْخَلُ منه ، إلا أحد عشر حرفاً جاءت مكسورة إذا أريد بها المواضع ، وهي : المَطْلِعُ ، والمسْكِنُ ، والمنسِكُ ، والمَشْرِقُ ، والمَغْرِبُ ، والمسْجِدُ ، والمنبِتُ ، والمَجْزِرُ ، والمَفْرِقُ ، والمسْقِطُ ،

والمهْبِيل ، الموضع الذي توضع فيه الناقة ؛ وخمسة من هؤلاء الأحد عشر حرفاً
 تُسمع فيهن الكسر والفتح : المَطْلِع ، والمَطْلَع . والمنْسِك ، والمنْسِك .
 والمَجْزِر ، والمَجْزَر . والمنْسِكِين ، والمنْسِكَن . والمنْبِت ، والمنْبِت ؛
 فقرأ الحسن على الأصل من احتمال المَفْعَل الوجهين الموصوفين [بفتح العين وكسرها] ،
 وقراءة العامة على اختيار العرب وما كثر على ألسنتها ، وخصت المَوْضِع بالكسر ،
 وآثرت المصدر بالفتح . قال أبو عمرو : المَطْلِع ، بالكسر ، الموضع الذي تطلع فيه ؛
 والمَطْلَع ، بالفتح : الطَّلوع ؛ قال ابن الأنباري : هذا هو الأصل ، ثم إن العرب تتسع
 فتجعل الاسم نائباً عن المصدر ، فيقرؤون : (حتى مَطْلَعِ الفجر) [القدر : ٥]
 بالكسر وهم يعنون الطَّلوع ؛ ويقرأ من قرأ (مَطْلَعِ الشمس) بالفتح على أنه
 موضع بمنزلة المدخل الذي هو اسم للموضع الذي يدخل منه .

قوله تعالى : (كذلك) فيه أربعة أقوال .

أحدها : كما بلغ مغرب الشمس بلغ مطلعها .

والثاني : أتبع سبباً كما أتبع سبباً .

والثالث : كما وجد أوائك عند مغرب الشمس وحكم فيهم ، كذلك وجد

هؤلاء عند مطلعها وحكم فيهم .

والرابع : أن المعنى : كذلك أمرهم كما قصصنا عليك ؛ ثم استأنف فقال :

(وقد أحطنا بما لديه) أي : بما عنده ومعه من الجيوش والعدد . وحكى أبو سليمان

الدمشقي : « بما لديه » أي : بما عند مطلع الشمس . وقد سبق معنى الخُبْر

[الكهف : ٦٨] .

﴿ ثُمَّ أَنْبَعَ سَبَبًا . حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ

دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا . قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ

بَأَجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا
عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا . قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ
فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَلْجَأُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ
حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ
آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا . فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا
لَهُ نَقَبًا . قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ
دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿

قوله تعالى : (ثم أتبع سبياً) أي : طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب
(حتى إذا بلغ بين السدين) قال وهب بن منبه : هما جبلان منيفان في السماء ،
من ورأهما البحر ، ومن أمامهما البلدان ، وهما بمنقطع أرض الشرك مما يلي بلاد
أرمينية . وروى عطاء الخراساني عن ابن عباس قال : الجبلان من قبل أرمينية
وأذربيجان . واختلف القراء في « السدين » فقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص
عن عاصم بفتح السين . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم ، وحمة ،
والكسائي بضمها .

وهل المعنى واحد ، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدها : أنه واحد . قال ابن الأعرابي : كل ما قابلك فسد ما وراءه ، فهو
سدٌ ، وسُدٌّ ، نحو : الضعف والضعف ، والفقر والفقر . قال الكسائي ،
وتعاب : السد والسد لغتان بمعنى واحد ، وهذا مذهب الزجاج .

والثاني : أنها مختلفان .

وفي الفرق بينها قولان .

أحدهما : أن ما هو من فعل الله تعالى فهو مضوم ، وما هو من فعل

الآدميين فهو مفتوح ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وأبو عبيدة . قال الفراء : وعلى هذا رأيت المشيخة وأهل العلم من النحويين .

والثاني . أن السد ، بفتح السين : الحاجز بين الشيتين ، والسد ، بضمها :

النشأة في العين ، قاله أبو عمرو بن العلاء .

قوله تعالى : (وَجَدَ مِنْ دُونِهَا) يعني : أمام السدين (قوماً لا يكادون

يفقهون قولاً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر :

« يَفْقَهُونَ قَوْلًا » بفتح الياء ، أي : لا يكادون يفهمونه . قال ابن الأنباري :

قال اللغويون : معناه أنهم يفهمون بعد إبطاء ، وهو كقوله : (وما كادوا يفعلون)

[البقرة : ٧١] . قال المفسرون : وإنما كانوا كذلك لأنهم لا يعرفون غير لغتهم .

وقرأ حمزة ، والكسائي : « يُفْقَهُونَ » بضم الياء ، أراد : يُفْهِمُونَ غيرهم .

وقيل : كلّم ذا القرنين عنهم مترجمون ترجموا .

قوله تعالى : (إن ياجوج وماجوج) هما : اسمان أعجيبان ، وقد همزها عاصم .

قال الليث : الهمز لغة رديئة . قال ابن عباس : ياجوج رجل ، وماجوج رجل ،

وهما ابنا يافت بن نوح عليه السلام ، فياجوج وماجوج عشرة أجزاء ، وولد آدم

كلّهم جزء ، وهم شبر وشبران وثلاثة أشبار . وقال عليّ عليه السلام : منهم

من طوله شبر ، ومنهم من هو مُفْرِطٌ في الطول ، ولهم من الشعر

ما يواريه من الحرّ والبرّد . وقال الضحاك : هم جيل من الترك . وقال السدي :

الترك سريّة من ياجوج وماجوج خرجت مُتَغِيرٍ ، فجاء ذو القرنين ف ضرب السد ،

فبقيت خارجه . وروى شقيق عن حذيفة ، قال : سألت رسول الله ﷺ عن

ياجوج وماجوج ، فقال : « ياجوج أمة ، وماجوج أمة ، كل أمة أربعائة [ألف] أمة ،

لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر بين يديه من صلبه كلُّ قد

حمل السلاح ؛ قلت : يا رسول الله ، صِفْهُمْ لَنَا ، قال : « هم ثلاثة أصناف ، صنف منهم أمثال الأرز » ؛ قلت : يا رسول الله : وما الأرز ؟ قال : « شجر بالشام ، طول الشجرة عشرون ومائة ذراع في السماء ؛ وصنف منهم عرضة وطوله سواء ، عشرون ومائة ذراع ، وهؤلاء الذين لا يقوم لهم جبل ولا حديد ، وصنف منهم يفتش أحدهم أذنه ، ويلتحف بالأخرى ولا يمرّون بفيل ولا وحش ولا جمل ولا خنزير إلا أكلوه ، ومن مات منهم أكلوه ، مقدّماتهم بالشام ، وساقهم بخراسان ، يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية » (١) .

قوله تعالى : (مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) في هذا الفساد أربعة أقوال .

أحدها : أنهم كانوا يفعلون فعل قوم لوط ، قاله وهب بن منبه .

والثاني : أنهم كانوا يأكلون الناس ، قاله سعيد بن عبد العزيز .

والثالث : يُخْرِجُونَ إِلَى الْأَرْضِ الَّذِينَ شَكِنُوا مِنْهُمْ أَيَّامَ الرِّيحِ ، فلا يدعون

شيئاً أخضر إلا أكلوه ، ولا يابساً إلا احتملوه إلى أرضهم ، قاله ابن السائب .

والرابع : كانوا يقتلون الناس ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا) قرأ ابن كثير ، ونافع ،

وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : « خَرْجًا » بغير ألف . وقرأ حمزة ، والكسائي :

« خراجاً » بألف . وهل بينها فرق ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنها لغتان بمعنى واحد ، قاله أبو عبيدة ، والليث .

والثاني : أن الخَرْجَ : ما تبرعت به ، والخراج : ما لزمك أداؤه ، قاله

أبو عمرو بن العلاء . قال المفسرون : المعنى : هل نُخْرِجُ إِلَيْكَ مِنْ أَمْوَالِنَا شَيْئًا

كَالْجُعْلِ لَكَ ؟

(١) أورده السيوطي في « الدر » : ٢٥٠/٤ من رواية ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ،

وابن عدي ، وابن عساكر ، وابن النجار عن حذيفة رضي الله عنه .

فوله تعالى : (ما مَكَّنِّي) وقرأ ابن كثير : « مَكَّنِّي » بنونين ، وكذلك هي في مصاحف مكة . قال الزجاج : من قرأ : « مَكَّنِّي » بالتشديد ، أدغم النون في النون لاجتماع النونين . ومن قرأ : « مَكَّنِّي » أظهر النونين ، لأنها من كلمتين ، الأولى من الفعل ، والثانية تدخل مع الاسم المضمر .

وفي الذي أراد بتمكينه منه قولان .

أحدهما : أنه العِلْمُ بالله ؛ وطلب ثوابه .

والثاني : ما ملك من الدنيا . والمعنى : الذي أعطاني الله خير مما تبذلون لي .

قوله تعالى : (فأعينوني بِقُوَّةٍ) فيها قولان .

أحدهما : أنها الرجال ، قاله مجاهد ، ومقاتل .

والثاني : الآلة ، قاله ابن السائب . فأما الرَّدْمُ ، فهو : الحاجز ؛ قال

الزجاج : والرَّدْمُ في اللغة أكبر من السدِّ ، لأن الرَّدْمَ : ما جُعِلَ بعضه على بعض ،

يقال : توب مُرَدِّمٌ : إذا كان قد رقع رقعة فوق رقعة .

قوله تعالى : (آتوني زُبْرًا حَدِيدًا) قرأ الجمهور : « ردماً آتوني » أي : أعطوني .

وروى أبو بكر عن عاصم : « ردمٍ آتوني » بكسر التنوين ، أي : جثوني بها .

قال ابن عباس : حملوها إليَّ . وقال مقاتل : أعطوني . وقال الفراء : المعنى :

إيتوني بها ، فلما ألقيت الباء زيدت ألف . فأما الزُّبْرُ ، فهي : القِطْعُ ، واحدها :

زُبْرَةٌ ؛ والمعنى : فأتوه بها فبناه ، (حتى إذا ساوى) وروى أبان « إذا سوى »

بتشديد الواو من غير ألف . قال الفراء : ساوى وسوى سواء . واختلف القراء

في (الصَّدْفَيْنِ) فقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « الصَّدْفَيْنِ »

بضم الصاد والذال ، وهي : لغة حمير . وروى أبو بكر والمفضل عن عاصم :

« الصَّدْفَيْنِ » بضم الصاد وتسكين الذال . وقرأ نافع ، وحمة ، والكسائي ،

وحفص عن عاصم ، وخلف ، بفتح الصاد والdal جميعاً ، وهي لغة تميم ، واختارها ثعلب . وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء ؛ وابن يعمر : « الصَّدْفَيْن » بفتح الصاد ورفع الdal . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو عمران ، والزهرى ، والجحدري برفع الصاد وفتح الdal . قال ابن الأثيري : ويقال : صُدْفٌ ، على مثال نُغْرٌ ، وكل هذه لغات في الكلمة . قال أبو عبيدة : الصَّدْفَان : جنبَا الجبل . قال الأزهري : يقال لجانبي الجبل : صَدَفَان ، إذا تماذايا ، لتصادفهما ، أي : لتلاقيهما . قال المفسرون : حشا ما بين الجبلين بالحديد ، ونسج بين طبقات الحديد الحطب والفحم ، ووضع عليها المنافيخ ، ثم (قال انفخوا) فنفخوا (حتى إذا جمعه) يعني : الحديد ، وقيل : الماء ترجع إلى ما بين الصدفين (ناراً) أي : كالنار ، لأن الحديد إذا أحمى بالفحم والمنافيخ صار كالنار ، (قال آتوني) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي : « آتوني » ممدودة ، والمعنى : أعطوني . وقرأ حمزة ، وأبو بكر عن عاصم : « إيتوني » مقصورة ؛ والمعنى : جيئوني به أفرغه عليه .

وفي القِطْر أربعة أقوال .

أحدها : أنه النحاس ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والفراء ، والزجاج . والثاني : أنه الحديد الذائب ، قاله أبو عبيدة . والثالث : الصُّفْر المذاب ، قاله مقاتل . والرابع : الرصاص ، حكاه ابن الأثيري . قال المفسرون : أذاب القِطْر ثم صبّه عليه ، فاختلط والنصق بعضه ببعض حتى صار جبلاً صلباً من حديد وقِطْر . قال قتادة : فهو كالبرد المحبر ، طريقة سوداء وطريقة حمراء .

قوله تعالى : (فما اسطاعوا) أصله : فما « استطاعوا » فلما كانت التاء والطاء من مخرج واحد أحبوا التخفيف فحذفوا . قال ابن الأثيري : إنما تقول العرب : اسطاع ، تخفيفاً ، كما قالوا : سوف يقوم ، وسيقوم ، فأسقطوا الفاء .

زاد المسير ٥ م (١٣)

قوله تعالى : (أن يَظْهَرُوهُ) أي : يعلوه ؛ يقال : ظهر فلان فوق البيت : إذا علاه ، والمعنى : ماقدروا أن يعلوه لارتفاعه وامتلاسه (وما استطاعوا له نقباً) من أسفله ، لشده وصلابته . وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إن بأجوج ومأجوج ليحفرون السدَّ كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا ، فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه ، فيرونه كأشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم ، وأراد الله عز وجل أن يبعثهم على الناس ، حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا ، فستحفرونه غداً إن شاء الله ، ويستثنى ، فيعودون إليه وهو كهيئة حين تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس » وذكر باقي الحديث^(١) ؛ وقد ذكرت هذا الحديث بطوله وأشباهه في كتاب « الحقائق » فكرهت التطويل ها هنا .

قوله تعالى : (قال هذا رحمة من ربِّي) لما فرغ ذو القرنين من بنيانه قال هذا . وفيما أشار إليه قولان .

(١) رواه الامام أحمد في « مسنده » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وتمة الحديث : « فينشقون الماء ، ويتحصن الناس منهم في حصونهم ، فيرمون بسامهم إلى السماء ، فترجع وعليها كهيئة الدم ، فيقولون : قهرنا أهل الأرض ، وعلونا أهل السماء ، فيبث الله عليهم نغماً (دود يكون في أنوف الابل والغنم) في رقابهم فيقتلهم بها ، قال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده ، إن دواب الأرض اتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم » ، ورواه الترمذي في « جامعه » : ١٤٤/٣ وقال : هذا حديث حسن غريب ، وإغنا نعرفه من هذا الوجه مثل هذا ، ورواه ابن ماجه في « سننه » رقم (٤٠٨٠) قال في « الزوائد » عنه : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات . وروى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها وزعاً بقول : « لا إله إلا الله ، وبل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم بأجوج ومأجوج مثل هذه » وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها ، فقالت زينب : فقلت : يا رسول الله أنكهك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثرت الخبث » . وانظر « صحيح مسلم » : ٢٢٥٤/٤ وما ذكر فيه من فتنة بأجوج ومأجوج .

أحدهما : أنه الرَّدْم ، قاله مقاتل ؛ قال : فالمعنى : هذا نِعْمَةٌ من ربِّي على المسلمين لثلا يخرجوا إليهم .

والثاني : أنه التمكين الذي أدرك به عمل السد ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (فإذا جاء وعد ربِّي) فيه قولان .

أحدهما : القيامة . والثاني : وعده لخروج بأجوج ومأجوج .

قوله تعالى : ((جملة دكتا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر :

« دكتا » منونا غير مهموز ولا ممدود . وقرأ عاصم ، وحمة ، والكسائي : « دكتاه »

ممدودة مهموزة بلا تنوين . وقد شرحنا معنى الكلمة في (الأعراف : ١٤٣) .

قوله تعالى : (وكان وعد ربِّي حقاً) أي : بالثواب والعقاب .

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا . وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا .
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
سَمْعًا ﴾

قوله تعالى : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) في المشار إليهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم يأجوج ومأجوج . ثم في المراد بـ « يومئذ » قولان . أحدهما :

أنه يوم انقضى أمر السدِّ ، تركوا يموج بعضهم في بعض من ورائه مختلطين

لكثرتهم ؛ وقيل : ماجوا متعجبين من السدِّ . والثاني : أنه يوم يخرجون من

السدِّ تركوا يموج بعضهم في بعض .

والثاني : أنهم الكفار .

والثالث : أنهم جميع الخلائق : الجن والإنس يموجون حيارى . فعلى هذين

القولين ، المراد باليوم المذكور يوم القيامة .

قوله تعالى : (ونُفِخَ فِي الصُّورِ) هذه نفخة البعث . وقد شرحنا معنى « الصُّور » في (الأنعام : ٧٣) .

قوله تعالى : (وعرضنا جهنم) أي : أظهرناها لهم حتى شاهدوها .

قوله تعالى : (الذين كانت أعينهم) يعني : أعين قلوبهم (في غطاء) أي :

في غفلة (عن ذكرى) أي : عن توحيدى والإيمان بي وبكتابى (وكانوا لا يستطيعون سمعاً) هذا لعداوتهم وعنادهم وكراهتهم ما يُنذرون به ، كما تقول لمن يكره قولك : ما تقدر أن تسمع كلامي .

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي
أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾

قوله تعالى : (أفحسب الذين كفروا) أي : أفظنّ المشركون (أن

يتخذوا عبادي) في هؤلاء العباد ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم الشياطين ، قاله ابن عباس . والثاني : الأصنام ، قاله مقاتل .

والثالث : الملائكة والمسيح وعزير وسائر المعبودات من دونه ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (من دوني) فتح هذه الياه نافع ، وأبو عمرو . وجواب الاستفهام

في هذه الآية محذوف ، وفي تقديره قولان .

أحدهما : أفحسبوا أن يتخذوهم أولياء ، كلاب لهم أعداء لهم يتبرؤون منهم .

والثاني : أن يتخذوهم أولياء ولا أغضب ولا أقاتبهم . وروى أبان عن عاصم ،

وزيد عن يعقوب : « أفحسب » بتسكين السين وضم الباء ، وهي قراءة علي

عليه السلام ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وبجاهد ، وعكرمة ، وابن عمر ،

وابن محيصن ؛ ومعناها : أفكفيهم أن يتخذوهم أولياء .

فَأَمَّا النَّزْلُ فَفِيهِ قَوْلَانِ .

أحدهما : أنه ما يُهَيِّئُ لِلضَّيْفِ وَالْمَسْكِرِ ، قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ الْمَنْزِلُ ، قَالَ الزَّجَّاجُ .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا . ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَانْخَدُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا ﴾

قوله تعالى : (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا) فِيهِمْ قَوْلَانِ .

أحدهما : أَنَّهُمُ الْقَسِيصُونَ وَالرَّهْبَانُ ، قَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالضَّحَّاكُ .

وَالثَّانِي : الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ .

قوله تعالى : (أَعْمَالًا) مَنْصُوبٌ عَلَى التَّمْيِيزِ ، لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ : « بِالْأَخْسَرِينَ »

كَانَ ذَلِكَ مَبْهَمًا لَا يَدُلُّ عَلَى مَا خَسَرُوهُ ، فَيُبَيِّنُ ذَلِكَ فِي أَيِّ نَوْعٍ وَقَعَ .

قوله تعالى : (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ) أَي : بَطَلَ عَمَلُهُمْ وَاجْتِهَادُهُمْ فِي الدُّنْيَا ،

وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ بِأَعْمَالِهِمْ ، فَرُؤْسَاؤُهُمْ يَطْمَئِنُّونَ الصَّحِيحُ ، وَبُؤْثُرُونَ الْبَاطِلُ

لِبَقَاةِ رِثَاثَتِهِمْ ، وَأَتْبَاعُهُمْ مَقْلِدُونَ بِغَيْرِ دَلِيلٍ . (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ

رَبِّهِمْ) جَحَدُوا دَلَائِلَ تَوْحِيدِهِ ، وَكَفَرُوا بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بِكُفْرِهِمْ

بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْقُرْآنِ ، صَارُوا كَافِرِينَ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ (فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) أَي :

بَطَلَ اجْتِهَادُهُمْ ، لِأَنَّهُ خَلَا عَنِ الْإِيمَانِ (فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا) وَقَرَأَ

ابْنُ مَسْعُودٍ ، وَالْجَحْدَرِيُّ : « فَلَا يُقِيمُ » بِالْيَاءِ .

وفي معناه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه إنما يتقل الميزان بالطاعة ، وإنما توزن الحسنات والسيئات ، والكافر

لا طاعة له .

والثاني : أن المعنى : لا نُقيم لهم قدرًا . قال ابن الأعرابي في تفسير هذه

الآية : يقال : ما لفلان عندنا وزن ، أي : قدر ، نحسته . فالمعنى : أنهم لا يُعَدُّ

بهم ، ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة . وقد روى أبو هريرة عن النبي

ﷺ أنه قال : « يؤتى بالرجل الطويل الأكل والشروب فلا يزن جناح بموضة ،

أقرؤوا إن شئتم : (فلا نُقيم لهم يوم القيامة وزناً) »^(١) .

والثالث : أنه قال : « فلا نُقيم لهم ، لأن الوزن عليهم لا لهم ؛ ذكره

ابن الأنباري .

قوله تعالى : (ذلك جزاؤم) أي : الأمر ذلك الذي ذكرت من بطلان

عملهم وخسرة قدرهم ، ثم ابتداء فقال : (جزاؤم جهنم) ، وقيل : المعنى : ذلك التصغير

لهم ، وجزاؤم جهنم ، فأضمرت واو الحال .

قوله تعالى : (بما كفروا) أي : بكفرهم واتخاذهم (آياتي) التي أنزلتها

(ورُسُلِي هزواً) أي : مهزوءاً به .

(١) ذكره الحافظ في « الفتح » : ٣٢٤/٨ من رواية ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه

بلفظ « الطويل العظيم الأكل والشروب » . وأورده السيوطي في « الدر » : ٢٥٤/٤ من

رواية ابن عدي ، والبيهقي في « شعب الإيمان » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال

رسول الله ﷺ : « ليؤتين يوم القيامة بالطويل الأكل والشروب ، فلا يزن عند الله

تبارك وتعالى جناح بموضة أقرؤوا إن شئتم : (فلا نُقيم لهم يوم القيامة وزناً) . ورواه

البخاري : ٣٢٤/٨ ، ومسلم : ٢١٤٧/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ

قال : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بموضة ، وقال :

« أقرؤوا إن شئتم : (فلا نُقيم لهم يوم القيامة وزناً) » .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا . خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾

قوله تعالى : (كانت لهم جنات الفردوس) قال ابن الأنباري : كانت لهم في علم الله قبل أن يُخلَقوا . وروى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال : « جنات الفردوس أربع ، ثنتان من ذهب حليتها وآنيتهما وما فيها ، وثنان من فضة حليتها وآنيتهما وما فيها ، وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » (١) . وروى عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، الفردوس أعلاها ، ومنها تفجر أنهار الجنة ، فإذا سألت الله تعالى فاسأله الفردوس » (٢) . قال أبو أمامة : الفردوس سرّة الجنة . قال مجاهد : الفردوس : البستان بالرومية . وقال كعب ، والضحاك : « جنات الفردوس » : جنات الأعتاب . قال الكلبي ، والفراء : الفردوس : البستان الذي فيه الكرم . وقال المبرد : الفردوس فيما سمعت من كلام العرب : الشجر الملتف ،

(١) لفظه في البخاري : ٤٧٩/٨ ، ومسلم : ١٦٣/١ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « جناتان من فضة ، آنيتهما وما فيها ، وثنان من ذهب ، آنيتهما وما فيها ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن » . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : وفي رواية الحارث بن عبيد عن أبي عمران الجوني في أول هذا الحديث : « جنات الفردوس أربع ، ثنتان من ذهب . . . الخ » .

(٢) أخرجه أحمد في « المسند » ، والترمذي : ٧٦/٣ ، وأورده السيوطي في « الدر » وزاد نسبه لابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، والحاكم ، والبيهقي في « البعث » ، وابن مردويه . ورواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة بلفظ : « إذا سألت الله الجنة ، فاسأله الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة » .

والأغاب عليه العنب . وقال تعلب : كل بستان يحوط عليه فهو فردوس ، قال عبد الله بن رواحة :

في جنان الفردوس ليس يخافون خروجاً عنها ولا تحويلاً
وفرات على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : قال الزجاج : الفردوس أصله رومي
أعرب ، وهو البستان ، كذلك جاء في التفسير ، وقد قيل : الفردوس تعرفه
العرب ، وتسمي الموضع الذي فيه كرم : فردوساً . وقال أهل اللغة : الفردوس
مذكّر ، وإنما أنت في قوله تعالى : (يرتنون الفردوس هم فيها خالدون)
[المؤمنون : ١١] لأنه عنى به الجنة . وقال الزجاج : وقيل : الفردوس : الأودية
التي تنبت ضرباً من النبت ، وقيل : هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية ، قال :
والفردوس أيضاً بالسريانية كذا لفظه : فردوس ، قال : ولم نجد في أشعار العرب
إلا في شعر حسان ، وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين ،
لأنه عند أهل كل لغة كذلك ، وبيت حسان :

فإن ثواب الله كل موحّد
جنان من الفردوس فيها يخلّد^(١)
وقال ابن الكلبي بإسناده : الفردوس : البستان بلغة الروم ، وقال الفراء : وهو
عربي أيضاً ، والعرب تسمي البستان الذي فيه الكرم فردوساً . وقال السدي :
الفردوس أصله بالنبطية « فرداساً » . وقال عبد الله بن الحارث : الفردوس : الأغاب .
وقد شرحنا معنى قوله : « نُزُلًا » آنفاً^(٢) .

قوله تعالى : (لا يبغون عنها حويلاً) قال الزجاج : لا يريدون عنها تحويلاً ،

(١) ديوانه : ١٥٠ ، و البحر : ١٦٨/٦ ، و روح المعاني : ٤٧/١٦ ،

و اللسان ، و التاج ، : فردس .

(٢) قد مر تفسيره في الصفحة ١٩٧ .

يقال : قد حال من مكانه حِوَالاً ، كما قالوا في المصادر : صَغُرَ صِغَرًا ، وعَظُمَ عِظْمًا ، وعَادَنِي حُبُّهَا عِوَادًا ؛ قال : وقد قيل أيضاً : إن الحِوَالَ : الحيلة ، فيكون المعنى : لا يَحْتَالُونَ مَنزِلًا غَيْرَهَا .

فان قيل : قد عُلِمَ أن الجنة كثيرة الخير ، فما وجه مدحها بأنهم لا يبنون عنها حِوَالًا ؟

فالجواب : أن الإنسان قد يجد في الدار الأنيقة معنى لا يوافقه ، فيحب أن ينتقل إلى دار أخرى ، وقد عمل ، والجنة على خلاف ذلك .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾

قوله تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي) سبب نزولها أنه لما نزل قوله تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) [الاسراء : ٨٥] قالت اليهود : كيف وقد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس . ومعنى الآية : لو كان ماء البحر مداداً يُكْتَبُ به . قال مجاهد : [والمعنى] : لو كان البحر مداداً للقلم ، والقلم يكتب . وقال ابن الأثيري : سمي المداد مداداً لإمداده الكاتب ، وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء . وقرأ الحسن ، والأعمش : « مداداً لكلمات ربي » بغير ألف .

قوله تعالى : (قبل أن تنفد كلمات ربي) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم : « تنفد » بالتاء . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « بنفد » بالياء . قال أبو علي : التأنيت أحسن ، لأن المُسْنَدَ إليه الفعل مؤنث ، والتذكير حسن ، لأن التأنيت ليس بحقيقي ، وإنما لم تنفد كلمات الله ، لأن كلامه صفة من صفات

ذاته ، ولا يتطرق على صفاته النقاد ، (ولو جئنا بمثله) أي : بمثل البحر (مدداً) أي : زيادة ؛ والمدد : كل شيء زاد في شيء .

فان قيل : لم قال في أول الآية : « مداداً » وفي آخرها : « مدداً » وكلاهما

بمعنى واحد ، واشتقاقها غير مختلف ؟

فقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال : لما كان الثاني آخر آية ، وأواخر الآيات هاهنا

أتت على الفعل ، والفعل ، كقوله : « نَزُلًا » « هُزُوا » « حَوْلًا »

كان قوله : « مَدَدًا » أشبه بهؤلاء الألفاظ من المداد ، واتفاق المقاطع عند أواخر

الآي ، وانقضاء الآيات ، وتتمام السجع والنثر ، أخف على الألسن ، وأحلى موقفاً

في الأسماع ، فاختلفت اللفظتات لهذه [العلة] . وقد قرأ ابن عباس ، وسعيد

ابن جبیر ، ومجاهد ، وأبورجاء ، وقتادة ، وابن محبصن : « ولو جئنا بمثله

مداداً » فحملوها على الأولى ، ولم ينظروا إلى المقاطع . وقراءة الأولين أبين

حُجَّة ، وأوضح منهاجاً .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۗ

فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ

رَبِّهِ أَحَدًا ۝﴾

قوله تعالى : (قل إنما أنا بشرٌ مثلكم) قال ابن عباس : علم الله تعالى

رسوله التواضع لثلاث زهري على خلقه ، فأمره أن يُقرَّ على نفسه بأنه آدمي كغيره ،

إلا أنه أكرم بالوحي . (انظر تفسير الخوي)

قوله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربّه) سبب نزولها أن جندب بن زهير

الغامدي ^(۱) قال لرسول الله ﷺ : إني أعمل العمل [لله تعالى] فإذا اطلع عليه

(۱) في الأصل « الفرطي » : « العامري » وما أثبتناه من « الإصابة » ، و « أسباب النزول »

للواحد ، وكتب التفسير .

سرّني ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب ، ولا يقبل ما روئي فيه » فنزلت فيه هذه الآية ، قاله ابن عباس (١) . وقال طاووس : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إني أحب الجهاد [في سبيل الله] وأحب أن يرى مكاني ، فنزلت هذه الآية (٢) . وقال مجاهد : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إني أتصدق ، وأصل الرحم ، ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى ، فيذكر ذلك مني وأحمد عليه فيسرنني ذلك وأعجب به ، فسكت رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية (٣) .

وفي قوله : (فمن كان يرجو) فولان . أحدهما : يخاف ، قاله ابن قتيبة . والثاني : يأمل ، وهو اختيار الزجاج . وقال ابن الأنباري : المعنى : فمن كان يرجو لقاء نواب ربه . قال المفسرون : وذلك يوم البعث والجزاء . (فليعمل عملاً صالحاً) لا يرأني به (ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) قال سعيد ابن جبير : لا يرأني . قال معاوية بن أبي سفيان : هذه آخر آية نزلت من القرآن (٤) .

★ ★ ★

- (١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » عن ابن عباس ١٧٢ بدون سند .
 (٢) وكذلك ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ١٧٢ عن طاووس بدون سند . وقد ذكره الطبري في « تفسيره » : ٤٠/١٦ من حديث معمر عن عبد الكريم الجزري عن طاووس مرسلًا ، وذكره ابن كثير في « التفسير » : ١٠٨/٣ من رواية ابن أبي حاتم عن طاووس مرسلًا بنحوه ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٢٥٥/٤ كذلك عن طاووس مرسلًا ، وزاد نسبه لعبد الرزاق ، وابن أبي الدنيا في « الاخلاص » ، والطبراني ، والحاكم . وقال السيوطي في آخره : وأخرجه الحاكم وصححه ، والبيهقي ، وموسولاً عن طاووس عن ابن عباس .
 (٣) الواحدي : ١٧٢ عن مجاهد بدون سند .
 (٤) قال الحافظ ابن كثير في « تفسيره » ١١٠/٣ : وهذا أثر مشكل ، فان هذه الآية ، آخر سورة (الكهف) و (الكهف) كلها مكية ، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها ، بل هي مثبتة بحكمة ، فاشبهه ذلك على بعض الرواة ، فروى بالمعنى على ما فهمه ، والله أعلم .

سورة مريم

وهي مكية باجماعهم من غير خلاف علمناه . وقال مقاتل : هي مكية غير
سجدها ، فانها مدنية . وقال هبة الله المفسر : هي مكية غير آيتين منها ، قوله :
(فخلف من بعدهم خلف) والتي تليها [مريم : ٥٩ ، ٦٠] .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿ كَهَيْمَعٍ . ذِكْرٌ رَّحِمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى
رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا . قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْمَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ
شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا . وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ
مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا .
يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾

قوله تعالى : (كهيمع) قرأ ابن كثير : « كهيمع ذِكر » بفتح الهاء
والياء وتبيين الدال التي في هجاء « صاد » . وقرأ أبو عمرو : « كهيمع » بكسر الهاء
وفتح الياء ويدغم الدال في الدال ، وكان نافع يلفظ بالهاء والياء بين الكسر والفتح ،
ولا يدغم الدال التي في هجاء « صاد » في الدال من « ذِكر » . وقرأ أبو بكر عن
عاصم ، والكسائي ، بكسر الهاء والياء ، إلا أن الكسائي لا يبين الدال ، وعاصم

يُيَنِّهَا . وقرأ ابن عامر ، وحمة ، بفتح الهاء وكسر الياء ويدغمان . وقرأ أبي بن كعب : « كهيمص » برفع الهاء وفتح الياء . وقد ذكرنا في أول « البقرة » ما يشتمل على بيان هذا الجنس . وقد خصَّ المفسرون هذه الحروف المذكورة هاهنا بأربعة أقوال .

أحدها : أنها حروف من أسماء الله تعالى ، قاله الأكثرون . ثم اختلف هؤلاء في الكاف من أي اسم هو ، على أربعة أقوال . أحدها : أنه من اسم الله الكبير . والثاني : من الكريم . والثالث : من الكافي ، روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبیر عن ابن عباس . والرابع : أنه من الملك ، قاله محمد بن كعب . فأما الهاء ، فكلمتهم قالوا : هي من اسمه الهادي ، إلا القرظي فإنه قال : من اسمه الله . وأما الياء ، ففيها ثلاثة أقوال . أحدها : أنها من حكيم . والثاني : من رحيم . والثالث : من أمين ، روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبیر عن ابن عباس . فأما العين ، ففيها أربعة أقوال . أحدها : أنها من عليم . والثاني : من عالم . والثالث : من عزيز ، رواها أيضاً سعيد [بن جبیر] عن ابن عباس . والرابع : أنها من عدل ، قاله الضحاك . وأما الصاد ، ففيها ثلاثة أقوال . أحدها : أنها من صادق . والثاني من صدوق ، رواها سعيد [بن جبیر] أيضاً عن ابن عباس . والثالث : من الصمد ، قاله محمد بن كعب .

والقول الثاني : أن « كهيمص » قَسَمَ أقسم الله به ، وهو من أسمائه ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . وروى عن علي عليه السلام أنه قال : هو اسم من أسماء الله تعالى . وروى عنه أنه كان يقول : [يا] كهيمص اغفر لي . قال الزجاج : والقَسَمَ بهذا والدعاء لا يدل على أنه اسم واحد ، لأن الداعي إذا علم أن الدعاء بهذه الحروف يدل على صفات الله فدعا بها ، فكأنه قال : يا كافي ،

ياهادي ، يا عالم ، يا صادق ، وإذا أقسم بها ، فكأنه قال : والكافي الهادي العالم الصادق ، وأسكنت هذه الحروف لأنها حروف تهجٍ ، النية فيها الوقف .

والثالث : أنه اسم للسورة ، قاله الحسن ، ومجاهد .

والرابع : اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

فان قيل : لم قالوا : هايا ، ولم يقولوا في الكاف : كا ، وفي العين : عا ،

وفي الصاد : صا ، لتفق المباني كما اتفقت العلل ؟

فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، فقال : حروف المعجم التسعة والعشرون

تجري مجرى الرسالة والخطبة ، فيستقبحون فيها اتفاق الألفاظ واستواء الأوزان ، كما

يستقبحون ذلك في خطبهم ورسائلهم ، فيغيثون بعض الكلام ليختلف الوزن

وتتغير المباني ، فيكون ذلك أعذب على الألسن وأحلى في الأسماع .

قوله تعالى : (ذِكْرٌ رَحْمَةٍ رَبِّكَ) قال الزجاج : الذِّكْرُ مرفوع بالمُضْمَرِ ،

المعنى : هذا الذي تلو عليك ذِكْرٌ رَحْمَةٍ رَبِّكَ عبده . قال الفراء : وفي

الكلام تقديم وتأخير ؛ المعنى : ذِكْرٌ رَبِّكَ عبده بالرحمة ، و « زكريا » في

موضع نصب .

قوله تعالى : (إِذْ نَادَى رَبَّهُ) النداء هاهنا بمعنى الدعاء .

وفي علة إخفائه لذلك ثلاثة أقوال .

أحدها : ليبعد عن الرياء ، قاله ابن جريج .

والثاني : لئلا يقول الناس : انظروا إلى هذا الشيخ يسأل الولد على الكبير ،

قاله مقاتل .

والثالث : لئلا يعاديه بنو عمه ، ويظنوا أنه كرهه أن يلوا مكانه بعده ، ذكره

أبو سليمان الدمشقي . وهذه القصة تدل على أن المستحب إسرار الدعاء ، ومنه الحديث : « إنكم لا تدعون أصم » ^(١) .

قوله تعالى : (قال ربّ إني وهنّ العظم منّي) وقرأ معاذ القاري ، والضحاك : « وهنّ » بضم الهاء ، أي : ضعُف . قال الفراء وغيره : وهنّ العظم ، وهنّ ، بفتح الهاء وكسرها ؛ والمستقبل على الحالين كليهما : يهنّ . وأراد أن قوّة عظامه قد ذهبت لكبره ؛ وإنما خصّ العظم ، لأنه الأصل في التركيب . وقال قتادة : شكا ذهاب أضراسه .

قوله تعالى : (واشتعل الرأس شيباً) يعني : انتشر الشيب فيه ، كما ينتشر شعاع النار في الحطب ، وهذا من أحسن الاستعارات . (ولم أكن بدعائك) أي : بدعائي إياك (ربّ شقياً) أي : لم أكن أتعب بالدعاء ثم أخيب ، لأنك قد عودتني الإجابة ؛ يقال : شقي فلان بكذا : إذا تعب بسببه ، ولم ينل مراده . قوله تعالى : (وإني خفتُ الموالي) يعني : الذين يلونه في النسب ، وهم بنو العم والعصبة (من ورأني) أي : من بعد موتي . وفي ما خافهم عليه فولان .

أحدهما : أنه خاف أن يرثوه ، قاله ابن عباس .

(١) هو جزء من حديث رواه البخاري في « صحيحه » : ٩٤/٦ ، ومسلم : ٢٠٧٦/٤ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً ، ولفظه في البخاري : « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم ، فانكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنه معكم ، إنه سميع قريب » . ومعنى « اربعوا على أنفسكم » : ارفقوا بأنفسكم ، واخفضوا أصواتكم ، فان رفع الصوت إنما يفعله الانسان لبعد من يخاطبه ليسمعه ، وأنتم تدعون الله تعالى ، وليس هو بأصم ولا غائب ، بل هو سميع قريب .

فإن اعترض عليه معترض ، فقال : كيف يجوز لنيّ أن ينفس على قراباته

بالحقوق المفروضة لهم بعد موته ؟

فمنه جوابان . أحدهما : أنه لما كان نبيّاً ، والنبيّ لا يورث ، خاف أن يرثوا

ماله فيأخذوا مالا يجوز لهم . والثاني : أنه غلب عليه طبع البشر ، فأحبّ أن

يتولّى ماله ولده ، ذكرهما ابن الأباري .

قلت : ويان هذا أنه لا بد أن يتولّى ماله وإن لم يكن ميراثاً ، فأحبّ

أن يتولاه ولده .

والقول الثاني : أنه خاف تضييعهم للدين ونبذهم إياه ، ذكره جماعة

من المفسرين .

وقرأ عثمان ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمرو ، وابن جبير ،

وبجاهد ، وابن أبي شريح عن الكسائي : « خَفَّت » بفتح الخاء وتشديد الفاء على

معنى « قلّت » ؛ فعلى هذا يكون إنما خاف على علمه ونبوّته ألاّ يُورثا فيموت

العِلم . وأسكن ابن شهاب الزهري ياء « الموالي » .

قوله تعالى : (من ورّائي) أسكن الجمهور هذه الياء ، وفتحها ابن كثير في

رواية قبل . وروى عنه شبل : « وراي » مثل « عصاي » .

قوله تعالى : (فهب لي من لدنك) أي : من عندك (وليّاً) أي : ولداً

صالحاً يتولاني .

قوله تعالى : (يرثني ويرث من آل يعقوب) قرأ ابن كثير ، ونافع ،

وعاصم ، وابن عامر ، وحمة : « يرثني ويرث » برفعها . وقرأ أبو عمرو ،

والكسائي : « يرثني ويرث » بالجزم فيها . قال أبو عبيدة : من قرأ بالرفع ،

فهو على الصفة للولي ؛ فالمعنى : هب لي ولياً وارثاً ، ومن جزم ، فعلى الشرط
والجزاء ، كقولك : إن وهبته لي ورثني .

وفي المراد بهذا الميراث أربعة أقوال .

أحدها : يرثني مالي ، ويرث من آل يعقوب النبوة ، رواه عكرمة عن
ابن عباس ، وبه قال أبو صالح .

والثاني : يرثني العلم ، ويرث من آل يعقوب الملك ، فأجاب الله
تعالى إلى وراثته العلم دون الملك ، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : يرثني نبوتي وعلمي ، ويرث من آل يعقوب النبوة أيضاً ،
قاله الحسن .

والرابع : يرثني النبوة ، ويرث من آل يعقوب الأخلاق ، قاله عطاء .
قال مجاهد : كان زكريا من ذرية يعقوب ، وزعم الكلبي أن آل يعقوب كانوا
أخواله ، وأنه ليس يعقوب أبي يوسف . وقال مقاتل : هو يعقوب بن ماثان ،
وكان يعقوب هذا وعمران - أبو مریم - أخوين .

والصحيح : أنه لم يُرِدْ ميراثَ المال لوجوه .

أحدها : أنه قد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نحن معاشر الأنبياء
لأنورث ، ما تركناه صدقة » (١) .

(١) رواه البخاري : ٤/١٢ ، ومسلم : ١٣٧٩/٣ بلفظ « لأنورث ما تركناه صدقة » .
ورواه الترمذي باللفظ الذي ذكره المؤلف « نحن معاشر الأنبياء لأنورث ما تركناه صدقة » ،
وقال : هذا حديث حسن صحيح .

زاد المسير ٥ م (١٤)

والثاني : [أنه] لا يجوز أن يتأسف نبي الله على مصير ماله بعد موته إذا وصل إلى واريته المستحق له شرعاً .

والثالث : أنه لم يكن ذا مال . وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أن زكريا كان نجاراً (۱) .

قوله تعالى : (واجعله ربّ رضىً) قال اللغويون : أي : مرضياً ، فصرف عن مفعول إلى فعيل ، كما قالوا : مقتول وقتيل .

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا . قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا . قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

قوله تعالى : (يا زكريا إنا نبشرك) في الكلام إضمار ، تقديره : فاستجاب الله له فقال « يا زكريا إنا نبشرك » . وقرأ حمزة : « نبشرك » بالتخفيف . وقد شرحنا هذا في (آل عمران : ۳۹) .

قوله تعالى : (لم نجعل له من قبل سميًّا) فيه ثلاثة أقوال .
أحدها : لم يُسمَّ يحيى قبله ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، وقتادة ، وابن زيد ، والأكثر .

فإن اعترض معترض ، فقال : ماوجه المدححة باسم لم يُسمَّ به أحد قبله ،

(۱) رواه أحمد في المسند ، رقم (۷۹۳۴) ، ومسلم : ۱۸۴۷/۴ ، وابن ماجه رقم (۲۱۵۰) .

ونرى كثيراً من الأسماء لم يُسبق إليها، فالجواب : أن وجه الفضيلة أن الله تعالى تولى تسميته ، ولم يَكِلِ ذلك إلى أبيه ، فسماه باسم لم يُسبق إليه .

والثاني : لم تلد العواقر مثله ولداً ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . فعلى هذا يكون المعنى : لم نجعل له نظيراً .

والثالث : لم نجعل له من قبل مثلاً وشيئاً ، قاله مجاهد . فعلى هذا يكون عدم الشبه من حيث أنه لم يعص ولم يهمل بمصيبة . وما بعد هذا مفسر في (آل عمران : ۳۹) إلى قوله : (وكانت امرأتى عاقراً) .

وفي معنى « كانت » قولان .

أحدهما : أنه توكيد للكلام ، فالمعنى : وهي عاقرة ، كقوله : (كنتم خير أمة) [آل عمران : ۱۱۰] أي : أنتم .

والثاني : أنها كانت منذ كانت عاقراً ، لم يحدث ذلك بها ، ذكرها ابن الأنباري ، واختار الأول .

قوله تعالى : (وقد بلغت من الكبر عتياً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « عُنِيًا » و « بُكِيًا » [مریم : ۵۸] و « صُلِيًا » [مریم : ۷۰] بضم أوائلها . وقرأ حمزة ، والكسائي ، بكسر أوائلها ، واقفاً حفص عن عاصم ، إلا في قوله : « بُكِيًا » فإنه ضم أوله . وقرأ ابن عباس ، ومجاهد : « عُسِيًا » بالسين قال مجاهد : « عُنِيًا » هو تحوّل العظم . وقال ابن قتيبة : أي : يُبْسًا ؛ يقال : عَتَا وَعَسَا بمعنى واحد . قال الزجاج : كل شيء انتهى ، فقد عَتَا يَعْتُو عُنِيًا ، وَعُتُوًا ، وَعُسُوًا ، وَعُسِيًا .

قوله تعالى : (قال كذلك) أي : الأمر كما قيل لك من هبة الولد على الكبر (قال ربك هو علي هين) أي : خلق يحيى علي سهل .

وقرأ معاذ القاري ، وعاصم الجحدري : « هَيْئَنَ » باسكان الياء . (وقد خلقتك من قبل) أي : أوجدتُك . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « خَلَقْتُكَ » . وقرأ حمزة ، والكسائي : « خَلَقْتَنَاكَ » بالنون والالف . (ولم تك شيئاً) المعنى : فخلقُ الولد ، كخلقك . وما بعد هذا مفسر في (آل عمران : ٣٩) إلى قوله : (ثلاثَ ليالٍ سوياً) قال الزجاج : « سَوِيّاً » منصوب على الحال ، والمعنى : تُمنع عن الكلام وأنت سَوِيٌّ . قال ابن قتيبة : أي : سليماً غير أخرس . قوله تعالى : (فخرج على قومه) وهذا في صبيحة الليلة التي حملت فيها امرأته (من المحراب) أي : من مصلاه ، وقد ذكرناه في (آل عمران : ٣٩) .

قوله تعالى : (فأوحى إليهم) فيه قولان .

أحدهما : أنه كتب إليهم في كتاب ، قاله ابن عباس .

والثاني : أوماً برأسه وبديه ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (أن سَبَّحُوا) أي : صلُّوا (بُكْرَةً وَعَشِيّاً) قد شرحناه في (آل عمران : ٣٩) ، والمعنى : أنه كان يخرج إلى قومه فيأمرهم بالصلاة بُكْرَةً وَعَشِيّاً ، فلما حملت امرأته أمرهم بالصلاة إشارة .

﴿ يَا بَحِيٍّ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَاذُنُنَا هُ الْحُكْمَ صَبِيّاً . وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً . وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً . وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴾

قوله تعالى : (يا بحیی) قال الزجاج : المعنى : فوهبنا له بحیی ، وقلنا له : يا بحیی

(خذ الكتاب) يعني : التوراة ، وكان مأموراً بالتمسك بها وقال ابن الأنباري :

المعنى : اقبل كُتُبَ الله كلها إيماناً بها واستعمالاً لأحكامها . وقد شرحنا في (البقرة : ٦٣) معنى قوله : (بقوة) .

قوله تعالى : (وآتيناہ الحُكْم) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه الفهم ، قاله مجاهد . والثاني : اللب ، قاله الحسن ، وعكرمة . والثالث : العِلْم ، قاله ابن السائب والرابع : حفظ التوراة وعلمها ، قاله أبو سليمان الدمشقي . وقد زدنا هذا شرحاً في سورة (يوسف : ٢٣) . وروى سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال : من قرأ القرآن [من] قبل أن يحتمل ، فهو ممن أُوتِيَ الحُكْمَ صبيّاً .

فأما قوله : (صبيّاً) ففي سنه يوم أُوتِيَ الحُكْمَ قولان .

أحدهما : أنه سبع سنين ، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ (١) .

والثاني : ثلاث سنين ، قاله قتادة ، ومقاتل .

قوله تعالى : (وحناناً من لدُنَا) قال الزجاج : أي : وآتيناہ حناناً . وقال

ابن الأنباري : المعنى : وجعلناه حناناً لأهل زمانه .

وفي الحنان ستة أقوال .

أحدها : أنه الرحمة ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ،

وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، والفراء ، وأبو عبيدة ، وأنشد :

تَحَسَّنْ عَلِيٌّ هَدَاكَ الْمَلِيكَ فَانْ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالاً (٢)

(١) أورده السيوطي في الدر : ٢٦٠/٤ من رواية أبي نعيم ، وابن مردويه ، والديلمي

عن ابن عباس رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ في قوله تعالى : (وآتيناہ الحُكْمَ صبيّاً) قال : أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين .

(٢) البيت للحطيئة ، ديوانه : ٢٢٢ ، و در الكامل : ٣٤٨ ، و در مجاز القرآن : ٣/٢ ، و در القرطبي : ٨٨/١١ ، و در الطبري : ٣٨/١٦ ، و در البحر المحيط : ١٧٧/٦ ، و در اللسان ، و در التاج : حن .

قال : وعامة ما يُستعمل في المنطق على لفظ الاثنين ، قال طرفة :
 أبا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبِقَ بَعْضَنَا حَنَّائِكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ (١)
 قال ابن قتيبة : ومنه يقال : تحنن عليّ ، وأصله من حنين الناقة على ولدها . وقال
 ابن الأنباري : لم يختلف اللغويون أن الحنان : الرحمة ، والمعنى : فعلنا ذلك رحمة
 لأبويه ، وتركية له . والثاني : أنه التعطف من ربه عليه ، قاله مجاهد . والثالث :
 أنه اللين ، قاله سعيد بن جبیر . والرابع : البركة ، وروى عن ابن جبیر
 أيضاً . والخامس : المحبة ، قاله عكرمة ، وابن زيد . والسادس : التعظيم ، قاله
 عطاء بن أبي رباح .

وفي قوله : (وزكاة) أربعة أقوال .

أحدها : أنها العمل الصالح ، قاله الضحاك ، وقتادة .

والثاني : أن معنى الزكاة : الصدقة ، فالتقدير : إن الله تعالى جعله صدقة

تصدق بها على أبويه ، قاله ابن السائب .

والثالث : أن الزكاة : التطهير ، قاله الزجاج .

والرابع : أن الزكاة : الزيادة ، فالمعنى : وآتيناه زيادة في الخير على ما وُصف

وذُكِرَ ، قاله ابن الأنباري .

قوله تعالى : (وكان تقياً) قال ابن عباس : جملة بتقيني ، ولا يدل

بي غيري .

قوله تعالى : (وبراً بوالديه) أي : وجعلناه برّاً بوالديه ، والبرُّ بمعنى :

(١) ديوانه : ٢٠٨ ، ود مجاز القرآن : ٣/٢ ، ود الكتاب : ١٤٦ ، ود الكامل :

٣٤٨ ، ود الطبري : ٣٨/١٦ ، ود الجهرة : ٤٤٩/٣ ، ود الشتيري : ١٧٤/١ ،

ود القرطبي : ٨٧/١١ ، ود البحر المحيط : ١٧٧/٦ ، ود اللسان ، ود التاج : حن .

البارّ ؛ والمعنى : لطيفاً بهما ، محسناً إليهما . والعصيّ بمعنى : العاصي . وقد شرحنا معنى الجبار في (هود : ۵۹) .

قوله تعالى : (وسلام عليه) فيه قولان .

أحدهما : أنه السلام المعروف من الله تعالى . قال عطاء : سلام عليه مني في هذه الأيام ؛ وهذا اختيار أبي سليمان .

والثاني : أنه بمعنى : السلامة ، قاله ابن السائب .

فان قيل : كيف خصّ التسليم عليه بالأيام ، وقد يجوز أن يولد ليلاً ويموت ليلاً ؟

فالجواب : أن المراد باليوم الحين والوقت ، على ما بينا في قوله : (اليوم أكملت لكم دينكم) [المائدة : ۳] . قال ابن عباس : وسلام عليه حينُ وُلد . وقال الحسن البصري : التقى يحيى وعيسى ، فقال يحيى لعيسى : أنت خير مني ، فقال عيسى ليحيى : بل أنت خير مني ، سلّم الله عليك ، وأنا سلّمتُ على نفسي . وقال سعيد بن جبیر مثله ، إلا أنه قال : أتى الله عليك ، وأنا أتيت على نفسي . وقال سفیان بن عيينة : أوحش ما يكون الإنسان في ثلاثة مواطن ، يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم ، ويوم يُبعث فيرى نفسه في محشر لم يره ، فخص الله تعالى يحيى فيها بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى

يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشْرٌ وَلَمْ أَكُ بِنْتًا . قَالَ كَذَلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّبٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ
أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿

قوله تعالى : (واذكر في الكتاب) يعني : القرآن (مریم) إذ انتبذت) قال
أبو عبيدة : تحتت واعتزلت (مكاناً شرقياً) مما يلي المشرق ، وهو عند العرب
خير من الغربي .

قوله تعالى : (فاتخذت من دونهم) يعني : أهلها (حجاباً) أي : ستراً
وحاجزاً ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ضربت ستراً ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .
والثاني : أن الشمس أظلمت ، فلم يرها أحد منهم ، وذلك مما سترها الله به ،
و [روي] هذا المعنى عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أنها اتخذت حجاباً من الجدران ، قاله السدي عن أشياخه .
وفي سبب انفرادها عنهم قولان .

أحدهما : [أنها] انفردت لتطهر من الحيض وتمشط ، قاله ابن عباس .
والثاني : لتفلي رأسها ، قاله عطاء .

قوله تعالى : (فأرسلنا إليها روحنا) وهو جبريل في قول الجمهور . وقال
ابن الأنباري : صاحب روحنا ، وهو جبريل . والروح بمعنى : الروح والفرح ،
ثم نضم الراء لتحقيق مذهب الاسم ، وإبطال طريق المصدر ، ويجوز أن يراد
بالروح هاهنا : الوحي وجبريل صاحب الوحي .

وفي وقت مجيئه إليها ثلاثة أقوال .

أحدها : وهي تغتسل . والثاني : بعد فراغها ، ولبسها الثياب . والثالث : بعد دخولها بيتها . وقد قيل : المراد بالروح هاهنا : [الروح] الذي خلق منه عيسى ، حكاه الزجاج ، والماوردي ، وهو مضمون كلام أبي بن كعب فيما سئل كره عند قوله : (فحملته) . قال ابن الأنباري : وفيه بُعد ، لقوله : (فتمثل لها بشراً سوياً) ، والمعنى : تصور لها في صورة البشر التام الخليفة . وقال ابن عباس : جاءها في صورة شاب أبيض الوجه بعد قطط حين طرَّ شاربه . وقرأ أبو نهبك : « فأرسلنا إليها روحنا » بفتح الراء ، من الروح .

قوله تعالى : (قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً) المعنى : إن كنت تتقي الله ، فستنتهي بتموذي منك ، هذا هو القول عند المحققين . وحكي عن ابن عباس أنه كان في زمانها رجل اسمه تقي ، وكان فاجراً ، فظنته إياه ، ذكره ابن الأنباري ، والماوردي . وفي قراءة علي عليه السلام ، وابن مسعود ، وأبي رجا : « إلا أن تكون تقياً » .

قوله تعالى : (قال إنما أنا رسول ربك) أي : فلا تخافي (ليهب لك) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي : « لأهب لك » بالهمز . وقرأ أبو عمرو ، وورش عن نافع : « ليهب لك » بغير همز . قال الزجاج : من قرأ « ليهب » فالمعنى : أرسلني ليهب ، ومن قرأ « لأهب » فالمعنى : أرسلت إليك لأهب لك . وقال ابن الأنباري : المعنى : أرسلني يقول لك : أرسلت رسولاً إليك لأهب لك .

قوله تعالى : (غلاماً زكياً) أي : طاهراً من الذنوب . والبغية : الفاجرة الزانية . قال ابن الأنباري : وإنما لم يقل : « بغية » لأنه وصف يغلِب على النساء ، فقلنا تقول العرب : رجل بغية ، فيجري مجرى حائض ، وعافر . وقال غيره :

إنما لم يقل : « بغيّة » لأنه مصروف عن وجهه ، فهو « فاعل » بمعنى : « فاعل » .
ومعنى الآية : ليس لي زوج ، ولست بزانية ، وإنما يكون الولد من هاتين
الجهتين . (قال كذلك قال ربك) قد شرحناه في قصة زكريا ، والمعنى : أنه
يسير عليّ أن أهب لك غلاماً من غير أب . (ولنجعل آية للناس) أي : دلالة
على قدرتنا كونه من غير أب . قال ابن الأنباري : إنما دخلت الواو في قوله :
(ولنجعل) لأنها عاطفة لما بعدها على كلام مضمّر محذوف ، تقديره : قال ربك
خلقه عليّ هين لنفعمك به ، ولنجعله عبرة .

قوله تعالى : (ورحمة منا) أي : لمن تبعه وآمن به (وكان أمراً مقضياً)
أي : وكان خلقه أمراً محكوماً به ، مفروغاً عنه ، سابقاً في علم الله تعالى كونه .
﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى
جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا .
فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا نَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا .
وَهَزِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا . فَكُلِي
وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ
لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾

قوله تعالى : (فحملته) يعني : عيسى .

وفي كيفية حملها له قولان .

أحدهما : أن جبريل نفخ في جيب درعها ، فاستمر بها حملها ، رواه سعيد
ابن جبیر عن ابن عباس . قال السدي : نفخ في جيب درعها وكان مشقوقاً من
قدمها ، فدخلت النفخة في صدرها فحملت من وقتها .
والثاني : الذي خاطبها هو الذي حملته ، ودخل من فيها ، قاله أبي بن كعب .

وفي مقدار حملها سبعة أقوال .

أحدها : أنها حين حملت وضعت ، قاله ابن عباس ، والمعنى : أنه ما طال حملها ، وليس المراد أنها وضعت في الحال ، لأن الله تعالى يقول : (فحملته فانتبذت به) ، وهذا يدل على أن بين الحمل والوضع وقتاً يحتمل الانتباز به .

والثاني : أنها حملته تسع ساعات ، ووضعت من يومها ، قاله الحسن .

والثالث : تسعة أشهر ، قاله سعيد بن جبیر ، وابن السائب ^(۱) .

والرابع : ثلاث ساعات ، حملته في ساعة ، وصوّر في ساعة ، ووضعت في

ساعة ، قاله مقاتل بن سليمان .

والخامس : ثمانية أشهر ، فعاش ، ولم يش مولود قط لثمانية أشهر ، فكان في

هذا آية ، حكاه الزجاج .

والسادس : في ستة أشهر ، حكاه الماوردي .

والسابع : في ساعة واحدة ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : (فانتبذت به) يعني بالحمل (مكاناً قصياً) أي : بعيداً . وقرأ

ابن مسعود ، وابن أبي عبة : « قاصياً » . قال ابن إسحاق : مشت ستة أميال .

قال الفراء : القصي والقاصي بمعنى واحد . وقال غير الفراء : القصي والقاصي

بمنزلة الشهيد والشاهد . وإنما بعمدت ، فراراً من قومها أن يعيروها بولادتها من

غير زوج .

قوله تعالى : (فأجاءها المخاض) وقرأ عكرمة ، وإبراهيم النخعي ، وعاصم

المجذري : « المِخاض » بكسر الميم . قال الفراء : المعنى : فجاء بها المخاض ، فلما

ألقيت الباء ، جعلت في الفعل ألفاً ، ومثله : (آتانا غداءنا) [الكهف : ۶۲] أي :

(۱) قال ابن كثير في « تفسيره » ، ۱۱۶/۳ : المشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر .

بفدائنا ، ومثله : (آتوني زبر الحديد) [الكهف : ۹۶] أي : بزبر الحديد . قال أبو عبيدة : أفلها من جاءت هي ، وأجاهها غيرها . وقال ابن قتيبة : المعنى : جاء بها ، وأجأها ، وهو من حيث يقال : جاءت بي الحاجة إليك ، وأجأني الحاجة إليك ، والمخاض : الحمل . وقال غيره : المخاض : وجع الولادة . (إلى جذع النخلة) وهو ساق النخلة ، وكانت نخلة يابسة في الصحراء ، ليس لها رأس ولا سعف . (قالت باليتي مت قبل هذا) اليوم ، أو هذا الأمر . وقرأ نافع ، وحزمة ، والكسائي ، وخلف ، وحفص : « ميت » بكسر الميم .

وفي سبب قولها هذا قولان .

أحدهما : أنها قالته حياءً من الناس . والثاني . لثلا يأموا بقذفها .

قوله تعالى : (وكنتم نسياً منسياً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، بكسر النون ، وقرأ حمزة ، وحفص عن عاصم : « نسياً » بفتح النون . قال الفراء : وأصحاب عبد الله يقرؤون : « نسياً » بفتح النون ، وسائر العرب بكسرها ، وهما لغتان ، مثل الجسر والجسر ، والوتر والوتر ، والفتح أحب إلي . قال أبو علي الفارسي : الكسر على اللغتين . وقال ابن الأنباري : من كسر النون قال : النسي : اسم لما ينسى ، بمنزلة البغض اسم لما يبغض ، والسبب اسم لما يسب . والنسي بفتح النون : اسم لما ينسى أيضاً على أنه مصدر ناب عن الاسم ، كما يقال : الرجل دنف ، ودنف . فالمكسور : هو الوصف الصحيح ، والمفتوح : مصادره مسدً الوصف . ويمكن أن يكون النسي والنسي اسمين لمعنى ، كما يقال : الرطل والرطل .

وللمفسرين في قوله تعالى : (نسياً منسياً) خمسة أقوال .

أحدها : ياليتي لم أكن شيئاً ، قاله الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال عطاء ، وابن زيد .

والثاني : « وكنت نسباً منسباً » أي : دم حيضة ملقاة ، قاله مجاهد ، ومسعود ابن جبير ، وعكرمة . قال الفراء : النسبي : ما تلقيه المرأة من خرق اعتلاها . وقال ابن الأنباري : هي خرق الحيض تلقيا المرأة فلا نطلبها ولا تذكرها .

والثالث : [أنه من] السقط ، قاله أبو العالمة ، والربيع .

والرابع : أن المعنى : ياليتي لا يئدرى من أنا ، قاله قتادة .

والخامس : أنه الشيء التافه يرتحل عنه القوم ، فيهون عليهم فلا يرجعون إليه ، قاله ابن السائب . وقال أبو عبيدة : النسبي ، والمنسي : ما ينسى من إداوة وعصا . يعني أنه ينسى في المنزل ، فلا يرجع إليه لاحتقار صاحبه إياه . وقال الكسائي : معنى الآية : ليتي كنت ما إذا ذكر لم يُطلب .

قوله تعالى : (فناداها من تحتها) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « من تحتها » بفتح الميم ، والتاء . وقرأ نافع ، وجمرة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « من تحتها » بكسر الميم ، والتاء . فمن قرأ بكسر الميم ، ففيه وجهان . أحدهما : ناداها الملك من تحت النخلة . وقيل : كانت على شتر ، فناداها الملك أسفل منها . والثاني : ناداها عيسى لما خرج من بطنها . قال ابن عباس : كل ما رفعت إليه طرفك ، فهو فوقك ، وكل ما خفضت إليه طرفك ، فهو تحتك . ومن قرأ بفتح الميم ، ففيه الوجهان المذكوران . وكان الفراء يقول : ما خاطبها إلا الملك على القراءتين جميعاً .

قوله تعالى : (قد جعل ربك تحتك سرياً) فيه قولان .

أحدهما : أنه النهر الصغير ، قاله جمهور المفسرين ، واللغويون ، قال أبو صالح ، وابن جريج : هو الجدول بالسريانية .

والثاني : أنه عيسى كان سرباً من الرجال ، قاله الحسن ، وعكرمة ، [وابن زيد] . قال ابن الأنباري : وقد رجع الحسن عن هذا القول إلى القول الأول ، ولو كان وصفاً لعيسى ، كان غلاماً سرباً أو سوباً من الغلمان ، وقلنا نقول العرب : رأيت عندك نبيلاً ، حتى يقولوا : رجلاً نبيلاً .

فإن قيل : كيف ناسب تسليتها أن قيل : لا تحزني ، فهذا نهر يجري ؟ فالجواب من وجهين . أحدهما : أنها حزنت لجذب مكانها الذي ولدت فيه ، وعدم الطعام والشراب والماء الذي تطهر به ، فقيل : لا تحزني قد أجرينا لك نهراً ، وأطلعنا لك رطباً ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها حزنت لما جرى عليها من ولادة ولد عن غير زوج ، فأجرى الله تعالى لها نهراً ، فجاءها من الأردن ، وأخرج لها الرطب من الشجرة اليابسة ، فكان ذلك آية تدل على قدرة الله تعالى في إيجاد عيسى ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (وهزّي إليك) الهز : التحريك .

والباء في قوله تعالى : (بجذع النخلة) فيها قولان .

أحدهما : أنها زائدة مؤكدة ، كقوله تعالى : (فليمدد بسبب إلى السماء)

[الحج : ١٥] قال الفراء : معناه : فليمدد سبباً . والعرب تقول : هزّه ، وهزبه ، وخذ الخطام ، وخذ بالخطام ، وتعلّق زيداً ، وتعلّق به . وقال أبو عبيدة : هي مؤكدة ، كقول الشاعر :

نَضْرِبُ بالسَّيْفِ ونَرْجُو بالْفَرْجِ^(١)

(١) هذا الشطر من الرجز لراجز من بني جمدة ، وهو في « الاقتضاب » : ٤٥٨ ،

و « شواهد المغني » : ١١٤٠ ، و « الخزانة » : ١٥٩/٤ .

والثاني : أنها دخلت على الجذع لتلصقه بالهزّ ، فهي مفيدة للالصاق ، قاله ابن الأنباري .

فوله تعالى : (تساقط) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « تَسَاقُط » بالتاء مشددة السين . وقرأ حمزة ، وعبد الوارث : « تَسَاقُط » بالتاء مفتوحة مخففة السين . وقرأ حفص عن عاصم : « تَسَاقِط » بضم التاء وكسر القاف مخففة السين . وقرأ يعقوب ، وأبو زيد عن الفضل : « يَسَاقُط » بالياء مفتوحة وتشديد السين وفتح القاف . فهذه القراءات المشاهير . وقرأ أبي بن كعب ، وأبو حيوة : « تَسْقُط » بفتح التاء وسكون السين ورفع القاف . وقرأ عبد الله بن عمرو ، وعائشة ، والحسن : « يُسَاقِط » بآلِفٍ وتخفيف السين ورفع الياء وكسر القاف . وقرأ الضحّاك ، وعمرو بن دينار : « يُسْقِط » برفع الياء وكسر القاف مع سكون السين وعدم الألف . وقرأ عاصم الجحدري ، وأبو عمران الجوني مثله ، إلا أنه بالتاء . وقرأ معاذ القاري ، وابن يعمر مثله ، إلا أنه بالنون . وقرأ أبو رزين العقيلي ، وابن أبي عمير : « يَسْقُط » بالياء مفتوحة مع سكون السين ورفع القاف . وقرأ أبو السّامك المدوي ، وابن حزام : « تنساقط » بتاءين مفتوحين وبآلِفٍ . وقال الزجاج : من قرأ « يسَاقُط » فالمعنى : يتساقط ، فأدغمت التاء في السين . ومن قرأ « تَسَاقُط » ، فكذلك أيضاً ، وأنت لأن لفظ النخلة يؤنث . ومن قرأ « تساقط » بالتاء والتخفيف ، فانه حذف من « تنساقط » اجتماع التاءين . ومن قرأ « يُسَاقُط » ذهب إلى معنى : يُسَاقُط الجذع عليك . ومن قرأ « تُسَاقُط » بالنون ، فالمعنى : نحن تُسَاقُط عليك ، فجمله لك آية ، والنحويون يقولون :

إن « رضياً » منصوب على التمييز إذا قلت : يساقط أو يتساقط ، المعنى : يتساقط الجزع رطباً . وإذا قلت : تساقط بالتاء ، فالمعنى : تساقط النخلة رطباً .

قوله تعالى : (جَنِيًّا) قال الفراء : الجَنِيّ : المجتنى ، وقال ابن الأنباري : هو الطري ، والأصل : مجنوّ ، صُرف من مفعول إلى فعل ، كما يقال : قديد ، وطبيخ . وقال غيره : هو الطري بغيره : ولم يكن لتلك النخلة رأس ، فأنته الله تعالى ، فلما وضعت يدها عليها ، سقط الرطب رطباً . وكان السلف يستحبون للنفساء الرطب من أجل مریم عليها السلام .

قوله تعالى : (فِكْلِي) أي : من الرطب (واشربي) من النهر (وقرّي) عينا) بولادة عيسى عليه السلام . قال الزجاج : يقال : قررت به عينا أقر ، بفتح القاف في المستقبل ، وقررت في المكان أقر ، بكسر القاف ، و « عينا » : منصوب على التمييز . وروى ابن الأنباري عن الأصمعي أنه قال : معنى « وقرّي عينا » ، ولتبرد دمتك ، لأن دمة الفرخ باردة ، ودمة الحزن حارة . واشتقاق « قرّي » من القرور ، وهو الماء البارد . وقال لنا أحمد بن يحيى : تفسير « قرّي عينا » بلغت غاية أملك حتى قرّ عينك من الاستشراف إلى غيره ، واحتج بقول عمرو بن كلثوم :

يوم كريمة ضرباً وطعناً أقرّ به موابك العيوناً^(١)

أي : ظفروا وبلغوا منتهى أمنيّتهم ، فقرت عينهم من تطلع إلى غيره .

قوله تعالى : (فاما ترين) وقرأ ابن عباس ، وأبو مجلز ، وابن السميع ، والضحاك ، وأبو العالية ، وعاصم الجحدري : « ترين » بهمزة مكسورة من غير ياء . أي : إن رأيت من البشر أحداً فقولي ؛ وفيه إضمار تقديره : فسألك عن أمر ولدك . (فقولي إنّي نذرتُ للرحمن صوماً) فيه قولان .

(١) « مختار الشعر الجاهلي » : ٣٦٢/٢ ، « اللسان » : قرر .

أحدهما : صمتاً ، قاله ابن عباس ، وأنس بن مالك ، والضحاك ؛ وكذلك قرأ أبي بن كعب ، وأنس بن مالك ، وأبورزین العقيلي : « صمتاً » مكان قوله : « صوماً » . وقرأ ابن عباس : صياماً ^(۱) .

والثاني : صوماً عن الطعام والشراب والكلام ، قاله قتادة . وقال ابن زيد : كان المجتهد من بني إسرائيل يصوم عن الكلام كما يصوم عن الطعام ، إلا من ذكر الله عز وجل . قال السدي : فأذن لها أن تتكلم بهذا القدر ثم تسكت . قال ابن مسعود : أمرت بالصمت ، لأنها لم تكن لها حجة عند الناس ، فأمرت بالكف عن الكلام ليكفيها الكلام ولدها مما يُبرئ به ساحتها . وقيل : كانت تُكلم الملائكة ولا تكلم الإنس . قال ابن الأنباري : الصوم في لغة العرب على أربعة معانٍ ، يقال : صوم لترك الطعام والشراب ، وصوم للصمت ، وصوم لضرب من الشجر ، وصوم لدرق النعام .

واختلف العلماء في مقدار سنِّ مریم يوم ولادتها على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها وُلدت وهي بنت خمس عشرة سنة ، قاله وهب بن منبه .

والثاني : بنت اثني عشرة سنة ، قاله زيد بن أسلم .

والثالث : بنت ثلاث عشرة سنة ، قاله مقاتل .

﴿ فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيئًا . يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي صَبِيًّا . ﴾

(۱) وفي النسخة الاستنبولية : وقرأ ابن مسعود : « وصياماً » والذي في « البحر المحيط »

و « روح المعاني » وقرأ زيد بن علي « صياماً » . زاد المسير ۵ م (۱۵)

مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا .
وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْمَعْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ
وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿

قوله تعالى : (فَأنت به قومها تحمله) قال ابن عباس في رواية أبي صالح :
أتهم به بعد أربعين يوماً حين طهرت من نقاسها . وقال في رواية الضحاك : انطلق
قومها يطلبونها ، فلما رأتهم حملت عيسى فنلقنهم به ، فذلك قوله تعالى : (فَأنت
به قومها تحمله) .

فان قيل : « أنت به » يعني عن « تحمله » فلا فائدة للتكرير .

فالجواب : أنه لما ظهرت منه آيات ، جاز أن يتوهم السامع « فَأنت به » أن
يكون ساعياً على قدميه ، فيكون سعيه آيةً كمنطقه ، فقطع ذلك التوهم ، وأعلم
أنه كسائر الأفعال ، وهذا مثل قول العرب : نظرت إلى فلان بعيني ، فنفواً
بذلك نظر العطف ؛ والرحمة ، وأثبتوا [أنه] نظر عَيْنٍ . وقال ابن السائب : لما دخلت
على قومها بكوا ، وكانوا قوماً صالحين ؛ و (قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً)
وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : شيئاً عظيماً ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقادة . قال الفراء :
الفري : العظيم ، والعرب تقول : تركته يفري الفري ، إذا عمل فأجاد العمل
ففضل الناس ، قيل هذا فيه ، قال النبي ﷺ : « فما رأيت عبقرياً يفري فرياً
عمر » (۱) .

والثاني : عجباً فائقاً ، قاله أبو عبيدة .

والثالث : شيئاً مصنوعاً ، ومنه يقال : فريت الكذب ، واقتريته ، قاله اليزيدي .

(۱) البخاري : ۳۶/۷ ، وم-لم : ۱۸۶۲/۴ ، ومناه : لم أر سيداً يعمل عمله وينقطع قطعه .

قوله تعالى : (يا أخت هارون) في المراد بهارون هذا خمسة أقوال .
 أحدها : أنه أخ لها من أمها ، وكان من أمثل فتى في بني إسرائيل ، قاله
 أبو صالح عن ابن عباس . وقال الضحاك : كان من أيها وأمتها .
 والثاني : أنها كانت من بني هارون ، قاله الضحاك عن ابن عباس . وقال
 السدي : كانت من بني هارون أخي موسى عليها السلام ، فُدُسبت إليه ، لأنها
 من ولده .

والثالث : أنه رجل صالح كان في بني إسرائيل ، فشبَّهوها به في الصلاح ،
 وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً ، وقتادة ، ويدل عليه ماروى المغيرة بن شعبة
 قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران ، فقالوا : ألسم تقرأون : « يا أخت
 هارون » وقد علمت ما كان بين موسى وعيسى ؟ فلم أدري ما أجيبهم ، فرجعت إلى
 رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأنبيائهم
 والصالحين قبلهم » (١) .

والرابع : أن قوم هارون كان فيهم فساق وزناة ، فنسبوا إليهم ، قاله
 سعيد بن جبیر .

والخامس : أنه رجل من فساق بني إسرائيل شبَّهوها به ، قاله وهب بن منبه .

(١) وعلى هامش نسخة الرباط : أخرجه مسلم في صحيحه ، ومن طريقه البغوي في
 شرح السنة ، في كتاب الاستئذان في باب التسمية باسم النبي ﷺ . وهو في مسلم في
 كتاب الآداب ، باب النهي عن النكبي بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء (١٦٨٥/٣) بمعناه ،
 ورواه أحمد في المسند : ٢٥٢/٤ ، ولفظه قريب من رواية المصنف ، ورواه الترمذي في
 التفسير : (١٤٤/٢) ، وأورده السيوطي في الدر المنثور ، وزاد نسبه لابن أبي شيبة ،
 وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والطبراني ، وابن مردويه ،
 والبيهقي في الدلائل .

فعلی هذا یخرج فی معنی « الأخت » قولان .

أحدهما : أنها الأخت حقيقة . والثاني : المشابهة ، لا المناسبة ، كقوله

تعالی : (وما نریهم من آية إلهی أكبر من أختها) [الزخرف : ۴۸] .

قوله تعالی : (ما كان أبوک) یمنون : عمران (امرأ سوء) أي : زانیاً

(وما كانت أمک) حنة (بغیاً) أي : زانیة ، فمن أين لك هذا الولد ؟ !

قوله تعالی : (فأشارت) أي : أومأت (إليه) أي : إلى عیسی فتکلم . وقیل

المعنی : أشارت إليه أن کلموه . وكان عیسی قد کلمها حين أنت قومها ، وقال :

یا أماه أبشری فانی عبد الله ومسیحه ، فلما أشارت أن کلموه ، تعجبوا من ذلك ،

و (قالوا کیف نکلم من كان) وفيها ^(۱) أربعة أقوال .

أحدها : أنها زائدة ، فالمعنی : کیف نکلم صیباً فی المهد ؟ !

والثاني : أنها فی معنی : وقع ، وحدث .

والثالث : أنها فی معنی الشرط والجزاء ، فالمعنی : من یکن فی المهد

صیباً ، فکیف نکلمه ؟ ! حکاها الزجاج ، واختار الأخير منها ؛ قال ابن الأنباری :

وهذا كما تقول : کیف أعظ من كان لا یقبل موعظتی ؟ ! أي : من یکن لا یقبل ،

والماضي یكون بمعنی المستقبل فی الجزاء .

والرابع : أن « كان » بمعنی : صار ، قاله قطرب .

وفي المراد بالمهد قولان . أحدهما : حجرتها ، قاله توف ، وقتادة ، والکلبی .

والثاني : سریر الصبی المعروف ، حکاه الکلبی أيضاً .

قال السدی : فلما سمع عیسی کلامهم ، لم یزد علی أن ترک الرضاع ، وأقبل

عایهم بوجهه ، فقال : إني عبد الله . قال المفسرون : إنا قدم ذکر البوذية ،

لیبطل قول من ادعی فیہ الربویة .

(۱) أي : لفظه « كان » .

وفي قوله : (آتاني الكتاب) أسكن هذه الياء حمزة . وفي معنى الآية قولان .

أحدهما : أنه آتاه الكتاب وهو في بطن أمه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .
وقيل : علم التوراة والإنجيل وهو في بطن أمه .

والثاني : قضى أن يؤتيني الكتاب ، قاله عكرمة .

وفي « الكتاب » قولان . أحدهما : أنه التوراة . والثاني : الإنجيل .

قوله تعالى : (وجعلني نبياً) هذا وما بعده إخبار عما قضى الله له وحكم له به ومنحه إيَّاه مما سيظهر ويكون . وقيل : المعنى : يؤتيني الكتاب ويجعلني نبياً إذا بلغت ؛ فحلَّ الماضي محلَّ المستقبل ، كقوله تعالى : (وإذ قال الله يا عيسى) [المائدة : ۱۱۶] .

وفي وقت تكليمه لهم قولان .

أحدهما : أنه كلمهم بعد أربعين يوماً . والثاني : في يومه . وهو مبنيُّ على ما ذكرنا من الزمان الذي غابت عنهم فيه مریم .

قوله تعالى : (وجعلني مباركاً أينما كنتُ) روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ في هذه الآية قال : « نفاعاً حيثما توجهت »^(۱) . وقال مجاهد : معلماً للخير .

وفي المراد « بالزكاة » قولان .

أحدهما : زكاة الأموال ، قاله ابن السائب . والثاني : الطهارة ، قاله الزجاج .

(۱) في الطبري وابن كثير عن مجاهد : نفاعاً . وقال السيوطي في « الدر » ۴/ ۲۷۰ : أخرج الاسماعيلي في « معجمه » ، وأبو نعيم في « الحلية » ، وابن لال في « مكارم الأخلاق » ، وابن مردويه ، وابن النجار في « تاريخه » ، عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « قول عيسى عليه السلام : وجعلني مباركاً أينما كنت ، قال : جعلني نفاعاً للناس أين توجهت » .

قوله تعالى : (وِبَرًّا بِوَالِدَيْهِ) قال ابن عباس : لما قال هذا ، ولم يقل : « بوالدي » علموا أنه ولد من غير بشر .

قوله تعالى : (ولم يجعلني جباراً) أي : متعظياً (شقيماً) عاصياً لربه (والسلام عليّ يوم وُلدتُ) قال المفسرون : السلامة عليّ من الله يوم وُلدتُ حتى لم يضرني شيطان . وقد سبق تفسير الآية [مریم : ۱۵] .
فان قيل : لم ذكر هاهنا « السلام » بألف ولام ، وذكره في قصة يحيى بلا ألف ولام ؟ فنه جوابان .

أحدهما : أنه لما جرى ذكر السلام قبل هذا الموضع بغير ألف ولام ، كان الأحسن أن يرد ثانية بألف ولام ، هذا قول الزجاج .
وقد اعترض على هذا القول ، فقيل : كيف يجوز أن يطف هذا وهو قول عيسى ، على الأول وهو قول الله عز وجل ؟ !

وقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال : عيسى إنما تعلم من ربه ، فيجوز أن يكون سمع قول الله في يحيى ، فبنى عليه وألصقه بنفسه ، ويجوز أن يكون الله عز وجل عرف السلام الثاني لأنه أتى بعد سلام قد ذكره ، وأجراه عليه غير قاصد به إنباع اللفظ المحكي ، لأن المتكلم له أن يغير بعض الكلام الذي يحكيه ، فيقول : قال عبد الله : أنا رجل منصف ، يريد : قال لي عبد الله : أنت رجل منصف .

والجواب الثاني : أن سلاماً والسلام لفتان بمعنى واحد ، ذكره ابن الأنباري .

﴿ ذَلِكْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ .
 مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ
 لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ
 مُسْتَقِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ذلك عيسى بن مریم) قال الزجاج : أي ، ذلك الذي قال :
 إني عبد الله ، هو ابن مریم ، لا ماتقول النصارى : إنه ابن الله ، وإنه إله .
 قوله تعالى : (قول الحق) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وحمزة ،
 والكسائي : « قول الحق » برفع اللام . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، ويعقوب :
 بنصب اللام . قال الزجاج : من رفع « قول الحق » فالمعنى : هو قول الحق ،
 يعني هذا الكلام ؛ ومن نصب ، فالمعنى : أقول قول الحق . وذكر ابن الأنباري
 في الآية وجهين .

أحدهما : أنه لما وُصف بالكلمة جاز أن يُنعت بالقول .

والثاني : أن في الكلام إضماراً ، تقديره : ذلك نبأ عيسى ، ذلك النبا قول الحق .
 قوله تعالى : (الذي فيه يمترون) أي : يشكّون . قال قتادة : امترت
 اليهود فيه والنصارى ، فزعم اليهود أنه ساحر ، وزعم النصارى أنه ابن الله
 وثالث ثلاثة . قرأ أبو مجلز ، ومعاذ القاري ، وابن يعمر ، وأبو رجاء :
 « تمترن » بالتاء .

قوله تعالى : (ما كان لله أن يتخذ من ولد) قال الزجاج : المعنى : أن
 يتخذ ولداً . و « من » مؤكدة تدل على نفي الواحد والجماعة ، لأن للقائل أن
 يقول : ما اتخذت فرساً ، يريد : اتخذت أكثر من ذلك ، وله أن يقول :

ما اتخذت فرسين ولا أكثر ، يريد : اتخذت فرساً واحداً ؛ فاذا قال : ما اتخذت من فرس ، فقد دلّ على نفي الواحد والجميع .

قوله تعالى : (كن فيكون) وقرأ أبو عمران الجوني ، وابن أبي عمير : « فيكون » بالنصب ، وقد ذكرنا وجهه في (البقرة : ۱۱۷) .

قوله تعالى : (وإن الله ربي وربكم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « وأن الله » بنصب الألف . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي :

« وإن الله » بكسر الألف . وهذا من قول عيسى ؛ فن فتح ، عطفه على قوله : (وأوصاني بالصلاة والزكاة) وبأن الله ربي ؛ ومن كسر ، ففيه وجهان .

أحدهما : أن يكون معطوفاً على قوله : (إني عبد الله) .

والثاني : أن يكون مستأنفاً .

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ . أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَّا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (فاختلف الأحزاب من بينهم) قال المفسرون : « من »

زائدة ، والمعنى : اختلفوا بينهم . وقال ابن الأنباري : لما تمسك المؤمنون بالحق ،

كان اختلاف الأحزاب بين المؤمنين مقصوداً عليهم .

وفي الأحزاب قولان .

أحدهما : أنهم اليهود والنصارى ، فكانت اليهود تقول : إنه لغير رشدة^(۱) ،

والنصارى تدعى فيه ما لا يليق به .

(۱) يقال : هذا ولد رشدة ؛ إذا كان لنكاح صحيح ، ويقال في ضده : ولد زنية .

والثاني : أنهم فِرَقَ النصارى ، قال بعضهم : هو الله ، وقال بعضهم : ابن الله ، وقال بعضهم : ثالث ثلاثة .

قوله تعالى : (فويل للذين كفروا) بقولهم في المسيح (من مَشْهَدِ يَوْمِ عَظِيمٍ) أي : من حضورهم ذلك اليوم للجزاء .

قوله تعالى : (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ) فيه قولان .

أحدهما : أن لفظه لفظ الأمر ، ومعناه الخبر ؛ فالعنى : ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة ، سمعوا وأبصروا حين لم ينفعهم ذلك لأنهم شاهدوا من أمر الله ما لا يحتاجون معه إلى نظر وفكر فعملوا الهدى وأطاعوا ، هذا قول الأكثرين .
والثاني : أَسْمِعْ بحدیثهم اليوم ، وَأَبْصِرْ كيف يُصْنَعُ بهم (يوم يأتوننا) ، قاله أبو العالية .

قوله تعالى : (لكن الظالمون) يعني : المشركين والكفار (اليوم) يعني : في الدنيا (في ضلال مبین) .

قوله تعالى : (وأُنذِرْهُمْ) أي : خوف كفار مكة (يوم الحسرة) يعني : يوم القيامة يتحسر المسيء إذ لم يُحَسِّنْ ، والمقصر إذ لم يَزِدْ من الخير .

وموجبات الحسرة يوم القيامة كثيرة ، فمن ذلك ما روى أبو سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، قيل : يا أهل الجنة ، فيشرئبون ^(۱) وينظرون ، وقيل : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيُجاء بالموت كأنه ككباش أملح ، فيقال لهم : هل تعرفون هذا ؟

(۱) يشرئبون : يرفعون رؤوسهم إلى النادي .

فیعولون : هذا الموت ، فیذبح ، ثم یقال : یا أهل الجنة خلود فلا موت ، ویا أهل النار خلود فلا موت ؛ ثم قرأ رسول الله ﷺ : (وأنذِرهم یومَ الحسرةِ إذْ تُقضى الأمرُ وهم فی غفلةٍ وهم لا یؤمنون) « (۱) .

قال المفسرون : فهذه هي الحسرة إذا ذُبح الموت ، فلو مات أحد فرحاً مات أهل الجنة ، ولو مات أحد حزناً مات أهل النار .

ومن موجبات الحسرة ، ما روى عدي بن حاتم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « یؤتی یومَ القيامة بناسٍ إلى الجنة ، حتی إذا دنوا منها واستنشقوا ریحها ونظروا إلى قصورها ، نودوا : أن اصرفوهم عنها ، لا نصیب لهم فیها ، فیرجعون بحسرةٍ ما رجَعَ الاؤلؤون بثملها ، فیعولون : یاربنا لو أدخلتنا النار قبل أن تُرینا ما أریتنا كان أهون علينا ؛ قال : ذلك أردتُ بكم ، كنتم إذا خلوتُمُ بارزتمونی بالمعظائم ، وإذا لقیم الناس لقیموم محبتین ، تراوون الناس بخلاف ما تعطونی من قلوبکم ، هبتم الناس ولم تهابونی ، وأجلتم الناس ولم تُجلثونی ، ترکتم للناس ولم تتركوا لی ، فالیوم أذیقکم العذاب مع ما حرمتکم من الثواب (۲) .

ومن موجبات الحسرة ما روى عن ابن مسعود قال : لیس من نفس یوم القيامة إلا وهي تنظر إلى بیت فی الجنة ، ویت فی النار ، ثم یقال : یعنی لهؤلاء : لو عملتم ، ولأهل الجنة : لولا أن من الله علیکم .

(۱) رواه أحمد فی « المسند » : ۹/۳ ، والبخاری : ۳۲۵/۸ ، ومسلم : ۴۱۸۸/۴ ، والترمذی ۱۴۴/۲ وقال : هذا حدیث حسن صحیح ، وأورده السيوطی فی « الدر » : ۲۷۱/۴ وزاد نسبه لسید بن منصور ، وعبد بن حمید ، والنسائی ، وأبی یعلی ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، وابن مردويه .

(۲) ذكره الحافظ المنذري فی « الترغیب والترهیب » ، باب الترهیب من الریاء من رواية الطبرانی فی « الكبير » ، والبیهقی ، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه .

ومن موجبات الحسرة : قطع الرجاء عند إطباق النار على أهلها .

قوله تعالى : (إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ) قال ابن الأنباري : « قُضِيَ » في اللغة بمعنى : أُنقِضَ وأُحْكِمَ ، وإِنَّمَا سَمِّيَ الْحَاكِمَ قَاضِيًا ، لِإِتْقَانِهِ وَإِحْكَامِهِ مَا يَنْفَعُ . وفي الآية اختصار ، والمعنى : إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ هَلَاكُهُمْ .

وللمفسرين في الأمر قولان .

أحدهما : أَنَّهُ ذَبِحَ الْمَوْتَ ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَالسُّدِّيُّ . وَالثَّانِي : أَنَّ الْمَعْنَى : قُضِيَ الْعَذَابُ لَهُمْ ، قَالَ مِقَاتِلٌ .

قوله تعالى : (وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ) أَي : هُمْ فِي الدُّنْيَا فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ (وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) بِمَا يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ .

قوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّاتُ الْأَرْضِ) أَي : « نُنْمِتُ سَكَّانَهَا فَتَرُثُهَا (وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ) بَعْدَ الْمَوْتِ .

فان قيل : ما الفائدة في « نحن » وقد كفت عنها « إِنَّا » ؟

فالجواب : أَنَّهُ لَمَّا جَازَ فِي قَوْلِ الْمُعْظَمِ : « إِنَّا نَفْعَلُ » أَنَّ يَوْمَهُمْ أَنَّ أَتْبَاعَهُ فَعَلُوا ، أَبَانَ « نَحْنُ » أَنَّ الْفِعْلَ مُضَافٌ إِلَيْهِ حَقِيقَةٌ .

فان قيل : فلم قال : « وَمَنْ عَلَيْهَا » وهو يرث الآدميين وغيرهم ؟

فالجواب : أَنَّ « مَنْ » تَخْتَصُّ أَهْلَ التَّمْيِيزِ ، وَغَيْرُ الْمُمَيِّزِينَ يَدْخُلُونَ فِي مَعْنَى

الارض ويجرون مجراها ، ذكر الجوابين عن السؤالين ابن الأنباري .

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا .

يَا أَبْتَ إِيَّيْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ
صِرَاطًا سَوِيًّا . يَا أَبْتَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ
لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا . يَا أَبْتَ إِيَّيْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا . قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْبِ يَا إِبْرَاهِيمُ
لَئِنْ لَمْ نَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا . قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ
سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا . وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي عسىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا .
فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْجُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَكَوَلًا جَعَلْنَا نَبِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ
لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿

قوله تعالى : (واذكر في الكتاب إبراهيم) أي : اذكر لقومك قصته .

وقد سبق معنى الصِّدِّيقِ [في النساء : ۶۹] .

قوله تعالى : (ولا يغني عنك شيئاً) أي : لا يدفع عنك ضرراً .

قوله تعالى : (إني قد جاءني من العلم) بالله والمعرفة (ما لم يأتك) .

قوله تعالى : (لا تعبد الشيطان) أي : لا تطعه فيما يأمر به من الكفر

والمعاصي . وقد شرحنا معنى « كان » آنفاً . و (عَصِيًّا) أي : عاصياً ، فهو

« فِعْلٌ » بمعنى « فاعل » .

قوله تعالى : (إني أخاف أن يمسَّكَ عذاب من الرحمن) قال مقاتل : في

الآخرة ؛ وقال غيره : في الدنيا ، (فتكون للشيطان ولياً) أي : قريناً في عذاب الله ،

فجرت المقارنة بحرى الموالاة . وقيل : إنما طمع إبراهيم في إيمان أبيه ، لأنه

حين خرج من النار قال له : نِعِمَّ الْإِلَٰهَ إِلَٰهَكَ يَا إِبْرَاهِيمَ ، فحينئذ أقبل يعظه ، فأجابه أبوه : (أرأيت أنتَ عن آلهتي يا إبراهيم) أي : أتارك عبادتها أنت ؟ (لئن لم تنته) عن عيها وشتها (لأرجمك) وفيه قولان .

أحدهما : بالشم والقول ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : بالحجارة حتى تتباعد عني ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (واهجرني ملياً) فيه قولان .

أحدهما : اهجرني طويلاً ، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس ، وبه قال

الحسن ، والفرّاء ، والأكثرون . قال ابن قتيبة : اهجرني حيناً طويلاً ، ومنه يقال : تملّيت حبيبك .

والثاني : اجتنبي سالماً قبل أن تصيبك عقوبتي ، رواه العوفي عن ابن عباس ،

وبه قال قتادة ، والضحاك ؛ فعلى هذا يكون من قولهم : فلان مليٌّ بكذا وكذا :

إذا كان مضطماً به ، فالمعنى : اهجرني وعرضك وافر ، وأنت سليم من أذاي ،

قاله ابن جرير .

قوله تعالى : (قال سلام عليك) أي : سلّمت من أن أصيبك بكروه ،

وذلك أنه لم يؤمر بقتاله على كفره ، (سأستغفر لك ربّي) فيه قولان .

أحدهما : أن المعنى : سأسأل الله لك توبةً تنال بها مغفرته .

والثاني : أنه وعده الاستغفار وهو لا يعلم أن ذلك محظور في حقّ المُصرّين

على الكفر ، ذكرها ابن الأنباري .

قوله تعالى : (إنه كان بي حفيئاً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدهما : لطيفاً ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال ابن زيد ، والزجاج .

والثاني : رحيماً ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : بارئاً عودني منه الإجابة إذا دعوته ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (وَأَعْتَزِلْكُمْ) أي : وأنتحى عنكم ، (و) أعتزلُ (ما تدعون من دون الله) يعني : الأصنام .

وفي معنى « تَدْعُونَ » قولان .

أحدهما : تَعْبُدُونَ .

والثاني : أن المعنى : وما تدعونه رباً ، (وأدعو ربِّي) أي : وأعبده (عسى ألا أكون بدعاء ربِّي شقياً) أي : أرجو أن لا أشقى بعبادته كما شَقِيتُمْ أنتم بعبادة الأصنام ، لأنها لا تفهم ولا تُجيب دعاءهم (فلما اعتزلهم) قال المفسرون : هاجر عنهم إلى أرض الشام ، فوهب الله له إسحاق ويعقوب ، فأنس الله وحشته عن فراق قومه بأولادٍ كرامٍ . قال أبو سليمان : وإنما وهب له إسحاق ويعقوب بعد إسماعيل .

قوله تعالى : (وكلاً) أي : وكلاً من هذين . وقال مقاتل : « وكلاً »

يعني : إبراهيم وإسحاق ويعقوب (جعلناه نبياً) .

قوله تعالى : (ووهبنا لهم من رحمتنا) قال المفسرون : المال والولد والعلم والعمل ، (وجعلناهم لسان صدق علياً) قال ابن قتيبة : أي : ذكراً حسناً في الناس مرتفعاً ، فجميع أهل الأديان يتولون إبراهيم وذريته ويثنون عليهم ، فوضع اللسان مكان القول ، لأن القول يكون باللسان ^(۱) .

(۱) في عبارة الأصل هنا تقديم وتأخير ، وهذا نصها : [(وجعلنا لهم لسان صدق) —

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا . وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾

قوله تعالى : (إنه كان مخلصاً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والمفضل عن عاصم : « مُخْلِصًا » بكسر اللام . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم بفتح اللام . قال الزجاج : المُخْلِص ، بكسر اللام : الذي وحد الله ، وجعل نفسه خالصة في طاعة الله غير دنيسة ، والمُخْلَص ، بفتح اللام : الذي أخلصه الله ، وجعله مختاراً خالصاً من الدنوس .

قوله تعالى : (وكان رسولاً) قال ابن الأنباري : إنما أعاد « كان » لتفخيم شأن النبي المذكور .

قوله تعالى : (وناديناه من جانب الطور) أي : من ناحية الطور ، وهو جبل بين مصر ومدين اسمه زبير . قال ابن الأنباري : [إنما] خاطب الله العرب بما يستعملون في لغتهم ، ومن كلامهم : عن يمين القبلة وشمالها ، يعنون : مما يلي يمين المستقبل لها وشماله ، فنقلوا الوصف إلى ذلك اتساعاً عند انكشاف المعنى ، لأن الوادي لا يد له فيكون له يمين . وقال المفسرون : جاء النداء عن يمين موسى ، فهذا قال : « الأيمن » ، ولم يُرد به يمين الجبل .

قوله تعالى : (وقرَّبناه نجياً) قال ابن الأنباري : معناه : مناجياً ، فعبّر

— أي : ذكراً حسناً في الناس مرتفعاً ، فجميع أهل الأديان بتوالتون إبراهيم وذريته ويؤمنون عليهم ، قال ابن قتيبة : فوضع اللسان مكان القول ، لأن القول يكون باللسان . اهـ [وابن قتيبة لم يقل سوى هذه العبارة : « أي : ذكراً حسناً في الناس مرتفعاً » ، فقد منّا جملة « قال ابن قتيبة » على قوله ، حتى تستقيم العبارة .

« فَعِيلٌ » عن « مُفَاعِيلٍ ، كما قالوا : فلان خليطي وعشيري : يعنون : مخالطي ومُعاشري . وروى سعيد بن جبیر عن ابن عباس في قوله : « وقرَّبناه » قال : حتى سمع صريف القلم حين كتب له في الألواح .

قوله تعالى : (ووهبنا له من رحمتنا) أي : من نعمتنا عليه إذ أجبنا دعاءه حين سأل أن يجعل معه أخاه وزيراً له .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا . وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا . وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾

قوله تعالى : (إنه كان صادق الوعد) هذا عام فيما بينه وبين الله ، وفيما بينه وبين الناس . وقال مجاهد : لم يعد ربه بوعده قط إلا وفى له به . فان قيل : كيف خص بصدق الوعد إسماعيل ، وليس في الأنبياء من ليس كذلك ؟

فالجواب : أن إسماعيل عانى [في الوفاء] بالوعد ما لم يعاناه غيره من الأنبياء ، فأثني عليه بذلك . وذكر المفسرون : أنه كان بينه وبين رجل ميعاد ، فأقام ينتظره مدة فيها لهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أقام حوَّلاً ، قاله ابن عباس . والثاني : اثنين وعشرين يوماً ، قاله الرقاشي . والثالث : ثلاثة أيام ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (وكان رسولاً) إلى قومه ، وم جرهم . (وكان يأمر أهله) قال مقاتل : يعني : قومه . وقال الزجاج : أهله : جميع أمته . فأما الصلاة والزكاة ، فهما العبادتان المعروفتان .

قوله تعالى : (ورفعناه مكاناً عليّاً) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه في السماء الرابعة ، روى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث مالك بن صعصعة عن رسول الله ﷺ في حديث المعراج : أنه رأى إدريس في السماء الرابعة ^(١) ، وبهذا قال أبو سعيد الخدري ، ومجاهد ، وأبو العالية .
والثاني : أنه في السماء السادسة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك ^(٢) .

والثالث : أنه في الجنة ، قاله زيد بن أسلم ، وهذا يرجع إلى الأول ، لأنه قد روي أن الجنة في السماء الرابعة .

والرابع : أنه في السماء السابعة ، حكاه أبو سليمان الدمشقي ^(٣) .
وفي سبب صعوده إلى السماء ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان يصعد له من العمل مثل ما يصعد لجميع بني آدم ، فأحبه ملك الموت ، فاستأذن الله في خلته ، فأذن له ، فهبط إليه في صورة آدمي ،

(١) البخاري : ٢١٧/٦ ، ومسلم : ١٥٠/١ .

(٢) وعلى هامش نسخة الرباط بخط مغربي : أخرج الحاكم في « المستدرک » - وقال الذهبي :

إسناده مظلم لا تقوم به حجة - ، عن الحسن بن سمرة أنه قال : كان نبي الله إدريس أبيض طويلاً ، ضخماً البطن ، عريض الصدر ، قليل شعر الجسد ، كثير شعر الرأس ، وكانت إحدى عينيه أعظم من الأخرى ، وكان في صدره نكتة بيضاء من غير برص ، فلما رأى الله من أهل الأرض ما رأى من جورهم واعتدائهم في أمر الله ، رفعه إلى السماء السادسة [فهو] حيث يقول : (ورفعناه مكاناً عليّاً) [مريم : ٥٧] ، فهذا يدل على فرض صحته أنه رفع حياً ، والله أعلم أنتى ذلك كان . ا . هـ . والحديث في « المستدرک » : (٥٤٩/٢) .

(٣) والقول الأول هو الصحيح .

زاد المسير ٥ م (١٦)

وكان بصحبه ، فلما عرفه ، قال : إني أسألك حاجة ، قال : ماهي ؟ قال :
 تذيقي الموت ، فلهلبي أعلم ماشدته فأكون له أشد استعداداً ؛ فأوحى الله إليه
 أن اقبض روحه ساعة ثم أرسله ، ففعل ، ثم قال : كيف رأيت ؟ قال : كان أشد
 مما بلغتني عنه ، وإني أحب أن تربني النار ، قال : فحمله ، فأراه إياها ؛ قال : إني
 أحب أن تربني الجنة ، فأراه إياها ، فلما دخلها وطاف فيها ، قال له ملك الموت :
 اخرج ، فقال : والله لا أخرج حتى يكون الله تعالى يخرجني ؛ فبعث الله ملكاً
 فحكم بينهما ، فقال : ما تقول يا ملك الموت ؟ فقص عليه ماجرى ؛ فقال : ما تقول
 يا إدریس ؟ قال : إن الله تعالى قال : (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) [آل عمران: ١٨٥] ،
 وقد ذقتُه ، وقال : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) [مریم: ٧١] ، وقد وردتُها ، وقال
 لأهل الجنة : (وما هم منها بمُخْرَجِينَ) [الحجر: ٤٨] ، فوالله لا أخرج حتى
 يكون الله يخرجني ؛ فسمع هاتفاً من فوقه يقول : باذني دخل ، وبأمري فعل ،
 فخل سبيله ؛ هذا معنى مارواه زيد بن أسلم مرفوعاً إلى النبي ﷺ^(١) .

فان سأل سائل فقال : من أين لإدریس هذه الآيات ، وهي في كتابنا ؟ !
 فقد ذكر ابن الأباري عن بعض العلماء ، قال : كان الله تعالى قد أعلم إدریس
 بما ذكر في القرآن من وجوب الورود ، وامتناع الخروج من الجنة ، وغير ذلك ،
 فقال ما قاله بعلم .

والثاني : أن ملكاً من الملائكة استأذن ربه أن يهبط إلى إدریس ، فأذن له ،
 فلما عرفه إدریس ، قال : هل بينك وبين ملك الموت قرابة ؟ قال : ذاك أخي
 من الملائكة ، قال : هل تستطيع أن تنفعي عند ملك الموت ؟ قال : سأكلمه فيك ،

(١) ذكر السيوطي في الدر ، : ٢٧٤/٤ بهذا المعنى خبراً طويلاً ، من رواية ابن المنذر

عن عمر مولى عفرة يرفع الحديث إلى النبي ﷺ ، والله أعلم بصحته .

فیرفق بك ، اركب بين جناحيّ ، فركب إدريس ، فصعد به إلى السماء ، فلقى ملك الموت ، فقال : إن لي إليك حاجة ، قال : أعلم ما حاجتك ، تكلمني في إدريس وقد عي اسمه من الصحيفة ولم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين ؟ فات إدريس بين جناحي الملك ، رواه عكرمة عن ابن عباس^(۱) . وقال أبو صالح عن ابن عباس : فقبض ملك الموت روح إدريس في السماء السادسة .

والثالث : أن إدريس مشى يوماً في الشمس ، فأصابه وهجها ، فقال : اللهم خفف ثقلها عمن يحملها ، يعني به الملك الموكل بالشمس ، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرّها ما لا يعرف ، فسأل الله عز وجل عن ذلك ، فقال : إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرّها ، فأجبتّه ، فقال : يارب اجمع بيني وبينه ، واجمل بيننا خلّة ، فأذن له ، [فاتاه] ، فكان مما قال له إدريس : اشفع لي إلى ملك الموت ليؤخّر أجلي ، فقال : إن الله لا يؤخّر نفساً إذا جاء أجلها ، ولكن أكلّمه فيك ، فما كان مستطيماً أن يفعل بأحد من بني آدم فعل بك ، ثم حمله الملك على جناحه ، فرفعه إلى السماء ، فوضعه عند مطلع الشمس ، ثم أتى ملك الموت فقال : إن لي إليك حاجة صديق لي من بني آدم تشفع بي إليك لتؤخّر أجله ، قال : ليس ذلك إليّ ، ولكن إن أحببت أعلمته متى يموت ، فنظر في ديوانه ، فقال : إنك كلتني في إنسان ما أراه يموت أبداً ، ولا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس ، فقال : إني أنبتك وتركته هناك ، قال : انطلق ، فما أراك تجده إلا ميتاً ، فوالله ما بقي من أجله شيء ، فرجع الملك فرآه ميتاً . وهذا المعنى مروى عن ابن عباس وكتب في آخرين^(۲) . فهذا القول والذي قبله بدلان على أنه ميت ، والقول الأول يدل على أنه حيّ .

(۱) ذكره السيوطي في « الدر » : ۲۷۴/۴ من رواية ابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(۲) قالان كثير بعد أن ذكر نحوه : هذا من أخبار كعب بن الاسرائيليات ، وفي بعضه نكارة ، والله أعلم .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ
وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا
وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا .
فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ
فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا . جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ
الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا . لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا
لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا . نِجَاتِ الْجَنَّةِ
الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا . وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ
رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
نَسِيًّا . رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ
لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾

قوله تعالى : (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين) يعني الذين ذكروا من
الأنبياء في هذه السورة (من ذرية آدم) يعني إدريس (وممن حملنا مع نوح)
يعني إبراهيم ، لأنه من ولد سام بن نوح (ومن ذرية إبراهيم) يريد : إسماعيل
وإسحاق ويعقوب (وإسرائيل) يعني : ومن ذرية إسرائيل ، وموسى وهارون
وزكريا ويحيى وعيسى .

قوله تعالى : (وممن هدينا) أي : هؤلاء كانوا ممن أرشدنا ، (واجتبتنا)
أي : واصطفينا .

قوله تعالى : (خروا سجداً) قال الزجاج : « سجداً » حال مقدرة ،
المنى : خروا مقدرين السجود ، لأن الإنسان في حال خروره لا يكون ساجداً ،

فـ « سَجَّدًا » منصوب على الحال ، وهو جمع ساجد (وَبُكِيًّا) معطوف عليه ، وهو : جمع باكٍ ، فقد يَبْكُ الله تعالى أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا آيات الله سجدوا وَبَكَوْا من خشية الله .

قوله تعالى : (فَخَلَفَ مِنْ بَدَمٍ خَلْفٌ) قد شرحناه في (الأعراف : ١٦٩) .
وفي المراد بهذا الخَلْفُ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم اليهود ، رواه الضحاك عن ابن عباس . والثاني : اليهود والنصارى ، قاله السدي . والثالث : أنهم من هذه الأمة ، يأتون عند ذهاب صالحى أمة محمد ﷺ يَبَارُونَ بالزنا ، ينزو بعضهم على بعض في الأزقة زناة ، قاله مجاهد ، وقتادة .

قوله تعالى : (أضعوا الصلاة) وقرأ ابن مسعود ، وأبو رزين العقيلي ، والحسن البصري : « الصلوات » على الجمع .

وفي المراد باضعاتهم إياها قولان .

أحدهما : أنهم أخروها عن وقتها ، قاله ابن مسعود ، والنخعي ، وعمر بن عبد العزيز ، والقاسم بن مخيمرة .

والثاني : تركوها ، قاله القرظي ، واختاره الزجاج .

قوله تعالى : (واتَّبَعُوا الشهوات) قال أبو سليمان الدمشقي : وذلك مثل استماع الغناء ، وشرب الخمر ، والزنا ، واللهو ، وما شاكل ذلك مما يقطع عن أداء فرائض الله عز وجل .

قوله تعالى : (فسوف يلقون غيًّا) ليس معنى هذا اللقاء مجرد الرؤية ، وإنما المراد به الاجتماع والملابسة مع الرؤية .

وفي المراد بهذا النعي ستة أقوال .

أحدها : أنه وادٍ في جهنم ، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ^(١) ، وبه قال كعب . والثاني : أنه نهر في جهنم ، قاله ابن مسعود . والثالث : أنه الخسران ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والرابع : أنه العذاب ، قاله مجاهد . والخامس : أنه الشر ، قاله ابن زيد ، وابن السائب . والسادس : أن المعنى : فسوف يلقون مجازاة النعي ، كقوله : (يلقَ أثاماً) [الفرقان : ٦٨] أي : مجازاة الآثام ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (إلا من تاب وآمن) فيه قولان .

أحدهما : تاب من الشرك ، وآمن بمحمد ﷺ ، قاله مقاتل .

والثاني : تاب من التقصير في الصلاة ، وآمن من اليهود والنصارى .

قوله تعالى : (جناتِ عدن) وقرأ أبو رزین العقيلي ، والضحاك ، وابن يمر ،

وابن أبي عمير : « جناتُ » برفع التاء . وقرأ الحسن البصري ، والشعبي ،

وابن السميع : « جنَّةُ عدن » على التوحيد مع رفع التاء . وقرأ أبو مجلز ،

وأبو المتوكل الناجي : « جنَّةَ عدن » على التوحيد مع نصب التاء . وقوله :

(التي وعد الرحمنُ عباده بالغيب) أي : وعدم بها ، ولم يروها ، فهي غائبة عنهم .

قوله تعالى : (إنه كان وعده مآثياً) فيه قولان .

أحدهما : آثياً ، قال ابن قتيبة : وهو « مفعول » في معنى « فاعل » ، وهو

قليل أن يأتي الفاعل على لفظ المفعول به . وقال الفراء : إنما لم يقل : آثياً ، لأن

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٢٧٨/٤ من رواية ابن مردويه من طريق نهشل عن

الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ .

كل ما أتاك ، فأنت تأتیه ؛ ألا ترى أنك تقول : أتيت على خمسين سنة ، وأنت عليّ خمسون [سنة] ؟ .

والثاني : مبلوغاً إليه ، قاله ابن الأبنباري . وقال ابن جريج : « وعده » هاهنا : موعوده ، وهو الجنة ، و « مأتياً » : يأتيه أولياؤه .

قوله تعالى : (لا يسمعون فيها لغواً) فيه قولان .

أحدهما : أنه التخالف عند شرب الخمر ، قاله مقاتل .

والثاني : ما يلغى من الكلام ويؤثم فيه ، قاله الزجاج . وقال ابن الأبنباري : اللغو في العربية : الفاسد المطرَح .

قوله تعالى : (إلا سلاماً) قال أبو عبيدة : السلام ليس من اللغو ، والعرب تستثنى الشيء بعد الشيء وليس منه ، وذلك أنها تضر فيه ، فالمعنى : إلا أنهم يسمعون فيها سلاماً . وقال ابن الأبنباري : استثنى السلام من غير جنسه ، وفي ذلك توكيد للمعنى المقصود ، لأنهم إذا لم يسمعوا من اللغو إلا السلام ، فليس يسمعون لغواً البتة ، وكذلك قوله : (فانهم عدواً لي لإرب العالمين) [الشعراء : ۷۷] ، إذا لم يخرج من عداوتهم لي غير رب العالمين ، فكأنهم عدو .

وفي معنى هذا السلام قولان .

أحدهما : أنه تسليم الملائكة عليهم ، قاله مقاتل .

والثاني : أنهم لا يسمعون إلا ما يسلمهم ، ولا يسمعون ما يؤثمهم ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (ولهم رزقهم فيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا) قال المفسرون : ليس في

الجنة بُكْرَةٌ ولا عَشِيَّةٌ ، ولكنَّهم يُؤْتَوْنَ برزقهم - على مقدار ما كانوا يعرفون - في

الغداة والعشي . قال الحسن : كانت العرب لا تعرف شيئاً من العيش أفضل من

الغداة والمساء ، فذكر الله لهم ذلك . وقال قتادة : كانت العرب إذا أصاب أحدهم

الغداء والعشاء أعجب به ، فأخبر الله أن لهم في الجنة رزقهم بكرة وعشيّاً على قدر ذلك الوقت ، وليس ثمّ ليل ولا نهار ، وإنما هو ضوء ونور . وروى الوايد ابن مسلم ، قال : سألت زهير بن محمد عن قوله تعالى : (بكرة وعشيّاً) فقال : ليس في الجنة ليل ولا نهار ، هم في نور أبداً ، ولهم مقدار الليل والنهار ، يعرفون مقدار الليل بارخاء الحُجُب وإغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب .

قوله تعالى : (تلك الجنة) الإشارة إلى قوله : (فأولئك يدخلون الجنة) .

قوله تعالى : (نُورِث) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، والشعبي ، وقتادة ، وابن أبي عملة : بفتح الواو وتشديد الراء . قال المفسرون : ومعنى « نورث » : نعطي المساكن التي كانت لأهل النار - لو آمنوا - للمؤمنين . ويجوز أن يكون معنى « نورث » : نعطي ، فيكون كالميراث لهم من جهة أنها تملك مستأنف . وقد شرحنا هذا في (الأعراف : ٤٣) .

قوله تعالى : (وما ننزّل إلا بأمر ربك) وقرأ ابن السميع ، وابن يعمر : « وما يتنزل » بياء مفتوحة .

وفي سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله ﷺ قال : « يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر

مما تزورنا » ، فنزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن جبیر عن ابن عباس ^(١) .

(١) رواه أحمد في « المسند » رقم (٢٠٤٣) ، والبخاري : ٣٢٦/٨ ، والترمذي :

١٤٥/٢ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٢٧٨/٤ وزاد نسبه لمسلم ، وعبد بن حميد ، والنسائي ،

وابن جرير ، وابن النذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم ، والبيهقي في « الدلائل » ،

عن ابن عباس رضي الله عنها ، وعند أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم زيادة في آخر الحديث

« فكان ذلك الجواب لحمد ﷺ » ، ولم نجد الحديث في « صحيح مسلم » كما قال السيوطي .

والثاني : أن الملك أبطأ على رسول الله ﷺ ثم أتاه ، فقال : لعلني أبطأتُ ، قال : « قد فعلتَ » ، قال : ومالي لا أفعل ، وأنتم لاتتسوّكون ، ولا تقصّون أظفاركم ، ولا تُنقّون براجمكم ، فنزلت الآية ، قاله مجاهد . قال ابن الأنباري : البراجم عند العرب : الفصوص التي في فصول ظهور الأصابع ، تبدو إذا جمعت ، وتمض إذا بسطت . والرواجب : ما بين البراجم ، بين كل برجتين راجبة .

والثالث : أن جبريل احتبس عن النبي ﷺ حين سأله [قومه] عن قصة أصحاب الكهف ، وذي القرنين ، والروح ، فلم يدر ما يجيبهم ، ورجأت يأتيه جبريل بجواب ، فأبطأ عليه ، فشق على رسول الله ﷺ مشقة شديدة ، فلما نزل جبريل قال له : « أبطأت عليّ حتى ساء ظني ، واشتقتُ إليك » ، فقال جبريل : إني كنتُ أشوق ، ولكنني عبدُ مأمور ، إذا بعثتُ نزلتُ ، وإذا حبستُ احتبستُ ، فنزلت هذه الآية ، قاله عكرمة ، وقاتدة ، والضحاك (۱) .

وفي سبب احتباس جبريل عن رسول الله ﷺ قولان .

أحدهما : لامتناع أصحابه من كمال النظافة ، كما ذكرنا في حديث مجاهد .

والثاني : لأنهم سألوه عن قصة أصحاب الكهف ، فقال : « غداً أخبركم » ،

ولم يقل : إن شاء الله ؛ وقد سبق هذا في سورة (الكهف : ۲۴) .

وفي مقدار احتباسه عنه خمسة أقوال .

أحدها : خمسة عشر يوماً ؛ وقد ذكرناه في (الكهف) عن ابن عباس .

والثاني : أربعون يوماً ، قاله عكرمة ، ومقاتل . والثالث : اثنتا عشرة ليلة ، قاله

مجاهد . والرابع : ثلاثة أيام ، حكاه مقاتل . والخامس : خمسة وعشرون يوماً ،

(۱) أسباب النزول ، للواحدي ۱۷۳ ، وذكره ابن كثير : ۱۳۰/۳ مختصراً من رواية

ابن أبي حاتم عن عكرمة ، وقال : وهو غريب .

حکاء الثعلبي . وقيل : إن سورة (الضحى) نزلت في هذا السبب . والمفسرون على أن قوله : « وما تنزل إلا بأمر ربك » قول جبريل . وحكى الماوردي : أنه قول أهل الجنة إذا دخلوها ، فالمعنى : ما تنزل هذه الجنان إلا بأمر الله . وقيل : ما تنزل موضعاً من الجنة إلا بأمر الله .

وفي قوله : (ما بين أيدينا وما خلفنا) قولان .

أحدهما : ما بين أيدينا : الآخرة ، وما خلفنا : الدنيا ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وقتادة ، ومقاتل .
والثاني : ما بين أيدينا : ماضى من الدنيا ، وما خلفنا : من الآخرة ، فهو عكس الأول ، قاله مجاهد . وقال الأخفش : ما بين أيدينا : قبل أن نُخلَق ، وما خلفنا : بعد الفناء .

وفي قوله تعالى : (وما بين ذلك) ثلاثة أقوال .

أحدها : ما بين الدنيا والآخرة ، قاله سعيد بن جبير .
والثاني : ما بين النفتين ، قاله مجاهد ، وعكرمة ، وأبو العالية .
والثالث : حين كَوْننا ، قاله الأخفش . قال ابن الأنباري : وإنما وحّد ذلك ، والإشارة إلى شيئين ، أحدهما : « ما بين أيدينا » والثاني : « ما خلفنا » ، لأن العرب توقع ذلك على الاثنين والجمع .

قوله تعالى : (وما كان ربك نسيّاً) النَّسِيُّ ، بمعنى الناسي .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : ما كان تاركاً لك منذ أبطأ الوحي عنك ، قاله ابن عباس . وقال مقاتل : مانسبك عند انقطاع الوحي عنك .

والثاني : أنه عالم بما كان ويكون ، لا ينسى شيئاً ، قاله الزجاج .
 قوله تعالى : (فاعْبُدْهُ) أي : وحده ، لأن عبادته بالشرك ليست عبادة ،
 (واصطبر لعبادته) أي : اصبر على توحيدده ؛ وقيل : على أمره ونهيه .
 قوله تعالى : (هل تعلم له سمياً) روى هارون عن أبي عمرو أنه كان يُدغم
 « هل تعلم » ، ووجهه أن سيبويه يجيز إدغام اللام في التاء والتاء والذال والزاي
 والسين والصاد والطاء ، لأن آخر مخرج من اللام قريب من مخرجهن . قال أبو عبيدة :
 إذا كان بعد « هل » تاء ، ففيه لغتان ، بعضهم يُبين لام « هل » ، وبعضهم يدغمها .
 وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : مثلاً وشبهاً ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال
 سعيد بن جبير ، وبجاهد ، وقادة .

والثاني : هل تعلم أحداً يسمى « الله » غيره ، رواه عطاء عن ابن عباس .
 والثالث : هل تعلم أحداً يستحق أن يقال له : خالق وقادر ، إلا هو ، قاله الزجاج .
 ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا .
 أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا . فَوَرَبِّكَ
 لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا . ثُمَّ
 لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبَمًا أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا . ثُمَّ لَنَحْنُ
 أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا . وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ
 عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا . ثُمَّ تُنْجَى الَّذِينَ آتَقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ
 فِيهَا جِثِيًّا ﴾

قوله تعالى : (ويقول الإنسان) سبب نزولها أن أبي بن خلف أخذ عظماً

بالياً ، فجعل يفتنه بيده ويذريه في الريح ويقول : زعم لكم محمد أن الله يبعثنا بعد أن نكون مثل هذا العظم البالي ، فنزات هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس (۱) .
وروى عطاء عن ابن عباس : أنه الوليد بن المغيرة .

قوله تعالى : (لسوف أُخْرَجُ حَيًّا) إن قيل : ظاهره ظاهر سؤال ، فأين جوابه ؟ فعنه ثلاثة أجوبة ذكرها ابن الأنباري .
أحدها : أن ظاهر الكلام استفهام ، ومعناه معنى جحد وإنكار ، تاختصه :
لست مبعوثاً بعد الموت .

والثاني : أنه لما استفهم بهذا الكلام عن البعث ، أجابه الله عز وجل بقوله :
(أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ) ، فهو مشتمل على معنى : نعم ، وأنت مبعوث .

والثالث : أن جواب سؤال هذا الكافر في (يس : ۷۸) عند قوله تعالى :
(وضرب لنا مثلاً) ، ولا يُنكَرُ بَعْدَ الْجَوَابِ ، لأن القرآن كلّه بمنزلة الرسالة
الواحدة ، والسورتان مكيتان .

قوله تعالى : (أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمة ،
والكسائي : بفتح الذال مشددة الكاف . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر :
« يَذْكُرُ » ساكنة الذال خفيفة . وقرأ أبي بن كعب ، وأبو المتوكل الناجي :
« أَوْ لَا يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ » ياء وتاء . وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو عبد الرحمن
السلمي ، والحسن : « يَذْكُرُ » ياء من غير تاء ساكنة الذال مخففة مرفوعة
الكاف ، والمعنى : أَوْ لَا يَتَذَكَّرُ هذا الجاحد أوّل خلقه ، فيستدل بالابتداء على
الإعادة ۱۲ (فوربك لنحشرنهم) يعني : المكذبين بالبعث (والشياطين) أي : مع
الشياطين ، وذلك أن كل كافر يُحْشَرُ مع شيطانه في سلسلة ، (ثم لنُحْضِرَنَّهُمْ

(۱) أسباب النزول ، للواحد ۱۷۳ عن الكلبي .

حول جهنم) قال مقاتل : أي : في جهنم ، وذلك أن حول الشيء يجوز أن يكون داخله ، تقول : جلس القوم حول البيت : إذا جلسوا داخله مطيقين به . وقيل : يجثون حولها قبل أن يدخلوها .

فأما قوله : (جثياً) فقال الزجاج : هو جمع جاثٍ ، مثل قاعدٍ وقعودٍ ، وهو منصوب على الحال ، والأصل ضم الجيم ، وجاء كسرهما إتباعاً لكسرة التاء . وللمفسرين في معناه خمسة أقوال .

أحدها : قعوداً ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثاني : جماعات جماعات ، روي عن ابن عباس أيضاً . فعلى هذا هو جمع جثوة^(١) وهي المجموع من التراب والحجارة . والثالث : جثياً على الرُكْب ، قاله الحسن ، ومجاهد ، والزجاج . والرابع : قياماً ، قاله أبو مالك . والخامس : قياماً على رُكْبهم ، قاله السدي ، وذلك لضيق المكان بهم .

فوله تعالى : (لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ) أي : لناخذن من كل فرقة وأمة وأهل دين (أيهم أشدُّ على الرحمن عتياً) أي : أعظمهم له معصية ، والمعنى : أنه يُبدأ بتعذيب الأعتى فالأعتى ، وبالأكابر جرماً ، والرؤوس القادة في الشر . قال الزجاج : وفي رفع « أيهم » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه على الاستئناف ، ولم تعمل : « لنزعن » شيئاً ، هذا قول يونس . والثاني : أنه على معنى الذي يقال لهم : أيهم أشدُّ على الرحمن عتياً ؛ قاله الخليل ، واختاره الزجاج ، وقال : التأويل : لنزعن الذي من أجل عتوّه يقال : أي هؤلا أشدُّ عتياً ؛ وأنشد :

(١) مثلثة الجيم .

وَلَقَدْ أُبَيْتُ عَنِ الْفَتَاةِ بِعَنْزَلٍ فَأُيْتِ لِحَرْجٍ وَلَا عَرُومٍ^(۱)

المعنى : أبيت بمنزلة الذي يقال له : لاهو حرج ولا عروم .
والثالث : أن « أيهم » مبنية على الضم ، لأنها خالفت أخواتها ، فالمعنى :
أيهم هو أفضل . ويأتى خلافاً لأخواتها أنك تقول : اضرب أيهم أفضل ،
ولا يحسن : اضرب من أفضل ، حتى تقول : من هو أفضل ، ولا يحسن :
كُل ما أطيب ، حتى تقول : ما هو أطيب ، ولا خذ ما أفضل ، حتى تقول :
الذي هو أفضل ، فلما خالفت « ما » و « من » و « الذي » بُنيت على الضم ،
قاله سيبويه .

قوله تعالى : (مُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا) يعني : أن الأولى بها صلياً الذين هم
أشدُّ عتياً ، فيبتدأ بهم قبل أتباعهم . و « صلياً » : منصوب على التفسير ،
يقال : صلي النار بصلاها : إذا دخلها وقاسى حرَّها .

قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) في الكلام إضمار تقديره : وما منكم
أحد إلا وهو واردها .

وفيم عنى بهذا الخطاب قولان .

أحدهما : أنه عام في حق المؤمن والكافر ، هذا قول الأكثرين . وروي
عن ابن عباس أنه قال : هذه الآية للكفار . وأكثر الروايات عنه كالتقول الأول .
قال ابن الأنباري : ووجه هذا أنه لما قال : « لَنُحْضِرَنَّهْم » وقال : « أيهم أشدُّ »

(۱) البيت في « الفرطى » : ۱۳۳/۱۱ ، و « روح المعاني » : ۱۱۰/۱۶ وروايته فيها :
ولقد أبيت من الفتاة ، وانقله في نسخة الرباط :

ولقد أبيت على الفتاة بمنزل فأبيت لاجرج ولا عروم

المعنى : أبيت . . . الخ .

على الرحمن عينيًّا « كان التقدير : وإن منهم ، فأبدلت الكاف من الهاء ، كما فعل في قوله : (إنَّ هذا كان لكم جزاءً) [الانسان : ٢٢] المعنى : كان لهم ، لأنه مردود على قوله : (وسقام ربهم) [الانسان : ٢١] ، وقال الشاعر :

شَطَطَتْ مزارَ العاشقين فأصبحتُ عَسيراً عليّ طلابكِ ابنةَ مخرمٍ^(١)

أراد : طلابها . وفي هذا الورود خمسة أقوال .

أحدها : أنه الدخول . روى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الورود : الدخول لا يبقى برّاً ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار - أو قال : لجهنم - ضجيجاً من بردهم »^(٢) . وروى عن ابن عباس أنه سأله نافع بن الأزرق عن هذه الآية ، فقال له : « أمّا أنا وأنت فسندخلها ، فانظر أيُخرجنا الله عز وجل منها ، أم لا ؟ فاحتج بقوله تعالى (فأوردهم النار) [هود : ٩٨] وبقوله تعالى : (أنتم لها واردون) [الأنبياء : ٩٨] . وكان عبد الله بن رواحة يبكي ويقول : أنبت أني وارد ، ولم أنبأ أني صادر . وحكى الحسن البصري : أت رجلاً قال لأخيه : يا أخي هل أنك أنك وارد النار ؟ قال : نعم ؛ قال : فهل أنك أنك خارج منها ؟ قال : لا ؛ قال : فقيم الضحك ؟! وقال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قالوا : ألم يعدنا ربنا أن نرد النار ؟ فيقال لهم : بلى ، ولكن مررتم بها وهي خامدة .

وممن ذهب إلى أنه الدخول : الحسن في رواية ، وأبو مالك .

(١) البيت تقدم في ج ٣ / ٣٩٣ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ، عن جابر رضي الله عنه ، قال الحافظ ابن كثير : غريب ولم يخرجوه ، وذكر السيوطي في الدر ، ٤ / ٢٨٠ وزاد نسبه لعبيد بن حميد ، والحكيم الترمذي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وان مردويه ، والبيهقي في البعث .

وقد اعترض على أرباب هذا القول بأشياء . فقال الزجاج : العرب تقول : وردت بلد كذا ، ووردت ماء كذا : إذا أشرفوا عليه وإن لم يدخلوا ، ومنه قوله تعالى : (ولما ورد ماء مدين) [الفصص : ۳۳] ، والحجة القاطعة في هذا القول قوله تعالى : (أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيها) [الأنبياء : ۱۰۱، ۱۰۲] ، وقال زهير :

فَلَمَّا وَرَدْنَا الْمَاءَ زُرْقًا جَمَامُهُ وَضَعْنَا عِصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيَّمِ^(۱)

أي : لما بلغن الماء قن عليه .

قلت : وقد أجاب بعضهم عن هذه الحجج ، فقال : أما الآية الأولى ، فإن موسى لما أقام حتى استقى الماء وسقى الغنم ، كان بلبثه ومباشرة كأنه دخل ؛ وأما الآية الأخرى : فإنها تضمنت الإخبار عن أهل الجنة حين كونهم فيها ، وحينئذ لا يسمعون حسيها . وقد روينا آنفاً عن خالد بن معدان أنهم يمرّون بها ، ولا يعلمون .

والثاني : أن الورود : المرء عليها ، قاله عبد الله بن مسعود ، وقتادة . وقال ابن مسعود : يرد الناس النار ، ثم يصدرون عنها بأعمالهم ، فأولسهم كلح البرق ، ثم كالريح ، ثم كحضر الفرس^(۲) [ثم كالراكب في رحله] ، ثم كشد الرحل ، ثم كشيته^(۳) .

والثالث : أن ورودها : حضورها ، قاله عبيد بن عمير .
والرابع : أن ورود المسلمين : المرور على الجسر ، وورود المشركين : دخولها . قاله ابن زيد .

(۱) شرح ديوان زهير ، : ۱۳ ، ود القرطبي ، : ۱۳۷/۱۱ ، ود اللسان ، ود الناج ، : ورق .

(۲) أي : كمدو الفرس . (۳) وقد روي مرفوعاً وموقوفاً .

والخامس : أن ورود المؤمن إليها : ما يصيبه من الحمى في الدنيا ، روى
عُمان بن الأسود عن مجاهد أنه قال : الحمى حظ كل مؤمن من النار ، ثم قرأ :
« وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » فعلى هذا من حم من المسلمين ، فقد ورد لها .

قوله تعالى : (كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ) يعني : الورد (حتماً) والحم : إيجاب
القضاء ، والقطع بالأمر . والمقضي : الذي قضاه الله تعالى ، والمعنى : إنه حتم ذلك
وقضاه على الخلق .

قوله تعالى : (ثُمَّ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا) وقرأ ابن عباس ، وأبو مجلز ،
وابن عمر ، وابن أبي ليلى ، وعاصم الجحدري : « ثُمَّ » بفتح الثاء . وقرأ الكسائي ،
ويعقوب : « تُنَجِّي » بضم نون . وقرأت عائشة ، وأبو بحرية ، [وأبو الجوزاء الربيعي :
« ثُمَّ يُنَجِّي » بياء مرفوعة قبل الزون خفيفة الجيم مكسورة . وقرأ أبي بن كعب ،
وأبو مجلز ، وابن السميع ، وأبو رجاء : « نَجَّيْنَا » بحاء غير معجمة مشددة . وهذه
الآية يخرج بها القائلون بدخول جميع الخلق ، لأن النجاة : تخلص الواقع في الشيء ،
ويؤكد كونه قوله تعالى : (ونذر الظالمين فيها) ولم يقل : وندخلهم ؛ وإنما يقال :
نذر وترك لمن قد حصل في مكانه . ومن قال : إن الورد للكفار خاصة ، قال :
معنى هذا الكلام : نخرج المتقين من جملة من يدخل النار . والمراد بالمتقين : الذين
اتَّقَوْا الشرك ، وبالظالمين : الكفار . وقد سبق معنى قوله تعالى : (جَنَّتِ) [مریم : ٦٨] .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ
آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا . وَكَمْ أَهْلَكْنَا
قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ثُمَّ أَحْسَنُ لَنَا وَرَبِّهَا ﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ) يعني : المشركين (آياتنا) يعني : القرآن

زاد السير ٥ م (١٧)

(قال الذين كفروا) يعني : مشركي قريش (للذين آمنوا) أي : لفقراء المؤمنين (أي الفريقين خير مقاماً) قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحزة ، والكسائي ، وأبو بكر ، وحفص عن عاصم [مقاماً] بفتح الميم وقرأ ابن كثير بضم الميم . قال أبو علي الفارسي : المقام : اسم المثوى ، إن فُتحت الميم أو ضُمَّت . قوله تعالى : (وأحسن ندياً) والنديُّ والنادي : مجلس القوم ومجتمعهم . وقال الفراء : النديُّ والنادي ، لغتان . ومعنى الكلام : أنحن خير ، أم أنتم ؟ فافتخروا عليهم بالمساكن والمجالس ، فأجابهم الله تعالى فقال : (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) وقد بينا معنى القرن في (الأنعام : ٦) وشرحنا الأثاث في (النحل : ٨٠) . فأما قوله تعالى : (ورثياً) فقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحزة ، والكسائي : « ورثياً » بهمزة بين الراء والياء في وزن : « رعيًا » ؛ قال الزجاج : ومعناها : منظرًا ، من « رأيت » . وقرأ نافع ، وابن عامر : « ريثاً » بياء مشددة من غير همز ، قال الزجاج : لها تفسيران . أحدهما : أنها بمعنى الأولى . والثاني : أنها من الرِيّ ، فالمعنى : منظرهم مرتون من النعمة ، كأن النعيم يتين فيهم . وقرأ ابن عباس ، وأبو المنوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن أبي سريج عن الكسائي : « ريثاً » بالزاي المعجمة مع تشديد الياء من غير همز . قال الزجاج : ومعناها : حسن هيئتهم .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَبَّعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا . وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾

قوله تعالى : (قل من كان في الضلالة) أي : في الكفر والمعنى عن التوحيد (فليمدد له الرحمن) قال الزجاج : وهذا لفظ أمر ، ومعناه الخبر ، والمعنى : أن الله تعالى جعل جزاء ضلّالته أن يتركه فيها . قال ابن الأنباري : خاطب الله العرب بلسانها ، وهي تقصد التوكيد للخبر بذكر الأمر ، يقول أحدهم : إن زارنا عبد الله فلنكرمه ، بقصد التوكيد ، وينبّه على أني أؤم نفسي إكرامه ؛ ويجوز أن تكون اللام لام الدعاء على معنى : قل يا محمد : من كان في الضلالة فاللهم مدد له في النعم مدد^(۱) . قال المفسرون : ومعنى مدد الله تعالى له : إمهاله في النسي . (حتى إذا رأوا) يعني الذين مدّم في الضلالة . وإنما أخبر عن الجماعة ، لأن لفظ « من » يصلح للجماعة . ثم ذكر ما يوعدون فقال : (إمّا العذاب) يعني : القتل ، والأسر (وإمّا الساعة) يعني : القيامة وما وعدوا فيها من الخلود في النار (فسيعلمون من هو شرّ مكاناً) في الآخرة ، أم ، أم المؤمنون ؛ لأن مكان هؤلاء الجنة ، ومكان هؤلاء النار ، (و) يعلمون بالنصر والقتل من (أضعف جنداً) جندهم ، أم جند رسول الله ﷺ . وهذا ردّ عليهم في قولهم : (أي الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ ندياً) .

قوله تعالى : (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) فيه خمسة أقوال .

أحدها : ويزيد الله الذين اهتدوا بالتوحيد إيماناً . والثاني : يزيدهم بصيرةً في دينهم . والثالث : يزيدهم زيادة الوحي إيماناً ، فكلمة نزلت سورة زاد إيمانهم . والرابع : يزيدهم إيماناً بالناسخ والمنسوخ . والخامس : يزيد الذين اهتدوا بالمنسوخ هدى بالناسخ . قال الزجاج : المعنى : إن الله تعالى يجعل جزاءهم أن يزيدهم يقيناً ، كما جعل جزاء الكافر أن يمدّه في ضلّالته .

قوله تعالى : (والباقيات الصالحات) قد ذكرناها في سورة (الكهف : ۴۶) .

(۱) في النسخة الاستنبولية : فاللهم مدد له في السر مدد .

قوله تعالى : (وخير مرداً) المرءُ هاهنا مصدر مثل الردّ ، والمعنى : وخيرُ رداً للثواب على عاملها ، فليست كأعمال الكفار التي خسروها فبطلت .
﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالاً وَوَلَدًا .
أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا . كَلَّا سَنَكْتُبُ
مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا . وَنَرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾
قوله تعالى : (أفرايت الذي كفر بآياتنا) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : ماروى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث مسروق عن خبّاب [بن الأرت] قال : كنت رجلاً قيناً [أي : حداداً] وكان لي على العاص بن وائل دين ، فأبته أنقاضه ، فقال : [لا] والله لا أقضيك حتى تكفر بحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بحمد ﷺ حتى تموت ، ثم بُعث . قال : فاني إذا ميتٌ ثم بُعثت جنتي ولي ثم مال وولد ، فأعطيتك ، فنزلت فيه هذه الآية ، إلى قوله تعالى : (فرداً) (۱) .

والثاني : أنها نزلت في الوليد بن المغيرة ، وهذا مروى عن الحسن . والمفسرون على الأول .

قوله تعالى : (لَأُوتِينَ مَالاً وَوَلَدًا) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر : بفتح الواو . وقرأ حمزة ، والكسائي : بضم الواو . وقال الفراء : وهما لغتان ، كالعُدْم ، والعَدْم ، وليس يجمع ، وقيس تجعل الولد جمعاً ، والولد ، بفتح الواو ، واحداً .

وَأين زعم هذا الكافر أن يؤتى المال والولد ؟ فيه قولان . أحدهما : أنه أراد في الجنة على زعمكم . والثاني : في الدنيا . قال ابن الأنباري : وتقدير الآية : رأيت مصيباً !

(۱) د البخاري ، : ۳۲۶/۸ ، ود مسلم ، : ۲۱۵۳/۴ ، ورواه أحمد في « المسند » ، : ۱۱۰/۵ ، ود الترمذي ، : ۱۴۵/۲ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

قوله تعالى : (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ) قال ابن عباس في رواية : أَعْلِمَ ما غاب عنه حتى يعلم أفي الجنة هو ، أم لا ؟ ! وقال في رواية أخرى : أَنْظَرَ في اللوح المحفوظ ؟ !

قوله تعالى : (أم اتَّخَذَ عند الرحمن عهداً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أم قال : لا إله إلا الله ، فأرحمه بها ؟ ! قاله ابن عباس . والثاني : أم قدّم عملاً صالحاً ، فهو يرجوه ؟ ! قاله قتادة . والثالث : أم عهد إليه أنه يدخله الجنة ؟ ! قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (كَلَّا) أي : ليس الأمر على ما قال من أنه يؤتى المال والولد . ويجوز أن يكون معنى « كَلَّا » أي : إنه لم يطَّع الغيب ، ولم يتخذ عند الله عهداً . (منكتب مايقول) أي : سنأمر الحفظة بإثبات قوله عليه لنجازه به ، (ونمُدُّ له من العذاب مدّاً) أي : نجعل بعض العذاب على إثر بعض . وقرأ أبو العالية الرياحي ، وأبورجاء المطاردي : « سيكتب » « ويرثه » ياء مفتوحة .

قوله تعالى : (وثرته مايقول) فيه قولان .

أحدهما : ثرته مايقول أنه له في الجنة ، فنجمه لغيره من المسلمين ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره انقراء .

والثاني : ثرت ما عنده من المال ، والولد ، باهلا كنا إياه ، وإبطال ملكه ، وهو مروى عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال قتادة . قال الزجاج : المعنى : سنسلبه المال والولد ، ونجمه لغيره .

قوله تعالى : (ويأتينا فرداً) أي : بلا مال ولا ولد .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا . أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا

الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوُزُّهُمْ أَزًّا . فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿۸۲﴾

قوله تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة) يعني : المشركين عابدي الأصنام (ليكونوا لهم عزاً) قال الفراء : ليكونوا لهم شفعا في الآخرة .

قوله تعالى : (كلاً) أي : ليس الأمر كما قد رواه ، (سيكفرون) يعني الأصنام بجحد عبادة المشركين ، كقوله تعالى : (ما كانوا إيانا يعبدون) [القصص : ۶۳] لأنها كانت جماداً لا تعقل العبادة ، (ويكونون) يعني : الأصنام (عليهم) يعني : المشركين (ضداً) أي : أعواناً عليهم في القيامة ، يكذبونهم ويلعنونهم .

قوله تعالى : (ألم تر أننا أرسلنا الشياطين) قال الزجاج : في معنى هذا الإرسال وجهان .

أحدهما : خلينا بين الشياطين وبين الكافرين فلم نصممهم من القبول منهم . والثاني ، وهو المختار : سلطناهم عليهم ، وقبضناهم لهم بكفرهم . (تَوُزُّهُمْ أَزًّا) أي : تزعجهم إزعاجاً حتى يركبوا المعاصي . وقال الفراء : تزعجهم إلى المعاصي ، وتفرهم بها . قال ابن فارس : يقال : أزه على كذا : إذا أغراه به ، وأزت القدر : غلت .

قوله تعالى : (فلا تعجل عليهم) أي : لا تعجل بطلب عذابهم . وزعم بعضهم أن هذا منسوخ بآية السيف ، وليس بصحيح ، (إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا) في هذا الممدود ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أنفاسهم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال طاووس ، ومقاتل .

والثاني : الأيام ، والليالي ، والشهور ، والسنون ، والساعات ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أنها أعمالهم ، قاله قطرب .

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ . وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا . لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾

قوله تعالى : (يوم نحشر المتقين) قال بعضهم : هذا متعلق بقوله : « ويكفونون عليهم ضداً ، يوم نحشر المتقين » وقال بعضهم : تقديره : اذكر لهم يوم نحشر المتقين ، وهم الذين اتقوا الله بطاعته واجتناب معصيته . وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : « يَوْمَ يُحْشَرُ » ياء مفتوحة ورفع الشين « وَيَسُوقُ » ياء مفتوحة ورفع السين . وقرأ أبي بن كعب ، والحسن البصري ، ومعاذ القاري ، وأبو المتوكل الناجي : « يَوْمَ يُحْشَرُ » ياء مرفوعة وفتح الشين « المتقون » رفعا « وَيُسَاقُ » بألف وياء مرفوعة « المجرمون » بالواو على الرفع . والوفد : جمع وafd ، مثل : ركب ، وراكب ، وصحب ، وصاحب . قال ابن عباس ، وعكرمة ، والفراء : الوفد : الركبان . قال ابن الأثيري : الركبان عند العرب : ركب الإبل .

وفي زمان هذا الحشر قولان .

أحدهما : أنه من قبورهم إلى الرحمن ، قاله علي بن أبي طالب .

والثاني : أنه بعد الحساب ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (ونسوق المجرمين) يعني : الكافرين (إلى جهنم وريثاً) قال

ابن عباس ، وأبو هريرة ، والحسن : عطاشاً . قال أبو عبيدة : الورد : مصدر الورد . وقال ابن قتيبة : الورد : جماعة يرِدون الماء ، يعني : أنهم عطاش ، لأنه لا يرِد الماء إلا العطشان . وقال ابن الأنباري : معنى قوله : « وِرْدًا » : واردين . قوله تعالى : (لا يملكون الشفاعة) أي : لا يشفعون ، ولا يُشفَع لهم .

قوله تعالى : (إلا من اتَّخَذَ عند الرحمن عهداً) قال الزجاج : جائز أن يكون « مَنْ » في موضع رفع على البدل من الواو والنون ، فيكون المعنى : لا يملك الشفاعة إلا من اتَّخَذَ عند الرحمن عهداً ؛ وجائز أن يكون في موضع نصب على استثناء ليس من الأول ، فالمعنى : لا يملك الشفاعة المجرمون ، ثم قال : « إلا » على معنى « لكن » (مَنْ اتَّخَذَ عند الرحمن عهداً) فانه يملك الشفاعة . والمهد هاهنا : توحيد الله والإيمان به . وقال ابن الأنباري : تفسير المهد في اللغة : تقدمة أمر يُعَلَّم ويُحْفَظ ، من قولك : عهدت فلاناً في المكان ، أي : عرفته ، وشهدته .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾

قوله تعالى : (وقالوا اتَّخَذَ الرحمن ولداً) يعني : اليهود ، والنصارى ، ومن زعم من المشركين أن الملائكة بنات الله (لقد جئتم شيئاً إداً) أي : شيئاً عظيماً من الكفر . قال أبو عبيدة : الإدُّ ، والشكر : الأمر المتناهي العظم . قوله تعالى : (تكاد السموات يتفطرن) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ،

وابن عامر ، وحمة ، وأبو بكر عن عاصم : « تكاد » بالتاء . وقرأ نافع ، والكسائي : « يكاد » بالياء . وقرأ جميعاً : « يتفطرن » بالياء والتاء مشددة الطاء ، وافقها ابن كثير ، وحفص عن عاصم في « يتفطرن » وقرأ أبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : « ينفطرن » بالنون . وقرأ حمزة ، وابن عامر في (مریم) مثل أبي عمرو ، وفي (عسق : ۵) مثل ابن كثير . ومعنى « يتفطرن منه » : يقاربن الانشقاق من قولكم . قال ابن قتيبة : وقوله تعالى : « هدأ » أي : سقوطاً . قوله تعالى : (أن دعوا) قال الفراء : من أن دعوا ، ولأن دعوا . وقال أبو عبيدة : معناه : أن جعلوا ، وليس هو من دعاء الصوت ، وأنشد :

أَلَا رَبِّ مَنْ تَدْعُو نَصِيحاً وَإِنْ تَغِيبُ

تَجِدُهُ بِغَيْبٍ غَيْرِ مُنْتَصِحِ الصَّدْرِ^(۱)

قوله تعالى : (وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً) أي : ما يصلح له ، ولا يليق به اتخاذ الولد ، لأن الولد يقتضي بجانسة ، وكل متخذ ولداً يتخذه من جنسه ، والله تعالى منزّه عن أن يجانس شيئاً ، أو يجانسه ، فحال في حقه اتخاذ الولد ، (إن كل) أي : ما كل (من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن) يوم القيامة (عبداً) ذليلاً خاضعاً . والمعنى : أن عيسى وعزيراً والملائكة عبيد له . قال القاضي أبو يعلى : وفي هذا دلالة على أن الوالد إذا اشترى ولده ، لم يبق ملكه عليه ، وإنما يعتق بنفس الشراء ، لأن الله تعالى نفى البُئُوءَةَ لأجل العبودية ، فدل على أنه لا يجتمع بُئُوءَةٌ وَرِقٌّ .

قوله تعالى : (لقد أحصاهم) أي : علم عددهم (وعدّهم عدداً) فلا يخفى

(۱) « الطبري » : ۱۳۱/۱۶ ، و « مجاز القرآن » : ۱۲/۲ ، و « اللسان » : دعا .

عليه مبلغ جميعهم مع كثرتهم (وكلاشهم آتیه يوم القيامة فرداً) بلا مال ، ولا نصير يمنعه .
فان قيل : لاية علّة وحّد في « الرحمن » و « آتیه » وجمع في العائد في
« أحصاهم ، وعدّهم » .

فالجواب : أن لكل لفظ توحيد ، وتأويل جمع ، فالتوحيد محمول على اللفظ ،
والجمع مصروف إلى التأويل .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ
وُدًّا . فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ
قَوْمًا مُّذْءَبًا . وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ نُحِيسُ مِنْهُمْ مِنْ
أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾

قوله تعالى : (سيجعل لهم الرحمن وُدًّا) قال ابن عباس : نزلت في علي
عليه السلام ، وقال معناه : يحبهم ، ويحببهم إلى المؤمنين . قال قتادة : يجعل لهم
وُدًّا في قلوب المؤمنين . ومن هذا حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال :
« إذا أحب الله عبداً قال : يا جبريل ، إني أحب فلاناً فأحبوه ، فينادي جبريل في
السموات : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيلقى حبه على أهل الأرض فيحبُّه » ،
وذكر في البغض مثل ذلك ^(۱) . وقال هرم بن حبان : ما أقبل عبد بقلبه إلى

(۱) البخاري : ۲۲۰/۶ و ۳۸۶/۱۰ ، وابن فيه ذكر البغض مثل ذلك ، ورواه
مسلم : ۲۰۳۰/۴ ، ولفظه عنده بتمامه : « إن الله إذا أحب عبداً ، دعا جبريل فقال :
إني أحب فلاناً ، فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً
فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، قال : ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغض الله عبداً ،
دعا جبريل ، فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء :
إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال : فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض » .

اللہ عز وجل ، إلا أقبل الله عز وجل بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقهم
مودتهم ورحمتهم .

قوله تعالى : (فإنا يسرناه بلسانك) يعني : القرآن . قال ابن قتيبة : أي ،
سهلناه ، وأنزلناه بلفتك . واللشد ، جمع ألد ، وهو الخصم الجدل .

قوله تعالى : (وكم أهلكنا قبلهم) هذا تخويف لكفار مكة (هل تحس منهم
من أحد) قال الزجاج : أي : هل ترى ، يقال : هل أحسست صاحبك ، أي : هل رأيتَه؟
والرَكز : الصوت الخفي ؛ وقال ابن قتيبة : الصوت الذي لا يفهم ، وقال
أبو صالح : حركة ، [والله تعالى أعلم] .

* * *

سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طه ﴾ . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . إِلَّا نَذْكِرَةً
لِمَنْ يَخْشَى . تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى .
الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ
السِّرَّ وَأَخْفَى . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿

وهي مكية كلها بإجماعهم . وفي سبب نزول (طه) ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله ﷺ كان يراوح بين قدميه ، يقوم على رجل ،

حتى نزلت هذه الآية ، قاله [علي] عليه السلام ^(١) .

والثاني : أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه القرآن صلى هو وأصحابه فأطال

القيام ، فقالت قريش : ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشتق ، فنزلت هذه

الآية ، قاله الضحاك ^(٢) .

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٢٨٨/٤ من رواية البزار عن علي رضي الله عنه .

(٢) « أسباب النزول » للواحدي ١٧٤ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٢٨٩/٤ من

رواية ابن أبي حاتم عن الضحاك .

والثالث : أن أبا جهل ، والنضر بن الحارث ، والمطمع بن عدي ، قالوا لرسول الله ﷺ : إنك لتشقى بترك ديننا ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل (١) .
وفي « طه » قراءات . قرأ ابن كثير ، وابن عامر : « طه » بفتح الطاء والهاء . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : بكسر الطاء والهاء . وقرأ نافع : « طه » بين الفتح والكسر ، وهو إلى الفتح أقرب ؛ كذلك قال خلف عن المسيبي . وقرأ أبو عمرو : بفتح الطاء وكسر الهمزة ، وروى عنه عباس مثل حمزة . وقرأ ابن مسعود ، وأبو رزين العقيلي ، وسعيد بن المسيب ، وأبو العالية : بكسر الطاء وفتح الهاء . وقرأ الحسن : « طه » بفتح الطاء وسكون الهاء . وقرأ الضحاك ، ومورق : « طه » بكسر الطاء وسكون الهاء .
واختلفوا في معناها على أربعة أقوال .

أحدها : أن معناها : يارجل ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبیر ، ومجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ؛ واختلف هؤلاء بأي لغة هي ، على أربعة أقوال . أحدها : بالنبطية ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبیر في رواية ، والضحاك . والثاني : بلسان عك ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثالث : بالسريانية ، قاله عكرمة في رواية ، وسعيد بن جبیر في رواية ، وقتادة . والرابع : بالحبشية ، قاله عكرمة في رواية . قال ابن الأثير : ولغة قريش وافقت هذه اللغة في المعنى .

والثاني : أنها حروف من أسماء . ثم فيها قولان . أحدهما : أنها من أسماء الله تعالى . ثم فيها قولان . أحدهما : أن الطاء من اللطيف ، والهاء من الهادي ، قاله ابن مسعود ، وأبو العالية ، والثاني : أن الطاء افتتاح اسمه « طاهر » و« طيب »

(١) « أسباب النزول » للواحدى ١٧٤ .

والهاء افتتاح اسمه « هادي » قاله سعيد بن جبير . والقول الثاني : أنها من غير أسماء الله تعالى . ثم فيه ثلاثة أفعال . أحدها : أن الطاء من طابة ، وهي مدينة رسول الله ﷺ ، والهاء من مكة ، حكاه أبو سليمان الدمشقي . والثاني : أن الطاء : طرب أهل الجنة ، والهاء : هوان أهل النار . والثالث : أن الطاء في حساب الجمل تسعة ، والهاء خمسة ، فتكون أربعة عشر . فالمعنى : يا أيها البدر ما أنزلنا عليك القرآن لنشقى ، حكى القولين الثعلبي .

والثالث : أنه قَسَمَ أقسم الله به ، وهو من أسمائه ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . وقد شرحنا معنى كونه اسماً في فاتحة (مریم) . وقال القرظي : أقسم الله بطوئه وهدايته ؛ وهذا القول قريب المعنى من الذي قبله .

والرابع : أن معناه : طأ الأرض بقدميك ، قاله مقاتل بن حيان (١) . ومعنى قوله (لنشقى) : لتعب وتباعد من الجهد ما قد بلغت ، وذلك أنه اجتهد في العبادة وبالغ ، حتى إنه كان يراوح بين قدميه لطول القيام ، فأمر بالتخفيف . قوله تعالى : (إِنْ تَذَكَّرْ) قال الأخفش : هو بدل من قوله : « لنشقى » ، ما أنزلناه إلا تذكرةً ، أي : عظةً .

قوله تعالى : (تنزيلاً) قال الزجاج : المعنى : أنزلناه تنزيلاً ، و (العُلَى) جمع العُلْبِ ، تقول : سماء عُلْبِا ، وسماوات عُلْبِا ، مثل الكُبْرَى ، والكُبْرَى . فأما « الثرى » فهو التراب الندي ، والمفسرون يقولون : أراد الثرى الذي تحت الأرض السابعة .

قوله تعالى : (وإن تجهر بالقول) أي : ترفع صوتك (فإنه يعلم السر) والمعنى : لا تجهد نفسك برفع الصوت ، فإن الله يعلم السر .

(١) قال أبو جعفر بن جرير الطبري : والذي هو أولى بالصواب عندي من الأفعال فيه ، قول من قال : مناه : يارجل ، لأنها كلمة معروفة في عكسها بلغني ، وأن معناها فيهم : يارجل .

وفي المراد بـ « السِّرِّ وأخفى » خمسة أقوال .

أحدها : أن السِّرَّ : ما أسره الإنسان في نفسه ، وأخفى : ما لم يكن بَعْدُ وسيكون ، رواه جماعة عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .
والثاني : أن السِّرَّ : ما حدثت به نفسك ، وأخفى : ما لم تلفظ به ، قاله سعيد بن جبیر .

والثالث : أن السِّرَّ : العمل الذي يُسِرُّه الإنسان من الناس ، وأخفى منه : الوسوسة ، قاله مجاهد .

والرابع : أن معنى الكلام : يعلم إسرار عباده ، وقد أخفى سرّه عنهم فلا يُعلم ، قاله زيد بن أسلم ، وابنه .

والخامس : يعلم ما أسره الإنسان إلى غيره ، وما أخفاه في نفسه ، قاله الفراء .

قوله تعالى : (له الأسماء الحسنی) قد شرحناه في (الأعراف : ۱۸۰) .

﴿ وَهَلْ أَنْتَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَمَلِي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ بِأَمُوسَى . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى . وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي . إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْمَى . فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَابُوءَ مِنْ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾

قوله تعالى : (وهل أنك حديث موسى) هذا استفهام تقرير ، ومعناه : قد أنك . قال ابن الأنباري : وهذا معروف عند اللغويين أن تأتي « هل »

معبرة عن « قد » ، فقد قال رسول الله ﷺ وهو أفصح العرب : « اللهم هل بلّغتُ »^(۱) ، يريد : قد بلّغت .

قال وهب بن منبه : استأذن موسى شعبياً عليها السلام في الرجوع إلى والدته ، فأذن له ، فخرج بأهله ، فولد له في الطريق في ليلة شاتية ، ففدح فلم يُور الزناد ، فبينما هو في مزاوله ذلك ، أبصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق ؛ وقد ذكرنا هذا الحديث بطوله في كتاب « الحقائق » ففكرنا إطالة التفسير بالقصص ، لأن غرضنا الاقتصار على التفسير ليسهل حفظه^(۲) . قال المفسرون : رأى نوراً ، ولكن أخبر بما كان في ظن موسى . (فقال لأهله) يعني : امرأته (امكثوا) أي : أقيموا مكانكم . وقرأ حمزة : « لِأَهْلِهِ امْكُثُوا » بضم الهاء هاهنا وفي (القصص : ۲۹) . (وإني آنستُ نازاً) قال الفراء : إني وجدت ، يقال : هل آنستَ أحداً ، أي : وجدت ؟ وقال ابن قتيبة : « آنستُ » بمعنى أبصرتُ . فأما القَبَس ، فقال الزجاج : هو ما أخذته من النار في رأس عود أو في رأس فتيلة .

قوله تعالى : (أو أجِدْ على النار هدىً) قال الفراء : أراد : هادياً ، فذكره بلفظ المصدر . قال ابن الأنباري : يجوز أن تكون « على » هاهنا بمعنى « عند » ،

(۱) روى البخاري في « صحيحه » : ۴۵۸/۳ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال : « يا أيها الناس أي يوم هذا ؟ » قالوا : يوم حرام ، قال : « فأى بلد هذا ؟ » قالوا : بلد حرام ، قال : « فأى شهر هذا ؟ » قالوا : شهر حرام ، قال : « فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا ، فأعادها مراراً ، ثم رفع رأسه فقال : « اللهم هل بلغت ، اللهم هل بلغت » ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : فوالذي نفسي بيده ، إنها لوصيته إلى أمته ، « فليبلغ الشاهد الغائب لا ترجموا بعدي كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعضهم » ، ورواه أحمد في « المسند » ومسلم بلفظ آخر .

(۲) ذكره بطوله السيوطي في « الدر » : ۲۹۰/۴ من رواية أحمد في « الزهد » ، وعبد ابن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه .

ويعنى « مع » ، ويعنى الباء . وذكر أهل التفسير أنه كان قد ضلَّ الطريق ، فعلم أن النار لا تخلو من موقِد . وحكى الزجاج : أنه ضل عن الماء ، فرجا أن يجد من يهديه الطريق أو يدلته على الماء .

قوله تعالى : (فلما أتاها) يعنى : النار (نودي يا موسى إني أنا ربك) إنما كرر الكناية ، لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإزالة الشبهة ، ومثله (إني أنا النذير المبين) [الحجر : ٨٩] . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر : « أُنِّي » بفتح الألف والياء . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي : « إُنِّي » بكسر الألف ، إلا أن نافعاً فتح الياء . قال الزجاج : من قرأ : « أُنِّي أنا » بالفتح ، فالمعنى : نودي [بأني أنا ربك ، ومن قرأ بالكسر ، فالمعنى : نودي] يا موسى ، فقال الله : إني أنا ربك .

قوله تعالى : (فاخلع نعليك) في سبب أمره بخلعها قولان .

أحدهما : أنها كانا من جلد حمارٍ ميت ، رواه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ ، وبه قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وعكرمة .^(١)

والثاني : أنها كانا من جلد بقرة ذكيت ، ولكنه أمر بخلعها ليباشر تراب الأرض المقدسة ، فتناه بركتها ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبیر . وبجاهد ، وقتادة .
قوله تعالى : (إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ) فيه قولان قد ذكرناهما في (المائدة : ٢١) عند قوله : (الأرض المقدسة) .

(١) أخرجه الترمذي : ٣٠٦/١ وقال : هذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من حديث حميد الأعرج ، وحميد هو ابن علي الأعرج الكوفي ، منكر الحديث ، وذكره الطبري : ١٤٤/١٦ وقال : في إسناده نظر يجب التثبت فيه .

راد السير ه م (١٨)

قوله تعالى : (طُوى) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « طُوى وأنا »
غير مُجْرأة^(۱) . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي : « طُوى » مُجْرأة^(۲) ؛
وكلّهم ضم الطاء . وقرأ الحسن ، وأبو حيوة : « طِوى » بكسر الطاء مع
التنوين وقرأ علي بن نصر عن أبي عمرو : « طِوى » بكسر الطاء من غير
تنوين . قال الزجاج : في « طُوى » أربعة أوجه . طُوى ، بضم أوّله من غير تنوين
وبتنوين . فمن نوّته ، فهو اسم للوادي . وهو مذكّر سمي بمذكّر على فُعَلٍ
نحو حُطَمٍ وصُرْدٍ ، ومن لم ينوّه ترك صرفه من جهتين .
إحداها : أن يكون معدولاً عن طاوٍ ، فيصير مثل « عُمر » المعدول عن عامر ،
فلا ينصرف كما لا ينصرف « عُمر » .

والجهة الثانية : أن يكون اسماً للبقعة ، كقوله : (في البقعة المباركة)
[القصص : ۳۰] ، وإذا كسّر ونوّن فهو مثل معى . والمعنى : المقدّس مرّة بعد
مرّة ، كما قال عدي بن زيد :

أعاذِلَ ، إنَّ اللّوْمَ في غَيْرِ كُنْهِهِ

عَلِيٌّ طُوى مِّنْ غَيْتِكَ المُتْرَدِّدِ^(۳)

أي : اللوم المكرّر عليّ ؛ ومن لم ينوّن جعله اسماً للبقعة .

[وللمفسرين في معنى « طوى » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه اسم الوادي ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أن معنى « طوى » : طأ الوادي ، رواه عكرمة عن ابن عباس ،

وعن مجاهد كالتولين .

(۱) أي : غير مصروفة . (۲) أي : مصروفة .

(۳) د الطبري : ۱۶۵/۱۶ ، و د مجاز القرآن ، ۱۶/۲ ، و د اللسان : طوى ،

و د التاج : نى .

والثالث : أنه قدس مرنين ، قاله الحسن ، وقتادة [.

قوله تعالى : (وأنا اخترتك) أي : اصطفتك . وقرأ حمزة ، والمفضل : « وأنا » بالنون المشددة « اخترناك » بألف . (فاستمع لما يوحى) أي : الذي يوحى . قال ابن الأنباري : الاستماع هاهنا محمول على الإنصات ، المعنى : فأنصت لوحىي ، والوحى هاهنا قوله : (إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) أي : وحيدني ، (وأقم الصلاة لذكري) فيه قولان .

أحدهما : أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة ، سواء كنت في وقتها أو لم تكن ، هذا قول الأكثرين . وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال : « من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها ، لا كفارة لها غير ذلك ، وقرأ : (أقم الصلاة لذكري) » (١) .

والثاني : أقم الصلاة لتذكركني فيها ، قاله مجاهد . وقيل : إن الكلام مردود على قوله : (فاستمع) ، فيكون المعنى : فاستمع لما يوحى ، واستمع لذكري . وقرأ ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وابن السميع : « وأقم الصلاة للذكري » بلامين وتشديد الذال .

قوله تعالى : (أكاد أخفيها) أكثر القراء على ضم الألف .

ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : أكاد أخفيها من نفسي ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبیر ، ومجاهد في آخرين . وقرأ ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، ومحمد بن علي : أكاد أخفيها من نفسي ،

(١) رواه البخاري في كتاب « مواقيت الصلاة » ، باب من نسي صلاة فليصل ، ورواه

مسلم ٤٧٧/١ ، وأبو داود رقم (٤٤٢) .

قال الفراء : المعنى : فكيف أظهركم عليها ؟ ! قال المبرد : وهذا على عادة العرب ، فانهم يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء : كتمته حتى من نفسي ، أي : لم أطلع عليه أحداً .
والثاني : أن الكلام تم عند قوله : « أكاد » ، وبعده مضمّر تقديره : أكاد

آتي بها ، والابتداء : أخفيها ، قال ضاوي البرجمي :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي

تَرَكَتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلَاثِلُهُ^(۱)

أراد : كدتُ أفعل .

والثالث : أن معنى « أكاد » : أريد ، قال الشاعر :

كَادَتْ وَكِدْتُ وَتَيْلَكَ خَيْرُ إِرَادَةٍ

لَوْ عَادَ مِنْ لَهْوِ الصَّبَابَةِ مَا مَضَى^(۲)

معناه : أرادت وأردت ، ذكرها ابن الأنباري .

فإن قيل : فما فائدة هذا الإخفاء الشديد ؟

فالجواب : أنه للتحذير والتخويف ، ومن لم يعلم متى يهجم عليه عدوه كان

أشد حذراً . وقرأ سعيد بن جبیر ، وعروة بن الزبير ، وأبو رجاء العطاردي ،

وحيد بن قيس : « أخفيها » بفتح الألف . قال الزجاج : ومعناه : أكاد أظهرها ،

قال امرؤ القيس :

فَإِنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لَا نَخْفِيهِ وَإِنْ تَبْعَثُوا الحَرْبَ لَا نَقْعُدِ^(۳)

(۱) د الطبري ، : ۱۵۲/۱۶ ، و د القرطبي ، : ۱۸۳/۱۱ ، و د البحر ، : ۲۳۳/۶ .

(۲) البيت غير منسوب في د الطبري ، : ۱۵۱/۱۶ ، و د القرطبي ، : ۱۸۴/۱۱ ،

و د اللسان ، و د التاج ، : كود .

(۳) البيت لامرئ القيس ، ديوانه : ۱۸۶ ، و د الطبري ، : ۱۵۰/۱۶ ، و د مجاز القرآن ، :

۱۷/۲ ، و د القرطبي ، : ۱۸۲/۱۱ ، و د اللسان ، و د التاج ، : خفا . وقوله : —

أي : إن تدفنوا الداء لا تُظهره . قال : وهذه القراءة أُبين في المعنى ، لأن
معنى « أكاد أظهرها » : قد أخفيتُها وكدت أظهرها . (لتُجزى كُلُّ نفسٍ
بما تسعى) أي : بما تعمل . و « لتُجزى » متعلق بقوله : « إن الساعة آتية »
لتُجزى ، ويجوز أن يكون على « أقم الصلاة لذكركي » لتُجزى .

قوله تعالى : (فلا يصدنك عنها) أي : عن الإيمان بها (من لا يؤمنُ
بها) أي : من لا يؤمنُ بكونها ؛ والخطاب للنبي ﷺ خطاب لجميع أمته ،
(واتبع هواه) أي : مُرادُه وخالف أمر الله عز وجل ، (فردى) أي :
فتَهلك ؛ قال الزجاج : يقال : ردِّي بردي إذا هلك .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ۚ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّوْا
عَلَيْهَا وَأَهْسُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۚ قَالَ أَأَقْبَرُ
يَا مُوسَىٰ ۚ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۚ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ
سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ۚ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا
مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَىٰ ۚ لِشُرَيْبِكَ مِن آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴾

قوله تعالى : (وما تلك بيمينك) قال الزجاج : « تلك » اسم مبهم يجري
بجري « التي » ، والمعنى : ما التي بيمينك ؛

قوله تعالى : (أتوكأ عليها) التوكأ : التحامل على الشيء (وأهس بها)
قال الفراء : أضرب بها الشجر اليابس ليدسقط ورقه فترعاه غنمي ؛ قال الزجاج :
واشتقاقه من أتى أحيل الشيء إلى الهشاشة والإمكان . والمآرب : الحاجات ،
واحدها : مآربة ، ومآربة . وروى قتيبة ، وورش : « مآرب » بامالة الهمزة .

— لا تخفيه ، بفتح النون ، أي : لا تُظهره ، وكذا قرئ قوله تعالى : (أكاد أخفيها)
أي : أظهرها .

فان قيل : ما الفائدة في سؤال الله تعالى له : « وما تلك يمينك » وهو يعلم ؟

فمنه جوابان .

أحدهما : أن لفظه لفظ الاستفهام ، ومجره مجرى السؤال ، ليجيب المخاطب بالإقرار به ، فتثبت عليه الحجة باعترافه فلا يمكنه الجحد ، ومثله في الكلام أن تقول لمن تخاطبه وعندك ماء : ما هذا ؟ فيقول : ماء ، فتضع عليه شيئاً من الصبغ ، فان قال : لم يزل هكذا ، قلت له : أأست قد اعترفت بأنه ماء ؟ فتثبت عليه الحجة ، هذا قول الزجاج . فعلى هذا تكون الفائدة أنه قرّر موسى أنها عصا لما أراد أن يريه من قدرته في انقلابها حيّة ، فوقع المعجز بها بعد التثبيت في أمرها .
والثاني : أنه لما اطّلع الله تعالى على ما في قلب موسى من الهيبة والإجلال حين التكليم ، أراد أن يؤانس ويخفف عنه ثقل ما كان فيه من الخوف ، فأجرى هذا الكلام للاستئناس ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

فان قيل : قد كان يكفي في الجواب أن يقول : « هي عصاي » ، فما الفائدة في قوله : « أتوكأ عليها » إلى آخر الكلام ، وإنما يُشرح هذا لمن لا يعلم فوائدها ؟ فمنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه أجاب بقوله : « هي عصاي » ، فقيل له : ما تصنع بها ؟ فذكر باقي الكلام جواباً عن سؤال ثانٍ ، قاله ابن عباس ، ووهب .

والثاني : أنه إنما أظهر فوائدها ، ويبيّن حاجته إليها ، خوفاً [من] أن يأمره بالقائها كالنعلين ، قاله سعيد بن جبیر .

والثالث : أنه يبيّن منافعها لئلا يكون حابئاً بحملها ، قاله الماوردي .
فان قيل : فلم اقتصر على ذكر بعض منافعها ولم يُطيل الشرح ؟ فمنه

[ثلاثة] أجوبة .

أحدها : أنه كره أن يشتغل عن كلام الله بتعداد منافعها .
 والثاني : استغنى بعلم الله فيها عن كثرة التعداد .
 والثالث : أنه اقتصر على اللازم دون العارض .
 وقيل : كانت تضيء له بالليل ، وتدفع عنه الهوام ، وتثمر له إذا اشتبهى الثمار^(١) .
 وفي جنسها قولان .
 أحدهما : أنها كانت من آس الجنة ، قاله ابن عباس . والثاني : [أنها] كانت
 من عوسج .

فان قيل : المآرب جمع ، فكيف قال : « أخرى » ولم يقل : « آخر » ؟
 فالجواب : أن المآرب في معنى جماعة ، فكأنه قال : جماعة من الحاجات
 أخرى ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (قال ألقها يا موسى) قال المفسرون : ألقاها ، ظناً منه أنه قد
 أمر برفضها ، فسمع حساً فالتفت فإذا هي كأعظم ثعبان تمر بالصخرة العظيمة
 فبتلعها ، فهرب منها .

وفي وجه الفائدة في إظهار هذه الآية ليلة المخاطبة قولان .
 أحدهما : لئلا يخاف منها إذا ألقاها بين يدي فرعون .
 والثاني : ليربته أن الذي أبعثك إليه دون ما أريتك ، فكما ذللت لك
 الأعظم وهو الحية ، أذلت لك الأذنى .

(١) قال ابن كثير في تفسيره ، : ١٤٥/٣ : وقد تكلف بعضهم للذكر شيء
 من تلك المآرب التي أبهت ، فقيل : كانت تضيء بالليل ، وتحرس له الفم إذا نام ،
 وبفرسها فتصير شجرة تظله ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة ، والظاهر أنها لم تكن كذلك ،
 ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعباناً ، فما كانت يفر منها هارباً ،
 ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية ، وكذلك قول بعضهم : إنها كانت لآدم عليه السلام ،
 وقول الآخر : إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة .

ثم إن الله تعالى أمره بأخذها وهي على حالها حيّة ، فوضع يده عليها فعادت عصاً ، فذلك قوله : (سنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى) قال الفراء : طريقتها ، يقول : تردّها عصى كما كانت . قال الزجاج : و « سيرتها » منصوبة على إسقاط الخافض وإفشاء الفعل إليها ، المعنى : سنُعِيدُهَا إِلَى سِيرَتِهَا .

فان قيل : إنما كانت العصا واحدة ، وكان إلقاءها مرّة ، فما وجه اختلاف الأخبار عنها ، فانه يقول في (الأعراف : ۱۰۷) : (فاذا هي تُعْبَانُ مُبِينٌ) ، وهاهنا : « حية » ، وفي مكان آخر : (كأنها جانّ) [النمل : ۲۰] ، والجانب ليست بالمعظمة ، والثعبان أعظم الحيات ؟

فالجواب : أن صفتها بالجان عبارة عن ابتداء حالها ، وبالثعبان إخبار عن انتهاء حالها ، والحيّة اسم يقع على الصغير والكبير والذكر والأنثى . وقال الزجاج : خَلَقَهَا خَلَقَ الثَّعْبَانَ الْعَظِيمَ ، واهتزازها وحركتها وخيفتها كاهتزاز الجان وخيفته . قوله تعالى : (واضمم يدك إلى جناحك) قال الفراء : الجناح من أسفل العضد إلى الإبط .

وقال أبو عبيدة : الجناح ناحية الجنب ، وأنشد :

أُضْمَهُ لِلصَّدْرِ وَالْجَنَاحِ^(۱)

قوله تعالى : (تَخْرُجُ بِيضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ) أي : من غير برص (آية أخرى) أي : دلالة على صدقك سوى العصا . قال الزجاج : ونصب « آية » على معنى : آيتناك آية ، أو نؤتيك [آية] .

قوله تعالى : (انزيناك من آياتنا الكبرى) .

(۱) الرجز غير منسوب في : « الطبري » : ۱۵۷/۱۶ ، و « مجاز القرآن » : ۱۸/۲ ،

و « القرطبي » : ۱۹۱/۱۱ .

إن قيل : لم لم يقل : « الكُبر » ؛ فعنه ثلاثة أجوبة .
أحدها : أنه كقوله : (مآرب أخرى) وقد شرحناه ، هذا قول الفراء .
والثاني : أن فيه إضماراً تقديره : لنريك من آياتنا الآية الكبرى . وقال أبو عبيدة :
فيه تقديم وتأخير ، تقديره : لنريك الكبرى من آياتنا .

والثالث : إنما كان ذلك لوافق رأس الآي ، حكى القولين الثعلبي .
﴿ إِذْ هَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي .
وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي .
وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي . نَهْرُونَ أَخِي . أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي .
وَاشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَسِي نُسَيْبِكَ كَثِيرًا . وَتَذَكَّرْكَ كَثِيرًا .
إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾

قوله تعالى : (إنه طغى) أي : جاوز الحد في العصيان .

قوله تعالى : (اشرح لي صدري) قال المفسرون : ضاق موسى صدرًا بما كلف
من مقاومة فرعون وجنوده ، فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه للحق حتى لا يخاف
فرعون وجنوده . ومعنى قوله : (يسر لي أمري) : سهل علي ما بعثني له .
(واحلل عقدة من لساني) قال ابن قتيبة : كانت فيه رُتة^(١) . قال المفسرون :
كان فرعون قد وضع موسى في حجره وهو صغير ، فجر^(٢) لحيه فرعون يده ،
فهم بقتله ، فقالت له آسية : إنه لا يعقل ، وسأريك بيان ذلك ، قدم إليه
جهرتين ولؤلؤتين ، فإن اجتنب الجهرتين عرفت أنه يعقل ، فأخذ موسى جرة فوضعا
في فيه فأحرقت لسانه وصار فيه عقدة ، فسأل حلها ليفهموا كلامه^(٣) .

(١) الرُتة ، بالضم : عجلة في الكلام ، وقيلة أناة ، وقيل : هو أن يقلب اللام ياء .

(٢) في الأصل : فهد ، وستأتي بعد قليل « جر » .

(٣) وقد استجاب الله له ذلك في قوله : (قد أوتيت مؤلك يا موسى) .

وأما الوزير ، فقال ابن قتيبة : أصل الوزارة من الوزر وهو الحمل ، كان الوزير قد حمل عن السلطان الثقل . وقال الزجاج : اشتقاقه من الوزر ، والوزر : الجبل الذي يُعْتَصَم به ليُنْجى من الهلكة ، وكذلك وزير الخليفة ، معناه : الذي يعتمد عليه في أموره ويلتجى إلى رأيه . ونصب « هارون » من جهتين . إحداهما : أن تكون « اجعل » تتعدى إلى مفعولين ، فيكون المعنى : اجعل هارون أخي وزيراً ، فينتصب « وزيراً » على أنه مفعول ثانٍ . ويجوز أن يكون « هارون » بدلاً من قوله : (وزيراً) ، فيكون المعنى : اجعل لي وزيراً من أهلي ، [ثم] أبدل هارون من وزير ؛ والأول أجود . قال الماوردي : وإنما سأل الله تعالى أن يجعل له وزيراً ، لأنه لم يُرَد أن يكون مقصوداً على الوزارة حتى يكون شريكاً في النبوة ، ولولا ذلك لجاز أن يستوزر من غير مسألة . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بفتح ياء « أخي » .

قوله تعالى : (أشدُّدْ به أزرى) قال الفراء : هذا دعاء من موسى ، والمعنى : أشدُّدْ به ياربِّ أزرى ، وأشركه ياربِّ في أمرى . وقرأ ابن عامر : « أشدد » بالألف مقطوعة مفتوحة ، « وأشركه » بضم الألف ، وكذلك يتدى بالألفين . قال أبو علي : هذه القراءة على الجواب والمجازاة ، والوجه الدعاء دون الإخبار ، لأن ما قبله دعاء ، ولأن الإشراك في النبوة لا يكون إلا من الله عز وجل . قال ابن قتيبة : والأزر : الظهر ، يقال : آزرت فلاناً على الأمر ، أي : قويته عليه وكنت له فيه ظهراً .

قوله تعالى : (وأشركه في أمرى) أي : في النبوة معي (كي نسبحك) أي : نصلي لك (ونذكرك) بالسنتنا حامدين لك على ما أوليتنا من نعمك (إنك كنت بنا بصيراً) أي : عالماً إذ خصصتنا بهذه النعم ،

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُوءَ لِكِّ يَامُوسَىٰ . وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً
 أُخْرَىٰ . إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ . أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ
 فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ
 وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي . إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ
 فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ
 تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ
 فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَامُوسَىٰ .
 وَاصْطَنَعْنَاكَ لِلنَّفْسِي . إِذْ هَبَّ أُنْتِ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنبِيَا فِي
 ذِكْرِي ﴾

قوله تعالى : (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُوءَ لِكِّ) قال ابن قتيبة : أي : طَلَبَتِكَ ،
 وهو « فَعَلٌ » من « سَأَلْتُ » ، أي : أُعْطِيتَ مَسْأَلَتَ .

قوله تعالى : (وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ) أي : أَنْعَمْنَا عَلَيْكَ (مَرَّةً أُخْرَى) قبل
 هذه المَرَّةَ . ثم يَنْ مَتَى كَانَتْ بِقَوْلِهِ : (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى) أي :
 أَلْهَمْنَاهَا مَا يُلْهِمُهُمْ مِمَّا كَانَ سَبَبًا لِنَجَاتِكَ ، ثم فسر ذلك بقوله : (أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ)
 وقذف الشيء : الرمي به .

فان قيل : ما فائدة قوله : « ما يوحى » وقد علم ذلك ؟ فقد ذكر عنه
 ابن الأنباري جوابين .

أحدهما : أن المعنى : أَوْحَيْنَا إِلَيْهَا الشَّيْءَ الَّذِي يَجُوزُ أَنْ يُوحَىٰ إِلَيْهَا ، إذ ليس
 كل الأمور يصلح وحيه إليها ، لأنها ليست بنبي ، وذلك أنها أَلْهَمْتُ .

والثاني : أن « ما يوحى » أفاد توكيدا ، كقوله : (فَتَشَاهَا مَا غَشَى)
 [النجم : ٥٤] .

قوله تعالى : (فَلْيُنقِهِ اليمُّ) قال ابن الأنباري : ظاهر هذا الأمر ، ومعناه معنى الخبر ، تأويله : يلقىة [اليمُّ] ، ويجوز أن يكون البحر مأموراً بآلة ركبها الله تعالى فيه ، فسمع وعقل ، كما فعل ذلك بالحجارة والأشجار . فأما الساحل ، فهو : شط البحر . (بأخذه عدوُّ لي وعدوُّ له) يعني : فرعون . قال المفسرون : اتخذت أمه تابوتا وجعلت فيه قطناً مخلوجاً ، ووضعت فيه موسى وأحكمت بالقار شقوق التابوت ، ثم ألقته في النيل ، وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون ، فينسا هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية ، إذا بالتابوت ، فأمر الغلمان والجواري بأخذه ، فلما فتحوه رأوا صبياً من أصبح الناس وجهاً ؛ فلما رآه فرعون أحبه حباً شديداً ، فذلك قوله : (وألقيتُ عليكَ محبةً مِنِّي) ، [قال أبو عبيدة : ومعنى « ألقىتُ عليكَ » أي : جعلتُ لكَ محبةً مِنِّي] . قال ابن عباس : أحبه وحببه إلى خلقه ، فلا يلقاه أحد إلا أحبه من مؤمن وكافر . وقال قتادة : كانت في عينه ملاحه ، فما رآه أحد إلا حبه .

قوله تعالى : (وَلِتُصْنَعْ عَلَى عيني) وقرأ أبو جعفر : « وَلِتُصْنَعْ » بسكون اللام والعين والإدغام . قال قتادة : لتُغذى على محبتي وإرادتي . قال أبو عبيدة : على ما أريد وأحِبُّ . قال ابن الأنباري : هو من قول العرب : غُذي فلان على عيني ، أي : على المحبة مِنِّي . وقال غيره : لتُرَبِّي وتغذى برأى مِنِّي ، يقال : صنع الرجل جاريته : إذا ربَّأها ؛ وصنع فرسه : إذا داوم على علفه ومراعاته ، والمعنى : وَلِتُصْنَعْ عَلَى عيني ، قدَّرنا مشي أختك وقولها : (هل أدُلُّكم على من يكفُّلُه) لأن هذا كان من أسباب تربيته على ما أراد الله عز وجل . فأما أخته ، فقال مقاتل : اسمها مريم . قال الفراء : وإنما اقتصر على ذِكْرِ المشي ،

ولم يذكر أنها مشيت حتى دخلت على آل فرعون فدلتهم على الظئير^(١) ، لأن العرب تجزئ بحذف كثير من الكلام ، وبقليله ، إذا كان المعنى معروفاً ، ومثله قوله : (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) [يوسف : ٤٥] ، ولم يقل : فأرسل حتى دخل على يوسف .

قال المفسرون : سبب مشي أخته أن أمه قالت لها : قصيه ، فاتبعت موسى على أثر الماء ، فلما التقطه آل فرعون جعل لا يقبل ندي امرأة ، فقالت لهم أخته : « هل أدلكم على من يكفئنا » أي : يرضعه ويضمه إليه ، فقيل لها : ومن هي ؟ فقالت : أي ، قالوا : وهل لها لبن ؟ قالت : ابن أخي هارون ، وكان هارون أسنً من موسى بثلاث سنين ، فأرسلوها ، فجاءت بالأم فقيل نديها ، فذلك قوله : (فرجعناك إلى أمك) أي : رددناك إليها (كي تقر عينها) بك وبرؤيتك . (وقتلت نفسها) يعني : القبطي الذي وكزه فقضى عليه ، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى (فنجيناك من الغم) وكان مغموماً مخافة أن يقتل به ، فنجاه الله بأن هرب إلى مدين ، (وفتناك فتوناً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : اختبرناك اختباراً ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .
والثاني : أخلصناك إخلاصاً ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .
والثالث : ابتليناك ابتلاءً ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .
وقال الفراء : ابتليناك بغم القليل ابتلاءً . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : الفتون : وقوعه في محنة بعد محنة خلصه الله منها ، أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال ، ثم إلقاؤه في البحر ، ثم منعه الرضاع إلا من ندي أمه ، ثم جره لحية فرعون حتى تم بقتله ، ثم تناوله الجرة بدل

(١) الظئر : الماطفة على ولد غيرها المرضعة له في الناس وغيرهم للذكر والأنثى .

الذرة ، ثم قتله القبطي ، ثم خروجه إلى مَدِينِ خائفًا ؛ وكان ابن عباس يقص هذه القصص على سعيد بن جبير ، ويقول له عند كل ثلاثة : وهذا من الفتون يا ابن جبير ؛ فعلى هذا يكون « فتناك » خلصناك من تلك المحن كما يُفتن الذهب بالنار فيخلص من كل خبث . والفتون : مصدر .

قوله تعالى : (فلبت سنين) تقدير الكلام : فخرجت إلى أهل مدين . ومدين : بلد شعيب ، وكان على ثمان مراحل من مصر ، فهرب إليه موسى . وقيل : مدين : اسم رجل ، وقد سبق هذا [الأعراف: ٨٦] .

وفي قدر ابته هناك قولان .

أحدهما : عشر سنين ؛ قاله ابن عباس ، ومقاتل .
والثاني : ثمان وعشرون سنة ، عشر منهن مهر امرأته ، وثمان عشرة أقام حتى ولد له ، قاله وهب .

قوله تعالى : (ثم جئت على قدر) أي : جئت لميقات قدرته لميقتك قبل خلقك ، وكان ذلك على رأس أربعين سنة ، وهو الوقت الذي يوحى فيه إلى الأنبياء ، هذا قول الأكثرين . وقال الفراء : « على قدر » أي : على ما أراد الله به من تكليمه .

قوله تعالى : (واصطنعتك لنفسي) أي : اصطفيتك واختصصتك ، والاصطناع : اتخاذ الصنيعة ، وهو الخير تسديه إلى إنسان . وقال ابن عباس : اصطفيتك لرسالي ووحيي (اذهب أنت وأخوك بآياتي) وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها العصا واليد . وقد يُذكر الاثنان بلفظ الجمع .

والثاني : العصا واليد وحل العقدة التي مازال فرعون وقومه يعرفونها ،

ذكرهما ابن الأنباري .

والثالث : الآيات التسع . والأول أصح .

قوله تعالى : (وَلَا تَنِيَا) قال ابن قتيبة : لَا تَضَعُفًا وَلَا نَفْثًا ؛ يقال :

وَنَى بِنِي فِي الْأَمْرِ ؛ وفيه لغة أخرى : وَنَى ، يُونِي .

وفي المراد بالذِّكْر هاهنا قولان .

أحدهما : أنه الرسالة إلى فرعون . والثاني : أنه القيام بالفرائض والتسبيحُ والتهليل .

﴿ إِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ

يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى . قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ

يَطْغَى . قَالَ لَا نَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى . فَأَتِيَاهُ فَقُولَا

إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ

جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبِعَ الْهُدَى . إِنَّا

قَدْ أَوْحَيْنَا أَنْ الْعَذَابَ عَلَيَّ مِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾

قوله تعالى : (اذها إلى فرعون) فائدة تكرار الأمر بالذهاب، التوكيد .

وقد فسرنا قوله : (إنه طغى) [طه : ٤٤] .

قوله تعالى : (فقولا له قولا لينا) وقرأ أبو عمران الجوني ، وعاصم الجحدري :

« لينا » باسكان الباء ، أي : لطيفاً رفيقاً .

وللمفسرين فيه خمسة أقوال .

أحدها : قولا له : قل : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ، رواه خالد

ابن معدان عن معاذ ، والضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنه قوله : (هل لك إلى أن تزكّى . وأهديك إلى ربك

فتخشى) [النازعات : ١٨ ، ١٩] ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل .

والثالث : كُنِيَّاه ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال السدي . فأما اسمه ، فقد ذكرناه في (البقرة : ٤٩) . وفي كنيته أربعة أقوال . أحدها : أبو مُرَّة ، رواه عكرمة عن ابن عباس . والثاني : أبو مصعب ، ذكره أبو سليمان الدمشقي . والثالث : أبو العباس . والرابع : أبو الوليد ، حكاهما الثعلبي .

والقول الرابع : قولاً له : **إِنَّ لَكَ رَبًّا ، وَإِنَّ لَكَ مَعَادًا ، وَإِنَّ بَيْنَ يَدَيْكَ جَنَّةً وَنَارًا ،** قاله الحسن .

والخامس : **أَنَّ الْقَوْلَ اللَّيِّنَ : أَنَّ مُوسَى أَنَاهُ ،** فقال له : **تُؤْمِنُ بِمَا جِئْتُ بِهِ وَتَعْبُدُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، عَلَيَّ أَنْ لَكَ شَبَابُكَ فَلَا تَهْرَمُ ، وَتَكُونُ مَلِكًا لَا يُنْزَعُ مِنْكَ حَتَّى تَمُوتَ ،** فإذا متَّ دخلت الجنة ، فأعجبه ذلك ؛ فلما جاء هامان ، أخبره بما قال موسى ، فقال : **قَدْ كُنْتُ أَرَى أَنَّ لَكَ رَأْيًا ، أَنْتَ رَبُّ أُرْدَتَ أَنْ تَكُونَ مَرْبُوبًا ؟ !** فقلبه عن رأيه ، قاله السدي . وحكي عن يحيى بن معاذ أنه قرأ هذه الآية ، فقال : **إِلَهِي هَذَا رِفْقُكَ بِمَنْ يَقُولُ : أَنَا إِكَّه ، فَكَيْفَ رِفْقُكَ بِمَنْ يَقُولُ : أَنْتَ إِكَّه .**

قوله تعالى : **(لَعَلَّه يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)** قال الزجاج : **« لَعَلَّ »** في اللغة : **رَجَّ وَطَمَع ،** تقول : **لَعَلَّتِي أَصِيرُ إِلَى خَيْرٍ ،** فخطب الله عز وجل العباد بما يعقلون . والمعنى عند سيبويه : **أذهباً على رجائك كما وطمعا .** والعلم من الله تعالى من وراء ما يكون ، وقد علم أنه لا يتذكر ولا يخشى ، إلا أن الحُجَّةَ إنما تجب عليه بالآية والبرهان ، وإنما تُبعت الرسل وهي لاتعلم الغيب ولا تدري أيُقبل منها ، أم لا ، وهم يرجون ويطمعون أن يُقبل منهم ، ومعنى **« لعل »** منصوّر في أنفسهم ، وعلى تصوّر ذلك تقوم الحُجَّة . قال ابن الأنباري : **ومذهب الفراء في هذا : كي يتذكّر .** وروى خالد بن معدان عن معاذ قال : **والله ما كان فرعون ليخرج من الدنيا حتى**

يتذكّر أو يَنخِشِي ، لهذه الآية ، وإنه تذكّر وخشي لما أدركه الفرق . وقال كعب : والذي يَحْلِفُ به كعب ، إنه لمكتوب في التوراة : فقولا له قولاً لبناً ، وسأفتي قلبه فلا يؤمن . قال المفسرون : كان هارون يومئذ غائباً بمصر ، فأوحى الله تعالى إلى هارون أن يتلقى موسى ، فلتلقاه على مرحلة ، فقال له موسى : إن الله تعالى أمرني أن آتي فرعون ، فسألتُه أن يجعلَ معي ؛ ففعل هذا بحتمل أن يكونا حين التقيا قالاً : ربنا إننا نخاف . قال ابن الأنباري : ويجوز أن يكون القائل لذلك موسى وحده ؛ وأخبر الله عنه بالثنية لما ضم إليه هارون ، فإن العرب قد تُوقع الثنية على الواحد ، فتقول : يازيد قوما ، ياحرسي^١ اضربا عنقه .

قوله تعالى : (أن يَفْرُطَ علينا) وقرأ عبد الله بن عمرو ، وابن السميع ، وابن يعمر ، وأبو العالية : « أن يُفْرِطَ » برفع الياء وكسر الراء . وقرأ عكرمة ، وإبراهيم النخعي : « أن يَفْرَطَ » بفتح الياء والراء . وقرأ أبو رجاء العطاردي ، وابن محيصن : « أن يُفْرِطَ » برفع الياء وفتح الراء . قال الزجاج : المعنى ، أن يبادر بمقوبتنا ، يقال : قد فَرَطَ منه أمر ، أي : قد بَدَرَ ؛ وقد أفرط في الشيء : إذا اشتطَّ فيه ؛ وفَرَطَ في الشيء : إذا قَصَرَ ؛ ومعناه كلُّهُ : التقدم في الشيء ، لأن الفَرَطَ في اللغة : المتقدم ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « أنا فَرَطُكُمْ على الحوض »^(١) .

(١) رواه أحمد في « المسند » ٣١٣/٤ ، والبخاري ٤١٤/١١ ، ومسلم ١٧٩٢/٤ من حديث جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه ، وله روايات أخرى بأطول منه في « الصحيحين » من حديث سهل ، وعبد الله بن مسعود ، وحذيفة ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبي سعيد الخدري وغيرهم ، والفَرَطُ والفَارَطُ : هو الذي يتقدم الواردين ليصلح لهم الحياض والدلاء ونحوها من أمور الاستقاء . فمضى فرطكم على الحوض : سابقكم إليه كالهيء له .

زاد المسير ٥ م (١٩)

قوله تعالى : (أو أن يطغى) فيه قولان .

أحدهما : يستعصي ، قاله مقاتل . والثاني : يجاوز الحدَّ في الإساءة إلينا .

قال ابن زيد : نخاف أن يعجل علينا قبل أن نبلغه كلامك وأمرك .

قوله تعالى : (وإنني معكما) أي : بالنصرة والعون (أسمع) أقوالكم (وأرى)

أفعالكم . قال الكلبي : أسمعُ جوابه لكما ، وأرى مايفعل بكما .

قوله تعالى : (فأرسلنا معن بن إسرائيل) أي : خلَّ عنهم (ولا نعذبهم)

وكان يستعملهم في الأعمال الشاقَّة ، (قد جئناك بآية من ربك) قال ابن عباس :

هي العصا . قال مقاتل : أظهر اليد في مقام ، والعصا في مقام .

قوله تعالى : (والسلامُ على من اتَّبَعَ الهدى) قال مقاتل : على مَنْ آمن

بالله . قال الزجاج : وليس يعني به النجاة ، وإنما معناه : أن مَنْ اتَّبَعَ الهدى ،

سَلِمَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ ، والدليل على أنه ليس بسلام ، أنه ليس بابتداء

لقاء وخطاب .

قوله تعالى : (على مَنْ كَذَّبَ) أي : بما جئنا به وأعرض عنه .

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ

خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ . قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ . قَالَ عَلِمْنَا عِنْدَ رَبِّي

فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ

أَنْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى . كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّبُوَّةِ . مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا

نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾

قوله تعالى : (قال قن ربكما) في الكلام محذوف معناه معلوم ، وتقديره :
فأتياه فأدباً الرساله . قال الزجاج : وإنما لم يقل : فأتياه ، لأن في الكلام دليلاً
على ذلك ، لأن قوله : « فن ربكما » يدل على أنها أتياه وقال له .
قوله تعالى : (أعطى كل شيء خلقه) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أعطى كل شيء صورته ، فخلق كل جنس من الحيوان على
غير صورة جنسه ، فصورة ابن آدم لا كصورة البهائم ، وصورة البعير لا كصورة
الفرس ، روى هذا المعنى الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وسعيد بن جبیر .
والثاني : أعطى كل ذكر زوجته ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ،
وبه قال السدي ، فيكون المعنى : أعطى كل حيوان ما يشاكله .

والثالث : أعطى كل شيء ما يصلحه ، قاله قتادة .

وفي قوله : (ثم هدى) ثلاثة أقوال .

أحدها : هدى كيف يأتي الذكر الأنثى ، رواه الضحاك عن ابن عباس ،
وبه قال ابن جبیر .

والثاني : هدى للمكح والمطعم والمسكن ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : هدى كل شيء إلى ميعشته ، قاله مجاهد . وقرأ عمر بن الخطاب ،

وابن عباس ، والأعمش ، وابن السميع ، ونصير عن الكسائي : « أعطى كل
شيء خلقه » بفتح اللام .

فإن قيل : ما وجه الاحتجاج على فرعون من هذا ؟

فالجواب : أنه قد ثبت وجود خلق وهداية ، فلا بد من خالق وهادٍ .

قوله تعالى : (قال فما بال القرون الأولى) اختلفوا فيما سأل عنه من حال

القرون الأولى على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه سأله عن أخبارها وأحاديثها ، ولم يكن له بذلك عِلْمٌ ، إذ التوراة إنما نزلت عليه بعد هلاك فرعون ، فقال : (عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) ، هذا مذهب مقاتل . وقال غيره : أراد : إني رسول ، وأخبار الأمم عِلْمٌ غِيبٌ ، فلا علم لي بالغيب .

والثاني : أن مراده من السؤال عنها : لم عُبِدَتِ الْأَصْنَامُ ، ولم لم يُعْبَدِ اللَّهُ إِنْ كَانَ الْحَقُّ مَا رُصِفَتْ ؟ !

والثالث : أن مراده : مالها لا تُبَيِّتُ وَلَا تُحَاسِبُ وَلَا تَجَازِي ؟ ! فقال : عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ، أي : عِلْمُ أَعْمَالِهَا . وقيل : الهاء في « عِلْمُهَا » كناية عن القيامة ، لأنه سأله عن بعث الأمم ، فأجابه بذلك .
وقوله : (في كتاب) أراد : اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : (لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسِي) وقرأ عبد الله بن عمرو ^(١) ، وعاصم الجحدري ، وقتادة ، وابن محيصن : « لَا يَضِلُّ » بضم الياء وكسر الضاد ، أي : لا يضيئه . وقرأ أبو المتوكل ، وابن السميع : « لَا يَضِلُّ » بضم الياء وفتح الضاد . وفي هذه الآية توكيد للجزاء على الأعمال ، والمعنى : لا يخطئ ربي ولا ينسى ما كان من أمرهم حتى يجازيهم بأعمالهم . وقيل : أراد : لم يجعل ذلك في كتاب لأنه يضل وينسى .

قوله تعالى : (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهَادًا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « مهاداً » . وقرأ عاصم ، وحزمة ، والكسائي : « مهداً » بغير ألف . والمهاد : الفراش ، والمهد : الفرش . (وسلك لكم) أي : أدخل لاجلكم في الأرض طُرُقًا تسلكونها ، (وأنزل من السماء ماء) يعني : المطر .

(١) في النسخة الاستنبولية : عبد الله بن عمرو .

وهذا آخر الإخبار عن موسى . ثم أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله : (فأخرجنا به) يعني : بالماء (أزواجاً من نبات شتى) أي : أصنافاً مختلفة في الألوان والطعوم ، كل صنف منها زوج . و « شتى » لا واحد له من لفظه . (كَلُّوا) أي : مما أخرجنا لكم من الثمار (وارعوا أنعامكم) يقال : رعى الماشية ، يرعاها : إذا سرحها في المرعى . ومعنى هذا الأمر : التذكير بالتعم ، (إن في ذلك لآياتٍ) أي : لتعبيراً في اختلاف الألوان والطعوم (لأولي النهي) قال الفراء : لذوي العقول ، يقال للرجل : إنه لذو نهيّة : إذا كان ذا عقل . قال الزجاج : واحد النهى : نهيّة ، يقال : فلان ذو نهيّة ، أي : ذو عقل ينتهي به عن المقابح ، ويدخل به في المحاسن ؛ قال : وقال بعض أهل اللغة : ذو النهية : الذي ينتهي إلى رأيه وعقله ، وهذا حسن أيضاً .

قوله تعالى : (منها خلقناكم) يعني : الأرض المذكورة في قوله : « جعل لكم الأرض مهاداً » . والإشارة بقوله : « خلقناكم » إلى آدم ، والبشر كلهم منه . (وفيها نُعيدكم) بعد الموت (ومنها نُخرجكم تارة) أي : مرة (أخرى) بعد البعث ، يعني : كما أخرجناكم منها أولاً عند خلق آدم من الأرض .

﴿ وَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى . قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى . فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى . قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحًى . فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى . قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَافْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى . فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى . قَالُوا إِنَّ هَذَانِ

لَسَاحِرٍ أَنْ يُرِيدَ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا
بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى. فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوَا صَفًّا وَقَدْ أَقْلَحَ
الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿

قوله تعالى : (ولقد أريناه) يعني : فرعون (آياتنا كلها) يعني : التسع
الآيات ، ولم ير كل آية لله ، لأنها لا تُحصى ، (فكذب) أي : نسب الآيات إلى
الكذب ، وقال : هذا سحر (وأبي) أن يؤمن (قال أجتنا لتخرجنا من
أرضنا) يعني : مصر (بسحر) أي : تريد أن تغلب على ديارنا بسحر فتملكها
وتخرجنا منها (فلنأينك بسحر مثله) أي : فلنقابلنا ما جئت به من السحر
بمثله (فاجعل بيننا وبينك موعداً) أي : اضرب بيننا وبينك أجلاً وميقاناً
(لا نُخلفه) أي : لا نجاوزه (نحن ولا أنت مكاناً) وقيل : المعنى : اجعل بيننا
وبينك موعداً مكاناً تتواعد لحضورنا ذلك المكان ، ولا يقع منّا خلاف في حضوره .
(سوى) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي بكسر السين . وقرأ
ابن عامر ، وعاصم ، وحمة ، وخلف ، ويعقوب : « سوى » بضمها . وقرأ
أبي بن كعب ، وأبو المتوكل ؛ وابن أبي عجلة : « مكاناً سواء » بالمد والهمز
والنصب والتنوين وفتح السين . وقرأ ابن مسعود مثله ، إلا أنه كسر السين . قال
أبو عبيدة : هو اسم للمكان النصف فيما بين الفريقين ، والمعنى : مكاناً تستوي مسافته
على الفريقين ، فتكون مسافة كل فريق إليه كسافة الفريق الآخر . (قال موعدكم
يوم الزينة) قرأ الجمهور برفع الميم . وقرأ الحسن ، ومجاهد ، [وقتادة] ، وابن أبي عجلة ،
وهبيرة عن حفص بنص الميم . وفي هذا اليوم أربعة أقوال .
أحدها : يوم عيد لهم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، والسدي عن أشياخه ،
وبه قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد .

والثاني : يوم عاشوراء ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .
والثالث : يوم النيروز ، ووافق ذلك يوم السبت أول يوم من السنة ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والرابع : يوم سوق لهم ، قاله سعيد بن جبير .
وأما رفع اليوم ، فقال البصريون : التقدير : وقتُ موعدكم يومُ الزينة ،
فنبأ الموعد عن الوقت ، وارتفع به ما كان يرتفع بالوقت إذا ظهر . فأما نصبه ،
فقال الزجاج : المعنى : موعدكم يقع يوم الزينة ، (وأن يُحشَرَ الناس) موضع
« أن » رفع ، المعنى : موعدكم حشر الناس (ضحى) أي : إذا رأيت الناس قد
حُشروا ضحى . ويجوز أن تكون « أن » في موضع خفض عطفاً على الزينة ،
المعنى : موعدكم يوم الزينة ويوم حشر الناس ضحى . وقرأ ابن مسعود ،
وابن يعمر ، وعاصم الجحدري : « وأن تَحشُرُ » بتاء مفتوحة ورفع الشين
ونصب « الناس » . وعن ابن مسعود ، والنخعي : « وأن يَحشُرُ » بالياء
المفتوحة ورفع الشين ونصب « الناس » .

قال المفسرون : أراد بالناس : أهل مصر ، وبالضحى : ضحى اليوم ، وإعما
علقه بالضحى ، ليتكامل ضوء الشمس واجتماع الناس ، فيكون أبلغ في الحجّة وأبعد
من الريبة .

(فتولّى فرعون) فيه قولان .

أحدهما : أن المعنى : تولّى عن الحق الذي أمر به .

والثاني : أنه انصرف إلى منزله لاستعداد ما يلقي به موسى ، (فجمع كيده)

أي : مكره وحيلته (ثم أنى) أي : حضر الموعد . (قال لهم موسى) أي : للسحرة .

وقد ذكرنا عددهم في (الأعراف : ١١٤) .

قوله تعالى : (ويلكم) قال الزجاج : هو منصوب على « أئزكم الله ويلاً »
ويجوز أن يكون على النداء ، كقوله تعالى : (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا)
[يس : ۵۲] .

قوله تعالى : (لا تفتروا على الله كذباً) قال ابن عباس : لا تشركوا
معه أحداً .

قوله تعالى : (فيسحتكم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ،
وأبو بكر عن عاصم : « فيسحتكم » بفتح الياء ، من « سحت » . وقرأ حمزة ،
والكسائي ، وحفص عن عاصم : « فيسحتكم » بضم الياء ، من « أسحت » .
قال الفراء : ويسحت أكثر ، وهو الاستئصال ، والمرب تقول : سحت الله ،
وأسحته ، قال الفرزدق :

وَعَصَّ زَمَانٍ يَا بَنَ مَرَّوَانَ لَمْ يَدَعْ

مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مُجْلَفًا^(۱)

هكذا أنشد البيت الفراء ، والزجاج . ورواه أبو عبيدة : « إِلَّا مُسْحَتٌ
أَوْ مُجْلَفٌ » بالرفع .

(۱) ديوانه : ۵۵۶ ، ود الطبري : ۱۷۸/۱۶ ، ود مجاز القرآن : ۲۱/۲ ،
ود شرح المفضليات : ۳۹۶ ، ود الجهرة : ۱۰۷/۲ ، ود اللسان ، ود التاج ، :
جلف ، سحت ، ود القرطبي : ۲۱۵/۱۱ ، ود الخزانة : ۳۴۷/۲ ، وروى :
« إِلَّا مسحت أو مجلف » كما في مجاز القرآن ، لأبي عبيدة . ومن رواه كذلك ،
جعل معنى « لم يدع » : لم ينقار ، أو بقر ، أو يستقر ، ومن رواه « إِلَّا مسحتاً » جعل
« لم يدع » معنى : لم يترك ، لم يبق ، ورفع قوله : « أو مجلف » باضمار ، كأنه قال : أو هو
مجلف . ومال مسحت ، ومسحت : مُذهب به ، مهلك . والمجلف : الذي بقيت منه بقية .
يريد : لم يترك إلا شيئاً مستأصلاً هالكاً ، أو شيئاً بقيت منه بقية .

قوله تعالى : (فتنازعوا أمرهم بينهم) يعني : السحرة تناظروا فيما بينهم في أمر موسى ، وتشاوروا (وأسرّوا النجوى) أي : أخفّوا كلامهم من فرعون وقومه . وقيل : من موسى وهارون . وقيل : « أسرّوا » هاهنا بمعنى « أظهروا » . وفي ذلك الكلام الذي جرى بينهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم قالوا : إن كان هذا ساحراً ، فانا سنغلبه ، وإن يكن من السماء كما زعمتم ، فله أمره ، قاله قتادة .

والثاني : أنهم لما سمعوا كلام موسى قالوا : ما هذا بقول ساحر ، ولكن هذا كلام الرب الأعلى ، فعرفوا الحق ، ثم نظروا إلى فرعون وسلطانه ، وإلى موسى وعصاه ، فنكسوا على رؤوسهم ، وقالوا إن هذان لساحران ، قاله الضحاك ، ومقاتل .

والثالث : أنهم (قالوا إن هذان لساحران . . .) الآيات ، قاله السدي . واختلف القراء في قوله تعالى : (إن هذان لساحران) فقرأ أبو عمرو ابن العلاء : « إن هذين » على إعمال « إن » وقال : إني لأستحي من الله أن أقرأ « إن هذان » . وقرأ ابن كثير : « إن » خفيفة « هذان » بتشديد النون . وقرأ عاصم في رواية حفص : « إن » خفيفة « هذان » خفيفة أيضاً . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي : « إن » بالتشديد « هذان » بألف ونون خفيفة . فأما قراءة أبي عمرو ، فاحتجابه في مخالفة المصحف بما روي عن عثمان وعائشة ، أن هذا من غلط الكاتب على ما حكيناه في قوله تعالى : (والمقيمين الصلاة) في سورة (النساء : ١٦٢) ^(١) . وأما قراءة عاصم ، فمنها : ما هذان إلا ساحران ،

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ : (إن هذان لساحران) لحن ، وأن عثمان رضي الله عنه قال : إن في المصحف لحناً مستقيمه العرب بالسنتها ، وهذا —

كقوله تعالى : (وإنْ نظنك لمن الكاذبين) [الشعراء : ١٨٦] أي : ماظنك إلا من الكاذبين ، وأنشدوا في ذلك :

نكثتْ أمك إن قتلتَ لمُسْلِماً حَلَّتْ عَلَيْهِ عُقُوبَةُ الْمُتَعَمِّدِ

أي : ماقتلت إلا مسلماً . قال الزجاج : ويشهد لهذه القراءة ، ما روي عن أبي ابن كعب أنه قرأ « ما هذان إلا ساحران » ، وروي عنه : « إن هذان إلا ساحران » ، ورويت عن الخليل « إن هذان » بالتخفيف ، والإجماع على أنه لم يكن أحداً أعلم بالنحو من الخليل . فأما قراءة الأكثرين بتشديد « إن » وإثبات الألف في قوله : « هذان » فروى عطاء عن ابن عباس أنه قال : هي لغة بلحارث بن كعب .

وقال ابن الأنباري : هي لغة لبني الحارث بن كعب ، وافقتها لغة قريش . قال الزجاج : وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب ، وهو رأس من رؤوس الرواة : أنها لغة لكنانة ، يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد ، يقولون : أتاني الزيدان ، ورأيت الزيدان ، وصرت بالزيدان ، وأنشدوا :

فَأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الشُّجَاعِ وَكَوْ رَأَى مَسَاغًا لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لَصَمًّا (١)

ويقول هؤلاء : ضربته بين أذناه . وقال النحويون القدماء : هاهنا هاء مضمرة ،

— خبر باطل لا يصح من وجوه ، انظر الجزء (٢٥٢/٢ - ٢٥٣) من هذا التفسير ، فانك تجد في التعليق على هذا الخبر كلاماً طويلاً ، لشيخ الاسلام ابن تيمية ، والحافظ السخاوي ، والطبري ، وغيرهم ، في رد ما نسب إلى عثمان وعائشة رضي الله عنها .

(١) البيت للتلخيص ، وهو في « الطبري » : ١٨٠/١٦ ، و « القرطبي » : ٢١٧/١١ ، و « اللسان » : صمم ، ومعنى أطرق : سكت فلم يتكلم وأرخص عينيه ينظر إلى الأرض ، والشجاع : ضرب من الحيات . ومساغاً : اسم مكان ، من ساغ يسوغ : إذا دخل ونفذ . وصمم : عض ونيب فلم يرسل ماعض . والبيت جارٍ على لغة بني الحارث بن كعب ، ومن ألف لفهم . والشاهد فيه أن قوله : « لناباه » مثنى مجرور باللام ، وقد جاء بالألف .

المعنى : إنه هذان لساحران . وقالوا أيضاً : إن معنى « إن » : نعم « هذان لساحران » ،
وينشدون :

وَيَقْتُلَنَّ شَيْبٌ قَدْ عَلَا كَ وَقد كَبِرَتْ قَلْتُ إِنَّهُ (١)

قال الزجاج : والذي عندي ، وكنتُ عرضته على عالمنا محمد بن يزيد ، وعلى إسماعيل
ابن إسحاق بن حماد بن زيد ، فقبلاه ، وذكرنا أنه أجود ما سمعناه في هذا ، وهو
أن « إن » قد وقعت موقع « نعم » ، والمعنى : نعم هذان لهما الساحران ، وبلي
هذا في الجودة مذهب بني كنانة . وأستحسن هذه القراءة ، لأنها مذهب أكثر
القراء ، وبها يُقرأ . وأستحسن قراءة عاصم ، والخليل ، لأنها إمامان ، ولأنها
واقفاً أبى بن كعب في المعنى . ولا أجيز قراءة أبي عمرو بخلاف المصحف .
وحكى ابن الأنباري عن الفراء قال : « ألف » « هذان » هي ألف « هذا » والنون
فرقت بين الواحد والثنية ، كما فرقت نون « الدين » بين الواحد والجمع .

قوله تعالى : (ويذهباً بطريقتكم) وقرأ أبان عن عاصم : « ويذهباً » بضم
الياء وكسر الميم . وقرأ ابن مسعود ، وأبى بن كعب ، وعبد الله بن عمرو ،
وأبو رجاء المطاردي : « ويذهباً بالطريقة » بألف ولام ، مع حذف الكاف والميم .
وفي الطريقة قولان .

أحدهما : بدينكم المستقيم ، رواه الضحاك عن ابن عباس . وقال أبو عبيدة :
بسننكم ودينكم وما أنتم عليه ، يقال : فلان حسن الطريقة .

(١) البيت . لبيد الله بن قيس الرقيات ، وهو في « القرطبي » : ٢١٨/١١ ، و « روح

المعاني » : ٢٠١/١٦ ، و « اللسان » : أن ، وقبله :

بَكَرَتْ عَلِيٌّ عَوَافِي بَلْحَيْتِي وَالثَّوْمِيَّةُ

أي : إنه قد كان كما قلن .

والثاني : بأمثلكم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال مجاهد : بأولي العقل ، والأشراف ، والأسنان . وقال الشعبي : بصرفان وجوه الناس إليهما . قال الفراء : الطريقة : الرجال الأشراف ، تقول العرب للقوم الأشراف : هؤلاء طريقة قومهم ، وطرائق قومهم .

فأما « المثلى » فقال أبو عبيدة : هي تأنيث الأمثل . تقول في الإناث : خذ المثلى منها ، وفي الذكور : خذ الأمثل . وقال الزجاج : ومعنى المثلى والأمثل : ذو الفضل الذي به يستحق أن يقال : هذا أمثل قومه ؛ قال : والذي عندي أن في الكلام محذوفاً ، والمعنى : يذهبوا بأهل طريقته المثلى ، وتقول العرب : هذا طريقة قومه ، أي : صاحب طريقتهم .

قوله تعالى : (فأجمعوا كيدكم) قرأ الآكثرون : « فأجمعوا » بقطع الألف من « أجمعت » . والمعنى : ليكن عزمكم مجماً عليه ، لا تختلفوا فيختل أمركم . قال الفراء : والإجماع : الإحكام والعزيمة على الشيء ، تقول : أجمعت على الخروج ، وأجمعت الخروج ، تريد : أزمعت ، قال الشاعر :

يَأْتِيَتْ شِعْرِي وَالْمُنَى لَا تَنْفَعُ هَلْ أَعْدُونَ يَوْمًا وَأَمْرِي مُجْمَعٌ^(١)
يريد : قد أحكم وعزم عليه . وقرأ أبو عمرو : « فأجمعوا » بفتح الميم من « جمعت » ، يريد : لا تدعوا من كيدكم شيئاً إلا جتمت به . فأما كيدهم ، فالمراد به : سحرهم ، ومكرهم .

قوله تعالى : (ثم اتسوا صفاً) أي : مُصْطَفَيْنِ مجتمعين ، ليكون أنظم لأموركم ، وأشدَّ لهيبتكم . قال أبو عبيدة : « صفاً » أي : صفوفاً . وقال ابن قتيبة : « صفاً » بمعنى : جمماً . قال الحسن : كانوا خمسة وعشرين صفاً ، كل ألف ساحر صفاً .

(١) البيت في « معاني القرآن » للفراء : ٤٧٣/١ غير منسوب ، وهو في « الطبري » :

١٨٣/١٦ ، و « القرطبي » : ٢٢١/١١ ، و « اللسان » : جمع .

قوله تعالى : (وقد أفلح اليوم من استعلى) قال ابن عباس : فاز من غلب .
﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَٰئِكَ مِنْ أَتَقِيٰ ۗ
قَالَ بَلْ أَتَقُوا فَإِذَا حَبَالُهُمْ وَعَصِيْبُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ
أَنهَا تَسْمَىٰ ۚ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةٌ مُّوسَىٰ ۚ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ۚ وَأَتَقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ
سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۚ قَالَتِي السَّحْرَةُ سُجْدًا قَالُوا
أَمِنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ ۚ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ
إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُظْمِنُ أَيْدِيكُمْ
وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تَصْلَبنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلْتَعْلَمُنَّ
أَيْنَأَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۚ قَالُوا لَنْ نُؤْمِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ
وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ
وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾

قوله تعالى : (بل أتقوا) قال ابن الأنباري : دخلت « بل » لمعنى : جحد
في الآية الأولى ، لأن الآية الأولى إذا نُؤْمِتْ « وجدت مشتملة على : إما أن
تلقى ، وإما أن لا تلقى .

قوله تعالى : (وَعَصِيْبُهُمْ) قرأ الحسن ، وأبو رجاة المطاردي ، وأبو عمران
الجوني ، وأبو الجوزاء : « وَعُصِيْبُهُمْ » برفع العين .

قوله تعالى : (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ) وقرأ أبو رزين العقيلي ، وأبو عبد الرحمن السلمي ،
والحسن ، وقتادة ، والزهرري ، وابن أبي عبة : « تُخَيَّلُ » بالتاء ، « إِلَيْهِ » أي :

إلى موسى . يقال : خَيْلَ إليه : إذا شُبِّهَ له . وقد استدل قوم بهذه الآية على أن السحر ليس بشيء . وقال : إنما خَيْلَ إلى موسى ، فالجواب : أنا لا تنكر أن يكون ما رآه موسى تخيلاً ، وليس بحقيقة ، فانه من الجائز أن يكونوا تركوا الزئبق في سلوخ الحيات حتى جرت ، وليس ذلك بحيات .

فأما السحر ، فانه يؤثر ، وهو أنواع . وقد سُحِرَ رسولُ الله ﷺ حتى أثر فيه (١) ،

(١) فقد روى البخاري في « صحيحه » : ١٩٢/١٠ ، ومسلم في « صحيحه » ، ١٧١٩/٤ : عن عائشة رضي الله عنها قالت : سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق يقال له : لبيد بن الأعصم ، قالت : حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله ، حتى إذا كان ذات يوم - أو ذات ليلة - دعا رسول الله ﷺ ، ثم دعا ، ثم دعا ، ثم قال : « يا عائشة ، أشمرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه ! جاءني رجلان ، فقمدا أحدهما عند رأسي ، والآخر عند رجلي » ، فقال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب (أي : مسحور) قال : من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، قال : في أي شيء ؟ قال : في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكراً ، قال : وأين هو ؟ قال : في بئر ذروان ، قالت : فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه - ثم قال : « يا عائشة والله لكان ماءها نقاعة الحناء ، ولكان نخلها رؤوس الشياطين ، قالت : فقلت : يا رسول الله أفلا أحرقتنه ؟ قال : لا ، أما أنا فقد عافاني الله ، وكرهت أن أثير على الناس شراً ، فأمرت بها فدفنت » . وفي رواية للبخاري ١٩٩/١٠ : « حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتينهن ، بدل « حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله » ، وهي موضحة ومبيّنة لما قبلها .

وحدث السحر هذا ، رواه أحمد في « المسند » ، والنسائي ، وابن سعد ، والحاكم ، وعبد بن حميد ، وابن مردويه ، والبيهقي في « دلائل النبوة » ، وغيرهم .

قال الإمام ابن القيم في « بدائع الفوائد » بما حاصله : وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث ، منلقى بالقبول بينهم ، لا يختلفون في صحته ، وقد أنكره كثير من أهل الكلام ، وقابلوه بالكذب ، وقولهم هذا مردود عند أهل العلم ، وقد اتفق أصحاب « الصحيحين » على تصحيحه ، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة ، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ ، والفقهاء ، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله ﷺ وأيامه من المتكلمين .

— ثم قال ابن القيم : وقد دل قوله تعالى : (ومن شر الفسائت في المقعد) وحديث عائشة (المتقدم ذكره) على تأثير السحر ، وأن له حقيقة ، وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم ، وقالوا : إنه لا تأثير للسحر البتة ، وإنما ذلك تخيل لأعين الناظرين لاحقيقة له سوى ذلك ، وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة ، والسلف ، واتفق عليه الفقهاء ، وأهل التفسير والحديث

ثم قال : والسحر الذي أصابه ﷺ كان مرضاً من الأمراض عارضاً - أصابه في بدنه - شفاه الله منه ، ولا نقص في ذلك ولا عيب بوجه ما ، فإن المرض يجوز على الأنبياء . ا . ه .

وقال الامام النووي في « شرح مسلم » ، ١٧٤/١٤ : قال المازري رحمه الله : مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات حقيقة السحر ، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة ، خلافاً لمن أنكره ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لاحقائق لها ، وقد ذكره الله في كتابه ، وذكر أنه بما يُتطعم ، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه بما يُكفر به ، وأنه يفرق بين المرء وزوجه ، وهذا كله لا يمكن فيما لاحقيقة له ، وهذا الحديث أيضاً مصرح بأثباته ، وأنه أشياء دفنت وأخرجت ، وهذا كله يبطل ما قالوه ، فاحالة كونه من الحقائق محال - ثم قال : - وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر ، فزعم أنه يحط منصب النبوة ، ويشكك فيها ، وأن تجويزه يمنع الثقة ، وهذا الذي ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل ، لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ ، والمعجزة شاهدة بذلك ، وتجوز ما قام الدليل بخلافه باطل ، فأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يعمد بسببها ، ولا كان مفضلاً من أجلها ، وهو مما يعرض للبشر ، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا ملاحقيقة له . قال النووي : قال القاضي عياض : وقد جاءت روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه ، لا على عقله وقلبه واعتقاده ، ويكون معنى قوله في الحديث : « حق بظن أنه يأتي أهله ولا يأتيهم » - وروى « يخيل إليه » - أي : يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهم ، فإذا دنا منهم أخذته أخذة السحر فلم يأتيهم ولم يتمكن من ذلك كما يمترى المسحور ، وكل ما جاء من الروايات من أنه يخيل إليه فعل شيء لم يفعله ، ونحوه ، فمحمول على التخيل بالبصر ، لا لخلل تطرق إلى العقل ، وليس في ذلك ما يدخل لبساً على الرسالة ولا طعناً لأهل الضلالة ، والله أعلم . ا . ه . —

— وقد نقل نحو كلام الامام النووي الحافظ ابن حجر في « فتح الباري شرح صحيح البخاري » ، ١٨٨/١٠ ، ثم قال عند قوله تعالى : (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) ١٩١/١٠ هذه الآية عمدة من زعم أن السحر إنما هو تخييل ، ولا حجة له بها ، لأن هذه الآية وردت في قصة سحرة فرعون ، وكان سحرهم كذلك (أي تخيلاً) ولا يلزم منه أن جميع أنواع السحر تخييل . اه .

وقال الحافظ أيضاً في « الفتح » ، ١٩٣/١٠ : ووقع في مرسل عبد الرحمن بن كعب عند ابن سعد : فقالت أخت لبيد بن الأعصم : إن يكن نبياً فسيُخبر ، وإلا فسيذهنه هذا السحر حتى يذهب عقله . قال الحافظ : فوق الشق الأول كما في الحديث الصحيح ، (وهو أنه أخبر) ، قال : واستدل ابن القصار بأن الذي أصابه من السحر كان من جنس المرض بقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث : « أما أنا فقد شفاني الله » . وقال الحافظ : ولم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم في خبر من الأخبار أنه قال قولاً فكان بخلاف ما أخبر به . اه .

فقد تبين مما سبق من كلام العلماء أن السحر له حقيقة ، وإلا لما أمر الله تعالى بالاستعاذة منه في سورة (الفلق) بقوله : (ومن شر الفجائن في العقدة) وهي السواحر التي يسحرن وينفثن في العقدة كما قال المفسرون ، وأنه مرض تسلط على جسده كبقية الأمراض ، وقد مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضاً شديداً حتى أغمى عليه ، وكان يقول - كما « الصحيحين » - : « لي أوعك كما بوعك رجالان منكم » ، وقد ابتلي في قومه ، وقاسى صنوفاً من الأذى . فان احتج أحد على منع السحر بقوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : (والله يعصمك من الناس) فنه جوابان كما قال المصنف ابن الجوزي رحمه الله ، أحدهما : أنه عصمه من القتل والأسر وتلف الجملة ، فأما عوارض الأذى ، فلا تمنع عصمة الجملة . والثاني : أن قوله تعالى : (والله يعصمك من الناس) من أواخر ما نزل بالمدينة . وقد سحر وأوذى قبل نزول هذه الآية . وان احتج آخر بقوله تعالى : (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) فذلك مقالة الظالمين ، ومرادهم : من سحر حتى جن وأصبح زائل العقل لا يعقل ما يقول ، فان المسحور الذي لا يتبع ، هو الذي فسد عقله بحيث لا يدري ما يقول ، فهو المجنون - والمسادون لا يقولون بمقالة الظالمين المقتربين - فأما من أسيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس ، فانه لا يمنع ذلك من اتباعه ، وقولهم : سحر الأنبياء يتنافى مع حماية الله لهم ، مردود ، فانه سبحانه وتعالى كما يحميهم ويصونهم بينليهم ويختبرهم ، فيزيدهم ذلك رفعة في درجاتهم ، ونيل كرامتهم . —

ولعن العاضبة^(۱) ، وهي الساحرة .

قوله تعالى : (فأوجس في نفسه خيفةً موسى) قال ابن قتيبة : أضر في نفسه خوفاً . وقال الزجاج : أصلها «خوفاً» ولكن الواو قلبت ياءً لانكسار ما قبلها . وفي خوفه قولان .

أحدهما : أنه خوف الطبع البشري .

— وقوله تعالى : (ولا يفلح الساحر حيث أتى) معناه : لا يسعد الساحر حيث كان ، ولا يفوز ، وليس معنى « لا يفلح » : لا يستطيع السحر ، بل إذا سحر فلا يفلح ، ولا يأمن حيث وجد ، فذلك عدم فلاحه .

هذا ماعليه جمهور المسلمين ، من المفسرين والمحدثين ، والفقهاء المحققين ، وهو أنه عليه الصلاة والسلام ، سحر وأثر في جسده ، ولم يؤثر في عقله ، وذلك لا يقدح في مقام النبوة والرسالة . ومن الناس من يحاول أن يرد بعض النصوص الصحيحة - لقصور فهمه - ظناً منه أنه بذلك لا بدع مجالاً للظن في رسالة النبي ﷺ ، ولكن العلماء المحققين تلقوا هذه النصوص بالقبول ، وبيّنوا وجه الحق فيها بعد علم ودراية ، وتمحيص وتحقيق ، فعلى المسلم أن يرجع في تفسير النصوص إلى أربابها ، والمحققين من أصحابها ، مخافة أن تزل به القدم ، والله تعالى تكفل بحفظ شريعته ، ورسالة نبيه ، فقال في كتابه : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقبض لهذا الدين أناساً قال في حقهم رسول الله ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » ، والله تعالى ولي التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

(ع)

(۱) تقدم في الجزء ۴/ ۱۹۹ عند تفسير قوله تعالى : (الذين جعلوا القرآن عضين) قول المصنف : وفي الحديث أن رسول الله ﷺ « لعن العاضبة والمستمضبة » ، وهو حديث ضعيف . قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » : ۹۴ : رواه أبو يعلى ، وابن عدي من حديث ابن عباس ، وفي إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام ، وهما ضعيفان ، وله شاهد عند عبد الرزاق من رواية عن ابن جريج عن عطاء . اه كلام ابن حجر . ومعنى العاضبة والمستمضبة : الساحرة والمستحجرة .

زاد المسبر ۵ م (۲۰)

والثاني : أنه لما رأى سحرهم من جنس ما أراهم في العصي ، خاف أن يلتبس على الناس أمره ، ولا يؤمنوا ، فقبل له : (لا تخف إني أنت الأعلى) عليهم بالظفر والغلبة . وهذا أصح من الأول .

قوله تعالى : (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ) يعني : العصا (تلقف) وقرأ ابن عاصم : « تلقف ما » برفع الفاء وتشديد القاف . وروى حفص عن عاصم : « تلقف » خفيفة . وكان ابن كثير يشدد التاء من « تلقف » يريد : « تلقف » . وقرأ ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وسعيد بن جبير ، وأبو رجاء : « تلقم » بالميم . وقد شرحناها في (الأعراف : ١١٧) ، (إنما صنعوا كيد ساحر) قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : « كيد سحر » . وقرأ الباقر : « كيد ساحر » بألف ، والمعنى : إن الذي صنعوا كيد ساحر ، أي : عمل ساحر . وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : « إنما صنعوا كيداً » بنصب الدال . (ولا يفلح الساحر) قال ابن عباس : لا يسمد حينما كان . وقيل : لا يفوز . وروى جندب بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أخذتم الساحر فاقتلوه ، ثم قرأ (ولا يفلح الساحر حيث أتى) ، قال : لا يأمن حيث وجد »^(١) .

قوله تعالى : (قال آمنتم له) قرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم ، وورش عن نافع : « آمنتم له » على لفظ الخبر . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عاصم : « آمنتم له » بهمزة ممدودة . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « آمنتم له » بهمزتين الثانية ممدودة .

(١) ذكره ابن كثير ١٥٨/٣ من رواية ابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله البجلي ، وقال : وقد روى أصله الترمذي موقوفاً ومرفوعاً .

قوله تعالى : (إنه لكبيركم) قال ابن عباس : يريد معلّمكم . قال الكسائي : الصبي بالحجاز إذا جاء من عند معلّمه ، قال : جئت من عند كبير .
 قوله تعالى : (ولا صلبنكم في جنوع النخل) « في » بمعنى « على » ، ومثله : (أم لهم سلّم يستمعون فيه) [الطور : ۳۸] . (وتعلمن) أيها السحرة (أئنا أشدّ عذاباً) لكم (وأبقي) أي : أدوم ، أنا على إيمانكم ، أو ربّ موسى على تركهم الإيمان به ؛ (قالوا لن نؤثرك) أي : لن نختارك (على ما جاءنا من بينات) يعنون اليد والعصى .
 فان قيل : لم نسبوا الآيات إلى أنفسهم بقولهم : « جاءنا » وإنما جاءت عامة لهم ولنغيرم .

فالجواب : أنهم لما كانوا بأبواب السحر ومذاهب الاحتيال أعرف من غيرهم ، وقد علموا أن ما جاء به موسى ليس بسحر ، كان ذلك في حق غيرهم أبين وأوضح ، وكانوا هم لمعرفته أخص .

وفي قوله تعالى : (والذي فطرنا) وجهان ذكرهما الفراء ، والزجاج .
 أحدهما : أن المعنى : لن نؤثرك على ما جاءنا من بينات ، وعلى الذي فطرنا .
 والثاني : أنه قسم ، تقديره : وحقّ الذي فطرنا .

قوله تعالى : (فاقض ما أنت قاض) أي : فاصنع ما أنت صانع . وأصل القضاء : عمل بأحكام (وإنما تقضي هذه الحياة الدنيا) قال الفراء : « إنما » حرف واحد ، فلهذا نصب : « الحياة الدنيا » . ولو قرأ قارئ برفع « الحياة » لجاز ، على أن يجعل « ما » في منزه « الذي » ، كقولك : إن الذي تقضي هذه الحياة الدنيا . وقرأ ابن أبي عمير ، وأبو المتوكل : « إنما تقضي » بضم التاء على ما لم يُسمّ فاعله ، « الحياة » برفع التاء .
 قال المفسرون : والمعنى : إنما سلطانك وملكك في هذه الدنيا ، لا في الآخرة .

قوله تعالى : (ليغفر لنا) يعنون الشرك (وما أكرهتنا عليه) أي : والذي

أكرهتنا عليه ، أي : ويغفر لنا إكراهك إيانا على السحر .

فان قيل : كيف قالوا : أكرهتنا ، وقد قالوا : « إِنْ لَنَا لِأَجْرًا » ، وفي هذا

دليل على أنهم فعلوا السحر غير مكرهين ؛ فمعه أربعة أجوبة .

أحدها : أن فرعون كان يكره الناس على تعلّم السحر ، قاله ابن عباس .

قال ابن الأنباري : كان يطالب بعض أهل مملكته بأن يعطوا أولادهم السحر

وهم لذلك كارهون ، وذلك لشغفه بالسحر ، ولما خامر قلبه من خوف موسى ،

فالإكراه على السحر ، هو الإكراه على تعلّمه في أول الأمر .

والثاني : أن السحرة لما شاهدوا موسى بعد قولهم : « أَتِنَا لِأَجْرًا »

ورأوا ذكره الله تعالى وسلوكه منهاج المتقين ، جزعوا من ملاقاته بالسحر ،

وحذروا أن يظهر عليهم فيطّلع على ضعف صناعتهم ، فتفسد معيشتهم ، فلم يقنع

فرعون منهم إلا بمعارضة موسى ، فكان هذا هو الإكراه على السحر .

والثالث : أنهم خافوا أن يُغلبوا في ذلك الجمع ، فيقدح ذلك في صنعهم عند

الملوك والشوّق^(١) ، وأكرههم فرعون على فعل السحر .

والرابع : أن فرعون أكرههم على مفارقة أوطانهم ، وكان سبب ذلك السحر ،

ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري .

قوله تعالى : (والله خير) أي : خير منك ثواباً إذا أطيع (وأبقى) عقاباً

إذا عصي ، وهذا جواب قوله : « وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى » ؛ وهذا آخر

الإخبار عن السحرة .

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا

(١) الشوّق : جمع سوفة ، وهم بمنزلة الرعية التي تسمى الملوك ، ومن لم يكن ذا سلطان .

وَلَا يَحْيِي . وَمَنْ بَيَّنَّهٖ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ
الدَّرَجَاتُ الْعُلَى . جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاؤُا مَنْ تَزَكَّى ﴿

قوله تعالى : (إنه من يأت ربه مجرماً) يعني : مشركاً (فان له جهنم
لا يموت فيها) فيستريح (ولا يحيى) حياة تنفعه .

[أنشد ابن الأنباري في مثل هذا المعنى قوله :

أَلَا مَنْ لِنَفْسٍ لَا تَمُوتُ فَيَنْقُضِي شَقَاهَا وَلَا تَحْيَا حَيَاةً لَهَا طَعْمٌ]^(۱)

قوله تعالى : (قد عمل الصالحات) قال ابن عباس : قد أدى الفرائض ،
(فأولئك لهم الدرجات العلى) يعني : درجات الجنة ، وبعضها أعلى من بعض .
والعلى ، جمع العليا ، وهو تأنيث الأعلى . قال ابن الأنباري : وإنما قال : « فأولئك » ،
لأن « من » تقع بلفظ التوحيد على تأويل الجمع . فإذا غلب لفظها ، وحده الراجع إليها ،
وإذا بُيِّنَ تأويلها ، جمع المصروف إليها .

قوله تعالى : (وذلك) يعني الثواب (جزاء من تزكى) أي : تطهر من
الكفر والمعاصي .

﴿ وَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ
طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى . فَأَثَبْنَاهُمْ
فِرْعَوْنَ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ . وَأَضَلَّ فِرْعَوْنَ
قَوْمَهُ وَمَاهَدَىٰ . يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ
وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ .
كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ

(۱) ما بين المقفين زيادة من النسخة الاستنبولية ، والبيت في « القرطبي » : ۲۲۷/۱۱ ،

و « اللسان » : طعم .

غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ . وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِّمَنْ
تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ *

قوله تعالى : (أَنْ أُسْرَ بعبادي) أي : سِر بهم ليلاً من أرض مصر
(فاضرب لهم طريقاً) أي : اجعل لهم طريقاً (في البحر يَبَساً) قرأ أبو المتوكل ،
والحسن ، والنخعي : « يَبَساً » باسكان الباء . وقرأ الشعبي ، وأبو رجا ، وابن
السميع : « يابساً » بألف . قال أبو عبيدة : اليبس ، متحرك الحروف ، بمعنى اليابس ،
يقال : شاة ييس ، أي : يابسة ليس لها لبن . وقال ابن قتيبة : يقال لليابس :
يَيْس ، وَيَبَس .

قوله تعالى : (لا تخاف) قرأ الاكثرون بألف . وقرأ أبان ، وحمة عن
عاصم : « لا تخف » . قال الزجاج : من قرأ « لا تخاف » ، فالمعنى : لست تخاف ،
ومن قرأ « لا تخف » ، فهو نهي عن الخوف . قال الفراء : قرأ حمزة : « لا تخف »
بالجزم ، ورفع « ولا تخشى » على الاستئناف ، كقوله تعالى : (يُولِثُوكُمُ الْأَدْبَارَ
ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ) [آل عمران : ١١١] استأنف بـ « ثم » ، فهذا مثله ، ولو نوى
حمزة بقوله : « ولا تخش » الجزم وإن كانت فيه الياء ، كان صواباً . قال
ابن قتيبة : ومعنى (دركاً) لحاقاً . قال المفسرون : قال أصحاب موسى : هذا
فرعون قد أدركنا ، وهذا البحر بين أيدينا ، فأنزل الله على موسى (لا تخاف دركاً)
أي : من فرعون (ولا تخشى) غرقاً في البحر .

قوله تعالى : (فَأَتَّبِعَهُمْ فرعون) قال ابن قتيبة : لحقهم . وروى هارون
عن أبي عمرو : « فَأَتَّبِعَهُمْ » بالتشديد . وقال الزجاج : تبع الرجل الشيء ، وأتبعه ،
بمعنى واحد . ومن قرأ بالتشديد ، ففيه دليل على أنه اتبعهم ومعه الجنود . ومن
قرأ « فَأَتَّبِعَهُمْ » ، فعناه : ألحق جنوده بهم ، وجاز أن يكون معهم على هذا اللفظ ،

وجائز أن لا يكون، إلا أنه قد كان معهم . (فغشيتهم من اليم ماغشيتهم) أي : فغشيتهم من ماء البحر ماغرقتهم . وقال ابن الأنباري : ويعني بقوله : « ماغشيتهم » البعض الذي غشيتهم ، لأنه لم يفتشهم كل مائه . وقرأ ابن مسعود ، وعكرمة ، وأبو رجاء ، والأعمش : « فغشيتهم من اليم ماغشيتهم » بألف فيها مع تشديد الشين وحذف الياء . قوله تعالى : (وأضل فرعون قومه) أي : دعاهم إلى عبادته (وما هدى) أي : [ما] أرشدهم حين أوردتهم موارد الهلكة . وهذا تكذيب له في قوله : (وما أهديتكم إلا سبيل الرشاد) [غافر : ٢٩] .

قوله تعالى : (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) لاخذ التوراة . وقد ذكرنا في (مريم : ٥٢) معنى « الأيمن » ، وذكرنا في (البقرة : ٥٧) « المن والسلوى » [قوله تعالى : (كلوا) أي : وقلنا لهم : كلوا] .

قوله تعالى : (ولا تطغوا) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لا تطغوا في نعمي [فظلموا] . والثاني : لا تعبدوا نعمي فتكونوا طاغين . والثالث : لا تدخروا منه لاكثر من يوم وليلة .

قوله تعالى : (فيجلى عليكم غضبي) أي : فتجب لكم عقوبتي . والجمهور قرؤوا « فيجلى » بكسر الحاء (ومن يحل) بكسر اللام . وقرأ الكسائي : « فيجلى » بضم الحاء (ومن يحل) بضم اللام . قال الفراء : والكسر أحب إلي ، لأن الضم من الحلول ، ومعناه : الوقوع ، و « يحل » بالكسر ، يجب ، وجاء التفسير بالوجوب ، لا بالوقوع .

قوله تعالى : (فقد هوى) أي : هلك .

قوله تعالى : (وإني لنفّار) الغفار : الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أخرى ، فكلمتا تكررت ذنوبهم تكررت مغفرته ، وأصل الغفر : الستر ، وبه سمي [زئبر] الثوب :

غفراً ، لأنه يستر سداه . فالفقار : الستار لذنوب عباده ، المسبل عليهم ثوب عطفه .

قوله تعالى : (لمن تاب) قال ابن عباس : لمن تاب من الشرك (وآمن)

أي : وحّد الله وصدّقه ، (وعمل صالحاً) أدّى الفرائض .

وفي قوله تعالى : (ثم اهتدى) ثمانية أقوال .

أحدها : علم أن لعملة هذا ثواباً ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني :

لم يشكك ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث : علم أن ذلك نوبيق

من الله [له] ، رواه عطاء عن ابن عباس . والرابع : لزم السنة والجماعة ، قاله سعيد

ابن جبیر . والخامس : استقام ، قاله الضحاك . والسادس : لزم الإسلام حتى يموت

عليه . قاله قتادة . والسابع : اهتدى كيف يعمل ، قاله زيد بن أسلم . والثامن :

اهتدى إلى ولاية بيت النبي ﷺ ، قاله ثابت البناني .

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ۚ قَالَ مُّمُّ أَوْلَاءٍ عَلَيَّ أَنْتَرِي

وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۚ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن

بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ۚ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ

أَسْفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّآ حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ

الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمُ

مَوْعِدِي ۚ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا

مِن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ۚ فَأَخْرَجَ

لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ

أَفِيلاً بَرُونَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ

قوله تعالى : (وما أعجلك عن قومك يا موسى) قال المفسرون : لما نجى

الله تعالى بني إسرائيل وأغرق فرعون ، قالوا : يا موسى ، لو أتيتنا بكتاب من

عند الله ، فيه الحلال والحرام والفرائض ، فأوحى الله [إليه يَعبُدُهُ] أنه ينزل عليه ذلك في الموضع الذي كلمه فيه ، فاختر سبعين ، فذهبوا معه إلى الطور لأخذ التوراة ، فمَجَل موسى من بينهم شوقاً إلى ربه ، وأمرهم بلحاظه ، فقال الله تعالى له : ما الذي حملك على العجلة عن قومك ، (قال هم أولاء) أي : هؤلاء (على أثري) ، وقرأ أبو رزين العقيلي ، وعاصم الجحدري : « على إثري » بكسر الهمزة وسكون الراء . وقرأ عكرمة ، وأبو المتوكل ، وابن يعمر ، برفع الهمزة وسكون الراء . وقرأ أبو رجاء ، وأبو العالية : بفتح الهمزة وسكون الراء . والمعنى : هم بالقرب مني يأتون بعدي (وعجلت إليك رب لترضى) أي : لتزداد رضياً ، (قال فإنا قد قتنا قومك) قال الزجاج : ألقيناهم في فتنة ومحنة ، واختبرناهم .

قوله تعالى : (من بعدك) أي : من بعد انطلاقتك من بينهم (وأضلّهم السامريّ) أي : كان سبباً لإضلالهم . وقرأ معاذ القاري ، وأبو المتوكل ، وعاصم الجحدري ، وابن السميع : « وأضلّهم » برفع اللام . وقد شرحنا في (البقرة : ٥٢) سبب اتخاذ السامري العجل ، وشرحنا في (الأعراف : ١٥٠) معنى قوله تعالى : (غضبان أسفاً) .

قوله تعالى : (ألم يعدّكم ربكم وعداً حسناً) أي : صدقاً ، وفيه ثلاثة أقوال . أحدها : إعطاء التوراة . والثاني : قوله : (لئن أقمم الصلاة) إلى قوله : (لا كفرت عنكم سيئاتكم . . .) الآية : [المائدة : ١٣] ، وقوله : (وإني لغفار لمن تاب) [طه : ٨٢] . والثالث : النصر والظفر .

قوله تعالى : (أفضال عليكم العهد) أي : مدة مفارقتي إياكم (أم أردتم أن يحوّل عليكم غضب من ربكم) أن تصنعوا صنيعاً يكون سبباً لغضب ربكم (فأخلفتم موعدتي) أي : عهدتي ، وكانوا قد ماهدوه أنه إن فكسهم الله من ملكة آل فرعون ، أن يعبدوا

الله ولا يشركوا به ، وقيموا الصلاة ، وينصروا الله ورسوله . (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : بكسر الميم ، وقرأ نافع ، وعاصم : بفتح الميم . وقرأ حمزة ، والكسائي : بضم الميم . قال أبو علي : وهذه لغات . وقال الزجاج : المُلْك ، بالضم : السلطان والقدرة . والمِلْك ، بالكسر : ما حوته اليد . والمُلْك ، بالفتح : المصدر ، يقال : ملكت الشيء ، أملكه ملكاً .

وللمفسرين في معنى الكلام أربعة أقوال .

أحدها : ما كنا نملك الذي اتخذ منه العجل ، ولكنها كانت زينة آل فرعون ،

فقدفناها ، قاله ابن عباس .

والثاني : بطاقتنا ، قاله قتادة ، والسدي .

والثالث : لم نملك أنفسنا عند الوقوع في البليّة ، قاله ابن زيد .

والرابع : لم يملك مؤمنونا سفهائنا ، ذكره الماوردي .

فيخرج فيمن قال هذا لموسى قولان . أحدهما : أنهم الذين لم يعبدوا العجل .

والثاني : طابوه .

قوله تعالى : (ولكننا حملنا أوزاراً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ،

وحفص عن عاصم : « حملنا » بضم الحاء وتشديد الميم . وقرأ أبو عمرو ،

وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « حملنا » خفيفة . والأوزار : الأثقال .

والمراد بها : حلي آل فرعون الذي كانوا استعاروه منهم قبل خروجهم من مصر .

فمن قرأ « حملنا » بالتشديد ، فالمعنى : حملنا |ها| موسى ، أمرنا باستعارتها من آل فرعون ،

(فقدفناها) أي : طرحناها في الحفيرة . وقد ذكرنا سبب قذفهم إياها في سورة

(البقرة : ۵۲) .

قوله تعالى : (فكذلك ألقى السامري) فيه قولان .

أحدهما : أنه ألقى حلياً كما ألقوا .

والثاني : ألقى ما كان معه من تراب حافر فرس جبريل . وقد سبق شرح القصة في (البقرة : ٥٢) ، وذكرنا في (الأعراف : ١٤٨) معنى قوله تعالى : (عجلًا جسداً له خوار) .

قوله تعالى : (فقلوا هذا إلهكم) هذا قول السامري ومن وافقه من الذين اقتنوا .

قوله تعالى : (فسي) في المشار إليه بالنسيان قولان .

أحدهما : أنه موسى . ثم في المعنى ثلاثة أقوال . أحدها : هذا إلهكم وإله موسى فسي موسى أن يخبركم أن هذا إلهه ، رواه عكرمة عن ابن عباس . والثاني : فسي موسى الطريق إلى ربه ، روي عن ابن عباس أيضاً . والثالث : فسي موسى إلهه عندكم ، وخالفه في طريق آخر ، قاله قتادة .

والثاني : أنه السامري ، والمعنى : فسي السامري إيمانه وإسلامه ، قاله ابن عباس . وقال مكحول : فسي ، أي : فترك السامري ما كان عليه من الدين . وقيل : فسي أن العجل لا يرجع إليهم قولاً ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفماً . فلي هذا القول ، يكون قوله تعالى : (فسي) من إخبار الله عز وجل عن السامري . وعلى ما قبله ، فيمن قاله قولان .

أحدهما : أنه السامري . والثاني : بنو إسرائيل .

قوله تعالى : (أفلا يرون ألا يرجع) قال الزجاج : المعنى : أفلا يرون أنه لا يرجع (إليهم قولاً) .

﴿ وَتَقَدَّرَ قَالَهُمْ هَرُونَ مِنْ قَبْلُ يَأْتُونَ إِيَّامًا قَتَيْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي . قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ

عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ . قَالَ يَا هَرُونَ مَا مَنَعَكَ
إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَأَلَّا تَتَّبِعُنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي . قَالَ يَبْنَؤُمْ
لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ
بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿

قوله تعالى : (ولقد قال لهم هارون من قبل) أي : من قبل أن يأتي موسى
(يا قوم إنما فتنتم به) أي : ابتليتم (وإن ربكم الرحمن) لا العجل ، (قالوا لن
نبرح عليه عاكفين) أي : لن نزال مقيمين على عبادة العجل (حتى يرجع إلينا
موسى) فلما رجع موسى (قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا) بعبادة
العجل (ألا تتبغني) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « ألا تتبغني » بياء في الوصل
ساكنة ، ويقف ابن كثير بالياء ، وأبو عمرو بغير ياء . وروى إسماعيل بن جعفر
عن نافع : « ألا تتبغني أفعصيت » بياء منصوبة . وروى قالون عن نافع مثل
أبي عمرو سواء . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمة ، والكسائي : بغير ياء في
الوصل ، والوقف . والمعنى : ما منعك من اتباعي . و « لا » كلمة زائدة .

وفي المعنى ثلاثة أقوال .

أحدها : تسير ورأى بن معك من المؤمنين ، وتفارقهم . رواه سعيد بن جبیر
عن ابن عباس .

والثاني : أن تناجزهم القتال ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : في الإنكار عليهم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (أفعصيت أمري) وهو قوله في وصيته إياه « اخلفني في قومي
وأصلح » قال المفسرون : ثم أخذ برأس أخيه ولحيته غضباً منه عليه . وهذا وإن لم

يذكر هاهنا ، فقد ذكر في (الأعراف : ١٥٠) فَاكْتَفَى بِذَلِكَ ، وقد شرحنا هناك معنى « يا ابن أم » واختلاف القراء فيها .

قوله تعالى : (ولا برأسي) أي : بشعر رأسي . وهذا الغضب كان لله عز وجل ، لا لنفسه ، لأنه وقع في نفسه أن هارون عصى الله بترك اتباع موسى .

قوله تعالى : (إني خشيتُ) أي : إن فارقتهم واتبعتك (أن تقول فرقت بين بني إسرائيل) وفيه قولان .

أحدهما : باتباعي إياك ومن معي من المؤمنين . والثاني : بقتالي لبعضهم ببعض .

وفي قوله تعالى : (ولم ترعب قولي) قولان .

أحدهما : لم ترعب قولي لك : « اخلفني في قومي وأصلح » .

والثاني : لم تنتظر أمري فيهم .

﴿ قَالَ فَاخْطَبُكَ يَا سَامِرِي ۗ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلتُ لِي نَفْسِي . قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا . إِنَّمَا إِلْهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلْهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ ﴾

قوله تعالى : (فاخطبك يا سامري) أي : ما أمرك وشأنك الذي دعاك إلى

ما صنعت ؟ قال ابن الأثيري : وبعض اللغويين يقول : الخطب مشتق من الخطاب .

المعنى : ما أمرك الذي تخاطب فيه ؟ !

واختلفوا في اسم السامري على قولين .

أحدهما : موسى أيضاً ، قاله وهب بن منبه ، وقال : كان ابن عم موسى بن عمران .

والثاني : ميخا ، قاله ابن السائب .

وهل كان من بني إسرائيل ، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدهما : لم يكن منهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : كان من عظمائهم ، وكان من قبيلة تسمى « سامرة » ، قاله قتادة .

وفي بلده قولان .

أحدهما : كرمان ، قاله سعيد بن جبیر . والثاني : باجرما ، قاله وهب .

قوله تعالى : (بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ) وقرأ حمزة والكسائي :

« تَبصروا » ، بالتاء . فعلى قراءة الجمهور أشار إلى بني إسرائيل ، وعلى هذه القراءة

خاطب الجميع . قال أبو عبيدة : علمت ما لم تعلموا . قال : وقوم يقولون : بصرت ،

وأبصرت سواء ، بمنزلة أسرع ، وسرعت . وقال الزجاج : يقال : بصر الرجل

يبصر : إذا صار عليمًا بالشيء ، وأبصر يبصر : إذا نظر . قال المفسرون : فقال له

موسى : وما ذلك ؟ قال : رأيت جبريل على فرس ، فألقي في نفسي : أن اقبض من

أثرها (فقبضت قبضة) ، وقرأ أبي بن كعب ، والحسن ، ومعاذ القاري : « قبضة »

بالصاد . وقال الفراء : والقبضة بالكف كَلْبِهَا ، والقبضة - بالصاد - بأطراف الأصابع .

قال ابن قتيبة : ومثل هذا : الخضم بالفم كله ، والقضم بأطراف الأسنان ، والنضغ

أكثر من النضغ ، والرجز : العذاب ، والرجس : التن ، والمهلاس في البدن ، والسلاس

في العقل ، والغلط في الكلام ، والغلت في الحساب ، والخصر : الذي يجرد البرد ، والخرص :

الذي يجرد البرد والجوع ، والنار الخامدة : التي قد سكن لهبها ولم يطفأ جرها ،

والهامدة : التي طفتت فذهبت البتة ، والشكند : العطاء ابتداءً ، فإن كان جزاءً

فهو شككم ، والمائع : الذي يدخل البئر فيملاً الدلو ، والمائع : الذي ينزعها .

قوله تعالى : (فنبذتها) أي : فقدقتها في المعجل . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ،

والكسائي ، وخلف : « فنبذتها » بالإدغام (وكذلك) أي : وكما حدثتك (سوّلت)
 لي نفسي (أي : زبّنت لي) قال (موسى) اذهب (أي : من بيننا) فان
 لك في الحياة (أي : ما دمت حياً) أن تقول لا مساس (أي : لا أمس ولا أمس ،
 فصار السامريُّ يهيم في البريّة مع الوحش والسباع ، لا يمسه أحد ، ولا يمسه
 أحد ، عاقبه الله بذلك ، وألممه أن يقول : « لا مساس » ، وكان إذا لقي أحداً
 يقول : لا مساس ، أي : لا تقربني ، ولا تمسني ، وصار ذلك عقوبة لولده ، حتى
 إن بقيام اليوم ، فيما ذكر أهل التفسير ، بأرض الشام يقولون ذلك . وحكي أنه
 إن مس واحداً من غيرهم واحداً منهم ، أخذتها الحمى في الحال .

قوله تعالى : (وإن لك موعداً) أي : لعذابك يوم القيامة (لن تُخلفه)
 أي : لن يتأخر عنك . ومن كسر لام « تخلف » أراد : لن تغيب عنه .

قوله تعالى : (وانظر إلى آلهك) يعني : العجل (الذي ظلت) قال
 ابن عباس : معناه : أقت عليه . وقال الفراء : معنى « ظلت » : فعلته نهاراً . وقرأ
 أبي بن كعب ، وأبو الجوزاء ، وابن يعمر : « ظلت » برفع الظاء . وقرأ
 ابن مسعود ، وأبو رجاء ، والأعمش ، وابن أبي عمير : « ظلت » بكسر الظاء .
 وقال الزجاج : « ظلت » و « ظلت » بفتح الظاء ، وكسرهما ، فن فتح ،
 فالأصل فيه : « ظلت » ولكن اللام حذفت لثقل التضعيف والكسر ، وبقيت
 الظاء على فتحها ، ومن قرأ : « ظلت » بالكسر ، حوّل كسرة اللام على الظاء .
 ومعنى (عاكفاً) مقياً ، (لنحرقنّه) قرأ الجمهور « لنحرقنّه » بضم النون وفتح
 الحاء وتشديد الراء . وقرأ علي بن أبي طالب ، وأبو رزين ، وابن يعمر :
 « لنحرقنه » بفتح النون وسكون الحاء ورفع الراء مخففة . وقرأ أبو هريرة ،
 والحسن ، وقادة : « لنحرقه » برفع النون وإسكان الحاء وكسر الراء

تنففة . قال الزجاج : إذا شدد ، فالمعنى : نحرقة مرة بعد مرة . وتأويل « لنحرقنه » :
لنبردنه ، يقال : حرقت أحرق وأحرق : إذا بردت الشيء . والنسف : التذرية . وجاء
في التفسير : أن موسى أخذ العجل فذبحه ، فسأل منه دم ، لأنه كان قد صار
لحمًا ودمًا ، ثم أحرقه بالنار ، ثم ذراه في البحر ، ثم أخبرهم موسى عن إلههم ،
فقال : (إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو) أي : هو الذي يستحق العبادة ،
لا العجل ، (وسع كل شيء علماً) أي : وسع علمه كل شيء .

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ
مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا . مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا .
خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا . يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ
وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا . يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ
إِلَّا عَشْرًا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً
إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾

قوله تعالى : (كذلك نقص عليك) أي : كما قصصنا عليك يا محمد من نبأ
موسى وقومه ، نقص عليك (من أنباء ما قد سبق) أي : من أخبار من مضى ،
والذکر هاهنا : القرآن (من أعرض عنه) فلم يؤمن ، ولم يعمل بما فيه (فانه
يحمل يوم القيامة) وقرأ عكرمة ، وأبو المتوكل ، وعاصم الجحدري : « يُحْمَلُ »
برفع الباء وفتح الحاء وتشديد الميم ، (وزراً) أي : إثمًا (خالدين فيه) أي :
في عذاب ذلك الوزر (وساء لهم) قال الزجاج : المعنى : وساء الوزر لهم يوم
القيامة (حملاً) ، و « حملاً » منصوب على التمييز .

قوله تعالى : (يوم ينفخ في الصور) قرأ أبو عمرو : « ينفخ » بالنون .
وقرأ الباقر من السبعة : « ينفخ » بالياء ، على ما لم يسم فاعله . وقرأ أبو عمران الجوني :

« يوم ينفخ » بياء مفتوحة ورفع الفاء ، وقد سبق بيانه . (ونحشر المجرمين)
 وقرأ أبي بن كعب ، وأبو الجوزاء ، وطلحة بن مصرف : « ويحشر » بياء
 مفتوحة ورفع الشين . وقرأ ابن مسعود ، والحسن ، وأبو عمران : « ويحشر »
 بياء مرفوعة وفتح الشين « المجرمون » بالواو . قال المفسرون : والمراد بالمجرمين :
 المشركون . (يومئذ زرقاً) وفيه قولان .

أحدهما : عمياً ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . وقال ابن قتيبة : يرض
 العيون من العمى ، قد ذهب السواد ، والناظر .

والثاني : زرق العيون من شدة العطش ، قاله الزهري . والمراد : أنه يشوه
 خلقهم بسواد الوجوه ، وزرق العيون .

قوله تعالى : (يتخافتون بينهم) أي : يسار بعضهم بعضاً (إن لبئس) أي :
 ما لبئس إلا عشر ليال . وهذا على طريق التقليل ، لا على وجه التحديد .
 وفي مرادهم بتكان هذا اللبس قولان .

أحدهما : القبور . ثم فيه قولان . أحدهما : أنهم عَنُوا طول ما لبثوا فيها ،
 روى أبو صالح عن ابن عباس : إن لبئس بعد الموت إلا عشرأ . والثاني : ما بين
 النفختين ، وهو أربعون سنة ، فانه يخفف عنهم العذاب حينئذ ، فيستقلون مدة
 لبئس لهول ما يعاينون ، حكاه علي بن أحمد النيسابوري .

والقول الثاني : أنهم عَنُوا لبئس في الدنيا ، قاله الحسن ، وقتادة .

قوله تعالى : (إذ يقول أمثلهم طريقة) أي : أعقلهم ، وأعدلهم قولاً (إن
 لبئس إلا يوماً) فبني القوم مقدار لبئس لهول ما عاينوا .

راد السير ۵ م (۲۱)

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا . يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَعِوَجٍ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا . يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا . وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا . وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا . وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

قوله تعالى : (ويسألونك عن الجبال) سبب نزولها أن رجلاً من تقيف أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا يا محمد : كيف تكون الجبال يوم القيامة ؟ فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس (۱) .

قوله تعالى : (فقل ينسفها ربي نسفاً) قال المفسرون : النسف : التذرية . والمعنى : يصيرها رمالاً تسيل سيلاً ، ثم يصيرها كالصوف المنفوش ، تطيرها الرياح فتستأصلها (فيذرها) أي : يدع أما كتبها من الأرض إذا نسفها (قاعاً) قال ابن قتيبة : القاع من الأرض : المستوي الذي يعلوه الماء ، والصفصف : المستوي أيضاً ، يريد : أنه لا نبت فيها .

قوله تعالى : (لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً) في ذلك ثلاثة أقوال .

(۱) ذكره السيوطي في الدر ، : ۳۰۷/۴ من رواية ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قريش : يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة ، فنزلت : (ويسألونك عن الجبال ...) الآية .

أحدها : أن المراد بالمِوَج : الأودية ، وبالأمّت : الرّواي ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وكذلك قال مجاهد : المِوَج : الانخفاض ، والأمّت : الارتفاع ، وهذا مذهب الحسن . وقال ابن قتيبة : الأمّت : النّبك .
والثاني : أن المِوَج : الميثل ، والأمّت : الأثر مثل الشراك ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أن المِوَج : الصدع ، والأمّت : الأكمة .

قوله تعالى : (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدّاعِيَ) قال الفراء : أي : يتبعون صوت الداعي للحشر ، لا عِوَجَ لهم عن دعائه : لا يقدرّون أن لا يتبعوا .
قوله تعالى : (وَخَشَعَتِ الأصوات) أي : سكنت وخفيت (فلا تسمعُ إلاّ همساً) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : وطء الأقدام ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبیر ، وعكرمة ، ومجاهد في رواية ، واختاره الفراء ، والزجاج .

والثاني : تحريك الشفاه بغير نطق ، رواه سعيد بن جبیر عن ابن عباس .
والثالث : الكلام الخفي ، روي عن مجاهد . وقال أبو عبيدة : الصوت الخفي .
قوله تعالى : (يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشفاعة) يعني : لا تنفع أحداً (إلا من أذن له الرحمن) أي : إلا شفاعة من أذن له الرحمن ، أي : أذن أن يُشفع له ، (ورضي له قولاً) أي : ورضي للمشفوع فيه قولاً ، وهو الذي كان في الدنيا من أهل « لا إله إلا الله » . (يعلم ما بين أيديهم) الكناية راجعة إلى الذين يتبعون الداعي . وقد شرحنا هذه الآية في سورة (البقرة : ۲۵۵) .

وفي هاء « به » قولان .

أحدها : أنها ترجع إلى الله تعالى ، قاله مقاتل . والثاني : إلى « ما بين أيديهم وما خلفهم » ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (وَعَنْتِ الرَّجُلُ) قال الزجاج : « عَنْتٌ » في اللغة : خضعت ، يقال : عنا بعنو : إذا خضع ، ومنه قيل : أخذت البلاد عنوةً : إذا أخذت غلبةً ، وأخذت بمخضوع من أهلها . والمفسرون : على أن هذا في يوم القيامة ، إلا ما روي عن طلق بن حبيب : هو وضع الجبهة والأنف والكفتين والرُّكبتين وأطراف القدمين على الأرض للسجود . وقد شرحنا في آية الكرسي معنى « الحي القيوم » [البقرة: ۲۵۵] .

قوله تعالى : (وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) قال ابن عباس : خسر من أشرك بالله .

قوله تعالى : (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) « مِنْ » هاهنا للجنس . وإنا شرط الإيمان ، لأن غير المؤمن لا يُقبل عمله ، ولا يكون صالحاً ، (فلا يخاف) أي : فهو لا يخاف . وقرأ ابن كثير : « فلا يخف » على النهي .

قوله تعالى : (ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) فيه أربعة أقوال .

أحدها : لا يخاف أن يُظلم فيزاد في سيئاته ، ولا أن يُهضم من حسناته ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : لا يخاف أن يُظلم فيزد من ذنب غيره ، ولا أن يُهضم من حسناته ، قاله قتادة .

والثالث : أن لا يخاف أن يؤخذ بما لم يعمل ، ولا يُنقص من عمله الصالح ، قاله الضحاك .

والرابع : لا يخاف أن لا يُجزى بعمله ، ولا أن يُنقص من حقه ، قاله ابن زيد . قال اللغويون : الهضم : النقص ، تقول العرب : هضمتُ لك من حقي ، أي : حططتُ ، ومنه : فلان هضم الكشحيين ، أي : ضامر الجنين ،

وبقال : هذا شيء يهضم الطعام ، أي : ينقص ثقله . وفرق بعض المفسرين بين الظلم والهضم ، فقال : الظلم : منع الحق كلياً ، والهضم : منع البعض ، وإن كان ظلماً أيضاً .

قوله تعالى : (وكذلك أنزلناه) أي : وكما ينزلنا في هذه السورة ، أنزلناه ، أي : أنزلنا هذا الكتاب (قرآناً عربياً وصرّفنا فيه من الوعيد) أي : ينزلنا فيه ضروب الوعيد . قال قتادة : يعني : وقائمه في الأمم المكذبة .

قوله تعالى : (لعلهم يتقون) أي : ليكون سبباً لانتقامهم الشرك بالانتعاض عن قلبهم (أو يُحدث لهم) أي : يجدد لهم القرآن ، وقيل : الوعيد (ذكراً) أي : اعتباراً ، فيتذكروا به عقاب الأمم ، فيعتبروا . وقرأ ابن مسعود ، وعاصم الجحدري : « أو نُحدث » بنون مرفوعة .

قوله تعالى : (فتعالى الله) أي : جلّ عن إلحاد الملحدين وقول المشركين في صفاته ، (الملك) الذي بيده كل شيء ، (الحق) وقد ذكرناه في (بونس : ٣٢) .

قوله تعالى : (ولا تعجل بالقرآن) في سبب نزولها قولان . أحدهما : أن جبريل كان يأتي النبي ﷺ بالسورة والآي فيتلوها عليه ، فلا يفرغ جبريل من آخرها حتى يتكلم رسول الله ﷺ بأولها مخافة أن ينساها ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس (١) .

والثاني : أن رجلاً لطم امرأته ، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تطلب القصاص ، فجعل رسول الله ﷺ بينها القصاص ، فنزلت هذه الآية ، فوقف

(١) قال السيوطي في الدر ، ٣٠٩/٤ : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه) يقول : لا تعجل حتى ينبئه لك .

رسول الله ﷺ حتى نزل قوله تعالى : (الرجال قوامون على النساء) [النساء : ۳۴] ،
قاله الحسن البصري (۱) .

قوله تعالى : (مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ) وقرأ ابن مسعود ،
والحسن ، وبعقوب : « نَقْضِي » بالنون وكسر الضاد وفتح الياء « وَحْيَهُ »
بنصب الياء .

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : لا تعجل بتلاوته قبل أن يفرغ جبريل من تلاوته تخاف نسيانه (۲) ،
هذا على القول الأول .

والثاني : لا تُقرئ أصحابك حتى نبين لك معانيه ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثالث : لا تسأل إنزاله قبل أن يأتيك الوحي ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) فيه ثلاثة أقوال .

(۱) الطبري ، : ۵۸/۵ وذكره السيوطي في الدر ، : ۳۰۹/۴ وزاد نسبه إلى الفريابي ،

وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه .

(۲) قال ابن كثير ۳/۱۶۷ : وقوله : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه)

أدوله تعالى في سورة (لا أقسم بيوم القيامة) : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا

حججه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه) قال : وثبت في الصحيح ، عن ابن عباس

رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة ، فكان مما يحرك به لسانه ،

فأنزل الله تعالى هذه الآية ، يعني أنه عليه السلام ، كان إذا جاءه جبريل بالوحي ، كلما قال

جبريل آية قلها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن ، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل

والأخف في حقه لئلا يشق عليه ، فقال : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا حججه وقرآنه)

أي : أن نجعله في صدرك ، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً ، ثم قال : وقال

في هذه الآية : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه) أي : بل أنصت ،

فاذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده .

أحدها : زدني قرآناً^(۱) ، قاله مقاتل . والثاني : فهماً . والثالث : حفظاً ، ذكرها الثعلبي .

﴿ وَلَقَدْ عٰهَدْنَا اِلٰى اٰدَمَ مِنْ قَبْلِ قَدْسِيْ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا .
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّا اِبْلِيسَ اَبٰى . فَقُلْنَا
يٰۤاٰدَمُ اِنَّ هٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ
فَتَشْقٰى . اِنَّ لَكَ اِلَّا تَجُوْعَ فِيْهَا وَلَا تَعْمٰى . وَاَنْتَ لَا تَنْظُمُوْا فِيْهَا
وَلَا تَضْحٰى . فَوَسْوَسَ اِلَيْهِ الشَّيْطٰنُ قَالَ يٰۤاٰدَمُ هَلْ اَدْرٰٓئِكَ عَلٰى
شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبۜىٔ . فَاَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوَآءُهُمَا
وَطَفِقَا يَخۜصِفٰنِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَّرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصٰۤىۤ اٰدَمُ رَبَّهُ فَغَوٰى .
ثُمَّ اجۜتَبٰ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدٰى . قَالَ اهۜطۜطَا مِنْهَا جَمِيْعًا
بِعَضِّكُمۡ لِبَعۜضِ عَدُوٍّ فَاِمَّا يٰۤاَتِيۜنَّكُمۡ مِّنۡىۤىۤ هُدٰى فَمَنِ اتَّبَعَ
هُدٰىيَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۜقٰى . وَمَنْ اَعۜرَضَ عَنۡ ذِكۜرِيۤىۤ فَاِنَّ لَهُ
مَعۜيشَةً ضَنكًا وَنَحۜشُرُهُ يَوۜمَ الْقِيٰمَةِ اَعۜمٰى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۜتَنِيۤىۤ
اَعۜمٰى وَقَدۜ كُنۜتُ بَصِيْرًا . قَالَ كَذٰلِكَ اُنۜتَكَ اٰيٰتُنَا فَتَسِيۜتَهَا
وَكَذٰلِكَ الۜيَوۜمَ تُنۜسٰى . وَكَذٰلِكَ نَجۜزِيۤىۤ مَنْ اَسۜرَفَ وَلَمْ يُوۜثِقۜ
بِآيٰتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْاٰخِرَةِ اَشَدُّ وَاَبۜقٰى ﴾

فوله تعالى : (ولقد عهدنا إلى آدم) أي : أمرناه وأوصيناه أن لا يأكل
من الشجرة (من قبل) أي : من قبل هؤلاء الذين تقضوا عهدي وتركوا

(۱) قال ابن كثير ۱۶۷/۳ : قال ابن عيينة رحمه الله : ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل . وقال الأوسي في روح المعاني : واستدل بالآية على فضل العلم حيث أمر ﷺ بطلب زيادته .

الإيمان بي ، وهم الذين ذكروهم في قوله : (لعلهم يتتقون) ، والمعنى : أنهم إن نقضوا العهد ، فإن آدم قد عهدنا إليه (فنسي) .

وفي هذا النسيان قولان .

أحدهما : أنه التَّرك ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والمعنى : ترك ما أمر به .

والثاني : أنه من النسيان الذي يخالف الذِّكْر ، حكاه الماوردي .

وقرأ معاذ القاري ، وعاصم الجحدري ، وابن السميع : « فنسي » برفع النون

وتشديد السين .

قوله تعالى : (ولم نجد له عزماً) العزمُ في اللغة : توطينُ النفس على الفعل .

وفي المعنى أربعة أقوال .

أحدها : لم نجد له حفظاً ، رواه العوفي عن ابن عباس ، والمعنى : لم يحفظ

ما أمر به .

والثاني : صبراً ، قاله قتادة ، ومقاتل ، والمعنى : لم يصبر عما نهي عنه .

والثالث : حزمًا ، قاله ابن السائب . قال ابن الأثيري : وهذا لا يخرج

آدم من أولي العزم ، وإنما لم يكن له عزم في الأكل فحسب .

والرابع : عزمًا في العود إلى الذَّنْب ، ذكره الماوردي . وما بعد هذا قد تقدم

تفسيره [البقرة : ۳۴] إلى قوله تعالى : (فلا يخرجنكم من الجنة فتشقى) قال المفسرون :

المراد به أنسب الدنيا ونعمها من تكلف الحرث والزرع والعجن والخبز وغير

ذلك . قال سعيد بن جبیر : أهبط إلى آدم نور أحمر ، فكان يعمل عليه ويمسح

المرق عن جبينه ، فذلك شقاؤه . قال العلماء : والمعنى : فتشقى ؛ وإنما لم يقل :

فتشقى ، لوجهين .

أحدهما : أن آدم هو المخاطب ، فاكتفى به ، ومثله : (عن اليمين وعن الشمال قيد) [ق : ۱۷] ، قاله الفراء .

والثاني : أنه لما كان آدم هو الكاسب ، كان التعب في حقه أكثر ، ذكره الماوردي .
قوله تعالى : (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى) قرأ أبي بن كعب : « لا تُجَاع ولا تُعْرَى » بالتاء المضمومة والألف . (وأنتك لانظماً) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « وأنتك » مفتوحة الألف . وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : « وإنتك » بكسر الألف . قال أبو علي : من فتح ، حمله على أن لك أن لا تجوع ، وأن لك أن لا تنظماً ، ومن كسر ، استأنف .

قوله تعالى : (لانظماً فيها) أي : لانعطش . يقال : ظمى الرجل ظمناً ، فهو ظمآن ، أي : عطشان . ومعنى (لانضحى) لاتبرز للشمس فيصيبك حرها ، لأنه ليس في الجنة شمس .

قوله تعالى : (هل أدلك على شجرة الخلد) أي : على شجرة من أكل منها لم يموت (ومهلك لا يبلى) جديده ولا يفنى . وما بعد هذا مفسر في (الأعراف : ۲۲) .

وفي قوله تعالى : (فغوى) قولان .

أحدهما : ضلَّ طريق الخلود حيث أراد من قبل المعصية .

والثاني : فسد عليه عيشه ، لأن معنى الغي : الفساد . قال ابن الأنباري : وقد غلط بعض المفسرين ، فقال : معنى « غوى » : أكثر مما أكل من الشجرة حتى بشم ، كما يقال : غوى الفصيل : إذا أكثر من لبن أمه فبشم فكاد يهلك ، وهذا خطأ من وجهين .

أحدهما : أنه لا يقال من البشم : غَوَى يَغْوِي ، وإنما يقال : غَوِيَ يَغْوَى .
والثاني : أن قوله تعالى : (فلما ذاقا الشجرة) [الأعراف : ٢٢] يدل على أنها
لم يُكثِرَا ، ولم تتأخر عنها العقوبة حتى يصلوا إلى الإكثار . قال ابن قتيبة : فحن
نقول في حق آدم : عصى وغوى كما قال الله عز وجل ، ولا تقول : آدم عاصٍ وغاوي ،
كما تقول لرجل قطع ثوبه وخاطه : قد قطعه وخاطه ، ولا تقول : هذا خياط ،
حتى يكون معاوداً لذلك الفعل ، معروفاً به .

قوله تعالى : (ثم اجتباه ربّه) قد بينّا الاجتباء في (الأنعام : ٨٧) .
(فتاب عليه وهدى) أي : هداه للتوبة . (قال اهبطا) في المشار إليهما قولان .
أحدهما : آدم وإبليس ، قاله مقاتل .

والثاني : آدم وحواء ، قاله أبو سليمان الدمشقي . ومعنى قوله تعالى : (بمضكم
لبعض عدوّ) آدم وذريته ، وإبليس وذريته ، والحية أيضاً ^(١) ؛ وقد شرحنا هذا
في (البقرة : ٣٦) .

قوله تعالى : (فمن اتَّبَعَ هُدَايَ) أي : رسولي وكتابي (فلا يَضِلُّ
ولا يَشْقَى) قال ابن عباس : من قرأ القرآن واتَّبَعَ ما فيه ، هداه الله من الضلالة ،
ووقاه سوء الحساب ، ولقد ضمن الله لمن اتَّبَعَ القرآن أن لا يَضِلَّ في الدنيا
ولا يشقى في الآخرة ، ثم قرأ هذه الآية .

قوله تعالى : (ومن أَعْرَضَ عن ذِكْرِي) قال عطاء : عن موعظتي . وقال
ابن السائب : عن القرآن ولم يؤمن به ولم يتبمه .

قوله تعالى : (فإنَّ له مَعِيشَةً ضَنْكاً) قال أبو عبيدة : معناه : معيشة ضيقة ،
والضنك يوصف به الأثني والذكر بغير هاء ، وكل عيش أو مكان أو منزل
ضيق ، فهو ضنك ، وأنشد :

(١) انظر التلخيص الذي في الصفحة ٦٧ من الجزء الأول .

وإن نزلوا بضئك فانزل^(۱)

وقال الزجاج : الضئك أصله في اللغة : الضيق والشدة .

ولله فسرین في المراد بهذه المعيشة خمسة أقوال .

أحدها : أنها عذاب القبر ، روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« أندرون ما المعيشة الضئك ؛ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : عذاب الكافر في

قبره ، والذي نفسي بيده إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون نيناً ينفخون في جسمه

ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم القيامة »^(۲) . وممن ذهب إلى أنه عذاب القبر

ابن مسعود ، وأبو سعيد الخدري ، والسدي .

والثاني : أنه ضغطة القبر حتى تختلف أضلاعه فيه ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : شدة عيشه في النار ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال

الحسن ، وقتادة ، وابن زيد . قال ابن السائب : وتلك المعيشة من الضريع والزقوم .

والرابع : أن المعيشة الضئك : كسب الحرام ، روى الضحاك عن ابن عباس

قال : المعيشة الضئك : أن تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدى لشيء منها ، وله

(۱) هذا جزء من عجز بيت لعنرة بن عمرو بن شداد العبسي ، وهو في « مجاز القرآن » :

۳۲/۲ ، و « الطبري » : ۲۲۵/۱۶ ، و « القرطبي » : ۲۵۸/۱۱ ، و « مختار الشعر الجاهلي » :

۳۸۸/۱ ، والبيت بتمامه :

إن يُلْحَقُوا أَكْرُرُ وَإِنْ يُسْتَلْحَمُوا أَشْدُّ وَإِنْ يُلْفُوا بِضئِكَ أَنْزَلِ

وفي « اللسان » مادة « ضئك » : الضئك : الضيق من كل شيء ، الذكر والأنثى فيه سواء ،

ومعيشة ضئك : ضيقة ، وفي التزويل : « فإن له معيشة ضئكاً ، أي : غير حلال .

(۲) « الطبري » : ۲۲۸/۱۶ ، و « أسباب النزول » للواحدي : ۱۷۴ ، وأورده السيوطي

في « الدر » : ۳۱۱/۴ ، وهو حديث ضعيف ، وذكره ابن كثير : ۱۶۹/۳ وقال : رفعه

منكر جداً .

معيشة حرام يركض فيها . قال الضحاك : فهذه المعيشة هي الكسب الخبيث ،
وبه قال عكرمة .

والخامس : أن المعيشة الضئيلة : المال الذي لا يتقى الله صاحبه فيه ، رواه
العوفي عن ابن عباس .

فخرج في مكان المعيشة ثلاثة أقوال .

أحدها : القبر . والثاني : الدنيا . والثالث : جهنم .

وفي قوله تعالى : (ونحشره يوم القيامة أعمى) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ،

وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « أعمى » « حشرتني أعمى » بفتح الميم .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم بكسرهما . وقرأ نافع بين الكسر

والفتح . ثم في هذا العمى للمفسرين قولان .

أحدهما : أعمى البصر ، روى أبو صالح عن ابن عباس قال : إذا أخرج من

القبر خرج بصيراً ، فإذا سبق إلى المحشر عمى .

والثاني : أعمى عن الحجة ، قاله مجاهد ، وأبو صالح . قال الزجاج : معناه :

فلا حجة له يهتدي بها ، لأنه ليس للناس على الله حجة بعد الرسل .

قوله تعالى : (كذلك) أي : الأمر كذلك كما ترى (أتتك آياتنا فنسيتها)

أي : فتركتها ولم تؤمن بها ؛ وكما تركتها في الدنيا ترك اليوم في النار .

(وكذلك) أي : وكما ذكرنا (نجزي من أسرف) أي : أشرك ، (ولعذاب

الآخرة أشد) من عذاب الدنيا ومن عذاب القبر (وأبقى) لأنه يدوم .

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ

فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى . وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِيَزَامَا وَأَجَلٌ مُسَمًّى . فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿۱۲۸﴾

قوله تعالى : (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ) أي : أفلم يبيِّن لكفار مكة إذا نظروا آثار من أهلكنا من الأمم ؛ وكانت قريش تتجر وترى مساكن عاد وحمود وفيها علامات الهلاك ، فذلك قوله تعالى : (يعيشون في مساكنهم) . وروى زيد عن يعقوب : « أفلم يهدِ » بالنون .

قوله تعالى : (ولولا كلمة سبقت من ربك) في تأخير العذاب عن هؤلاء الكفار إلى يوم القيامة ، وقيل : إلى يوم بدر ، وقيل : إلى انقضاء آجالهم (لكان لزاماً) أي : لكان العذاب لزاماً ، أي : لازماً لهم . والليّزام : مصدر وُصف به العذاب . قال الفراء وابن قتيبة : في هذه الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : ولولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاماً .

قوله تعالى : (فاصبر على ما يقولون) أمر الله تعالى نبيه بالصبر على ما يسمع من أذام إلى أن يحكم الله فيهم ، ثم حكم فيهم بالقتل ، ونسخ بآية السيف إطلاق الصبر .

قوله تعالى : (وسبِّح بحمد ربك) أي : صلِّ له بالحمد له والثناء عليه (قبل طلوع الشمس) : يريد الفجر (وقبل غروبها) يعني : العصر (ومن آناء الليل) الآناء : الساعات ، وقد يثنأها في (آل عمران : ۱۱۳) ، (فسبِّح) أي : فصلِّ . وفي المراد بهذه الصلاة أربعة أقوال .

أحدها : المغرب والعشاء ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال قتادة . والثاني : جوف الليل ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : المشاء ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

والرابع : أول الليل وأوسطه وآخره ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (وأطرافَ النهار) المعنى : وسبّح أطرافَ النهار . قال الفراء :

إنما هما طرفان ، فخرجا فخرج الجمع ، كقوله تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد

صَفَتْ قلوبُكُما) [التحريم : ٤] .

وللمفسرين في المراد بهذه الصلاة ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الظهر ، قاله قتادة ؛ فعلى هذا ، إنما قيل لصلاة الظهر : أطراف

النهار ، لأن وقتها عند الزوال ، فهو طَرَفُ النِصْفِ الأول وطرف النِصْفِ الثاني .

والثاني : أنها صلاة المغرب وصلاة الصبح ، قاله ابن زيد ؛ وهذا على أن

الفجر في ابتداء الطَّرَفِ الأول ، والمغرب في انتهاء الطَّرَفِ الثاني .

والثالث : أنها الفجر والظهر والمغرب ؛ فعلى هذا يكون الفجر من الطرف

الأول ، والظهر والمغرب من الطرف الثاني ، حكاه الفراء .

قوله تعالى : (لعلَّكَ تَرْضَى) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ،

وحمزة ، وحفص عن عاصم : « ترضى » بفتح التاء . وقرأ الكسائي ، وأبو بكر

عن عاصم بضمها . فن فتح ، فالمعنى : لعلَّكَ ترضى نواب الله الذي يُعطيك .

وَمَنْ ضَمَّهَا ، ففقه وجهان .

أحدها : لعلَّكَ ترضى بما تُعطى . والثاني : لعلَّ الله أن يرضاك .

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . وَأْمُرْ أَهْلَكَ

بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ

لِلنَّاقِيَةِ ﴿

قوله تعالى : (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) سبب نزولها ، ماروى أبو رافع مولى رسول الله ﷺ ، قال : نزل ضيف برسول الله ﷺ ، فدعاني فأرسلني إلى رجل من اليهود يبيع طعاماً ، فقال : قل له : إن رسول الله ﷺ يقول : « بني كذا وكذا من الدقيق ، أو أسلفني إلى هلال رجب » ، فأتيته فقلت له ذلك ، فقال اليهودي : والله لا أبيع ولا أسلفه إلا برهن ، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : « والله لو باعني أو أسلفني لقضيته ، وإني لأمين في السماء أمين في الأرض ، اذهب بدرعي الحديد إليه » ، فنزلت هذه الآية تعزية له عن الدنيا ^(۱) . قال أبي بن كعب : من لم يتعزَّ بعزاء الله تقطعت نفسه حشرات على الدنيا . وقد مضى تفسير هذه الآية في آخر (الحجر : ۸۸) .

قوله تعالى : (زهرة الحياة الدنيا) وقرأ ابن مسعود ، والحسن ، والزهري ، ويعقوب : « زهرة » بفتح الهاء . قال الزجاج : وهو منصوب بمعنى « متعنا » ، لأن معنى « متعنا » : جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة ، (لفتنهم فيه) أي : لنجعل ذلك فتنة لهم . وقال ابن قتيبة : لنختبرهم . قال المفسرون : زهرة الدنيا : بهجتها وعضارتها وما يروق الناظر منها عند رؤيته ، وهو من زهرة النبات وحسنه .

قوله تعالى : (ورزق ربك خير وأبقى) فيه قولان .

أحدهما : أنه جوابه في الآخرة . والثاني : القناعة .

قوله تعالى : (وأمر أهلك بالصلاة) قال المفسرون : المراد بأهلك : قومه ومن كان على دينه ، ويدخل في هذا أهل بيته .

قوله تعالى : (واصطبر عليها) أي : واصبر على الصلاة (لا نسألك رزقاً)

(۱) د الطبري ه : ۲۳۵/۱۶ ، وأورده السيوطي في « الدر » : ۳۱۲/۴ وزاد نسبه لان أبي شيبة ، وابن راهويه ، والبرار ، وأبي يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » ، وأبي نعيم في « المعرفة » ، عن أبي رافع .

أي : لا نكلفك رزقاً لنفسك ولا نخلقنا ، إنما نأمرك بالعبادة ورزقك علينا ،
(والعاقبة للتقوى) أي : وحسن العاقبة لأهل التقوى . وكان بكر بن عبد الله
المزني إذا أصاب أهله خصاصة قال : قوموا فصلثوا ، ثم يقول : بهذا أمر الله
تعالى ورسوله ، ويتلو هذه الآية .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي
الصُّحُفِ الْأُولَىٰ . وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا
رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ
وَنَحْزِي . قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ
الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾

قوله تعالى : (وقالوا) يعني : المشركين (لولا) أي : هلاً (يأتينا) محمد
(آية من ربه) أي : كآيات الأنبياء ، نحو الناقة والمصا ، (أولم يأتهم)
قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : « تأتهم » بالكاء . وقرأ ابن كثير ،
وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « يأتهم » بالياء .

قوله تعالى : (بيينة ما في الصحف الأولى) أي : أولم يأتهم في القرآن
بيان ما في الكتب من أخبار الأمم التي أهلكتها لما سألوا الآيات ثم كفروا
بها ، فما يؤمنهم أن تكون حالهم في سؤال الآيات كحال أولئك ؟ (ولو أننا
أهلكناهم) يعني : مشركي مكة (بعذاب من قبله) في الهاء قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الكتاب ، قاله مقاتل . والثاني : إلى الرسول ،

قاله الفراء .

قوله تعالى : (لقالوا) يوم القيامة (ربنا لولا) أي : هلاً (أرسلت إلينا
رسولاً) بدعونا إلى طاعتك (فننتبع آياتك) أي : نعمل بمقتضاها (من قبل أن نذل)

بالعذاب (ونُخِزَى) في جهنم . وقرأ ابن عباس ، وابن السميع ، وأبو حاتم عن يعقوب : « نُدَلَّ » « ونُخِزَى » برفع النون فيهما ، وفتح الدال . (قل) لهم يا محمد : (كُأَلٌ) منا ومنكم (متربص) أي : نحن تتربص بكم العذاب في الدنيا ، وأنتم تتربصون بنا الدوائر (فترأصوا) أي : فانتظروا (فستعلمون) إذا جاء أمر الله (مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ) أي : الذين المستقيم (وَمَنْ اهْتَدَى) من الضلالة ، أم نحن ، أم أنتم ؟ وقيل : هذه منسوخة بآية السيف ، وليس بشيء .

★ ★ ★

سورة الأنبياء

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ . مَا يَأْتِيهِمْ
مِنْ ذِكْرِ مَنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِبَةً
قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ
أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ . قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . بَلْ قَالُوا أَضْغَاتٌ أَحْلَامٌ بَلْ افْتَرَاهُ
بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ . مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ
مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ . وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا
نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .
وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ .
ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُشْرِكِينَ .
لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

وهي مكية باجماعهم من غير خلاف نعلمه .

قوله عز وجل : (اقترَب) افتعل ، من القُرْب ، يقال : قُرِبَ الشيء ،

واقرب . وهذه الآية نزلت في كفار مكة . وقال الزجاج : اقرب للناس وقت حسابهم . وقيل : اللام في قوله : (للناس) بمعنى : « من » . والمراد بالحساب : محاسبة الله لهم على أعمالهم .

وفي معنى قُرْبِهِ قولان .

أحدهما : أنه آتٍ ، وكلُّ آتٍ قريبٌ .

والثاني : لأن الزمان - لكثرة ماضى وقلة ما بقي - قريبٌ .

قوله تعالى : (وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ) أي : عمّا يفعل الله بهم ذلك اليوم (معرضون) عن التأهب له . وقيل : « اقرب للناس » عامٌ ، والغفلة والإعراض خاص في الكفار ، بدلالة قوله تعالى : (ما يأتيهم من ذكرٍ من ربهم مُخَدَّثٍ) ، وفي هذا التذكر ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه القرآن ، قاله ابن عباس ؛ فعلى هذا تكون الإشارة بقوله : « مُخَدَّثٍ » إلى إنزاله له ، لأنه أنزل شيئاً بعد شيء .

والثاني : أنه ذكر من الأذكار ، وليس بالقرآن ، حكاه أبو سليمان الدمشقي . وقال النقاش : هو ذكر من رسول الله ، وليس بالقرآن .

والثالث : أنه رسول الله ، بدليل قوله في سياق الآية : (هل هذا إلا بشرٌ مثلكم) ، قاله الحسن بن الفضل .

قوله تعالى : (إِلا استمعوه وهم يلعبون) قال ابن عباس : يستمعون القرآن مستهزئين .

قوله تعالى : (لاهيةً قلوبهم) أي : غافلةً عما يُراد بهم . قال الزجاج : المعنى : إلا استمعوه لاعبين لاهيةً قلوبهم ؛ ويجوز أن يكون منصوباً بقوله :

« يلمبون » . وقرأ عكرمة ، وسعيد بن جبير ، وابن أبي عبلة : « لاهية » بالرفع .
 قوله تعالى : (وأسرثوا النجوى) أي : تناجوا فيما بينهم ، يعني المشركين .
 ثم يئن من م فقال : (الذين ظلموا) أي : أشركوا بالله . و « الذين »
 في موضع رفع على البدل من الضمير في « وأسرثوا » . ثم يئن سراً الذي
 تناجوا به فقال : (هل هذا إلا بشرٌ مثلكم) أي : آدمي ، فليس بملك ؛
 وهذا إنكار لنبوته . وبعضهم يقول : « أسرثوا » هاهنا بمعنى : أظهروا ، لأنه
 من الأضداد .

قوله تعالى : (أفأتون السحر) أي : أفتقبلون السحر (وأنتم تعلمون)
 أنه سحر ؛ ! يعنون أن متابعة محمد ﷺ متابعة السحر . (قل ربّي) قرأ ابن كثير ،
 ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « قل ربّي » . وقرأ
 حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « قال ربّي » ، وكذلك هي في مصاحف
 الكوفيين ، وهذا على الخبر عن النبي ﷺ أنه قال : يعلم القول ، أي : لا يخفى
 عليه شيء يقال في السماء والأرض ، فهو عالم بما أسررتهم . (بل قالوا) ، قال الفراء :
 ردّ بـ « بل » على معنى تكذيبهم ، وإن لم يظهر قبله الكلام بجحودهم ، لأن
 معناه الإخبار عن الجاحدين ، وأعلم أن المشركين كانوا قد تحيّرُوا في أمر
 رسول الله ﷺ ، فاختلفت أقوالهم فيه ، فبعضهم يقول : هذا الذي يأتي به سحر ،
 وبعضهم يقول : أضغاث أحلام ، وهي الأشياء المختلطة تُرى في المنام ؛ وقد شرحناها
 في (يوسف : ٤٤) ، وبعضهم يقول : افتراء ، أي : اختلقه ، وبعضهم يقول :
 هو شاعر فليأتنا بآية كالناقة والعصا ، فاقترحوا الآيات التي لا إهمال بعدها .

قوله تعالى : (ما آمنت قبلهم) يعني : مشركي مكة (من قرية) وصف
 القرية ، والمراد أهلها ، والمعنى : أن الأمم التي أهلكت بتكذيب الآيات ، لم يؤمنوا

بالآيات لما أتتهم ، فكيف يؤمن هؤلاء؟! وهذه إشارة إلى أن الآية لانكوت سبباً للإيمان، إلا أن يشاء الله .

قوله تعالى : (وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً) هذا جواب قولهم : « هل هذا إلا بشر مثلكم » .

قوله تعالى : (نُوحِي إِلَيْهِمْ) قرأ الأَكثَرُونَ : « يوحى » بالياء . وروى حفص عن عاصم : « نُوحِي » بالنون . وقد شرحنا هذه الآية في (النحل : ٤٣) .

قوله تعالى : (وما جعلناهم) يعني الرسل (جَسَداً) قال الفراء : لم يقل : أجساداً ، لأنه اسم الجنس . قال مجاهد : وما جعلناهم جسداً ليس فيهم روح . قال ابن قتيبة : ما جعلنا الأنبياء قبله أجساداً لئلا تأكل الطعام ولا تموت فنجعله كذلك . قال المبرد وتعلب جميعاً : العرب إذا جاءت بين الكلام بجحدين ، كان الكلام إخباراً ، فمضى الآية : إنما جعلناهم جسداً ليأكلوا الطعام . قال قتادة : المعنى : وما جعلناهم جسداً إلا ليأكلوا الطعام .

قوله تعالى : (ثم صدقناهم الوعد) يعني : الأنبياء أنجزنا وعدهم الذي وعدناهم بانجائهم وإهلاك مكذبيهم (فأنجيناهم ومن نشاء) وهم الذين صدقوهم (وأهلكنا المُسْرِفِينَ) يعني : أهل الشرك ؛ وهذا تخويف لأهل مكة . ثم ذكر منته عليهم بالقرآن فقال : (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذِكْرُكُمْ) ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : فيه شرفكم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : فيه دينكم ، قاله الحسن ، يعني : فيه ما تحتاجون إليه من أمر دينكم .

والثالث : فيه تذكركم لما تلقونه من رجعة أو عذاب ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (أفلا تعقلون) ما فضلتكم به على غيركم .

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ . لَاترْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْتَلُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾

ثم خوفهم فقال : (وكم قصمنا) قال المفسرون واللغويون : معناه : وكم أهلكنا ، وأصل القصم : الكسر . وقوله : (كانت ظالمة) ، أي : كافرة ، والمراد : أهلها . (فلما أحسوا بأسنا) أي : رأوا عذابنا بحامئة البصر (إذا هم منها يركضون) أي : يبعثون ، وأصل الركض : تحريك الرجلين ، يقال : ركضت الفرس : إذا أعديته بتحريك رجليك فعدا .

قوله تعالى : (لاترْكُضُوا) قال المفسرون : هذا قول الملائكة لهم : (وارجعوا إلى ما أترفتم فيه) ، أي : إلى نعمكم التي أترفتم ، وهذا نويخ لهم . وفي قوله : (لعلكم تستأنون) قولان .

أحدها : تستأنون من دنياكم شيئاً ، استهزاء بهم ، قاله قتادة .

والثاني : تستأنون عن قتل نبيكم ، قاله ابن السائب . فلما أيقنوا بالعذاب (قالوا يا ويلنا إننا كنا ظالمين) بكفرنا ، وقيل : بتكذيب نبينا . (فما زالت تلك دعواهم) ، أي : ما زالت تلك الكلمة التي هي « يا ويلنا إننا كنا ظالمين » قولهم يرددونها (حتى جعلناهم حصيداً) بالعذاب ، وقيل : بالسيوف (خامدين) ، أي : ميتين كخمود النار إذا طفيئت .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخِذُنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ . بَلْ نَقْذِفُ

بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ
 مِمَّا تَصِفُونَ . وَهُوَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ
 لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ
 وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ . أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةَ مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ .
 لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ
 عَمَّا يَصِفُونَ . لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ . أَمْ اتَّخَذُوا
 مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ
 مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿

قوله تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) أي : لم نخلق
 ذلك عبثاً ، إنما خلقناها دلالة على قدرتنا ووحدانيتنا ليعتبر الناس بخلقهم ، فيعلموا أن
 العبادة لانصاح إلا لخالقه ، لنجازي أوليائنا ، ونعذب أعدائنا .

قوله تعالى : (لو أردنا أن نتخذ لهواً) في سبب نزولها قولان .

أحدها : أن المشركين لما قالوا : الملائكة بنات الله والآلهة بناته ، نزلت
 هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن نصارى نجران قالوا : إن عيسى ابن الله ، فنزلت هذه الآية ،
 قاله مقاتل .

وفي المراد باللهو ثلاثة أقوال .

أحدها : الولد ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال السدي . قال
 الزجاج : المعنى : لو أردنا أن نتخذ ولداً ذا لهوٍ نلهي به .

والثاني : المرأة ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة .

والثالث : اللعب ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

قوله تعالى : (لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا) قال ابن جريج : لَاتَّخَذْنَا نَسَاءً

أو ولدًا من أهل السماء ، لا من أهل الأرض . قال ابن قتيبة : وأصل اللهو : الجماع ، فكُنِّيَ عنه باللهو ، كما كُنِّيَ عنه بالسِّرِّ ، والمعنى : لو فعلنا ذلك لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ عِنْدِنَا ، لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده ، لا عند غيره .

وفي قوله : (إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ) قولان .

أحدهما : أن « إِنْ » بمعنى « مَا » ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقناة .

والثاني : أنها بمعنى الشرط . قال الزجاج : والمعنى : إِنْ كُنَّا نَفْعَلُ ذَلِكَ ،

ولسنا ممن بفعله ؛ قال : والقول الأول قول المفسرين ، والثاني قول النحويين ، وهم

يسنجدون القول الأول أيضاً ، لأن « إِنْ » تكون في موضع النفي ، إلا أن

أكثر ما تأتي مع اللام ، تقول : إِنْ كُنْتُ لَصَالِحًا ، معناه : ما كنت إلا صالحًا .

قوله تعالى : (بَلِ) أي : دع ذلك الذي قالوا ، فإنه باطل (نَقِذْ بِالْحَقِّ)

أي : نسلط الحق وهو القرآن (عَلَى الْبَاطِلِ) وهو كذبهم (فَيَذْمُوهُ) قال

ابن قتيبة : أي : يكسره ، وأصل هذا إصابة الدماغ بالضرب ، وهو مقتل (فإذا هو

زاهق) أي : زائل ذاهب . قال المفسرون : والمعنى : إِنْ نَبَطَلَ كَذِبَهُمْ بِمَا نَبِّئِينَ

مِنَ الْحَقِّ حَتَّى يَضْمَحِلَّ ، (وَلَكِنَّ الْوَيْلَ لِمَا تَصِفُونَ) أي : من وصفكم الله

بِمَا لَا يَجُوزُ (وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) يعني : هم عبيده ومُملِكُه (وَمَنْ

عِنْدَهُ) يعني : الملائكة .

وفي قوله : (وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) ثلاثة أقوال .

أحدها : لا يرجعون ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : لا ينقطعون ، قاله مجاهد . وقال ابن قتيبة : لا يعيون ، والحسير : المنقطع الواقف إعباءً وكلالاً .

والثالث : لا يعلثون ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : (لا يفتشرون) قال قتادة : لا يسأمون . وسئل كعب : أما يشغلهم شأن ؟ أما تشغلهم حاجة ؟ فقال للسائل : يا ابن أخي ، جعل لهم التسييحُ كما جعل لكم النفسُ ، ألسنتُ تأكل وتشرب وتقوم وتجلس وتجيء وتذهب وتكلم وأنت تنفس ! فكذلك جعل لهم التسييح . ثم إن الله تعالى عاد إلى توبيخ المشركين فقال : (أم اتخذوا آلهة من الأرض) لأن أصنامهم من الأرض هي ، سواء كانت من ذهب أو فضة أو خشب أو حجارة (هم) يعني : الآلهة (ينشرون) أي : يُحْيُونَ الموتى . وقرأ الحسن : « ينشرون » بفتح الياء وضم الشين . وهذا استفهام بمعنى الجحد ، والمعنى : ما اتخذوا آلهة تنشر ميتاً . (لو كان فيها) يعني : السماء والأرض (آلهة) يعني : معبودين (إلا الله) قال الفراء : سوى الله . وقال الزجاج : غير الله .

قوله تعالى : (لفسدنا) أي : لخربنا وبططنا وهلك من فيها ، لوجود التمايع بين الآلهة ، فلا يجري أمر العالم على النظام ، لأن كل أمر صدر عن اثنين فصاعداً لم يسلم من الخلاف .

قوله تعالى : (لا يسأل عما يفعل) أي : عما يحنككم في عباده من هدي وإضلال ، وإعزاز وإذلال ، لأنه المالك للخلق ، والخلق يسألون عن أعمالهم ؛ لأنهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم . ولما أبطل عز وجل أن يكون إله سواه من حيث العقل بقوله : (لفسدنا) ، أبطل ذلك من حيث الأمر فقال : (أم اتخذوا من دونه آلهة) وهذا استفهام إنكار وتوبيخ (قل

هاتوا برهانكم) على ما تقولون ، (هذا ذِكرٌ من معي) يعني : القرآن خبر من معي على ديني ممن يتبعني إلى يوم القيامة بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية (وذكّر من قبلي) يعني : الكتب المنزلة ، والمعنى : هذا القرآن ، وهذه الكتب التي أنزلت قبله ، فانظروا هل في واحد منها أن الله أمر باتخاذ إله سواه ؟ فبطل بهذا البيان جواز اتخاذ معبود غيره من حيث الأمر به . قال الزجاج : قيل لهم : هاتوا برهانكم بأن رسولاً من الرسل أخبر أمته بأن لهم إلهاً غير الله ! . قوله تعالى : (بل أكثرهم) يعني : كفار مكة (لا يعلمون الحق) وفيه قولان . أحدهما : أنه القرآن ، قاله ابن عباس . والثاني : التوحيد ، قاله مقاتل (فهم معرضون) عن التفكير والتأمل وما يجب عليهم من الإيمان .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ . وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكْ نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (من رسولٍ إلا بوحي) قرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « إلا نوحى » بالنون ؛ والباقون بالياء .

قوله تعالى : (وقالوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) في القائلين لهذا قولان . أحدهما : أنهم مشركو قريش ، قاله ابن عباس . وقال ابن إسحاق : القائل لهذا النضر بن الحارث .

والثاني : أنهم اليهود ، قالوا : إن الله صاهر الجن فكانت منهم الملائكة ، قاله

قادة . فعلى القوانين ، المراد بالولد : الملائكة ، وكذلك المراد بقوله : (بل عباد مُكْرَمُونَ) ، والمعنى : بل عباد أكرمهم الله واصطفاهم ، (لا يسبقونه بالقول) ، أي : لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به . وقال ابن قتيبة : لا يقولون حتى يقول ، ثم يقولون عنه ، ولا يعملون حتى يأمرهم .

قوله تعالى : (يعلم ما بين أيديهم) أي : ما قدموا من الأعمال (وما خلفهم) ما هم عاملون ، (ولا يشعرون) يوم القيامة ، وقيل : لا يستغفرون في الدنيا (إلا لمن ارتضى) أي : لمن رضي عنه ، (وهم من خشيته) أي : من خشيتهم منه ، فأضيف المصدر إلى المفعول ، (مُشْفِقُونَ) أي : خائفون . وقال الحسن : يرتعدون . (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ) أي : من الملائكة . قال الضحاك في آخرين : هذه خاصة لإبليس ، لم يدع أحد من الملائكة إلى عبادة نفسه سواه ؛ قال أبو سليمان الدمشقي : وهذا قول من قال : إنه من الملائكة ، فإن إبليس قال ذلك للملائكة الذين هبطوا معه إلى الأرض ، ومن قال : إنه ليس من الملائكة ^(١) ، قال : هذا على وجه التهديد ، وما قال أحد من الملائكة ذلك .

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ نَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(١) قال الله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) ، وقال رسول الله ﷺ - كما في صحيح مسلم - : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » ، وقال الحسن البصري : لم يكن لإبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر .

قوله تعالى : (أولم ير الذين كفروا) أي : أولم يعلموا . وقرأ ابن كثير : « ألم ير الذين كفروا » بغير واو بين الألف واللام ، وكذلك هي في مصاحف أهل مكة ، (أنَّ السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناها) قال أبو عبيدة : السموات جمع ، والأرض واحدة ، فخرجت صفة لفظ الجمع على لفظ صفة الواحد والعرب تفعل هذا إذا أشركوا بين جمع وبين واحد ؛ والرتق مصدر يوصف به الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث سواء ، ومعنى الرتق : الذي ليس فيه ثقب . قال الزجاج : المعنى : كانتا ذواتي رتق ، فجعلها ذوات فتق ، وإتا لم يقل : « رتقين » لأن الرتق مصدر .

وللمفسرين في المراد به ثلاثة أقوال .

أحدها : أن السموات كانت رتقاً لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت ، ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات ، رواه عبد الله بن دينار عن ابن عباس ، وبه قال عطاء ، وعكرمة ، ومجاهد في رواية ، والضحاك في آخرين .

والثاني : أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ، ففتقها الله تعالى ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة .

والثالث : أنه فتق من الأرض ست أرضين فصارت سبعا ، ومن السماء ست سموات فصارت سبعا ، رواه السدي عن أشياخه ، وابن أبي نجيح عن مجاهد .

قوله تعالى : (وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ) وقرأ معاذ القاري ، وابن أبي عبيدة ، وحמיד بن قيس : « كلَّ شيءٍ حيًّا » بالنصب .

وفي هذا الماء قولان .

أحدهما : أنه الماء المعروف ، والمعنى : جعلنا الماء سبباً لحياة كل حيٍّ ، قاله الأكثرون . والثاني : أنه النطفة ، قاله أبو العالية .

قوله تعالى : (وجعلنا في الأرض رواسي) قد فسرناه في (النحل : ١٥) .
 قوله تعالى : (وجعلنا فيها) أي : في الرواسي (فِجَاجًا) ، قال أبو عبيدة :
 هي المسالك . قال الزجاج : الفِجَاج جمع فِجَج ، وهو كل منخرق بين جبلين ،
 ومعنى (سُبُلًا) طرقًا . قال ابن عباس : جعلنا من الجبال طرقًا كي نهتدوا
 إلى مقاصدكم في الأسفار . قال المفسرون : وقوله : « سبلاً » تفسير للفِجَاج ،
 ويان أن تلك الفِجَاج نافذة مسلوكة ، فقد يكون الفِجَج غير نافذ . (وجعلنا
 السماء سقفاً) أي : هي للأرض كالسقف .

وفي معنى (محفوظاً) قولان .

أحدهما : بالنجوم من الشياطين ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : محفوظاً من الوقوع إلا باذن الله ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (وهم) يعني : كفار مكة (عن آياتها) أي : شمسها وقمرها
 ونجومها ، قال الفراء : وقرأ مجاهد : « عن آياتها » فوحده ، فجعل السماء بما فيها
 آية ؛ وكل صواب .

قوله تعالى : (كلُّ) يعني : الطوائع (في فللك) قال ابن قتيبة : الفللك :
 مدار النجوم الذي يضمها ، وسميها فللكاً ، لاستدارته . ومنه قيل : فللكة المنزل ،
 وقد فلكت ندي المرأة . قال أبو سليمان : وقيل : إن الفللك - كهيئة الساقية
 من ماء - مستديرة دون السماء وتحت الأرض ، فالأرض وسطها ، والشمس والقمر
 والنجوم والليل والنهار يجرون في الفللك ، وليس الفللك يُديرها . ومعنى
 « يسبحون » : يجرون . قال الفراء : لما كانت السباحة من أفعال آدميين ،
 ذكرت بالنون ، كقوله : (رأيتهم لي ساجدين) [يوسف : ٤] ، لأن
 السجود من أفعال آدميين .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ
الْخَالِدُونَ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ
فِتْنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ . وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ
إِلَّا هُزُوعًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ
هُمْ كَافِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد) سبب نزولها أن
ناساً قالوا : إن محمداً لا يموت ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل . ومعنى الآية :
ما خلدنا قبلك أحداً من بني آدم ؛ والخلد : البقاء الدائم . (أفان ميت فهم
الخالدون) يعني : مشركي مكة ، لأنهم قالوا : (تربيص به ريب الموت)
[الطور : ٣٠] .

قوله تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير) قال ابن زيد : نختبركم بما تحبون
لننظر كيف شكرتم ، وبما تكرهون لننظر كيف صبرتم .
قوله تعالى : (وإلينا يُرْجَعُونَ) [قرأ ابن عامر : « تُرْجَعُونَ » بتاء مفتوحة .
وروى ابن عباس عن أبي عمرو : « يُرْجَعُونَ »] ياء مضمومة . وقرأ الباقر بتاء مضمومة .
قوله تعالى : (وإذا رأى الذين كفروا) قال ابن عباس : يعني المستهزئين ،
وقال السدي : نزلت في أبي جهل ، مرَّ به رسول الله ، فضحك وقال : هذا
نبي بني عبد مناف . و « إيت » بمعنى « ما » ومعنى (هُزُوعاً) مهزوعاً به
(أهذا الذي يذكُر آلِهَتكم) أي : يعيب أصنامكم ، وفيه إضمار « يقولون » ،
(وهم يذكُر الرحمن هم كافرون) وذلك أنهم قالوا : ما نعرف الرحمن ،
فكفروا بالرحمن .

﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ .
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ

كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ
وَلَاهُمْ يُنصَرُونَ . بَلْ تَأْنِيهِمْ بَفْتَةٍ قَبِيْهِتِهِمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ . وَلَقَدْ اسْتَهْزَىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ
فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ ﴿

قوله تعالى : (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) وقرأ أبو رزین المقلبي ، ومجاهد ،
والضحاک : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ » بفتح الخاء واللام ونصب النون . وهذه الآية
نزلت حين استعجلت قريش بالعذاب .

وفي المراد بالإنسان هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : النضر بن الحارث ، وهو الذي قال : (اللهم إن كان هذا هو الحق
من عندك ...) الآية [الانفال : ٣٢] ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثاني : آدم عليه السلام ، قاله سعيد بن جبیر ، والسدي في آخرين .

والثالث : أنه اسم جنس ، قاله علي بن أحمد النيسابوري ؛ فلي هذا يدخل

النضر بن الحارث وغيره في هذا وإن كانت الآية نزلت فيه .

فأما من قال : أُريدَ به آدم ، ففي معنى الكلام قولان .

أحدهما : أنه خُلِقَ عَجُولاً ، قاله الأكثرون . فلي هذا يقول : لما طبع

آدم على هذا المعنى ، وُجدَ في أولاده ، وأورثهم العَجَل .

والثاني : خُلِقَ بِعَجَلٍ ، استعجل بمخلقه قبل غروب الشمس من يوم الجمعة ،

وهو آخر الأيام الستة ، قاله مجاهد .

فأما من قال : هو اسم جنس ، ففي معنى الكلام قولان .

أحدهما : خُلِقَ عَجُولاً ؛ قال الزجاج : خوطبت العرب بما نقل ،

والعرب تقول الذي يكثر منه اللعب : إنما خلقت من لعب ، يريدون المبالغة في وصفه بذلك .

والثاني : أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا ، والمعنى : خلقت العجلة في الإنسان ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (سأريكم آياتي) فيه قولان .

أحدهما : ما أصاب الأمم المتقدمة ؛ والمعنى : إنكم تسافرون فترون آثار الهلاك في الماضين ، قاله ابن السائب .

والثاني : أنها القتل بيد ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (فلا تستعجلون) أثبت الياء في الحاليين يعقوب .

قوله تعالى : (ويقولون متى هذا الوعد) يسنون : القيامة . (لو يعلم الذين

كفروا) جوابه محذوف ، والمعنى : لو علموا صدق الوعد ما استعجلوا ، (حين

لا يكفون) أي : لا يدفعون (عن وجوههم النار) إذا دخلوا (ولا عن ظهورهم)

لإحاطتها بهم (ولا هم ينصرون) أي : يُمنعون مما نزل بهم ، (بل تأتيهم)

يعني : الساعة (بغتة) فجأة (فتنبهتهم) تحيرهم ؛ وقد شرحنا هذا عند قوله :

(فبهت الذي كفر) [البقرة : ٢٥٨] ، (فلا يستطيعون ردّها) أي : صرفها عنهم ،

ولا هم يُمهلون لتوبة أو معذرة . ثم عزى نبيّه ، فقال : (ولقد استهزى برسلك

من قبلك) أي : كما فعل بك قومك (فحاق) أي نزل (بالذين سخروا منهم)

أي : من الرسل (ما كانوا به يستهزؤون) يعني : المذاب الذي كانوا استهزؤوا به .

﴿ قُلْ مَنْ يَكْفُرْ كُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ كُفُّوا

عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ . أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْتَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا

لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ . بَلْ مَتَّعْنَا

هُؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفِيهِمْ أَفْعَالٌ لَبِئُونَ . قُلْ إِنَّمَا أَنْذَرُكُمْ
بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : (قل من يكلؤكم) المعنى : قل لهؤلاء المستعجلين بالعذاب : من
يحفظكم من بأس الرحمن إن أراد إنزاله بكم ؟ ! وهذا استفهام إنكار ، أي : لأحد
يفعل ذلك ، (بل هم عن ذكر ربهم) أي : عن كلامه ومواعظيه (مُعْرِضُونَ)
لا يتفكرون ولا يعتبرون . (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) فيه تقديم وتأخير ،
وتقديره : أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم ؟ وهاهنا تم الكلام . ثم وصف آلهتهم
بالضعف : فقال : (لا يستطيعون نصر أنفسهم) والمعنى : من لا يقدر على نصر
نفسه عما يُراد به ، فكيف ينصر غيره ؟ !

قوله تعالى : (ولا هم) في المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنهم الكفار ، وهو قول ابن عباس . والثاني : أنهم الأصنام ،
قاله قتادة .

وفي معنى (يُصْحَبُونَ) أربعة أقوال .

أحدها : يُجَارُونَ ، رواه العوفي عن ابن عباس . قال ابن قتبية : والمعنى :
لا يجيرهم منّا أحدٌ ، لأن المجير صاحب لجاره . والثاني : يُمنعون ، رواه ابن
أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث : يُنصرون ، قاله مجاهد . والرابع : لا يُصحبون
بخير ، قاله قتادة .

ثم يبيّن اغترارهم بالإمهال ، فقال : (بل متعنا هؤلاء وآباءهم) يعني أهل مكة
(حتى طال عليهم العُمر) فاعترؤوا بذلك ، (أفلا يرون أننا نأتي الأرض نَنْقُصُهَا

زاد السير ٥ م (٢٣)

من أضرافها) قد شرحناه في (الرعد : ١) ، (أفهمُ الغالبون) أي : مع هذه الحال ، وهو نقص الأرض ، والمعنى : ليسوا بغالبين ، ولكنهم المغلوبون . (قل إنما أنذركم) أي : أخوتكم (بالوحي) أي : بالقرآن ، والمعنى : إنني ماجئتُ به من تلقاء نفسي ، إنما أمرتُ فبلغتُ ، (ولا يسمع الصمُّ الدعاء) وقرأ ابن عامر : « ولا تُسمعُ » بإتاء مضمومة « الصمُّ » نصباً . وقرأ ابن عمر ، والحسن : « ولا يُسمعُ » بضم الياء وفتح الميم « الصمُّ » بضم الميم . شبه الكفار بالصمِّ الذين لا يسمعون نداء مناديتهم ؛ ووجه التشبيه أن هؤلاء لم ينتفخوا بما سمعوا ، كالصمِّ لا يفيدهم صوت مناديتهم . (ولئن مسَّتْهم) أي : أصابتهم (نَفْحَةٌ) قال ابن عباس : طرف . وقال الزجاج : المراد أدنى شيء من العذاب ، (ليقولنَّ ياويلنا) والويل بنادي به كلُّ من وقع فيهلكة .

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾

قوله تعالى : (ونضعُ الموازينَ القسْطَ) قال الزجاج : المعنى : ونضع الموازين ذات القسط ، والقسط : العدل ، وهو مصدر يوصف به ، يقال : ميزان قسط ، وميزانان قسط ، وموازن قسط . قال الفراء : القسط من صفة الموازين وإن كان موحداً ، كما تقول : أنتم عدل ، وأنتم رضى . وقوله : (ليوم القيامة) و « في يوم القيامة » سواء . وقد ذكرنا الكلام في الميزان في أول (الأعراف : ٨) .

فان قيل : إذا كان الميزان واحداً ، فما المعنى بذكر الموازين ؟

فالجواب : أنه لما كانت أعمال الخلائق توزن ووزنة بعد ووزنة ، سميت موازين .
 قوله تعالى : (فلا تُظلم نفس شيئاً) أي : لا يُنقص محسن من إحسانه ،
 ولا يُزاد مسيء على إساءته (وإن كان مثقالَ حَبَّة) أي : وزن حبة . وقرأ
 نافع : « مثقالُ » برفع اللام . قال الزجاج : ونصب « مثقالُ » على معنى :
 وإن كان العمل مثقال حبة . وقال أبو علي الفارسي : وإن كان الظلامة مثقال حبة ،
 لقوله تعالى : « فلا تُظلمُ نفسُ شيئاً » . قال : ومن رفع ، أسند الفعل إلى
 المثقال ، كما أسند في قوله تعالى : (وإن كان ذو عُسرة) [البقرة : ٢٨٠] .

قوله تعالى : (آتينا بها) أي : جئنا بها . وقرأ ابن عباس ، وبجاهد ،
 وحيد : « آتينا » ممدودة ، أي : جازينا بها .

قوله تعالى : (وكفى بنا حاسبين) قال الزجاج : هو منصوب على وجهين ،
 أحدهما : التمييز ، والثاني : الحال .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا
 لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ
 مُشْفِقُونَ . وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان) فيه ثلاثة أقوال .
 أحدها : أنه التوراة التي فرّق بها بين الحلال والحرام ، قاله بجاهد ، وقتادة .
 والثاني : البرهان الذي فرق به بين حق موسى وباطل فرعون ، قاله ابن زيد .
 والثالث : النصر والنجاة لموسى ، وإهلاك فرعون ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (وضياء) روى عكرمة عن ابن عباس أنه كان يرى الواو زائدة ؛
 قال الزجاج : وكذلك قال بعض النحويين أن المعنى : الفرقان ضياء ، وعند

البصريين : أن الواو لا تزداد ولا تأتي إلا بمعنى العطف ، فهي ها هنا مثل قوله تعالى : (فيها هدى ونور) [الثانية : ٤٤] . قال المفسرون : والمعنى أنهم استضاءوا بالتوراة حتى اهتدوا بها في دينهم . ومعنى قوله تعالى : (وذكرنا للمتقين) أنهم يذكرونه ويعملون بما فيه . (الذين يخشون ربهم بالغيب) فيه أربعة أقوال .
أحدها : يخافونه ولم يروه ، قاله الجمهور . والثاني : يخشون عذابه ولم يروه ، قاله مقاتل . والثالث : يخافونه من حيث لا يرام أحد ، قاله الزجاج . والرابع : يخافونه إذا غابوا عن أعين الناس كخوفهم إذا كانوا بين الناس ، قاله أبو سليمان الدمشقي . ثم عاد إلى ذكر القرآن ، فقال : (وهذا) يعني : القرآن (ذكر) لمن تذكّر به ، وعظة لمن انعمت (مبارك) أي : كثير الخير (أفانم) يا أهل مكة (له منكرون) أي : جاحدون ، وهذا استفهام توبيخ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ .
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ .
قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ . قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ
فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ .
قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى
ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا
مُدْبِرِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ جَذَازًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾
قوله تعالى : (ولقد آتينا إبراهيم رشده) أي : هداه (من قبل) وفيه
ثلاثة أقوال .

أحدها : من قبل بلوغه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .
والثاني : آتينا ذلك في العلم السابق ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : من قبل موسى وهارون ، قاله الضحاك . وقد أشرنا إلى قصة إبراهيم في (الأنعام : ٧٥) .

قوله تعالى : (وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ) أي : علمنا أنه موضع لإيتاء الرشد . ثم يسن متى آناه فقال : (إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا قَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ) يعني : الأصنام . والتثال : اسم للشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله تعالى ، وأصله من مثَّ الشيء بالشيء : إذا شَبَّهْتَهُ بِهِ . وقوله : (الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا) أي : على عبادتها (عاكفون) أي : مقيمون ، فأجابوه أنهم رأوا آباءهم يعبدونها فاقصدوا بهم ، فأجابهم بأنهم فيما فعلوا وآباءهم في ضلال مبين ، (قالوا أجبنا بالحق أم أنت من اللاعبين) يعنون : أجادت أنت ، أم لآعب ؟ !

قوله تعالى : (لَا كَيْدَ لَكُمْ) الكيد : احتيال الكائد في ضرر المكيد . والمفسرون يقولون : لا كيدنها بالكسر (بعد أن تُولَّسُوا) أي : تذهبوا عنها ، وكان لهم عيد في كل سنة يخرجون إليه ولا يخلتفون بالمدينة أحداً ، فقالوا لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ، فخرج معهم ، فلما كان بعض الطريق ، قال : إني سقيم ، وألقى نفسه ، وقال سراً منهم : « ونالته لا كيدن أصنامكم » ، فسمعه رجل منهم ، فأفشاه عليه ، فرجع إلى بيت الأصنام ، وكانت - فيما ذكره مقاتل بن سليمان - اثنين وسبعين صنماً من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب ، فكسرها ، ثم وضع الفأس في عنق الصنم الكبير ، فذلك قوله : (فجعلهم جُذَازاً) قرأ الآكثرون : « جُذَازاً » بضم الجيم . وقرأ أبو بكر الصديق ، وابن مسعود ، وأبورزين ، وقناة ، وابن محيصن ، والأعمش ، والكسائي : « جِذَازاً » بكسر الجيم . وقرأ أبو رجاء العطاردي ، وأيوب السخيتاني ، وعاصم الجحدري : « جِذَازاً » بفتح الجيم . وقرأ الضحاك ، وابن يمر : « جِذَازاً »

بفتح الجيم من غير ألف . وقرأ معاذ القاري ، وأبو حيوه ، وابن وثاب :
« جُذْذًا » بضم الجيم من غير ألف . قال أبو عبيدة : أي : مستأصابت ،
قال جرير :

بَنِي الْمُهَلَّبِ جُذْذَ اللَّهِ دَابِرَهُمْ أَمْسَوْا رَمَادًا فَلَا أَصْلَ وَلَا طَرْفَ^(۱)
أي : لم يَبْقَ منهم شيء ، ولفظ « جُذْذًا » يقع على الواحد والاثني والجمع من
المذكر والمؤنث . وقال ابن قتيبة : « جُذْذًا » أي : فُتَاتًا ، وكلُّ شيء
كسرتنه فقد جُذْذَتْه ، ومنه قيل للسويق : الجذيد . وقرأ الكسائي : « جُذْذًا »
بكسر الجيم على أنه جمع جُذْذٍ ، مثل ثَقِيلٍ وَثِقَالٍ ، وَخَفِيفٍ وَخِفَافٍ . والجذيد
بمعنى : المجذوذ ، وهو المكسور . (إلا كبيراً لهم) أي : كسر الأضنام
إلا أكبرها . قال الزجاج : جاز أن يكون أكبرها في ذاته ، وجاز أن يكون
أكبرها عندم في تعظيمهم إياه ، (لعلهم إليه يرجعون) ، في هاء الكتابة قولان .
أحدهما : أنها ترجع إلى الصم . ثم فيه قولان . أحدهما : لعلهم يرجعون
إليه فيشاهدونه ، هذا قول مقاتل . والثاني : لعلهم يرجعون إليه بالتهمة ، حكاه
أبو سليمان الدمشقي .

والثاني : أنها ترجع إلى إبراهيم . والمعنى : لعلهم يرجعون إلى دين إبراهيم
بوجوب الحجّة عليهم ، قاله الزجاج .

﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا
فَتَى بَدَّ كُرْهُمُ يُقَالُ لَهُ إِبرَاهِيمُ . قَالُوا فَاثُوا بِهِ عَلَيَّ أُعِينُ
النَّاسَ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ . قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبرَاهِيمُ .
قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَلُّوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾

(۱) ديوانه : ۳۹۰ ، و مجاز القرآن ، : ۴۰/۲ ، و الكامل ، : ۵۱۰ .

فلما رجعوا من عيديم ونظروا إلى آلهتهم (قالوا مَنْ فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) أي : قد فعل ما لم يكن له فِعْلُهُ ، فقال الذي سمع إبراهيم يقول : « لا كيدن أصنامكم » : (سمعنا فتى بذكركم) قال الفراء : أي : يصيبهم ؛ تقول للرجل : لئن ذكرتني لتندمن ، تريد : بسوء .

قوله تعالى : (فَأَتُّوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ) أي : بمرأى منهم ، لا تأتوا به خفية . قال أبو عبيدة : تقول العرب إذا أظهر الأمر وشهر : كان ذلك على أعين الناس .

قوله تعالى : (لعلهم يشهدون) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : يشهدون أنه قال لآلهتنا ما قال ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة .

والثاني : يشهدون أنه فعل ذلك ، قاله السدي .

والثالث : يشهدون عقابه وما يُصنع به ، قاله محمد بن إسحاق .

قال المفسرون : فانطلقوا به إلى نعروود ، فقال له : (أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال بل فعله كبيرم هذا) غضب أن تُعبد معه الصغار ، فكسرها ، (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) من فَعَلَهُ بِهِمْ ؟ ! وهذا إلزام للحجة عليهم بأنهم جاد لا يقدرّون على النطق .

واختلف العلماء في وجه هذا القول من إبراهيم عليه السلام على قولين .

أحدهما : أنه وإن كان في صورة الكذب ، إلا أن المراد به التنبيه على أن من لا قدرة له ، لا يصلح أن يكون إلهاً ، ومثله قول الملكين لداود : « إن هذا أخي » ولم يكن أخاه « له تسع وتسعون نجمة » [مر : ٢٣] ، ولم يكن له شيء ،

فجرى هذا مجرى التنبيه لداود على ما فعل ، وأنه هو المراد بالفعل والمثل المضروب ؛ ومثل هذا لاتسميه العرب كذباً .

والثاني : أنه من معاريض الكلام ؛ فروي عن الكسائي أنه [كان] يقف عند قوله تعالى : (بل فعله) ويقول معناه : فعله من فعله ، ثم يتدىء (كبيرهم هذا) . قال الفراء : وقرأ بعضهم : « بل فعلته » بتشديد اللام ، يريد : فلعله كبيرهم هذا . وقال ابن قتبية : هذا من المعاريض ، ومعناه : إن كانوا ينطقون ، فقد فعله كبيرهم ، وكذلك قوله : (إني سقيم) [الصافات : ٨٩] أي : سأسقم ، ومثله (إني ميت) [الزمر : ٣٠] أي : ستموت ، وقوله : (لاتؤخذني بما نسيت) [الكهف : ٧٤] قال ابن عباس : لم ينس ، ولكنه من معاريض الكلام ، والمعنى : لاتؤخذني بنسياني ، ومن هذا قصة الحصين « إذ تسوروا المحراب » [ص : ٢١] ، ومثله (وإنا أو إبتاكم لعلى هدى) [سبأ : ٢٤] ، والعرب تستعمل التعريض في كلامها كثيراً ، فتباغ إرادتها بوجه هو أطف من الكشف وأحسن من التصريح . وروي أن قوماً من الأعراب خرجوا يمتارون ، فلما صدروا ، خالف رجل في بعض الليل إلى عيكم صاحبه ، فأخذ منه برأ وجعله في عيكم ، فلما أراد الرحلة وقاما بتماكان ، رأى عيكم يشول ، وعيكم صاحبه يثقل ، فأنشأ يقول :

عيكم نفسى بعص أعيكم القوم لم أر عيكم سارقاً قبل اليوم

فخون صاحبه بوجه هو أطف من التصريح . قال ابن الأنباري : كلام إبراهيم كان صدقاً عند البحث ، ومعنى قول النبي ﷺ « كذب إبراهيم ثلاث كذبات »^(١) :

(١) رواه البخاري : ٢٧٧/٦ ، ومـ : ١٨٤٠/٤ ، ولفظه عند مسلم بنهامة : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث —

قال قولاً يشبه الكذب في الظاهر ، وليس بكذب . قال المصنف : وقد ذهب جماعة من العلماء إلى هذا الوجه ، وأنه من المعارض ، والمعارض لا تُذم ، خصوصاً إذا احتيج إليها ، روى عمران بن حصين ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في المعارض لمدوحة عن الكذب »^(١) ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما يسرني أن

— كذبات ، ثنتين في ذات الله ، قوله : « إني سقيم » ، وقوله : « بل فعلم كبيرهم هذا » ، وواحدة في شأن سارة ، فانه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس ، فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يظنني عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختي فانك أختي في الاسلام ، فاني لأعلم في الأرض مسلماً غربي وعبرك ، ولما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار ، أتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك ، فأرسل إليها فأتي بها ، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة ، فلما دخلت عليه لم يتألم أن بسط يده إليها ، فقبضت يده قبضة شديدة ، فقال له : ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ، ففعلت ، فعاد ، فقبضت أشد من القبضة الأولى ، فقال له مثل ذلك ، ففعلت ، فعاد ، فقبضت أشد من القبضتين الأوليين ، فقال : ادعي الله أن يطلق يدي ، ففعلت ، ففعلت أن لا أضرك ، ففعلت وأطلقت يده ، ودعا الذي جاء بها فقال له : إنك إنما أنتيتني بـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـبـb

(١) رواء البخاري في « الأدب المفرد » : ٣٣٤/٢ من طريق قتادة عن مطرف بن

عبد الله بن الشخير قال : صحبت عمران بن حصين إلى البصرة ، فما أتى علينا يوم إلا أنشدنا فيه الشعر ، وقال : إن في معارض الكلام لمدوحة عن الكذب . قال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » : قال البيهقي : رواء داود بن الزرقان عن عمران بن حصين مرفوعاً ، قال : والموقوف هو الصحيح ، وكذا وهي المرفوع ابن عدي . قال البيهقي : وروى من وجه آخر ضعيف - يعني جداً - مرفوعاً . ثم قال : وبإجملة فقد حسن العراقي هذا الحديث ، ورد على الصغاني حكاه عليه بالوضع . اهـ . والمعارض : ما حدث عن الكذب ، والمدوحة : السعة .

لي بما أعلم من معارضض القول مثل أهلي ومالي، وقال النخعي : لهم كلام يتكلمون به إذا خشوا من شيء يدرؤون به عن أنفسهم . وقال ابن سيرين : الكلام أوسع من أن يكذب ضريف ، وقد قال رسول الله ﷺ لعجوز : « إن الجنة لا تدخلها العجائز » (۱) ، أراد قوله تعالى : (إنا أنشأناهنَّ إنشاءً) [الواقعة : ۳۵] ، وروي عنه ﷺ أنه كان يمازح بلالاً ، فيقول : « ما أخت خالك منك » ؟ ، وقال لامرأة : « مَنْ زوجك » ؟ فسمته له ، فقال : « الذي في عينه يياض » (۲) ، وقال لرجل : « إنا حاملوك على ولد ناقة » (۳) ، وقال له العباس : ما ترجو لأبي طالب ؟ فقال : « كل خير أرجوه من ربي » ، وكان أبو بكر حين خرج من النار مع رسول الله ﷺ إذا سأله أحد : مَنْ هذا بين يديك ؟ يقول : هادٍ يهديني . وكانت امرأة ابن رواحة قد رآته مع جارية له ، فقالت له : وعلى فراشي أيضاً ؟ فوجد ، فقالت له : فاقراً القرآن ، فقال :

وفينا رسولُ الله يتلو كتابه إذا انشقَّ مشهورٌ من الصُّبحِ طالع
يبيتُ مجافي جنبه عن فراشه إذا استقلتُ بالكافرين المضاجعُ

(۱) رواه عبد بن حميد عن الحسن مرسلًا ، ورواه الترمذي في « الشائل » عن عبد ابن حميد عن الحسن أيضاً ، وذكره السيوطي في « الدر » : ۱۵۸/۶ عن الحسن ، وزاد نسبه لابن المنذر ، والبيهقي في « البعث » ، وأورده أيضاً من رواية البيهقي في « الشعب » ، والطبراني في « الأوسط » عن عائشة رضي الله عنها .

(۲) ذكره ملا علي القاري في « شرح الشائل » للترمذي من رواية ابن أبي حاتم وغيره من حديث عبد الله بن ميم الفهري .

(۳) رواه الترمذي في « الشائل » عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً استجمل رسول الله ﷺ ، فقال : « إني حاملك على ولد الناقة » فقال : يا رسول الله ، ما صنع بولد الناقة ؟ فقال : « وهل تلد الابل إلا النوق » ؟ .

فَقَالَتْ : آمَنْتُ بِاللَّهِ ، وَكَذَبْتَ بِصُرِيِّ ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَخْبَرَهُ ، فَضَحِكَ وَأَعْجِبَهُ مَا صَنَعَ . وَعَرَضَ شَرِيحَ نَاقَةٍ لِيَبِيْعَهَا فَقَالَ لَهُ الْمُشْتَرِي : كَيْفَ لَبِنَهَا ؟ قَالَ : أَحْلَبُ فِي أَيِّ إِنَاءٍ شِئْتَ ، قَالَ : كَيْفَ الْوِطَاءُ ؟ قَالَ : أَفْرَشُ وَنَمَ ، قَالَ : كَيْفَ نَجَاؤُهَا ^(١) ؟ قَالَ : إِذَا رَأَيْتَهَا فِي الْإِبْلِ عَرَفْتَ مَكَانَهَا ، عَلَّقَ سَوْطَكَ وَسِرَّ ، قَالَ : كَيْفَ قُوَّتُهَا ؟ قَالَ : أَحْمَلُ عَلَى الْحَائِطِ مَا شِئْتَ ؛ [فَاسْتَصْرَاهَا] فَلَمْ يَرَ شَيْئًا مِمَّا وَصَفَ ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : لَمْ أَرَفْ فِيهَا شَيْئًا مِمَّا وَصَفْتَهَا بِهِ ، قَالَ : مَا كَذَبْتَكَ ، قَالَ : أَقْلَنِي ، قَالَ : نَعَمْ . وَخَرَجَ شَرِيحَ مِنْ عِنْدِ زِيَادٍ وَهُوَ صَرِيضٌ ، فَقَبِلَ لَهُ : كَيْفَ وَجَدْتَ الْأَمِيرَ ؟ قَالَ : تَرَكْتُهُ بِأَمْرِ وَيْنِي ، فَقَبِلَ لَهُ : مَا مَعْنَى بِأَمْرِ وَيْنِي ؟ قَالَ : بِأَمْرِ بِالْوَصِيَّةِ ، وَيْنِي عَنِ النَّوْحِ . وَأَخَذَ مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ حَجْرًا مَدْرِيًّا فَقَالَ : أَلَمَنْ عَلِيًّا ، فَقَالَ : إِنْ الْأَمِيرُ أَمَرَنِي أَنْ أَلَمَنْ عَلِيًّا مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ ، فَالْعَنُوهُ ، لَعْنَةُ اللَّهِ . وَأَمَرَ بَعْضُ الْأَمْراءِ صَعْصَعَةَ بْنَ صَوْحَانَ بَلْعَمَ عَلِيٍّ ، فَقَالَ : لَعْنَةُ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَلَعْنَةُ عَلِيٍّ ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ [هَذَا] الْأَمِيرُ قَدْ أَبِي إِلَّا أَنْ أَلَمَنْ عَلِيًّا ، فَالْعَنُوهُ ، لَعْنَةُ اللَّهِ . وَامْتَحَنَتْ الْخَوَارِجُ رِجَالَ مَنْ الشَّيْعَةِ ، فَجَعَلَ يَقُولُ : أَنَا مِنْ عَلِيٍّ وَمِنْ عَمَّانَ بَرِيٍّ . وَخَطَبَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَتَحْتَهُ أُخْرَى ، فَقَالُوا : لَا نَزْوَجُكَ حَتَّى تَطْلِقَ امْرَأَتَكَ ، فَقَالَ : أَشْهَدُوا أَنِّي قَدْ طَلَقْتُ ثَلَاثًا ، فَزَوَّجُوهُ ، فَأَقَامَ مَعَ الْمَرْأَةِ الْأُولَى ، فَادَّعَوْا أَنَّهُ قَدْ طَلَّقَ ، فَقَالَ : أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَانَ تَحْتِي فَلَانَةَ فَطَلَّقْتُهَا ، ثُمَّ فَلَانَةَ فَطَلَّقْتُهَا ، ثُمَّ فَلَانَةَ فَطَلَّقْتُهَا ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : فَقَدْ طَلَّقْتُ ثَلَاثًا . وَحَكَى أَنَّ رِجَالَ عَثْرَ بِهِ الطَّائِفَ لَيْلَةً ، فَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ :

أَنَا ابْنُ الَّذِي لَا يُنْزَلُ الدَّهْرَ قَدِيرُهُ وَإِنْ نَزَلَتْ يَوْمًا فَسَوْفَ تَعُودُ

(١) الشجاء : السرعة في السير .

تري الناس أفواجاً إلى ضوء ناره فمنهم قيسام حولها وبقود
فطن الطائف أنه ابن بعض الأشراف بالبصرة ، فلما أصبح سأل عنه ، فاذا هو
ابن باقلائي . ومثل هذا كثير .

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .
﴿ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ . قال
أفتعبدون من دون الله مآلاً ينفخكم شيئاً ولا يضركم
أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾

قوله تعالى : (فرجموا إلى أنفسهم) فيه قولان .

أحدهما : رجع بمضمهم إلى بعض . والثاني : رجع كل منهم إلى نفسه متفكراً .

قوله تعالى : (فقالوا إنكم أنتم الظالمون) فيه خمسة أقوال .

أحدها : حين عبدتم من لا يتكلم ، قاله ابن عباس .

والثاني : حين تتركون آلهتكم وحدها ، وتذهبون ، قاله وهب بن منبه .

والثالث : في عبادة هذه الأصغر مع هذا الكبير ، روي عن وهب أيضاً .

والرابع : لإبراهيم حين اتهموه والفسس في يد كبير الأصنام ، قاله

ابن إسحاق ، ومقاتل .

والخامس : أنتم ظالمون لإبراهيم حين سأتموه ، وهذه أصنامكم حاضرة ،

فاسألوها ، ذكره ابن جرير .

قوله تعالى : (ثم نكسوا على رؤوسهم) وقرأ أبو رزين العقيلي ، وابن أبي عملة ،

وأبو حنيفة : « نكسوا » برفع النون وكسر الكاف مشددة . وقرأ سعيد

ابن جبير ، وابن عمر ، وعاصم الجعاري : « نكسوا » بفتح النون والكاف

مخففة . قال أبو عبيدة : « نُكِسُوا » : قُلِبُوا ، تقول : نكستُ فلاناً على رأسه : إذا قهرته وعلوته .

ثم في المراد بهذا الانقلاب ثلاثة أقوال .

أحدها : أدركتهم حيرةً ، فقالوا : (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) ، قاله قتادة .

والثاني : رجعوا إلى أول ما كانوا يعرفونها به من أنها لا تنطق ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : انقلبوا على إبراهيم محتجون عليه بعد أن أقرؤا له ولاموا أنفسهم في تهمة ، قاله أبو سليمان الدمشقي . وفي قوله : (لقد علمت) إضمار « قالوا » ، وفي هذا إقرار منهم بعجز ما يعبدونه عن النطق ، فحينئذ توجهت لإبراهيم الحجة ، فقال موبخاً لهم : (أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم) أي : لا يرزقكم ولا يعطيكم شيئاً (ولا يضرهم) إذا لم تعبدوه ، وفي هذا حث لهم على عبادة من يملك النفع والضر ، (أف لكم) قال الزجاج : معناه : التثنية لكم ؛ فلما أزمهم الحجة غضبوا ، فقالوا : (حرّ قوه) . وذكر في التفسير أن نمرود استشارهم ، بأيّ عذاب أعدّ به ، فقال رجل : حرّ قوه ، فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَاعِلِينَ . قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا

صَالِحِينَ . وَجَعَلْنَا مِنْ أَئِمَّةٍ يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ
الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿١﴾
قوله تعالى : (وانصروا آلهمكم) أي : بتحريقه ، لأنه يميمها (إن كنتم
فاعلين) أي : ناصرها .

الإشارة إلى القصة

ذكر أهل التفسير أنهم حبسوا إبراهيم عليه السلام في بيت ثم بنوا له حبراً
طول جداره ستون ذراعاً إلى سفح جبل منيف ، ونادى منادي الملك : أيها الناس
احتطبوا لإبراهيم ، ولا يتخلفنَّ عن ذلك صغير ولا كبير ، فن تخلف ألقى في
تلك النار ، ففعلوا ذلك أربعين ليلة ، حتى إن كانت المرأة لتقول : إن ظفرتُ
بكذا لأحتطبنَّ لنار إبراهيم ، حتى إذا كاد الحطب يساوي رأس الجدار سدوا
أبواب الحبر وقذفوا فيه النار ، فارتفع لهبها ، حتى إن كان الطائر ليمرُّ بها فيحترق
من شدة حرِّها ، ثم بنوا بنياناً شامخاً ، وبنوا فوقه منجنيقاً ، ثم رفعوا إبراهيم
على رأس البنيان ، ورفع إبراهيم رأسه إلى السماء ، فقال : اللهم أنت الواحد في
السماء ، وأنتا الواحد في الأرض ، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري ، حسبي
الله ونعم الوكيل ؛ فقالت السماء والأرض والجبال والملائكة : ربنا إبراهيمُ يُحرقُ
فيك ، فائذن لنا في نصرته ؛ فقال : أنا أعلمُ به ، وإن دعاكم فأغثوه ؛ فقفوه
في النار وهو ابن ست عشرة سنة ، وقيل : ست وعشرين ، فقال : « حسبي الله
ونعم الوكيل »^(١) . فاستقبله جبريل ، فقال : يا إبراهيمُ ألك حاجة ؟ قال : أمّا إليك

(١) روى البخاري في « صحيحه » عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : حسبنا الله —

فلا ، قال جبريل : فسل ربك ، فقال : « حسي من سؤالي علمه بحالي »^(١) ، فقال الله عز وجل : (يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) ، فلم تبق نار على وجه الأرض يومئذ إلا طُفئت وظننت أنها عُنيت . وزعم السدي أن جبريل هو الذي ناداها . وقال ابن عباس : لو لم يُتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها . قال السدي : فأخذت الملائكة بضبعمي^(٢) إبراهيم فأجلسوه على الأرض ، فاذا عين من ماء عذب ، وورد أحمر ، وزرجس . قال كعب ووهب : فما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه ، وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام ، وقال غيرها : أربعين أو خمسين يوماً ، فنزل جبريل بقميص من الجنة وطفنسة من الجنة ، فألبسه القميص ، وأجلسه على الطنفسة وقدمه يحدته . وإن آزر أتى نمرود فقال : ائذن لي أن أخرج عظام إبراهيم فأدفنها ، فانطلق نمرود معه الناس ، فأمر بالحائط فنقب ، فاذا إبراهيم في روضة تهتز وثيابه تندى ، وعليه القميص وتحت الطنفسة والمالك إلى جنبه ، فناداه نمرود : يا إبراهيم ، إن إلهك الذي بلغت قدرته هذا لكبير ، هل تستطيع أن تخرج ؟ قال : نعم ، فقام إبراهيم عشي حتى خرج ، فقال : من الذي رأيتُ معك ؟ قال : ملك أرسله إليّ ربّي ليؤنسني ، فقال نمرود : إني مقرب

— ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم عليه السلام حين أتى في النار ، وقالها محمد عليه السلام حين قالوا : (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) . وفي رواية للبخاري عن ابن عباس رضي الله عنها قال : كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين أتى في النار : حسي الله ونعم الوكيل .

(١) حديث حسي من سؤالي علمه بحالي ، رواه ابن جرير مختصراً ، وفي سنده جملة ، وذكره المجلوني في كشف الخفاء ، من رواية البغوي عن كعب الأحمري ، ورواه كثير من المفسرين عن أبي بن كعب موقوفاً ، ولعله من الاسرائيليات ، ولا أصل له في الرفع ، وقال ابن عراق في تنزيه الشريعة ، ١/٢٥٠ : قال ابن تيمية : موضوعه . وهذا الخبر لا يصح ، لأنه يشير إلى ترك الدعاء ، مع أن الدعاء عبادة ، وقد جاءت الآيات والأحاديث بالأمر به ، والحض عليه . (٢) الضبعم ، بسكون الباء : العضد .

لِإِلَهِكَ قَرَبَانًا لِمَا رَأَيْتُ مِنْ قُدْرَتِهِ ، فَقَالَ : إِذْنٌ لِيَقْبَلَ اللَّهُ مِنْكَ مَا كُنْتَ عَلَى دِينِكَ ، فَقَالَ : يَا إِبْرَاهِيمَ ، لَا أُسْتَطِيعُ تَرْكَ مَلِكِي ، وَلَكِنْ سَوْفَ أُذْبِحُ لَكَ ، فَذْبَحَ الْقَرْبَانَ وَكَفَّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ .

قال المفسرون : ومعنى « كُونِي بَرْدًا » أي : ذات برد « وسلاماً » أي : سلامة . (وأرادوا به كيداً) وهو التحريق بالنار (فجعلناهم الأخرين) وهو أن الله تعالى سلط البعوض عليهم حتى أكل لحومهم وشرب دماءهم ، ودخلت واحدة في دماغ نمرود حتى أهلكته ، والمعنى : أنهم كادوه بسوء ، فانقلب السوء عليهم . قوله تعالى : (وَنَجَّيْنَاهُ) أي : من نمرود وكيدته (ولوطاً) وهو ابن أخي إبراهيم ، وهو لوط بن هاران بن تارح ، وكان قد آمن به ، فهاجرا من أرض العراق إلى الشام . وكانت سارة مع إبراهيم في قول وهب . وقال السدي : إنما هي ابنة ملك حرّان ، لقبها إبراهيم فتزوجها على أن لا يغيرها ، وكانت قد طعنت على قومها في دينهم .

فأما قوله تعالى : (إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) ، ففيها قولان . أحدهما : أنها أرض الشام ، وهذا قول الأكثرين . وبركتها : أن الله عز وجل بعث أكثر الأنبياء منها ، وأكثر فيها الخصب والثمار والأنهار . والثاني : أنها مكة ، رواه العوفي عن ابن عباس . والأول أصح . قوله تعالى : (وَوَهَبْنَا لَهُ) يعني : إبراهيم (إسحاق ويعقوب نافلة) ، وفي معنى النافلة قولان .

أحدهما : أنها بمعنى الزيادة ، والمراد بها : يعقوب خاصة ، فكأنه سأل واحداً ، فأعطي اثنين ، وهذا مذهب ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد ، والفراء . والثاني : أن النافلة بمعنى العطية ، والمراد بها : إسحاق ويعقوب ، وهذا مذهب مجاهد ، وعطاء .

قوله تعالى : (وَكَلَّمَ جَعَلْنَا صَالِحِينَ) يعني : إبراهيم وإسحاق ويعقوب .
قال أبو عبيدة : « كَلَّمَ » يقع خبره على لفظ الواحد ، لأن لفظه لفظ الواحد ،
ويقع خبره على لفظ الجميع ، لأن معناه معنى الجميع .

قوله تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً) أي : رؤوساً يُقتدى بهم في الخير (يَهْتَدُونَ
بأمرنا) أي : يَدْعُونَ الناس إلى ديننا بأمرنا إِيَّاهُمْ بذلك (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ
الْخَيْرَاتِ) قال ابن عباس : شرائع النبوة . وقال مقاتل : الأعمال الصالحة ،
(وَإِقَامَ الصَّلَاةِ) قال الزجاج : حذفُ الهاء من « إقامة الصلاة » قليلٌ في اللغة ،
تقول : أقام إقامة ، والحذف جائز ، لأن الإضافة عوض من الهاء .

﴿ وَلَوْطًا أَنْبَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرَبَةِ الَّتِي
كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُ
فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

قوله تعالى : (وَلَوْطًا أَنْبَيْنَاهُ حُكْمًا) قال الزجاج : انتصب « لوط » بفعل مضمر ،
لأن قبله فعلاً ، فالمعنى : وأوحينا إليهم وآتيناهم لوطاً . وذكر بعض النحويين :
أنه منصوب على « واذكر لوطاً » ، وهذا جائز ، لأن ذكر إبراهيم قد جرى ،
فحمل لوط على معنى : واذكر .

قال المفسرون : لما هاجر لوط مع إبراهيم ، نزل إبراهيم أرض فلسطين ،
ونزل لوط بالموثفة على مسيرة يوم وليلة أو نحو ذلك من إبراهيم ، فبعثه الله نبياً .
فأما « الحكم » ففيه قولان .

أحدهما : أنه النبوة ، قاله ابن عباس .

والثاني : الفهم والعقل ، قاله مقاتل . وقد ذكرنا فيه أقوالاً في سورة

زاد المسير ٥ م (٢٤)

(يوسف: ٢٢) . وأما « القرية » هاهنا ، فهي سدُوم ، والمراد أهلها ، والخبائث : أفعالهم المنكرة ، فمنها إتيان الذكور وقطع السبيل ، إلى غير ذلك مما قد ذكره الله عز وجل عنهم في مواضع [هود: ٧٨ ، والحجر: ٦٩] .

قوله تعالى : (وأدخلناه في رحمتنا) أي : بأنجائه من بينهم .

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَنَصَرْنَا مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

قوله تعالى : (ونوحاً) المعنى : واذكر نوحاً ، وكذلك ما يأتيك من ذكر الأنبياء (إذ نادى) أي : دعا على قومه (من قبل) أي : من قبل إبراهيم ولوط . فأما الكرب العظيم ، فقال ابن عباس : هو الفرق ونكذيب قومه .

قوله تعالى : (ونصرناه من القوم) أي : منعناه منهم أن يصلوا إليه بسوء .

وقيل : « من » بمعنى « على » .

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمْنَا آدَمَ حَكِيمًا وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُخَفِّضَكُمْ مِنَ الْبَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ . وَاسْلُومَانَ الرَّبِيعَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ . وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾

قوله تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث) وفيه قولان .

أحدهما : أنه كان عنباً ، قاله ابن مسعود ، ومسروق ، وشريح .

والثاني : كان زرعاً ، قاله قتادة .

(إذ نَفَشْتُمْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ) قال ابن قتيبة : أي : رَعَتْ أَيْلَاناً ، يقال :

نَفَشْتُمْ الْغَنَمَ بِاللَّيْلِ ، وَهِيَ إِبِلٌ نَفَشٌ وَنَفَّاشٌ وَنَفَّاشٌ ، وَالوَاحِدُ : نَافِشٌ ،

وَسَرَّحْتُمْ وَسَرَّحْتُمْ بِالنَّهَارِ . قال قتادة : النَّفْسُ بِاللَّيْلِ ، وَالْهَمَلُ بِالنَّهَارِ .

وقال ابن السكيت : النَّفْسُ : أَنْ تَنْشُرَ الْغَنَمَ بِاللَّيْلِ تَرَعُ بِلَا رَاعٍ .

الإشارة إلى القصة

ذكر أهل التفسير أن رجلين كانا على عهد داود عليه السلام ، أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فتفلتت الغنم فوقعت في الحرث فلم يُتبق منه شيئاً ، فاختصما إلى داود ، فقال لصاحب الحرث : لك رقاب الغنم ، فقال سليمان : أو غير ذلك ؟ قال : ما هو ؟ قال : ينطلق أصحاب الحرث بالغنم فيصيرون من ألبانها ومنافعها ، ويُقبل أصحاب الغنم على الكرم ، حتى إذا كان كلبلة نفشت فيه الغنم ، دفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم ، ودفع هؤلاء إلى هؤلاء كرمهم ، فقال داود : قد أصبت القضاء ، ثم حكم بذلك ، فذلك قوله : (وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ) وفي المشار إليهم قولان .

أحدهما : داود وسليمان ، فذكرهما بلفظ الجمع ، لأن الاثنين جمع ، هذا قول الفراء .

والثاني : أنهم داود وسليمان والخصوم ، قاله أبو سليمان الدمشقي .
وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن أبي عملة : « وَكُنَّا لِحُكْمِهَا » على التنزيه . وممنى

« شاهدین » : أنه لم ینب عنّا من أمرهم شيء . (فقہمناھا سليمان) یعنی : القضية والحكومة ، وإنما کنی عنها ، لأنه قد سبق ما يدل علیها من ذکر الحکم ، (وکلاً) منها (آئینا حکماً) وقد سبق بیانه . قال الحسن : لولا هذه الآية لرأيت أن القضاة قد هلكوا ، ولكنه أتى علی سليمان اصوابه ، وعذر داود باجتهاده .

﴿ فصل ﴾

قال أبو سليمان الدمشقي : كان قضاء داود وسليمان جميعاً من طريق الاجتهاد ، ولم يكن نصّاً ، إذ لو كان نصّاً ما اختلفا . قال القاضي أبو يعلى : وقد اختلف الناس في الغنم إذا نقت ليلاً في زرع رجل فأفسدته ، فذهب أصحابنا أن عليه الضمان ، وهو قول الشافعي ، وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا ضمان عليه ليلاً ونهاراً ، إلا أن يكون صاحبها هو الذي أرسلها ، فظاهر الآية يدل علی قول أصحابنا ، لأن داود حكم بالضمان ، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يثبت نسخه . فان قيل : فقد ثبت نسخ هذا الحكم ، لأن داود حكم بدفع الغنم إلى صاحب الحرث ، وحكم سليمان له بأولادها وأصوافها ، ولا خلاف أنه لا يجب علی من نقت غنمه في حرث رجل شيء من ذلك ؛ قيل : الآية تضمنت أحكاماً ، منها وجوب الضمان وكيفيته ، فالنسخ حصل علی كيفيته ، ولم يحصل علی أصله ، فوجب التعلق به ، وقد روى حرام بن محبصة عن أبيه : أن ناقةً للبراء دخلت حائط رجل فأفسدت ، فقضى رسول الله ﷺ علی أهل الأموال حفظها بالنهار ، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل (۱) .

(۱) رواء أحمد في المسند ، : ۲۹۵/۴ ، وأبو داود في سننه ، رقم (۳۵۶۹ - ۳۵۷۰) ، وابن ماجه في سننه ، رقم (۲۳۳۲) . قال ابن كثير : وقد علل هذا الحديث ، قال : وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب الأحكام ، وبالله التوفيق .

قوله تعالى : (وسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ) تقدير الكلام : وسَخَّرْنَا الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ مَعَ دَاوُدَ . قال أبو هريرة : كان إذا سَبَّحَ أَجَابَتْهُ الْجِبَالُ وَالطَّيْرُ بِالتَّسْبِيحِ وَالدِّكْرُ ، وقال غيره : كان إذا وجد فترةً ، أمر الجبال فسبَّحت حتى يشتاق هو فيسبِّح .

قوله تعالى : (وَكُنَّا فَاعِلِينَ) أي : لذلك . قال الزجاج : المعنى : وكُنَّا نَقْدِرُ عَلَى مَا نَرِيدُهُ .

قوله تعالى : (وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَةَ الْكَبُوسِ لَكُمْ) في المراد بالكَبُوسِ قولان . أحدهما : الدُّرُوعُ ، وكانت قبل ذلك صفائح ، وكان داود أول من صنع هذه الخلق وسرد ، قاله قتادة .

والثاني : أن اللَّبُوسَ : السلاح كله من درع إلى رمح ، قاله أبو عبيدة . وقرأ أبو المتوكل ، وابن السميع : « كَبُوسٌ » بضم اللام .

قوله تعالى : (لِيُحَصِّنْكُمْ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « لِيُحَصِّنْكُمْ » بالياء . وقرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم : « لِيُحَصِّنْكُمْ » بالتاء . وروى أبو بكر عن عاصم : « لِيُحَصِّنْكُمْ » بالنون خفيفة . وقرأ أبو الدرداء ، وأبو عمران الجوني ، وأبو حيوة : « لِيُحَصِّنْكُمْ » بتاء مرفوعة وفتح الحاء وتشديد الصاد . وقرأ ابن مسعود ، وأبو الجوزاء ، وحמיד ابن قيس : « لِيُحَصِّنْكُمْ » بتاء مفتوحة مع فتح الحاء وتشديد الصاد مع ضمها . وقرأ أبو رزين العقيلي ، وأبو المتوكل ، ومجاهد : « لِيُحَصِّنْكُمْ » بنون مرفوعة وفتح الحاء وكسر الصاد مع تشديدها . وقرأ معاذ القاري ، وعكرمة ، وابن يعمر ، وعاصم الجحدري ، وابن السميع : « لِيُحَصِّنْكُمْ » بياء مرفوعة وسكون الحاء وكسر الصاد مشددة النون .

فن قرأ بالياء ، ففيه أربعة أوجه . قال أبو علي الفارسي : أن يكون الفاعل اسم الله ، لتقدم معناه ، ويجوز أن يكون اللباس ، لأن اللبوس بمعنى اللباس من حيث كان ضرباً منه ، ويجوز أن يكون داود ، ويجوز أن يكون التعليم ، وقد دل عليه « علمناه » .

ومن قرأ بالتاء ، حمله على المعنى ، لأنه الدرع .

ومن قرأ بالتون ، فلتقدم قوله : « وعلمناه » .

ومعنى « لَتُحْصِنَكُم » : لَتُحْرَزِكُمْ وتُنْعِمَكُم (مِنْ بِأَسْمِكُمْ) يعني : الحرب .

قوله تعالى : (وسليمان الريح) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو عمران الجوني ،

وأبو حيوة الحضرمي : « الريح » بألف مع رفع الحاء . وقرأ الحسن ، وأبو المتوكل ،

وأبو الجوزاء : بالآلف ونصب الحاء ، والمعنى : وسخرنا لسليمان الريح (عاصفة)

أي : شديدة الهبوب (تجري بأمره) يعني : بأمر سليمان (إلى الأرض التي باركنا

فيها) وهي أرض الشام ، وقد مرَّ بيان بركتها في هذه السورة [الانبياء : ٧٢] ؛

والمعنى : أنها كانت تسير به إلى حيث شاء ، ثم تعود به إلى منزله بالشام .

قوله تعالى : (وكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ) علمنا أن مانعطي سليمان يدعوه

إلى الخضوع لربه .

قوله تعالى : (ومن الشياطين من ينفوصون له) قال أبو عبيدة : « مَنْ »

تقع على الواحد والاثنين والجمع من المذكر والمؤنث . قال المفسرون : كانوا

ينفوصون في البحر ، فيستخرجون الجواهر ، (ويعملون عملاً دون ذلك) قال

الزجاج : معناه : سوى ذلك ، (وكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ) أن يفسدوا ماعملوا . وقال

غيره : أن يخرجوا عن أمره .

﴿ وَيَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ
 مِمَّنْ رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ
 وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ
 مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿

فوله تعالى : (وأيوبَ إذ نادى ربه) أي : دعا ربه (أني) وقرأ
 أبو عمران الجوني : « إني » بكسر الهمزة ، (مسني الضر) وقرأ حمزة :
 « مسني » بتسكين الياء ، أي : أصابني الجهد ، (وأنت أرحم الراحمين) أي :
 أكثرهم رحمة ، وهذا تعريض منه بسؤال الرحمة إذ أني عليه بأنه الأرحم وسكت .

الإشارة إلى قصته

ذكر أهل التفسير أن أيوب عليه السلام كان أغنى أهل زمانه ، وكان
 كثير الإحسان . فقال إبليس : يارب سلطني على ماله وولده - وكان له ثلاثة
 عشر ولداً - فان فعلت رأيتك كيف يُطعني ويعصيك ، فقيل له : قد سلطتُك
 على ماله وولده ، فرجع إبليس فجمع شياطينه ومردته ، فبعث بعضهم إلى دوابه
 ورعائه ، فاحتملوا حتى قذفوها في البحر ، وجاء إبليس في صورة قيمه ، فقال :
 يا أيوب ألا أراك تصلني وقد أقبلت ربح عاصف فاحتملت دوابك ورعائها حتى
 قذفتها في البحر ؟ فلم يردَّ عليه شيئاً حتى فرغ من صلاته ، ثم قال : الحمد لله الذي
 رزقني ثم قبله مني ، فانصرف خائباً ، ثم أرسل بعض الشياطين إلى جنانه وزروعه ،
 فأحرقوها ، وجاء فأخبره ، فقال مثل ذلك ، فأرسل بعض الشياطين فزلزوا منازل
 أيوب وفيها ولده وخدمه ، فأهلكوهم ، وجاء فأخبره ، فحمد الله ، وقال لإبليس
 وهو يظنه قيمه في ماله : لو كان فيك خير لقبضك منهم ، فانصرف خائباً ،

فقيل له : كيف رأيتَ عبدي أيوب ؟ قال : يارب سلّطني على جسده فسوف ترى ، قيل له : قد سلّطتُكَ على جسده ، فجاء فنفخ في إبهام قدميه ، فاشتعل فيه مثل النار ، ولم يكن في زمانه أكثر بكاءً منه خوفاً من الله تعالى ، فلما نزل به البلاء لم يبك مخافة الجزع ، وبقي لسانه الذّكر ، وقلبه للمعرفة والشّكر ، وكان يرى أمعاءه وعروقه وعظامه ، وكان مرضه أنه خرج في جميع جسده نآليل كآيات الغم ، ووقعت به حكمة لا يملكها ، فحكّ بأظفاره حتى سقطت ، ثم بالمسوح ، ثم بالحجارة ، فأنتن جسمه وتقطّع ، وأخرجته أهل القرية فجعلوا له عريشاً على كُناسة ، ورفضه الخلق سوى زوجته ، واسمها رحمة بنت إفراهيم بن يوسف بن يعقوب ، فكانت تختلف إليه بما يصاحبه ^(١) . وزوى أبو بكر القرشي عن الليث ابن سعد ، قال : كان ملك يظلم الناس ، فكلمه في ذلك جماعة من الأنبياء ، وسكت عنه أيوب لأجل خيل كانت له في سلطانه ، فأوحى الله إليه : تركتَ كلامه من أجل خيلك ؟ ! الأطلنّ بلاك ^(٢) .

واختلفوا في مدة إبته في البلاء على أربعة أقوال .

أحدها : ثمانى عشرة سنة ، رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ ^(٣) .
والثاني : سبع سنين ، قاله ابن عباس ، وكعب ، ويحيى بن أبي كثير .

(١) روى هذا الخبر وهب بن منبه في قصة طويلة ساقها ابن جرير الطبري في التفسير ، : ٦٥/١٧ ، قال ابن كثير : ١٨٨/٣ : وقد روي عن وهب بن منبه في خبره قصة طويلة ساقها ابن جرير ، وابن أبي حاتم بالسند عنه ، وذكرها غير واحد من متأخري المفسرين ، وفيها عرابة .

(٢) ذكر نحو هذا الخبر السيوطي في الدر : ٣٢٧/٤ من رواية ابن عساكر عن أبي إدريس الحولاني ، وأعله من الاسرائيليات .

(٣) ذكره ابن كثير ١٨٩/٣ من رواية ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك وقال : رفع هذا الحديث عرب جداً .

والثالث : سبع سنين وأشهر ، قاله الحسن .

والرابع : ثلاث سنين ، قاله وهب .

وفي سبب سؤاله العافية ستة أقوال .

أحدها : [أنه] اشتهى إداماً ، فلم تُصبه امرأته حتى باعت قرناً من شعرها ، فلما علم ذلك ، قال : « مسني الضر » ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أن الله تعالى أنساه الدعاء مع كثرة ذكره الله ، فلما انتهى أجل البلاء ، يسر له الدعاء ، فاستجاب له ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أن نفرأ من بني إسرائيل مرثوا به ، فقال بعضهم لبعض : ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم ، فعند ذلك قال : « مسني الضر » ، قاله نوف البكالي . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير : كان له أخوان ، فأتياه يوماً فوجدنا ريحاً ، فقالا : لو كان الله علم منه خيراً ما بلغ به كل هذا ، فما سمع شيئاً أشدَّ عليه من ذلك ، فقال : اللهم إن كنت تعلم أنني لم أبيت ليلة شعبان وأنا أعلم مكان جائع فصدقتني ، فصُدِّقَ وهما يسمعان ، ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أنني لم ألبس قميصاً وأنا أعلم مكان عارٍ فصدقتني ، فصُدِّقَ وهما يسمعان ، فخرَّ ساجداً ، ثم قال : اللهم لأرفع رأسي حتى تكشف ما بي ، فكشف الله عز وجل ما به .

والرابع : أن إبليس جاء إلى زوجته بسخلة ، فقال : ليذبح أيوب هذه لي وقد برأ ، فجاءت فأخبرته ، فقال : إن شفاني الله لأجلدتك مائة جلدة ، أمرتني أن أذبح لغير الله؟ ثم طردها عنه ، فذهبت ، فلما رأى أنه لا طعام له ولا شراب ولا صديق ، خرَّ ساجداً وقال : « مسني الضر » ، قاله الحسن . والخامس : أن الله تعالى أوحى إليه وهو في عنفوان شبابه : إني مبتليك ،

قال : يارب ، وأين يكون قلبي ؟ قال : عندي ، فصبَّ عليه من البلاء ما سمعتم ، حتى إذا بلغ البلاء منتهاه ، أوحى إليه أني معافيك ، قال : يارب ، وأين يكون قلبي ؟ قال : عندك ، قال : « مسني الضر » ، قاله إبراهيم بن شيبان القرميسي فيما حدثنا به عنه .

والسادس : أن الوحي انقطع عنه أربعين يوماً ، فخاف هجران ربه ، فقال : « مسني الضر » ، ذكره الماوردي .

فان قيل : أين الصبر ، وهذا لفظ الشكوى ؟

فالجواب : أن الشكوى إلى الله لانفاني الصبر ، وإنما المذموم الشكوى إلى الخلق^(١) ، ألم تسمع قول يعقوب : « إنما أشكو بثي وحزني إلى الله » [يوسف : ٨٦] . قال سفيان بن عيينة : وكذلك من شكا إلى الناس ، وهو في شكواه راض بقضاء الله ، لم يكن ذلك جزءاً ، ألم تسمع قول رسول الله ﷺ لجبريل في مرضه : « أجدني مغموماً » و « أجدني مكروباً » ، وقوله : « بل أنا وارأساه »^(٢) .

قوله تعالى : (وآتيناهم أهله) يعني : أولاده (ومثلهم معهم) فيه أربعة أقوال . أحدها : أن الله تعالى أحيا له أهله بأعيانهم ، وآناه مثلهم معهم في الدنيا ، قاله ابن مسعود ، والحسن ، وقتادة . وروى أبو صالح عن ابن عباس : كانت

(١) من المتفق عليه أن أيوب عليه السلام كان غاية في الصبر ، وبه يضرب المثل في ذلك ، وقد ابتلي في ماله وولده وجسده ، فصبر والتجأ إلى الله تعالى ، فذلك قول الله فيه : (وأيوب إذ نادى ربه أني مسي الضر وأنت أرحم الراحمين) فكشف الله تعالى ما به .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، : ١٠٥/١٠ من حديث عائشة رضي الله عنها ، وهو

جزء من حديث طويل .

امراته ولدت له سبعة بنين وسبع بنات ، فنُشِرُوا له ، وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات .

والثاني : أنهم كانوا قد غُيِّبُوا عنه ولم يموتوا ، فأناه إِيَّام في الدنيا ومثلهم معهم في الآخرة ، رواه هشام عن الحسن .

والثالث : آناه الله أجور أهله في الآخرة ، وآناه مثلهم في الدنيا ، قاله نوف ، ومجاهد .

والرابع : آناه أهله ومثلهم معهم في الآخرة ، حكاه الزجاج .

قوله تعالى : (رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا) أي : فعلنا ذلك به رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا ، (وَذِكْرَى) أي : عِظَةً (لِلْمَاعِدِينَ) قال محمد بن كعب : من أصابه بلاء فليذكر ما أصاب أيوب ، فليقل : إنه قد أصاب من هو خيرٌ مِنِّي .

قوله تعالى : (وَذَا الْكُفْلِ) اختلفوا هل كان نبياً ، أم لا ؛ على قولين .

أحدهما : أنه لم يكن نبياً ، ولكنه كان عبداً صالحاً ، قاله أبو موسى الأشعري ، ومجاهد . ثم اختلف أرباب هذا القول في علته تسميته بذو الكفل على ثلاثة أقوال . أحدها : أن رجلاً كان يصلِّي كلَّ يوم مائة صلاة فتوفي ، فكفل بصلاته ، فسمي : ذا الكفل ، قاله أبو موسى الأشعري . والثاني : أنه تكفل للنبي بقومه أن يكفيه أمرهم وبقية ويقضي بينهم بالعدل ، ففعل ، فسمي : ذا الكفل ، قاله مجاهد . والثالث : أن ملكاً قتل في يوم ثلاثمائة نبي ، وفرَّ منه مائة نبي ، فكفلهم ذو الكفل ، يطعمهم ويستقيمهم حتى أفلتوا ، فسمي : ذا الكفل ، قاله ابن السائب . والقول الثاني : أنه كان نبياً ، قاله الحسن ، وعطاء^(۱) . قال عطاء :

(۱) قال ابن كثير ۱۹۰/۳ : وأما ذو الكفل ، فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء

إلا وهو نبي .

أوحى الله تعالى [إلى] نبي من الأنبياء : إني أريد قبض روحك ، فاعرض ملكك على بني إسرائيل ، فمن تكفل لك بأنه يصلّي الليل لا يفتر ، ويصوم النهار لا يفطر ، ويقضي بين الناس ولا يغضب ، فادفع ملكك إليه ، ففعل ذلك ، فقام شاب فقال : أنا أنكفل لك بهذا ، فتكفل به ، فوفى ، فشكر الله له ذلك ، ونبأه ، وسمي : ذا الكفل . وقد ذكر الثعلبي حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ في الكفل : « أنه كان رجلاً لا ينزع عن ذنب ، وأنه خلا بامرأة ليفجر بها ، فبكت ، وقالت : ما فعلتُ هذا قط ، فقام عنها تائباً ، ومات من ليلته ، فأصبح مكتوباً على بابه : قد غفر الله للكفل » ؛ والحديث معروف ^(١) ، وقد ذكرته في « الحقائق » ، فجعله الثعلبي أحد الوجوه في بيان ذي الكفل ، وهذا غلط ، لأن ذلك اسمه الكفل ، والمذكور في القرآن يقال له : ذو الكفل ، ولأن الكفل مات في ليلته التي تاب فيها ، فلم يمض عليه زمان طويل يعالج فيه الصبر عن الخطايا . وإذا قلنا : إنه نبي ، فإن الأنبياء معصومون عن مثل هذا الحال . وذكرت هذا لشيخنا أبي الفضل بن ناصر رحمه الله تعالى ، فوافقني ، وقال : ليس هذا بذلك . قوله تعالى : (كُفُّوا مِنْ الصَّابِرِينَ) أي : على طاعة الله وترك معصيته ، (وأدخلناهم في رحمتنا) في هذه الرحمة ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الجنة ، قاله ابن عباس . والثاني : النبوة ، قاله مقاتل . والثالث : النعمة والموالة ، حكاه أبو سليمان الدهشقي .

﴿ وَذَا الثُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(١) رواه أحمد في المسند ، من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنها ، قال الحافظ ابن كثير ١٩١/٣ : وهذا الحديث لم يخرج به أحد من أصحاب الكتب الستة ، وإسناده غريب .

مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ النَّعْمِ وَكَذَلِكَ نُتَجِّبِي
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : (وذا النور) يعني : يونس بن متى . والنون : السمكة ؛
أضيف إليها لابتلاعها إياه .

قوله تعالى : (إذ ذهب مغاضباً) قال ابن قتيبة : المغاضبة : مفاعلة ،
وأكثر المفاعلة من اثنين ، كالمناظرة والمجادلة والمخاصمة ، وربما تكون من واحد ،
كقولك : سافرت ، وشارفت الأمر ، وهي هاهنا من هذا الباب . وقرأ أبو المتوكل ،
وأبو الجوزاء ، وعاصم الجحدري ، وابن السميع : « مُغْضِبًا » بِسُكُونِ الْغَيْنِ
وَفَتْحِ الضَّادِ مِنْ غَيْرِ أَلْفٍ .

واختلفوا في مغاضبته لمن كانت ؟ على قولين .

أحدهما : أنه غضب على قومه ، قاله ابن عباس ، والضحاك . وفي سبب
غضبه عليهم ثلاثة أقوال . أحدها : أن الله تعالى أوحى إلى نبي يقال له : شعيا :
أن انت فلاناً الملك ، قتل له : يبعث نبياً أميناً إلى بني إسرائيل ، وكان قد غزا
بني إسرائيل ملك ، وسبوا منهم الكثير ، فأراد النبي والملك أن يبعثا يونس إلى
ذلك الملك ليكاتبه حتى يرسلهم ، فقال يونس لشعيا : هل أمرك الله باخراجي ؟
قال : لا ، قال : فهل سماني لك ؟ قال : لا ، قال : فهاهنا غيري من الانبياء ،
فألحوا عليه ، فخرج مغاضباً للنبي والملك ولقومه ، هذا مروى عن ابن عباس ؛
وقد زدناه شرحاً في (يونس : ٩٨) . والثاني : أنه عانى من قومه أمراً صعباً
من الأذى والتكذيب ، فخرج عنهم قبل أن يؤمنوا ضجرأ ، وما ظن أن هذا
العمل يوجب عليه ماجرى من العقوبة ، ذكره ابن الأنباري . وقد روي عن
وهب بن منبه ، قال : لما حملت عليه أثقال النبوة ، ضاق بها ذرعاً ولم يصبر ،

فقدفها من يده وخرج هارباً^(۱) . والثالث : أنه لما أوعدهم العذاب ، فتابوا وُرفع عنهم ، قيل له : ارجع إليهم ، فقال : كيف أرجع فيجدوني كاذباً ؟ فانصرف مغاضباً لقومه ، عاتباً على ربه . وقد ذكرنا هذا في (يونس : ۹۸) .

والثاني : أنه خرج مغاضباً لربه ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير ، والشعبي ، وعروة . وقال أبو بكر النقاش : المعنى : مغاضباً من أجل ربه ، وإنما غضب لأجل تمردهم وعصيانهم . وقال ابن قتيبة : كان مَغِيظاً عليهم لطول ما عاناه من تكذيبهم ، مشتهياً أن ينزل العذاب بهم ، فعاقبه الله على كراهيته المفوع عن قومه . قوله تعالى : (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) وقرأ يعقوب : « يُقَدِّرُ » بضم الياء وتشديد الدال وفتحها . وقرأ سعيد بن جبير ، وأبو الجوزاء ، وابن أبي ليلي : « يُقَدِّرَ » ياء مرفوعة مع سكون القاف وتخفيف الدال وفتحها . وقرأ أبو عمران الجوني : « يَقْدِرَ » ياء مفتوحة وسكون القاف وكسر الدال خفيفة . وقرأ الزهري ، وابن عمر ، وحמיד بن قيس : « نُقَدِّرَ » بنون مرفوعة وفتح القاف وكسر الدال وتشديدها . ثم فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن لن نقضي عليه بالمقوبة ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك . قال الفراء : معنى الآية : فظن أن لن تقدر عليه ما قدرنا من المقوبة ، والعرب تقول : قدر ، بمعنى : قدر ، قال أبو صخر :
ولا عائدُ ذلك الزمانُ الذي مضى

تباركت ما نقدرُ يَكُنْ ولكَ الشكرُ^(۲)

أراد : ما تقدر ، وهذا مذهب الزجاج .

(۱) لعله من الاسرائيليات التي نقلها وهب بن منبه ، وقد تقدم أمثال ذلك .

(۲) شرح أشعار الهدلين ، : ۹۵۸/۲ ، و د الفرطبي ، : ۳۴۲/۱۱ .

والثاني : فظن أن لن نصيِّقَ عليه ، قاله عطاء . قال ابن قتيبة : يقال : فلان مُقَدَّرٌ عليه ، ومُقَتَّرٌ عليه ، ومنه قوله تعالى : (فَتَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ) [الفجر: ١٦] أي : نصيِّقَ عليه فيه . قال النقاش : والمعنى : فظن أن لن يصيِّقَ عليه الخروج ، فكأنه ظن أن الله قد وسَّعَ له ، إن شاء أن يقيم ، وإن شاء أن يخرج ، ولم يؤذَنَ له في الخروج .

والثالث : أن المعنى : فظن أنه يعجز ربه ، فلا يقدر عليه ، رواه عوف عن الحسن . وقال ابن زيد ، وسليمان التيمي : المعنى : أظنَّ أن لن نقدرَ عليه ؛ فعلى هذا الوجه يكون استفهاماً قد حُذفت ألفه ؛ وهذا الوجه يدل على أنه من القدرة ، ولا يتصور إلا مع تقدير الاستفهام ، ولا أعلم له وجهاً إلا أن يكون استفهام إنكار ، تقديره : ما ظنَّ عجزنا ، فأين يهرب منا ؟ ! .

قوله تعالى : (فنادى في الظلمات) فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، قاله سعيد ابن جبير ، وقتادة ، والأكثرون .

والثاني : أن حوتاً جاء فابتلع الحوت الذي هو في بطنه ، فنادى في ظلمة حوت ، ثم في ظلمة حوت ، ثم في ظلمة البحر ، قاله سالم ابن أبي الجعد .

والثالث : أنها ظلمة الماء ، وظلمة معى السمكة ، وظلمة بطنها ، قاله ابن السائب . وقد روى سعد بن أبي وقاص عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه ، كلمة أخي يونس : فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت ، سبحانك إني كنت من الظالمين » (١) . قال الحسن : وهذا اعتراف [من] يونس بذنبه وتوبة من خطيئته .

(١) رواه بهذا اللفظ ابن السني عن أبي يعلى ، وفي سنده عمرو بن الحصين ، وهو ضعيف جداً ، ورواه أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، والحاكم وصححه ، بلفظ « دعوة ذي النون ، —

قوله تعالى : (فاستجبنا له) أي : أجبناه (ونجينا من النعم) أي : من
الظلمات (وكذلك نُنجي المؤمنين) إذا دعونا . وروى أبو بكر عن عاصم
أنه قرأ : « نُجِّي المؤمنین » بنون واحدة مشددة الجيم ؛ قال ازجاج : وهذا
لحنٌ لا وجه له ، وقال أبو علي الفارسي : غلط الراوي عن عاصم ، ويدل على هذا
إسكانه الياء من « نُجِّي » ونصب « المؤمنین » ، ولو كان على ما لم يُسم فاعله
ما سكن الياء ، ورفع « المؤمنین » .

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ
الْوَارِثِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ
وَإِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا
وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ . وَالَّتِي أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ
رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ . إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً
وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾

قوله تعالى : (لا تذرني فرداً) أي : وحيداً بلا ولد (وأنت خير الوارثين)
أي : أفضل من بقي حياً بعد ميت .

قوله تعالى : (وأصلحنا له زوجه) فيه ثلاثة أقوال .
أحدها : أصلحت للولد بعد أن كانت عقيماً ، قاله ابن عباس ، وسعيد
ابن جبير ، وقتادة .

والثاني : أنه كان في لسانها طول ، وهو : البذاء ، فأصلحت ، قاله عطاء .
وقال السدي : كانت سليطة فكفَّ عنه لسانها .

— إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت : (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)
لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب له ، وهو حديث حسن .

والثالث : أنه كان خلُقها سيئاً ، قاله محمد بن كعب (١) .
قوله تعالى : (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات) أي : يبادرون في طاعة الله .
وفي المشار إليهم قولان .
أحدهما : زكريا ، وامرأته ، ويحيى والثاني : جميع الأنبياء المذكورون
في هذه السورة .

قوله تعالى : (ويدعوننا) وقرأ ابن مسعود ، وابن محيصن : « ويدعوننا »
بنون واحدة .

قوله تعالى : (رَغَبًا وَرَهَبًا) أي : رغباً فيما عندنا ، ورهباً منا . وقرأ
الأعمش : « رُغْبًا وَرُهْبًا » بضم الراءين وجزم الغين والهاء ، وهما لغتان
مثل النحل ، والنحل ، والسقم ، والسقم ، (وكانوا لنا خاشعين) أي : متواضعين .
قوله تعالى : (والتي أحصنت فرجها) فيه قولان .

أحدهما : أنه مخرج الولد ، والمعنى : منعه مما لا يحل . وإنما وصفت بالعفاف
لأنها كذفت بالزنا .

والثاني : أنه جيب درعها . ومعنى الفرج في اللغة : كل فرجة بين شيئين ،
وموضع جيب درع المرأة مشقوق ، فهو يسمى فرجاً . وهذا أبلغ في الثناء عليها ،
لأنها إذا منعت جيب درعها ، فهي لنفسها أمنع .

قوله تعالى : (فنفخنا فيها) أي : أمرنا جبريل ، قفخ في درعها ، فأجرينا
فيها روح عيسى كما تجري الريح بالنفخ . وأضاف الروح إليه إضافة الملك ، للتشريف
والتخصيص (وجعلناها وابنها آية) قال الزجاج : لما كان شأنها واحداً ، كانت

(١) قال ابن كثير : والأظهر من السياق الأول .

الآية فيها آية واحدة، وهي ولادة من غير فحل . وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عمير :
« آيتين » على التثنية .

قوله تعالى : (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ) قال ابن عباس : المراد بالأمة هاهنا : الدين .
وفي المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنهم أمة محمد ﷺ ، وهو معنى قول مقاتل .

والثاني : أنهم الأنبياء عليهم السلام ، قاله أبو سليمان الدمشقي . ثم ذكر أهل
الكتاب ، فذمهم بالاختلاف ، فقال تعالى : (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ) أي :
اختلفوا في الدين ، (فمن يعمل من الصالحات) أي : شيئاً من الفرائض وأعمال البرِّ
(فلا كفران لسعيه) أي : لا نجد ما عمل ، قاله ابن قتيبة ، والمعنى : أنه يقبل
منه ، ويثاب عليه (وإنا له كاتبون) ذلك ، نأمر الحفظة أن يكتبوه لنجازيه به .

﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كَلٌّ لِلْيَنَّا رَاجِعُونَ . فَمَنْ يَعْمَلْ
مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ .
وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ . حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ
يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ
الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا
قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ . إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ حَنْصِبٌ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ . لَوْ كَانَ هُوَ لِآلَاءِ
آلِهَةٍ مَاوَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ . لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا
لَا يَسْمَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (وحرام على قرية) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ،
وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « وحرام » بألف . وقرأ حمزة ، والكسائي ،

وأبو بكر عن عاصم : « وحرّم » بكسر الحاء من غير ألف ، وهما لغتان . يقال :
 حرّم وحرّام . وقرأ معاذ القاري ، وأبو المتوكل ، وأبو عمران الجوني : « حرّم »
 بفتح الحاء وسكون الراء من غير ألف والميم مرفوعة منوثة . وقرأ سعيد بن جبیر :
 « وحرّم » بفتح الحاء وسكون الراء وفتح الميم من غير تنوين ولا ألف .
 وقرأ أبو الجوزاء ، وعكرمة ، والضحاك : « وحرّم » بفتح الحاء والميم وكسر
 الراء من غير تنوين ولا ألف . وقرأ سعيد بن المسيب ، وأبو مجلز ، وأبو رجاء :
 « وحرّم » بفتح الحاء وضم الراء ونصب الميم من غير ألف .

وفي معنى قوله تعالى : (وحرّام) قولان .

أحدهما : واجب ، قاله ابن عباس ، وأنشدوا في معناه :

فان حراماً لا أرى الدهرَ باكياً على شجوه إلا بكيتُ على عمرو^(۱)
 أي : واجب .

والثاني : أنه بمعنى العزم ، قاله سعيد بن جبیر . وقال عطاء : حتم من الله .
 والمراد بالقرية : أهلها .

ثم في معنى الآية أربعة أقوال .

أحدها : واجب على قرية أهلكتها أنهم لا يتوبون ، رواه عكرمة عن ابن عباس .
 والثاني : واجب عليها أنها إذا أهلكت لا ترجع إلى دنياها ، هذا قول قتادة ؛
 وقد روي عن ابن عباس نحوه .

(۱) البيت لبد الرحمن بن جانة المصاري الجاهلي ، كما في « اللسان » : حرم ، وهو في
 « غريب القرآن » : ۲۸۸ ، ونسب للخنساء في « تفسير القرطبي » : ۳۴۰/۱۱ ، و « البحر
 المحيط » : ۳۳۹/۶ ، و « روح المعاني » : ۸۴/۱۷ ، وفيها جميعاً : بكيت على صخر ، ولا يوجد
 البيت في ديوانها .

والثالث : أن « لا » زائدة ؛ والمعنى : حرام على قرية مهلكة أنهم يرجعون إلى الدنيا ، قاله ابن جريج ، وابن قتيبة في آخرين .

والرابع : أن الكلام متعلق بما قبله ، لأنه لما قال : « فلا كفران لسعيه » أعلمنا أنه قد حرم قبول أعمال الكفار ؛ فمضى الآية : وحرام على قرية أهلكتها أن يُتقبل منهم عمل ، لأنهم لا يتوبون ، هذا قول الزجاج .

فان قيل : كيف يصح أن يحرم على الإنسان ما ليس من فعله ، ورجوعهم بعد الموت ليس إليهم ؟

فالجواب : أن المعنى : مُنعوا من ذلك ، كما يُمنع الإنسان من الحرام وإن قدر عليه ، فكان التشبيه بانه تحريم للحالتين من حيث المنع .

قوله تعالى : (حتى إذا فُتِحَتْ بِأَجُوجُ وَمَأْجُوجُ)^(١) وقرأ ابن عامر : « فُتِحَتْ » بالتشديد ، والمعنى : فُتِحَ الردم عنهم (وهم من كل حدب) قال ابن قتيبة : من كل نشز من الأرض وأكنمة (ينسِلون) من النسلان : وهو مقاربة الخطو مع الإسراع ، كشي الذئب إذا بادر ، والنسلان مثله . وقال الزجاج :

(١) تقدم الكلام على بأجوج ومأجوج في سورة (الكهف : ٩٤) . قال ابن كثير : وهم من سلالة آدم عليه السلام ، بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد يافث ، أي أبي الترك ، والترك شردمة منهم تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين ، قال : وقد حكى النووي في شرح مسلم ، عن بعض الناس أن بأجوج ومأجوج خلقوا من مني خرج من آدم فاختلف بالتراب وحقوا من ذلك ، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم ، وإيوا من حواء ، قال : وهذا قول عرب حداثاً ، ثم لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل ، ولا يجوز الاعتماد هاهنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب ، لما عندهم من الأحاديث المقتلة ، والله أعلم . وهم إذا خرجوا من السد يبيتون في الأرض مساداً ، ويهلكون الحرث والنسل ، وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية ، انظره تفسير ابن كثير ، : ١٩٥/٣ - ١٩٧ .

الْحَدَبُ : كلُّ أَكْمَةٍ ، و « يَنْسِلُونَ » : يُسْرِعُونَ . وقرأ أبو رجاة المظاردي ،
وعاصم الجحدري : « يَنْسِلُونَ » بضم السين .

وفي قوله تعالى : (وم) قولان .

أحدهما : أنه إشارة إلى بأجوج ومأجوج ، قاله الجمهور .

والثاني : إلى جميع الناس ؛ فالمعنى : وم يُحشرون إلى الموقف ، قاله مجاهد .

والأول أصح .

فان قيل : أين جواب « حتى » ؟ ففيه قولان .

أحدهما : أنه قوله تعالى : (واقرب الوعد الحق) والواو في قوله تعالى :

« واقرب » زائدة ، قاله الفراء . قال : ومثله « حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها »

[الزمر : ٧٣] ، وقوله تعالى : « فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه » [الصافات : ١٠٣ ، ١٠٤] ،

المعنى : نادينا . وقال عبد الله بن مسعود : الساعة من الناس بعد يأجوج ومأجوج ،

كالحامل المتم ، لا يدري أهلها متى تفجؤم بولدها ليلاً أو نهاراً .

والثاني : أنه قول محذوف في قوله : (ياويلنا) ، فالمعنى : حتى إذا فتحت

يأجوج ومأجوج واقرب الوعد ، قالوا : ياويلنا . قال الزجاج : هذا قول البصريين .

فأما (الوعد الحق) فهو القيامة .

قوله تعالى : (فاذا هي) في « هي » أربعة أقوال .

أحدها : أن « هي » كناية عن الأَبْصَارِ ، والأَبْصَارُ تفسير لها ، كقول الشاعر :

لَعَمْرُؤِ أَبِيهَا لَانْقُولُ ظَمِينَتِي أَلَا فَرَّ عَنِّي مَالِكُ بْنُ أَبِي كَعْبٍ (١)

فذكر الظمينة ، وقد كنى عنها في « لعمرؤ أبيها » .

(١) البيت غير منسوب في « الطبري » : ٩٢/١٧ ، و « البحر » : ٣٤٠/٦ ، و « القرطبي » :

٣٤٢/١١ ، و « روح المعاني » : ٨٥/١٧ .

والثاني : أن « هي » [ضمير فصل ، و] ^(۱) عمادٌ ، ويصلح في موضعها « هو » ،
ومثله قوله : (إنه أنا الله) [النمل : ۹] ، وقوله : (فانها لانعمى الأَبصار)
[الحج : ۴۶] ، وأنشدوا :

ثوبٍ ودينارٍ وشاةٍ ودرهمٍ فهل هو صرفوع بما هاهنا رأسٌ ^(۲)

ذكرها الفراء .

والثالث : أن يكون تمام الكلام عند قوله : « هي » على معنى : فإذا هي
بارزة واقفة ، يعني : من قربها ، كأنها آتية حاضرة ، ثم ابتداء فقال : (شاخصة) ،
ذكره الثعلبي .

والرابع : أن « هي » كناية عن القصة ، والمعنى : القصة أن أبصارهم
شاخصة في ذلك اليوم ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري . قال المفسرون : تشخص
أبصار الكفار من هول يوم القيامة ، ويقولون : (ياويلنا قد كنا) أي : في الدنيا
(في غفلة من هذا) أي : عن هذا (بل كنا ظالمين) أنفسنا بكفرنا ومعاصينا .
ثم خاطب أهل مكة ، فقال : (إنكم وما تعبدون من دون الله) يعني : الأصنام
(حَصَبُ جهنم) وقرأ علي بن أبي طالب ، وأبو العالية ، وعمر بن عبد العزيز :
« حَطَبٌ » بالطاء . وقرأ ابن عباس ، وعائشة ، وابن السميع : « حَضَبٌ »
بالضاد المعجمة المفتوحة . وقرأ عروة ، وعكرمة ، وابن يعمر ، وابن أبي عملة :
« حَضَبُ جهنم » بأسكان الضاد المعجمة . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو حيوة ،
ومعاذ القاري : « حِضْبٌ » بكسر الحاء مع نكبين الضاد المعجمة . وقرأ أبو مجلز ،

(۱) ما بين المقفين ، زيادة من « روح المعاني » .

(۲) البيت غير منسوب في « معاني القرآن » للفراء : ۵۲/۱ ، و « الطبري » : ۹۳/۱۷ ،

و « البحر » : ۳۴۰/۶ ، و « روح المعاني » : ۸۵/۱۷ .

وأبورجاء ، وابن محيصن : « حَصَب » بفتح الحاء وبصا د غير معجمة ساكنة .
قال الزجاج : من قرأ « حَصَبَ جهنم » فعناه : كل ما يرمى به فيها ، ومن قرأ
« حطب » فعناه : ما تُوقد به ، ومن قرأ بالضاد المعجمة ، فعناه : ما تهيج به النار
وتذكي به . قال ابن قتيبة : الحَصَب : ما أُتقي فيها ، وأصله من الحَصْبَاء ، وهو :
الحصى ، يقال : حصبتُ فلاناً : إذا رميته ، حَصَباً ، بتسكين الصاد ، وما رَمَيْتَ به
فهو حَصَبٌ ، بفتح الصاد .

قوله تعالى : (أنتم) يعني : العابدين والمعبودين (لها واردون) أي :
داخلون . (لو كان هؤلاء) يعني : الأصنام (آلهة) على الحقيقة (ماوردوها)
فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه إشارة إلى الأصنام ، والمعنى : لو كانوا آلهة ما دخلوا النار .
والثاني : أنه إشارة إلى عابديها ، فالمعنى : لو كانت الأصنام آلهة ، منعت عابديها
دخول النار .

والثالث : أنه إشارة إلى الآلهة وعابديها ، بدليل قوله تعالى : (وكل فيها
خالدون) يعني : العابد والمعبود .

قوله تعالى : (لهم فيها زفير) قد شرحنا معنى الزفير في (هود : ١٠٦) .
وفي علّة كونهم لا يسمعون ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه يوضع في مسامعهم مسامير من نار ، ثم يُقذّفون في نوايت
من نار مقلّعة عليهم ، رواه أبو أمامة عن رسول الله ﷺ في حديث طويل .
وقال ابن مسعود : إذا بقي في النار من يخلّد فيها جُعلوا في نوايت من نار ،

ثم جمعت تلك التواييت في نواييت أخرى ، فلا يسمعون شيئاً ، ولا يرى أحدهم أن في النار أحداً يعذب غيره (١) .

والثاني : أن السماع أنس ، والله لا يحب أن يؤنسهم ، قاله عون بن عمارة .

والثالث : إنما لم يسموا لشدة غليان جهنم ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ . لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّهِمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعِنْدَ عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ . إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ . وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (إن الذين سبقتم لهم منّا الحسنى) سبب نزولها أنه لما نزلت « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » شق ذلك على فريش ، وقالوا : شتم آلهتنا ، فجاء ابن الزبيرى ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : شتم آلهتنا ، قال : وما قال ؟ فأخبروه ، فقال : ادعوه لي ، فلما دعي رسول الله ﷺ ، قال : يا محمد ، هذا شيء لآلهتنا خاصة ، أو لكل من عبد من دون الله ؟ قال : « لا ، بل لكل من عبد من دون الله » ، فقال ابن الزبيرى : خصمت ورب هذه البنية ، ألسنت تزعم أن الملائكة عباد صالحون ، وأن عيسى عبد صالح ، وأن عزيزاً عبد صالح ،

(١) الطبري ، : ٩٥/١٧ ، وذكره السيوطي في الدر ، وزاد نوبته لجد بن حميد ، وإن أبي حاتم ، وإن أبي الدنيا في صفة النار ، والطبراني ، والبيهقي في البعث ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

فهذه بنو مليح يعبدون الملائكة ، وهذه النصارى تعبد عيسى ، وهذه اليهود تعبد عزيراً ، فضج أهل مكة ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس (١) . وقال الحسين ابن الفضل : إنما أراد بقوله : (وما تعبدون) الأصنام دون غيرها ، لأنه لو أراد الملائكة والناس ، لقال : « ومن » ، وقيل : « إن » بمعنى : « إلا » ، فتقديره : إلا الذين سبقت لهم منّا الحسنى ، وهي قراءة ابن مسعود ، وأبي نهبك ، فانهما قرا : « إلا الذين » . وروى عن علي بن أبي طالب أنه قرأ هذه الآية ، فقال : أنا منهم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن (٢) .

وفي المراد « بالحسنى » قولان . أحدهما : الجنة ، قاله ابن عباس ، وعكرمة . والثاني : السعادة ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : (أولئك عنها) أي : عن جهنم ، وقد تقدم ذكرها (مُبْعَدُونَ) والبعد : طول المسافة ، والحسيس : الصوت تسمعه من الشيء إذا مبرّ قريباً منك . قال ابن عباس : لا يسمع أهل الجنة حسيس أهل النار إذا نزلوا منازلهم من الجنة .

قوله تعالى : (لا يحزنونهم الفرع الأكبر) وقرأ أبو رزين ، وقتادة ،

(١) أسباب النزول ، للواحدي : ١٧٥ ، و الطبري ، : ٩٧/١٧ ، وذكره السيوطي في الدر ، : ٣٣٨/٤ ، وزاد نسبه لأبي داود في ناسخه ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والطبراني من وجه آخر عن ابن عباس ، قال ابن كثير : وهذا الذي قاله ابن الزبير خطأ كبير ، لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي حماد لا تعقل ، ليكون ذلك تقريباً وتوبيخاً لعابديها ، ولهذا قال : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) فكيف يورد على هذا المسيح والعزير ونحوهما من له عمل صالح ولم يرض بعبادة من عبده ؟ وقد أسلم ابن الزبير بعد ذلك ، واعتذر عما كان يهاجى به المسلمين أولاً .

(٢) ذكره السيوطي في الدر ، من رواية ابن أبي حاتم ، وابن عدي ، وابن مردويه

عن النعمان بن بشير .

وابن أبي عبله ، وابن محيصن ، وأبو جعفر الشيزري عن الكسائي : « لا يُحْزِرُهُمْ »
بضم الياء وكسر الزاي .

وفي الفرع الأكبر أربعة أقوال .

أحدها : أنه النفخة الآخرة ، رواه العوفي عن ابن عباس ؛ وبهذه النفخة
يقوم الناس من قبورهم ، ويدل على صحة هذا الوجه قوله تعالى : (وتلقاهم الملائكة) .
والثاني : أنه إطباق النار على أهلها ، رواه سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ،
وبه قال الضحاك .

والثالث : أنه ذبح الموت بين الجنة والنار ، وهو مروى عن ابن عباس
أيضاً ، وبه قال ابن جريج .

والرابع : أنه حين يؤمر بالعبء إلى النار ، قاله الحسن البصري .

وفي مكان تلقى الملائكة لهم قولان .

أحدهما : إذا قاموا من قبورهم ، قاله مقاتل . والثاني : على أبواب الجنة ،
قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (هذا يومكم) فيه إضمار : « يقولون » هذا يومكم (الذي كنتم

توعدون) فيه الجنة .

قوله تعالى : (يوم نطوي السماء)^(١) وقرأ أبو العالية ، وابن أبي عبله ،

وأبو جعفر : « نُطْوَى » بقاء مضمومة « السماء » بالرفع ؛ وذلك بمحو رسومها ،

وتكدير نجومها ، وتكوير شمسها ، (كطي السجّل للكتاب) قرأ الجمهور :

« السجّل » بكسر السين والجيم وتشديد اللام . وقرأ الحسن ، وأبو المتوكل ،

(١) روى البخاري في « صحيحه » عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ

قال : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين ، وتكون السموات يمينه » .

وأبو الجوزاء، ومحبوب عن أبي عمرو: «السَّجَلِ» بكسر السين وإسكان الجيم خفيفة .
وقرأ أبو السماك كذلك، إلا أنه فتح الجيم .

قوله تعالى : (للكتاب) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر :
« للكتاب » . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « للكتب »
على الجمع .

وفي السَّجَلِ أربعة أقوال .

أحدها : أنه ملك ، قاله علي بن أبي طالب ، وابن عمر ، والسدي .
والثاني : أنه كاتب كان لرسول الله ﷺ ، رواه أبو الجوزاء عن
ابن عباس (١) .

والثالث : أن السَّجَلِ بمعنى : الرجل ، روى أبو الجوزاء عن ابن عباس ،
قال : السَّجَلِ : هو الرجل . قال شيخنا أبو منصور اللغوي : وقد قيل : « السَّجَلِ »
بلغت الجبشة : الرجل .

والرابع : أنه الصحيفة . رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال
بجاهد ، والفراء ، وابن قتيبة (٢) . وقرأت علي شيخنا أبي منصور ، قال : قال أبو بكر ،
يعني - ابن دريد - : السَّجَلِ : الكتاب ، والله أعلم ؛ ولا ألفت إلى قولهم : إنه

(١) رواه الطبري : ١٧/١٠٠ ، ورواه أبو داود ، والنسائي ، وغيرهما ، قال ابن كثير : ٣/٢٠٠ :
لا يصح ، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ، وإن كان في « سنن أبي داود » منهم شيخنا الحافظ
المزي ، قال : وقد تصدق ابن جرير للانكار على هذا الحديث ، ورده أتم ردًّا ، وقال : لا يعرف
في الصحابة أحد اسمه السَّجَلِ ، وكتاب النبي ﷺ معروفون ، وليس فيهم أحد اسمه السَّجَلِ ،
قال : وصدق رحمه الله في ذلك ، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث ، قال :
والصحيح عن ابن عباس أن السَّجَلِ هي الصحيفة .

(٢) وهو الصواب ، كما ذكر ابن كثير .

فارسي معرب ، والمعنى : كما يُطوى السجل على ما فيه من كتاب . و « اللام »
 بمعنى « على » . وقال بعض العلماء : المراد بالكتاب : المكتوب ، فلما كان المكتوب
 ينطوي بانطواء الصحيفة ، جعل السجل كأنه يطوي الكتاب .
 ثم استأنف ، فقال تعالى : (كما بدأنا أول خلق نعيده) الخلق هاهنا
 مصدر ، وليس بمعنى المخلوق .

وفي معنى الكلام أربعة أقوال .

أحدها : كما بدأناهم في بطون أمماتهم حفاة عراة غرلاً ، كذلك نعيدهم
 يوم القيامة ؛ روي عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يحشر الناس
 يوم القيامة عراة حفاة غرلاً كما خلقوا ، ثم قرأ : كما بدأنا أول خلق نعيده »^(١) ؛
 وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد .

والثاني : أن المعنى : إنا نُهلك كل شيء كما كان أول مرة ، رواه العوفي
 عن ابن عباس .

والثالث : أن السماء تمطر أربعين يوماً كني الرجال ، فينبتون بالمطر في
 قبورهم ، كما ينبتون في بطون أمماتهم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .
 والرابع : أن المعنى : مُقدرتنا على الإعادة كقدرتنا على الابتداء ، قاله الزجاج .

(١) رواه البخاري : ٢٧٥/٦ ، ومسلم : ٢١٩٤/٤ ، وافظه عند مسلم : عن عبد الله
 ابن عباس رضي الله عنهما قال : قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال : « يا أيها الناس
 إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدأ علينا إنا كنا فاعلين) » .
 وفي « الصحيحين » من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
 « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً » قلت : يا رسول الله : النساء والرجال جميعاً
 ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ﷺ : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » .

قوله تعالى : (وَوَعْدًا) قال الزجاج : هو منصوب على المصدر ، لأن قوله تعالى : « نعيده » بمعنى : وعدنا هذا وعداً ، (إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) أي : قادرين على فعل ما نشاء . وقال غيره : إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ مَا وَعَدْنَا .

قوله تعالى : (وَاقْتَدِ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) فيه أربعة أقوال . أحدها : أن الزبور جميع الكتب المنزلة من السماء ، و « الذِّكْر » : أم الكتاب الذي عند الله ، قاله سعيد بن جبير في رواية ، وبجاهد ، وابن زيد ، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية ابن جبير ، فإنه قال : الزبور : التوراة والإنجيل والقرآن ، والذِّكْر : الذي في السماء .

والثاني : أن الزبور : الكتب ، والذِّكْر : التوراة ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثالث : أن الزبور : القرآن ، والذِّكْر : التوراة والإنجيل ، قاله سعيد بن جبير في رواية .

والرابع : أن الزبور : زبور داود ، والذِّكْر : ذِكْرُ موسى ، قاله الشعبي . وفي الأرض المذكورة هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها أرض الجنة ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال الأكثرون . والثاني : أرض الدنيا ، وهو منقول عن ابن عباس أيضاً . والثالث : الأرض المقدسة ، قاله ابن السائب .

وفي قوله تعالى : (يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أمة محمد ﷺ ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وفي رواية : ترث أمة محمد أرض الدنيا بالفتوح .

والثاني : بنو إسرائيل ، قاله ابن السائب .

والثالث : أنه عام في كل صالح ، قاله بعض فقهاء المفسرين .
قوله تعالى : (إن في هذا) يعني : القرآن (لبلاغاً) أي : لكفاية ؛
والمعنى : أن من اتبع القرآن وعمل به ، كان القرآن بلاغه إلى الجنة .
وقوله تعالى : (لقوم عابدين) قال كعب : هم أمة محمد ﷺ الذين يصلون
الصلوات الخمس ويصومون شهر رمضان .

قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)^(١) قال ابن عباس : هذا
عام للبر والفاجر ، فمن آمن به تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن كفر به
صُرفت عنه المقوبة إلى الموت والقيامة^(٢) . وقال ابن زيد : هو رحمة لمن آمن
به خاصة .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُذِرِي
أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ . إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ
مَا تَكْتُمُونَ . وَإِنْ أُذِرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ .
قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا نَصِفُونَ ﴾

(١) روى مسلم في « صحيحه » : ٢٠٠٧/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل :
يا رسول الله ادع على المشركين ، قال : « إني لم أبعث لعاناً ، وإنما بعثت رحمة » . وروى
الدارمي : ٩/١ عن أبي صالح مرسلًا قال : كان النبي ﷺ يناديهم بقول : « يا أيها الناس
إنما أنا رحمة مهداة » وقد وصله الحاكم : ٣٥/١ عن أبي هريرة رضي الله عنه وصححه ،
ووافقه الذهبي .

(٢) ذكر ابن كثير : ٢٠٢/٣ من رواية الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما في
قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) قال : من تبعه كان له رحمة في الدنيا
والآخرة ، ومن لم يتبعه عوفي عما كان يتلى به سائر الأمم من الخسف والمسح والقذف .

قوله تعالى : (فهل أنتم مسلمون) قال ابن عباس : فهل أنتم تخلصون له العبادة ؟ قال أهل المعاني : هذا استفهام بمعنى الأمر .

قوله تعالى : (فان تولّوا) أي : أعرضوا ولم يؤمنوا (فقل آذنتكم على سواء) في معنى الكلام قولان .

أحدهما : نأبذتكم وعاديتكم وأعلمتكم ذلك ، فصرتُ أنا وأنتم على سواء قد استويينا في العلم بذلك ، وهذا من الكلام المختصر ، قاله ابن قتيبة .
والثاني : أعلمتكم بالوحي إليّ لتستروا في الإيمان به ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (وإن أدري) أي : وما أدري (أقریبٌ أم بعيد ما نوعدون) ينزل العذاب بكم . (إنه يعلم الجهر) وهو ما يقولونه للذي ﷺ « متى هذا الوعد » [يس : ٤٨] ، و (ما تكتمون) إسرارهم أن العذاب لا يكون .

قوله تعالى : (لعنةُ قنّةٍ لكم) في هاء « لعنة » قولان .
أحدهما : أنها ترجع إلى ما آذتهم به ، قاله الزجاج .

والثاني : إلى العذاب ؛ فالمعنى : لعل تأخير العذاب عنكم فتنة ، قاله ابن جرير ، وأبو سايان الدمشقي . ومعنى الفتنة هاهنا : الاختبار ، (ومتاعٌ إلى حين) أي : يستمتعون إلى انقضاء آجالكم . (قل ربّ) وروى حفص عن عاصم : « قال ربّ » (احكم) قرأ أبو جعفر : « ربّ احكم » بضم الباء . وروى زيد عن يعقوب : « ربّي » بفتح الياء « أحكمكم » بقطع الهمزة وفتح الكاف ورفع الميم . ومعنى « احكم بالحق » أي : بعذاب كفار قومي الذي نزوله حق ، فحكم عليهم بالقتل في يوم بدر وفيما بعده من الأيام ؛ والمعنى على هذا : افصل بيني وبين المشركين

- بما يظهر به الحق . ومعنى (على ما تصفون) أي : من كذبكم وباطلكم ^(۱) .
 وقرأ ابن عامر ، والمفضل عن عاصم : « يصفون » بالياء .
 فان قيل : فهل يجوز على الله أن يحكم بغير الحق ؟
 فالجواب : أن المعنى : احكم بحكمك الحق ، كأنه استمجل النصر عليهم .

* * *

(۱) قال ابن جرير الطبري ۱۷/۱۰۹ : وقوله تعالى : (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) يقول جل ثناؤه : وقل يا محمد : وربنا الذي برحم عباده وبعمهم بنعمته ، الذي أستمينه عليكم بما تقولون وتصفون من قوالكم لي بما أتيتكم به من عند الله : (إن هذا إلا بشر مثلكم أفأتون السحر وأنتم تبصرون) وقوالكم : (بل افتراء بل هو شاعر) وفي كذبكم على الله جل ثناؤه ، وقيلكم : (اتخذ الرحمن ولداً) ، فانه حين عليه تسيير ذلك ، وفصل ما بيني وبينكم بتمجيل المقربة لكم على ما تصفون من ذلك .

سورة الحج

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ
يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ
ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ
عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ . وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ . كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ
يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

﴿ فصل في نزولها ﴾

روى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية كلها ، غير آيتين نزلتا بالمدينة :
قوله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف) ، والتي تليها [الحج : ١٢ ، ١٣] .
وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنها مدنية إلا أربع آيات نزلت بمكة ، وهي
قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ...) إلى آخر الأربع [الحج : ٥٣ - ٥٧] .
وقال عطاء بن يسار : نزلت بمكة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة :
زاد السير ٥ م (٢٦)

(هذان خصمان) واللذان بعدها [الحج : ٢٠ - ٢٢] . وقال أبو سليمان الدمشقي : أولها مدني إلى قوله تعالى : (وبشر المحسنين) [الحج : ٣٨] وسائرهما مكّي . وقال الثعلبي : هي مكية غير ست آيات نزلت بالمدينة ، وهي قوله تعالى : (هذان خصمان) إلى قوله تعالى : (الحميد) [الحج : ٢٠ - ٢٥] . وقال هبة الله بن سلامة : هي من أعاجيب سور القرآن ، لأن فيها مكيا ، ومدنيا ، وحضرياً ، وسفرياً ، وحريراً ، وسلمياً ، وليلياً ، ونهارياً ، وناسخاً ، ومنسوخاً ؛
فأما المكّي ، فمن رأس الثلاثين منها إلى آخرها .
وأما المدني ، فمن رأس خمس وعشرين إلى رأس ثلاثين .
وأما الليلي ، فمن أولها إلى آخر خمس آيات .
وأما النهاري ، فمن رأس خمس [آيات] إلى رأس تسع .
وأما السفري ، فمن رأس تسع إلى اثني عشرة .
وأما الحضري ، فإلى رأس العشرين [منها] ، نسب إلى المدينة ، لقرب مدنته .
قوله تعالى : (اتقوا ربكم) أي : احذروا عقابه (إن زلزلة الساعة) الزلزلة :
الحركة على الحالة الهائلة .

وفي وقت هذه الزلزلة قولان

أحدهما : أنها يوم القيامة بعد النشور . روى عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ أنه قرأ : « إن زلزلة الساعة شيء عظيم » وقال : تدرون أي يوم ذلك ، فإنه يوم ينادي الرب عز وجل آدم عليه السلام : ابعت بشأ إلى النار ، فذكر الحديث (١) . وروى أبو سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) رواه أحمد في « المسند » : ٤/٤٣٢ ، والترمذي : ٢/١٤٦ وقال : هذا حديث حسن —

« يقول الله تعالى يوم القيامة لآدم : قم ، فأبعت بعث النار ، فيقول : يا رب ، وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار ، فحينئذ يشيب المولود ، ونضع كل ذات حمل حملها ، ، وقرأ الآية ^(١) . وقال ابن عباس : زلزلة الساعة : قيامها ، يعني أنها تُقارب قيام الساعة ، وتكون معها . وقال الحسن ، والسدي : هذه الزلزلة تكون يوم القيامة ^(٢) .

والثاني : أنها تكون في الدنيا قبل القيامة ، وهي من أشراط الساعة ، قاله علقمة ، والشعبي ، وابن جريج . وروى أبو العالية عن أبي بن كعب ، قال : ست آيات قبل القيامة ، بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض ، فتحركت ، واضطربت ، ففرع الجن إلى الإنس ، والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب ، والطيور ، والوحش ، فاج بعضهم في بعض ، فقالت الجن للإنس : نحن نأتيكم بالخبر ، فانطلقوا إلى البحور ، فاذا هي نار تأجج ، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض إلى الأرض السابعة ، والسماء إلى السماء السابعة ، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم

— صحيح ، ورواه الطبري : ١١١/١٧ ، وأورده السيوطي في الدر ، : ٤٣٣/٤ ، وزاد نسبه لسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاك وصححه ، وابن مردويه من طرق عن الحسن وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنه .

(١) رواه أحمد في المسند ، ، والبخاري : ٣٣٥/٨ ، ومسلم : ٢٠١/١ وله بقية عندهما ، ورواه الطبري : ١١٢/١٧ ، وأورده السيوطي في الدر ، : ٣٤٤/٤ وزاد نسبه لابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) واختار ذلك ابن جرير الطبري وغيره ، واحتجوا على ذلك بأحاديث ، انظر تفسير ابن كثير : ٢٠٤/٣ - ٢٠٥ عند تفسير هذه الآية ، فقد ذكر الأحاديث التي تدل على أن الزلزلة تكون يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور .

الريح فماتوا^(١) . وقال مقاتل : هذه الزلزلة قبل النفخة الأولى ، وذلك أن منادياً ينادي من السماء : يا أيها الناس أتى أمر الله ، فيفزعون فزعاً شديداً فيشيب الصغير ، وتضع الحوامل .

قوله تعالى : (شيء عظيم) أي : لا يوصف لعظمه .

قوله تعالى : (يوم ترونها) يعني : الزلزلة (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) فيه قولان .

أحدهما : تسلو عن ولدها ، وتتركه ، قاله ابن قتيبة .

والثاني : تشغل عنه ، قاله قطرب ، ومنه قول ابن رواحة :

ويذهل الخليل عن خليله

وقرأ أبو عمران الجوني ، وابن أبي عمير : « تذهيل » برفع التاء وكسر الهاء « كل » بنصب اللام . قال الأخفش : وإنما قال : « مرضعة » ، لأنه أراد - والله أعلم - الفعل ، ولو أراد الصفة فيما نرى ، لقال : « مرضع » . قال الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام ، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام ، وهذا يدل على أن الزلزلة تكون في الدنيا ، لأن بعد البعث لا تكون حبل .

قوله تعالى : (وترى الناس سُكَّارِي) وقرأ عكرمة ، والضحاك ، وابن عمر ،

« وُنُزِي » بضم التاء . ومعنى « سُكَّارِي » : من شدة الخوف (ومما بُسَّكَّارِي)

من الشراب ، والمعنى : ترى الناس كأنهم سُكَّارِي من ذهول عقولهم ، لشدة

ما عرَّ بهم ، يضطربون اضطراب السكران من الشراب . وقرأ حمزة ، والكسائي ،

وخلف : « سَكَّارِي ومما بِسَكَّارِي » وهي قراءة ابن مسعود . قال الفراء :

(١) رواه ابن جرير الطبري : ٦٣/٣٠ عند قوله تعالى : (وإذا النجوم انكدرت) ، وفي

سند الحسين بن واقد ، قال الحافظ في « التفریب » : ثقة له أوهام ، وذكره ابن كثير :

٤٧٥/٤ من رواية ابن جرير ، وابن أبي حاتم .

وهو وجه جيد ، لأنه بمنزلة الهللكى والجرحى . وقرأ عكرمة ، والضحاك ، وابن السميع : « سكارى ومأم بسكارى » بفتح السين والراء وإثبات الألف ، (ولكن عذاب الله شديد) فيه دليل على أن سكرهم من خوف عذابه .

قوله تعالى : (ومن الناس من يجادل في الله) قال المفسرون : نزلت في النضر بن الحارث ^(١) . وفيما جادل فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان كلباً نزل شيء من القرآن كذب به ، قاله ابن عباس .
والثاني : أنه زعم أن الملائكة بنات الله ، قاله مقاتل .

والثالث : أنه قال : لا يقدر الله على إحياء الموتى ، ذكره أبو سليمان لدمشقي .

قوله تعالى : (بغير علم) أي : إنما يقوله باغواء الشيطان ، لا بعلم (ويتبع)
مايسوّل له (كلّ شيطانٍ مرّيدٍ) وقد ذكرنا معنى « المرید » في سورة
(النساء : ١١٧) .

قوله تعالى : (كتب عليه أنه من تولاه) « كتب » بمعنى : قضى والهاء
في « عليه » وفي « تولاه » كناية عن الشيطان . ومعنى الآية : قضى على الشيطان
أنه يُضِلُّ مَنْ اتَّبَعَهُ . وقرأ أبو عمران الجوني : « كتب » بفتح الكاف « أنه »
بفتح الهمزة [« فانه » بكسر الهمزة] . وقرأ أبو مجلز ، وأبو العالية ، وابن أبي لبي ،
والضحك ، وابن يعمر : « إنه » « فانه » بكسر الهمزة فيها . وقد بينّا معنى
« السعير » في سورة (النساء : ١٠) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ
مِن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ

(١) « أسباب النزول » للسيوطي : ١٥٠ من رواية ابن أبي حاتم ، و « الدرر » : ٣٤٤/٤ .

وغيرِ مُخلَّقةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٦﴾

قوله تعالى : (يا أيها الناس) يعني : أهل مكة (إن كنتم في ريب من البعث) أي : في شك من القيامة (فإنا خلقناكم من تراب) يعني : خلق آدم (ثم من نطفة) يعني : خلق ولده ، والمعنى : إن شككم في بعثكم فتدبروا أمر خلقكم وابتدائكم ، فانكم لا تجدون في القدرة فرقاً بين الابتداء والاعادة . فأما النطفة ، فهي المني . والعلقة : دم عبيط جامد . وقيل : سميت علقه لطوبتها وتملقها بما تمر به ، فإذا جفت فليست علقه . والمضغة : لحمه صغيرة . قال ابن قتيبة : وسميت بذلك ، لأنها بقدر ما يوضع ، كما قيل : غرفة لقدر ما يُعرف .

قوله تعالى : (مُخلَّقةٍ وغيرِ مُخلَّقةٍ) فيه خمسة أقوال .
أحدها : أن المخلَّقة : ما خلق سويّاً ، وغير المخلَّقة : ما ألقنه الأرحام من النطف ، وهو دم قبل أن يكون خلقاً ، قاله ابن مسعود .
والثاني : أن المخلَّقة : ما أكل خلقه بنفخ الروح فيه ^(١) ، وهو الذي يولد

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : يكتب

حيّاً تمام ، وغير المخلّقة : ماسقط غير حيّ لم يكمل خَلْقَهُ بنفخ الروح فيه ، هذا معنى قول ابن عباس .

والثالث : أن المخلّقة : المصوِّرة ، وغير المخلّقة : غير مصوِّرة ، قاله الحسن .

والرابع : أن المخلّقة وغير المخلّقة : السقط ، تارة يسقط نطفة وعلقة ، وتارة قد صُوِّرَ بعضه ، وتارة قد صُوِّرَ كلُّه ، قاله السدي .

والخامس : أن المخلّقة : التامة ، وغير المخلّقة : السقط ، قاله الفراء ، وابن قتيبة .

قوله تعالى : (لَنبَيِّنَنَّ لَكُمْ) فيه أربعة أقوال .

أحدها : خلقناكم لنبيِّنَ لكم ما تاتون وما تذرّون .

والثاني : لنبيِّنَ لكم في القرآن بُدْوَ خَلْقِكُمْ ، وتنقلَ أحوالكم .

والثالث : لنبيِّنَ لكم كمال حكمتنا وقدرتنا في تَقْلِيْبِ أحوال خلقكم .

والرابع : لنبيِّنَ لكم أن البعث حق .

وقرأ أبو عمران الجوني ، وابن أبي عمير : « لَيبيِّنَنَّ لكم » بالياء .

قوله تعالى : (وتقرُّ في الأرحام) وقرأ ابن مسعود ، وأبو رجاء : « ويُقرُّ »

ببَاء مرفوعة وفتح القاف ورفع الراء . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو إسحاق السبّعي :

« ويُقرُّ » بباء مرفوعة وبكسر القاف ونصب الراء . والذي يُقرُّ في الأرحام ،

هو الذي لا يكون سقطاً ، (إلى أجل مسمى) وهو أجل الولادة (ثم نخرجكم طفلاً)

— رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل

الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ،

وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب

فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، متفق عليه ، واللفظ لمسلم .

قال أبو عبيدة : هو في موضع « أطفال » ، والعرب قد تضع لفظ الواحد في معنى الجميع ، قال الله تعالى : (والملائكة بعد ذلك ظهير) [التحريم : ٤] أي : ظهراء ، وأنشد :
فَقَلْنَا أَسْلِمُوا إِنَّا أَخْوَكُم فَقَدِ بَرَّئْتُ مِنَ الْإِحْنِ الصَّدُورِ^(١)
وأنشد أيضاً :

في حلقكم عظمٌ وقد شَجِينَا^(٢)

وقال غيره : إنما قال : « طفلاً » فوحد ، لأن الميم في قوله تعالى : (نخرجكم) قد دللت على الجميع ، فلم يحتاج إلى أن يقول : أطفالاً .
قوله تعالى : (ثم لتبلغوا) فيه إضمار ، تقديره : ثم نعتركم لتبلغوا أشدكم ، وقد سبق معنى « الأشد » [الأنعام : ١٥٣] ، (ومنكم من يتوفى) من قبل بلوغ الأشد (ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العمر) وقد شرحناه في (النحل : ٧٠) .
ثم إن الله تعالى دلهم على إحيائه الموتى بأحيائه الأرض ، فقال تعالى : (وترى الأرض هامدة) قال ابن قتيبة : أي : مية يابسة ، ومثله : همدت النار : إذا طفت فذهبت .

قوله تعالى : (فاذا أنزلنا عليها الماء) يعني : المطر (اهتزت) أي : تحركت للنبات ، وذلك أنها ترتفع عن النبات إذا ظهر ، فهو معنى قوله تعالى : (وربت) أي : ارتفعت وزادت . وقال المبرد : أراد : اهتزت نباتها وربا ، فحذف المضاف . قال الفراء : وقرأ أبو جعفر المدني : « وربأت » بهزة مفتوحة بعد الباء . فان كان ذهب إلى الرئية الذي يحرس القوم ، أي : أنه يرتفع ، وإلا ، فهو غلط .

(١) البيت للعباس بن مرداس ، وهو في « مجاز القرآن » : ٧٩/١ ، و ٤٤/٢ ، و « الأغاني » : ٦٢/١٣ ، و « الاصابة » ، رقم (٤٥١١) ، و « الاستيعاب » : ١٠١/٣ ، و « الخزانة » : ٧٣/١ ، و « الشتري » : ١٠١/٢ .

(٢) تقدم في الجزء ١٢٨/٢ ، فانظره هناك .

قوله تعالى : (وأثبتت من كل زوج بهيج) قال ابن قتبية : من كل جنس حسن بهيج ، أي : يسر ، وهو فعيل في معنى فاعل .

قوله تعالى : (ذلك) قال الزجاج : المعنى : الأمر ذلك كما وصف لكم . والأجود أن يكون موضع « ذلك » رفعا ، ويجوز أن يكون نصبا على معنى : فعل الله ذلك بأنه هو الحق .

قوله تعالى : (وأن الساعة) أي : واتعلموا أن الساعة (آية) .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ . ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ التَّيْمَةِ عَذَابَ النَّجْرِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ كَيْسٌ بِظُلَامٍ لِلْعَمِيدِ ﴾

قوله تعالى : (ومن الناس من يجادل) قد سبق بيانه . وهذا مما نزل في النضر أيضا . والهدى : البيان والبرهان .

قوله تعالى : (ثاني عطفه) العطف : الجانب . وعطفا الرجل : جانبه عن عين وشمال ، وهو الموضع الذي يعطفه الإنسان ويلويه عند إعراضه عن المشي . قال الزجاج : « ثاني » منصوب على الحال ، ومعناه : التنوين ، معناه : ثانيا عطفه . وجاء في التفسير : أن معناه : لاوياً عنقه ، وهذا يوصف به المتكبر ، والمعنى : ومن الناس من يجادل بغير علم متكبرا .

قوله تعالى : (ليُضِلَّ) أي : ليصير أمره إلى الضلال ، فكأنه وإن لم يقدر أنه يضل ، فإن أمره يصير إلى ذلك ، (له في الدنيا خزي) وهو ما أصابه يوم بدر ، وذلك أنه قُتل . وما بعد هذا قد سبق تفسيره [بونس : ٧٠] إلى قوله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف) وفي سبب نزول هذه الآية قولان .

أحدهما : أن ناساً من العرب كان يأتون رسولَ الله ﷺ ، فيقولون : نحن على دينك ، فإن أصابوا معيشةً ، وتنجت خيبتهم ، وولدت نساؤهم الغلمانَ اطمأنوا وقالوا : هذا دينُ حقٍّ ، وإن لم يجزِ الأمر على ذلك قالوا : هذا دين سوء ، فينقلبون عن دينهم ، فنزلت هذه الآية ، هذا معنى قول ابن عباس (١) ، وبه قال الأكثرون .

والثاني : أن رجلاً من اليهود أسلم فذهب بصره وماله وولده ، فتشام بالإسلام ، فأتى رسولَ الله ﷺ ، فقال : أفني ، فقال : « إن الإسلام لا يقال » . فقال : إني لم أصب في ديني هذا خيراً ، أذهب بصري ومالي وولدي ، فقال : « يا يهودي : إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب » ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطية عن أبي سعيد الخدري (٢) .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْبِدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِن أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين . يدعوا من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد . يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير . إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد ﴾

(١) رواه البخاري : ٣٣٦/٨ ، و الطبري ، : ١٢٢/١٧ ، وذكره السيوطي في

الدر ، : ٣٤٦/٤ وزاد نسبه لابن أبي حاتم ، وابن مردويه .

(٢) أسباب النزول ، الواحدي : ١٧٦ عن عطية عن ابن عباس ، وذكره السيوطي في

الدر ، : ٣٤٦/٤ عن ابن مردويه من طريق عطية عن أبي سعيد الخدري .

قوله تعالى : (على حرف) قال مجاهد ، وقادة : « على شكّ » ، قال أبو عبيدة : كل شكّ في شيء فهو على حرف لا يثبت ولا يدوم . ويان هذا أن القائم على حرف الشيء غير متمكّن منه ، فشبه به الشاكّ ، لأنه قلق في دينه على غير ثبات ، وبوضحه قوله تعالى : (فان أصابه خير) أي : رخاء وعافية (اطمان به) على عبادة الله (وإن أصابه فتنة) اختبار يجذب وقلّة مال (انقلب على وجهه) أي : رجع عن دينه إلى الكفر . والمعنى : انصرف إلى وجهه الذي توجه منه ، وهو الكفر^(١) ، (خسر الدنيا) حيث لم يظفر بما أراد منها ، (و) خسر (الآخرة) بارتداده عن الدين . وقرأ أبو رزّين العقيلي ، وأبو مجلز ، ومجاهد ، وطلحة ابن مصرف ، وابن أبي عمير ، وزيد عن يعقوب : « خاسر الدنيا » بألف قبل السين ، وبنصب الراء « والآخرة » بحفّض التاء . (يدعو) هذا المرتد ، أي : يعبد (مالا يضره) إن لم يعبد (ولا ينفعه) إن أطاعه (ذلك) الذي فعل (هو الضلال البعيد) عن الحق (يدعو لمن ضره) قال بعضهم : اللام صلة ، والمعنى : يدعو من ضره . وحكى الزجاج عن البصريين والكوفيين أن اللام معناها التأخير ، والمعنى : يدعو من لضره (أقرب من نفعه) ، قال : وشرح هذا أن اللام لليمين والتوكيد ، فحقها أن تكون أول الكلام ، فقدّمت لتجعل في حقها . قال السدي : ضره في الآخرة بعبادته إياه أقرب من نفعه .

فان قيل : فهل للنفع من عبادة الصنم وجه ؟

(١) قال ابن كثير : ٢٠٩/٣ : وقال عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم : هو المنافق إن صلحت له دنياه ، أقام على العبادة ، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت ، انقلب ، فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه ، فان أصابه فتنة ، أو شدة ، أو اختبار ، أو ضيق ، ترك دينه ورجع إلى الكفر . اهـ . نموذ بالله من ذلك .

فالجواب : أنه لا نفع من قبله أصلاً ، غير أنه جاء على لغة العرب ، وهم يقولون في الشيء الذي لا يكون : هذا بعيد .

قوله تعالى : (لبئس المولى ولبئس المشير) قال ابن قتيبة : المولى : الولي ، والمشير : الصاحب ، والتحليل .

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَئِنَّظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيبُ . وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

قوله تعالى : (من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة) قال مقاتل : نزلت في نفر من أسد ، وغطفان ، قالوا : إنا نخاف أن لا ينصر محمد ، فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود ^(١) ، وإلى نحو هذا ذهب أبو حمزة الثمالي ، والسدي . وحكى أبو سليمان الدهشقي أن الإشارة بهذه الآية إلى الذين انصرفوا عن الإسلام ، لأن أرزاقهم ما اتسعت ، وقد شرحنا القصة في قوله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف) .

وفي هاء « ينصره » قولان .

أحدهما : أنها ترجع على « من » ، والنصر : بمعنى الرزق ، هذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء ، وبه قال مجاهد . قال أبو عبيدة : وقف علينا مسائل

(١) ذكره الطبري : ١٢٨/١٧ بدون سند .

من بني بكر ، فقال : مَنْ يَنْصُرُنِي نَصْرَهُ اللهُ ، أَي : مَنْ يَعْطِينِي أُعْطَاهُ اللهُ ،
ويقال : نصر المطر أرض كذا ، أي : جادها ، وأحيائها ، قال الراعي :

[إذا أدير الشهر الحرام فودعي بلاد نيم] وانصُرِي أَرْضَ عَامِرٍ (١)

والثاني : أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ (٢) ، فالمعنى : مَنْ كَانَ يَظُنُّ

أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ مُحَمَّدًا ، رواه التميمي عن ابن عباس (٣) ، وبه قال عطاء ، وقتادة .

قال ابن قتيبة : وهذه كناية عن غير مذكور ، وكان قوم من المسلمين لشدة

حنقهم على المشركين يستبطنون ما وعد الله رسوله من النصر ، وآخرون من

(١) د مجاز القرآن ، ٤٦/٢ ، ود الجهرة ، ٣٥٩/٢ ، ود اللسان ، ود التاج ، : نصر .

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٢٨/١٧ : وأولى ذلك بالصواب عندي في تأويل ذلك ، قول

من قال : الهاء من ذكر نبي الله ﷺ ودينه ، وذلك أن الله تعالى ذكره ، ذكر قوماً يعبدونه

على حرف ، وأنهم يطمثون بالدين إن أصابوا خيراً في عبادتهم إياه ، وأنهم يرتدئون عن دينهم

لشدة تصييم فيها ، ثم أتبع ذلك هذه الآية ، فمعلوم أنه إنما أتبعه إياها توييحاً لهم على ارتدادهم

عن الدين ، أو على شكهم فيه نفاقهم ، استبطاءً منهم السعة في العيش ، أو السبوع في الرزق ،

وإذا كان الواجب أن يكون ذلك عقيب الخبر عن نفاقهم ، فمضى الكلام إذن إذ كان ذلك

كذلك : من كان يحسب أن لن يرزق الله محمدًا ﷺ وأمنه في الدنيا ، فيوسع عليهم من

فضله فيها ، ويرزقهم في الآخرة من سني عطايه وكرامته ، استبطاءً منه فعل الله ذلك به وبهم ،

فليمدد بجبل إلى سماء فوقه ، إما سقف بيت ، أو غيره مما يطلق به السبب من فوقه ، ثم

يختنق إذا اغتاط من بعض ما قضى الله فاستعجل انكشاف ذلك عنه ، فلينظر هل يذهبن كيدته

اختناقه كذلك ما يبيض ، فإن لم يذهب ذلك غيظه حتى يأتي الله بالفرج من عنده فيذهب ، فكذلك استعجاله

نصر الله محمدًا ودينه ، إن يؤخر ما قضى الله له من ذلك عن ميقاته ، ولا يعجل قبل حينه . اهـ .

(٣) رواه الطبري : ٢٢٦/١٧ ، وقال ابن كثير بعد أن نقل كلام ابن عباس هذا ورجحه :

وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى ، وأبلغ في التهكم ، فإن المعنى : مَنْ كَانَ

يَظُنُّ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِنَاصِرٍ مُحَمَّدًا وَكِتَابَهُ وَدِينَهُ ، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه ، فإن الله

ناصره لا محالة ، قال الله تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ...)

الآية ، ولهذا قال : (فلينظر هل يذهبن كيدته ما يبيض) يعني : مَنْ شَأْنُ مُحَمَّدٍ ﷺ .

المشركين ، يريدون اتّباعه ، ويخشون أن لا يتم أمره ، فقال هذه الآية للفريقين . ثم في معنى [هذا] النصر قولان .

أحدهما : أنه الغلبة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، والجمهور .

والثاني : أنه الرزق ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (فليمدد بسبب إلى السماء) في المراد بالسماء قولان .

أحدهما : سقف بيته ، والمعنى : فليشدد جبلاً في سقف بيته ، فليختنق به (ثم ليقطع) الجبل ليموت مخنقاً ، هذا قول الأكثرين . ومعنى الآية : ليصور هذا الأمر في نفسه لا أنه يفعله ، لأنه إذا اختنق لا يمكنه النظر والعلم .

والثاني : أنها السماء المعروفة ، والمعنى : فليقطع الوحي عن رسول الله ﷺ

إن قدر ، قاله ابن زيد (١) .

قوله تعالى : (ثم ليقطع) قرأ أبو عمرو ، وابن عامر : « ثم ليقطع » ثم

ليقضوا [الحج : ٢٩] بكسر اللام . زاد ابن عامر « وليوفوا » [الحج : ٢٩]

« وليطوفوا » [الحج : ٢٩] بكسر اللام أيضاً . وكسر ابن كثير لام « ثم ليقضوا »

فحسب . وقرأ عاصم ، وحمة ، والكسائي : بسكون هذه اللامات ، وكذلك في كل

القرآن إذا كان قبلها واوٌ أو فاء [أو] ثم ، قال الفراء : من سكن فقد خفف ،

وكل لام أمر وصلت بواو أو فاء ، فأكثر كلام العرب تسكينها ، وقد كسرها

بعضهم . قال أبو علي : الأصل الكسر ، لأنك إذا ابتدأت قلت : ليقم زيد .

قوله تعالى : (هل يذهبن كيده) قال ابن قتيبة : المعنى : هل تذهبن حيلته

غيطه ، والمعنى : ليجهد جهده .

قوله تعالى : (وكذلك) أي : ومثل ذلك الذي تقدم من آيات القرآن

(١) الطبري ، : ١٢٦/١٧ ، و الدر ، : ٣٤٧/٤ .

(أنزلناه) يعني : القرآن . وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى : (إن الله يفصل بينهم) أي : يقضي (يوم القيامة) بينهم بإدخال المؤمنين الجنة ، والآخرين النار (إن الله على كل شيء) من أعمالهم (شهيد) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾

قوله تعالى : (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب) أي : ألم تعلم . وقد بينا في سورة (النحل : ٤٩) معنى السجود في حق من يعقل ، ومن لا يعقل .

قوله تعالى : (وكثير من الناس) يعني : الموحدين الذين يسجدون لله . وفي قوله تعالى : (وكثير حق عليه العذاب) قولان .

أحدهما : أنهم الكفار ، وهم يسجدون ، وسجودهم سجود ظلمهم ، قاله مقاتل . والثاني : أنهم لا يسجدون ؛ والمعنى : وكثير من الناس أبي السجود ، فحق عليه العذاب ، لتركه السجود ، هذا قول الفراء .

قوله تعالى : (ومن يهين الله) أي : من يشقه الله فما له من مُسْعِدٍ ، (إن الله يفعل ما يشاء) في خلقه من الكرامة والإهانة ^(١) .

(١) قال ابن كثير : أخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه أنه قيل له : إن هاهنا رجلاً يتكلم في المشيئة ، فقال له علي : يا عبد الله خلاق الله كما يشاء ، أو كما شئت ؟ قال : بل كما شاء ، قال : فيمرضك إذا شاء ، أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : وبشفيك إذا شاء ، أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيدخلك حيث شئت ، أو حيث شاء ؟ قال : بل حيث يشاء ، قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عينك بالسيف .

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ . وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾

قوله تعالى : (هذان خصمان) اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في النفر الذين تبارزوا للقتال يوم بدر ، حمزة ، وعلي ، وعبيدة بن الحارث ، وعتبة وشيبة ابني ربيعة ، والوليد بن عتبة ، هذا قول أبي ذر ^(١) .

والثاني : أنها نزلت في أهل الكتاب ، قالوا للمؤمنين : نحن أولى بالله ، وأقدم منكم كتاباً ، ونبينا قبل نبيكم ، وقال المؤمنون : نحن أحق بالله ، آمنا بحمد ، وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب ، وأنتم تعرفون نبينا ، ثم كفرتم به حسداً ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس ^(٢) ، وقتادة .

والثالث : أنها في جميع المؤمنين ، والكفار ، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن ، وعطاء ، ومجاهد ^(٣) .

(١) البخاري : ٣٣٧/٨ ، و الطبري : ١٣١/١٧ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٣٤٨/٤ و زاد نسبه لسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » .

(٢) « الطبري » : ١٣٢/١٧ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٣٤٨/٤ و زاد نسبه لابن مردويه .

(٣) « الطبري » : ١٣٢/١٧ .

والرابع : أنها نزلت في اختصاص الجنة والنار ، فقالت النار : خلقتني الله لمقوبته ، وقالت الجنة : خلقتني الله لرحمته ، قاله عكرمة ^(١) .
 فأما قوله تعالى : (هذان) وقرأ ابن عباس ، وابن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن كثير : « هاذان » بنشدب النون « خصيان » ، فعناه : جمان ، وليسا برجلين ، ولهذا قال تعالى : (اختصموا) ولم يقل : اختصما ؛ على أنه قرأ ابن مسعود ، وابن أبي عملة : « اختصما » .
 وفي خصومتهم ثلاثة أقوال .

أحدها : في دين ربهم ، وهذا على القولين الأولين . والثاني : في البعث ، قاله مجاهد . والثالث : أنه خصام مفاخرة ، على قول عكرمة .
 قوله تعالى : (قطعت لهم نيا ب) أي : سويت وجعلت لباساً . قال ابن عباس : قُص من نار . وقال سعيد بن جبير : المراد بالنار هاهنا : النحاس .
 فأما « الحميم » فهو الماء الحارُّ (يُصهر به) قال الفراء : يذاب به ، يقال : صهرت الشمع بالنار . قال المفسرون : يذاب بالماء الحارِّ (ما في بطونهم) من شحم أو مِعى حتى يخرج من أدبارهم ، وتنضج الجلود فتساقط من حرِّه ، (ولهم مقامع) قال الضحاك : هي المطارق . وقال الحسن : إن النار ترميهم بلهبها ، حتى إذا كانوا في أعلاها ، ضربوا بمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً ، فإذا انتهوا إلى أسفلها ، ضربهم زفير لهبها ، فلا يستقرُّون ساعة . قال مقاتل : إذا جاشت جهنم ، ألقتم في أعلاها ، فيريدون الخروج ، فتلقاهم خزنة جهنم بالمقامع ، فيضربونهم ،

(١) د الطبري ، : ١٣٢/١٧ .

فيبوي أحدهم من تلك الضربة إلى قعرها . وقال غيره : إذا دفعتم النار ، ظنوا أنها ستقذفهم خارجاً منها ، فتعبدهم الزبانية بمقامع الحديد .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴾

قوله تعالى : (ولؤلؤ) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمة ، والكسائي : « ولؤلؤ » بالخفض . وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : « ولؤلؤاً » بالنصب . قال أبو علي : من خفض ، فالمعنى : يحلّون أساور من ذهب ومن لؤلؤ ؛ ومن نصب قال : ويحلّون لؤلؤاً^(١) .

قوله تعالى : (وهُدُوا) أي : أرشدوا في الدنيا (إلى الطيب من القول) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه « لا إله إلا الله ، والحمد لله » قاله ابن عباس . وزاد ابن زيد : « والله أكبر » .

والثاني : القرآن ، قاله السدي .

والثالث : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، حكاه الماوردي .

فأما « صراط الحميد » فقال ابن عباس : هو طريق الإسلام .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ

(١) روى مسلم في صحيحه ، ٢١٩/١ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت خليلي ﷺ

يقول : « تباع الحلية من المؤمن حيث يبلغ الضوء » .

الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقْهُ مِنْ عَذَابِ الْيَمِّ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (ويصدون عن سبيل الله) أي : يمنعون الناس من الدخول في الإسلام . قال الزجاج : ولفظ « يصدون » لفظ مستقبل عطف به على لفظ الماضي ، لأن معنى « الذين كفروا » : الذين هم كفرون ، فكأنه قال : إن الكافرين والصادقين ؛ فأما خبر « إن » فمحنوف ، فيكون المعنى : إن الذين هذه صفتهم هلكوا .

وفي « المسجد الحرام » قولان .

أحدهما : جميع الحرم . روى سعيد بن جبیر عن ابن عباس أنه قال : كانوا يرون الحرم كله مسجداً .

والثاني : نفس المسجد ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (الذي جعلناه للناس) هذا وقف التمام .

وفي معناه قولان .

أحدهما : جعلناه للناس كلهم ، لم نخص به بعضهم دون بعض ، هذا على أنه جميع الحرم .

والثاني : جعلناه قبلةً لصلاتهم ، ومنسكاً لحجهم ، وهذا على أنه نفس المسجد . وقرأ إبراهيم النخعي ، وابن أبي عبيدة ، وحفص عن عاصم : « سواء » بالنصب ، فيتوجه الوقف على « سواء » ، وقد وقف بعض القراء كذلك . قال أبو علي الفارسي : أبدال العاكف والبادي من الناس من حيث كانا كالشامل لهم ، فصار المعنى : الذي جعلناه للعاكف والبادي سواء . فأما العاكف : فهو المقيم ، والبادي : الذي يأتيه من غير أهله ، وهذا من قولهم : بدا القوم : إذا خرجوا

من الحضرة إلى الصحراء . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « البادي » بالياء ، غير أن ابن كثير وقف بياء ، وأبو عمرو بغير ياء . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي ، والمسيبي عن نافع بغير ياء في الحالتين .

ثم في معنى الكلام قولان .

أحدهما : أن العاكف والبادي يستويان في سكنى مكة والنزول بها ، فليس أحدهما أحقّ بالمنزل من الآخر ، غير أنه لا يُخرج أحدٌ من بيته ، هذا قول ابن عباس ، وسعيد بن جبيرة ، وقتادة ؛ وإلى نحو هذا ذهب أبو حنيفة ، وأحمد ؛ ومذهب هؤلاء أن كراه دور مكة وبمعها حرام ، هذا على أن المسجد : الحرم كله . والثاني : أنهما يستويان في تفضيله وحرمة وإقامة المناسك به ، هذا قول الحسن ، ومجاهد . و [منهم] من أجاز بيع دور مكة ، وإليه يذهب الشافعي . وعلى هذا يجوز أن يراد بالمسجد الحرم ، ويجوز أن يراد نفس المسجد .

قوله تعالى : (ومن يرد فيه بالحاد) الإلحاد في اللغة : العدول عن القصد ، والباء زائدة ، كقوله تعالى : (تنبت بالدهن) [المؤمنون : ٢٠] ، وأنشدوا :
 بوادِ يمانٍ يُنبتُ الشَّثَّ صَدْرُهُ وأسفلُهُ بالمرخِ والشَّبهانِ^(١)
 المعنى : وأسفله ينبت المرخ ؛ وقال آخر :
 هُنَّ الحرائرُ لارَبَّاتٍ أخْبِرَةُ سودُ الحاجرِ لا يَقْرَأَنَّ بالسُّورِ^(٢)

(١) البيت الأحول البشكري واسمه بعلى ، وهو في « مجاز القرآن » : ٤٨/٢ ، و« الطبري » : ٧٢/١٦ و ١٣٨/١٧ ، و« الجهرة » : ٤٥/١ ، ٤١٤/٣ ، و« اللسان » : (شت ، شبه) ، و« الاقتضاب » ص ٤٥٧ ، و« القرطبي » : ٣٦/١٢ . والشت : ضرب من الشجر ، والمرخ : شجر كبير الوري سربه ، والشبهان : نبت يشبه اثنام ، أو ضرب من العضاء . والشاهد في البيت زيادة الباء في كلمة « بالمرخ » .

(٢) هو في « مجاز القرآن » : ٤/١ ، و« الجهرة » : ٤١٤/٣ ، و« الصحاح » ، —

وقال آخر :

نَحْنُ بَنُو جَمْعَةِ أَرْبَابِ الْقَلَجِ نَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَنَرْجُو بِالْفَرْجِ^(١)
 هذا قول جمهور اللغويين . قال ابن قتيبة : والباء قد تزداد في الكلام ، كهذه الآية ،
 وكقوله تعالى : (اقرأ باسم ربك) [الملئق : ١] (وهزّي إليك بجذع النخلة)
 [مريم : ٢٤] (بأيّكم المفتون) [القلم : ٦] (تلقون إليهم بالموذّة) [المنحنة : ١]
 (عينا يشرب بها) [الانسان : ٦] أي : يشربها ؛ وقد تزداد « من » ، كقوله
 تعالى : (ما أريد منهم من رزق) [الذاريات : ٥٧] ، وتزداد « اللام » كقوله تعالى :
 (الذين هم لربهم يرهبون) [الاعراف : ١٥٤] ، والكاف ، كقوله تعالى : (ليس
 كمثل شيء) [الثوري : ١١] ، و « عن » ، كقوله تعالى : (يخالفون عن أمره)
 [النور : ٦٣] ، و « إن » ، كقوله تعالى : (فأنه ملائكم) [الجمعة : ٨] ،
 و « إن » الخفيفة ، كقوله تعالى : (فيما إن مكناكم فيه) [الاحقاف : ٢٦] ، و « ما » ،
 كقوله تعالى : (عما قليل ليصبحن نادمين) [المؤمنون : ٤٠] ، و « الواو » ، كقوله
 تعالى : (وتلّه للجبين ، وناديناه) [الصافات : ١٠٣ ، ١٠٤] .

وفي المراد بهذا الإلحاد خمسة أقوال .

أحدها : أنه الظلم ، رواه العوفي عن ابن عباس . وقال مجاهد : هو عمل
 سيئة ؛ فعلى هذا تدخل فيه جميع المعاصي ، وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال :
 لا تحتكروا الطعام بمكة ، فإن احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم^(٢) .

— و « اللسان » ، و « التاج » : (سور) ، و « القرطي » : ١٥٨/١ ، و « شواهد المغني » :
 ١١٦ ، و « الخزانة » : ٦٦٨/٣ .

(١) البيت لراجز من بني جمدة ، وهو في « مجاز القرآن » : ٥٦/٢ ، و « الاقتضاب » ،
 ص : ٤٥٨ ، و « شواهد المغني » ، ص : ١١٤ ، و « الخزانة » : ١٥٩/٤ .

(٢) ذكره السيوطي في « الدر » : ٣٥١/٤ من رواية سميد بن منصور ، والبخاري في
 « تاريخه » ، وابن النذر ، عن عمر رضي الله عنه موقوفاً بلفظ « احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم » .

والثاني : أنه الشرك ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة .

والثالث : الشرك والقتل ، قاله عطاء .

والرابع : أنه استحلال محظورات الإحرام ، وهذا المعنى محكي عن عطاء أيضاً .

والخامس : استحلال الحرام تعمداً ، قاله ابن جريج .

فإن قيل : هل يؤاخذ الإنسان إن أراد الظلم بمكة ، ولم يفعله ؟

فالجواب من وجهين .

أحدهما : أنه إذا تمَّ بذلك في الحرم خاصة ، عوقب ، هذا مذهب ابن مسعود ، فإنه قال : لو أن رجلاً همَّ بخطيئة ، لم تكتب عليه ما لم يعملها ، ولو أن رجلاً همَّ بقتل مؤمن عند البيت ، وهو بـ «عَدَنِ أُبَيِّنَ» ، أذاقه الله في الدنيا من عذاب أليم . وقال الضحاك : إن الرجل ليهمُّ بالخطيئة بمكة وهو بأرضٍ أخرى ، فنكتب عليه ولم يعملها . وقال مجاهد : تضاعف السيئات بمكة ، كما تضاعف الحسنات . وسئل الإمام أحمد : هل تكتب السيئة أكثر من واحدة ؟ فقال : لا ، إلا بمكة لتعظيم البلد . وأحمد على هذا يرى فضيلة المجاورة بها ؛ وقد جاور جابر بن عبد الله ، وكان ابن عمر يقيم بها .

والثاني : أن معنى : «ومن يرد» : من يعمل . قال أبو سليمان الدمشقي :

هذا قول سائر من حفظنا عنه .

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا
وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَأَذِّنْ فِي
النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ
فَجٍّ سَعِيدٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ

مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكُلُوا مِنْهَا
وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ . ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَرَهُمْ
وَلِيُطَوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿

قوله تعالى : (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ) قال ابن عباس : جعلنا . وقال مقاتل :
دلناه عليه . وقال ثعلب : وإنما أدخل اللام ، على أن « بَوَّأْنَا » في معنى : جعلنا ،
فيكون بمعنى « ردف لكم » [النمل : ٧٢] أي : ردفكم . وقد شرحنا كيفية بناء
البيت في (البقرة : ١٢٩) .

قوله تعالى : (أَنْ لَا تَشْرِكَ بِي شَيْئًا) المعنى : وأوحينا إليه ذلك (١) ،
(وطهر بيتي) حرك هذه الياء ، نافع وحفص عن عاصم . وقد شرحنا الآية في
(البقرة : ١٢٥) .

وفي المراد بـ « القاعين » قولان . أحدهما : القاعون في الصلاة ، قاله عطاء ،
والجمهور . والثاني : المقيمون بمكة ، حكى عن قتادة .

قوله تعالى : (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ) قال المفسرون : لما فرغ إبراهيم من
بناء البيت ، أمره الله تعالى أن يؤذِّن في الناس بالحج ، فقال إبراهيم : يارب ،
وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذِّن ، وعليّ البلاغ ، فعلا على جبل أبي قبيس ، وقال :
يا أيها الناس : إن ربكم قد بنى بيتاً ، فحجّوه ، فأسمع من في أصلاب الرجال وأرحام
النساء ممن سبق في علم الله أن يحج ، فأجابوه : لبيك اللهم لبيك (٢) .
والأذان بمعنى النداء والإعلام ، والمأمور بهذا الأذان ، إبراهيم في قول الجمهور ،

(١) قال ابن كثير : هذا فيه تقريب وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش في
البقرة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له .

(٢) قال ابن كثير : هذا مضمون ماورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبیر
وغير واحد من السلف ، والله أعلم ، قال : وأوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مطولة . اهـ .

إلا ما روي عن الحسن أنه قال : المأمور به محمد ﷺ . والناس هاهنا : اسم يعم جميع بني آدم عند الجمهور ، إلا ما روى العوفي عن ابن عباس أنه قال : عنى بالناس أهل القبلة .

واعلم أن من أتى البيت الذي دعا إليه إبراهيم ، فكأنه قد أتى إبراهيم ، لأنه أجاب نداءه . وواحد الرجال هاهنا : راجل ، مثل صاحب ، وصحاب ، والمعنى : يأتوك مشاةً . وقد روي أن إبراهيم وإسماعيل حجًا ماشيين ، وحج الحسن بن علي خمساً وعشرين حجة ماشياً من المدينة إلى مكة ، والنجائب تُتقاد معه . وحج الإمام أحمد ماشياً صرتين أو ثلاثاً^(١) .

قوله تعالى : (وعلى كل ضامرٍ) أي : ركبانا على ضمير من طول السفر . قال الفراء : و « يأتين » فعل للنوق . وقال الزجاج : « يأتين » على معنى الإبل . وقرأ ابن مسعود ، وابن أبي عمير : « يأتون » بالواو .

قوله تعالى : (من كل فج عميق) أي : طريق بعيد . وقد ذكرنا تفسير الفج عند قوله تعالى : (وجعلنا فيها فجاجاً) [الانبياء : ٣١] .

قوله تعالى : (ليشهدوا) أي : ليحضروا (منافع لهم) وفيها ثلاثة أقوال . أحدها : التجارة ، قاله ابن عباس ، والسدي .

والثاني : منافع الآخرة ، قاله سعيد بن المسيب ، والزجاج في آخرين .

(١) من المتفق عليه أن الحج جائز راكباً و ماشياً ، وقد اختلف في الأفضل منها ، فقال بعضهم : المشي أفضل ، وقال جمهور الفقهاء : الركوب أفضل ، اقتداءً بالنبي ﷺ ، ولأنه أسون على القيام بوظائف مناسك الحج ، فمن هنا نعلم أن من حج بالطائرة مثلاً ، ووجد الراحة ، وقام بالمناسك كاملة ، أفضل ممن ذهب إلى الحج ماشياً وحصلت له مشقة ، فضجر ، أو لم يستطع القيام بالمناسك على الوجه الكامل .

والثالث : منافع الدارين جميعاً ، قاله مجاهد . وهو أصح ، لأنه لا يكون القصد للتجارة خاصة ، وإنما الأصل قصدُ الحج ، والتجارة تبع .

وفي الأيام المعلومات ستة أقوال .

أحدها : أنها أيام العشر^(١) ، رواه مجاهد عن ابن عمر ، وسعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وعطاء ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، والشافعي .

والثاني : تسعة أيام من العشر ، قاله أبو موسى الأشعري .

والثالث : يوم الأضحى وثلاثة أيام بعده ، رواه نافع عن ابن عمر ، ومقسم عن ابن عباس .

والرابع : أنها أيام التشريق ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال عطاء الخراساني ، والنخعي ، والضحاك .

والخامس : أنها خمسة أيام ، أولها يوم التروية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والسادس : ثلاثة أيام ، أولها يوم عرفة ، قاله مالك بن أنس . وقيل : إنما

قال : «معلومات» ، ليحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في آخرها .

قال الزجاج : والذِّكْر هاهنا يدل على التسمية على ما يُنحَر ، لقوله تعالى : (على

ما رزقهم من بهيمة الأنعام) ؛ قال القاضي أبو يعلى : ويحتمل أن يكون الذِّكْر

المذكور هاهنا : هو الذِّكْر على الهدايا الواجبة ، كالدَّم الواجب لأجل التمتع

والقران ، ويحتمل أن يكون الذِّكْر المفعول عند رمي الجمار وتكبير التشريق ،

لأن الآية عامة في ذلك .

(١) أي عشر ذي الحجة ، وقد قال رسول الله ﷺ في فضلها : « ما من أيام العمل

الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام » (يعني عشر ذي الحجة) قالوا : يا رسول الله ،

ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم

يرجع من ذلك بشيء » ، رواه البخاري في « صحيحه » ، ٣/٣٨٢ ، وأبو داود رقم (٢٤٣٨) واللفظ له .

قوله تعالى : (فكلوا منها) يعني : الأنعام التي تُنحر ؛ وهذا أمر إباحة . وكان أهل الجاهلية لا يستحلون أكل ذبائحهم ، فأعلم الله عز وجل أن ذلك جائز ، غير أن هذا إنما يكون في الهدى المتطوع به ، فأما دم التمتع والقران ، فعندنا ^(١) أنه يجوز أن يأكل منه ، وقال الشافعي : لا يجوز ^(٢) ، وقد روى عطاء عن ابن عباس أنه قال : من كل الهدى يؤكل ، إلا ما كانت من فداء أو جزاء أو نذر ^(٣) . فأما « البأس » فهو ذو البؤس ، وهو شدة الفقر .

قوله تعالى : (ثم ليقتضوا تفهم) فيه أربعة أقوال .

أحدها : حلق الرأس ، وأخذ الشارب ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وقص الأظفار ، والأخذ من العارضين ، وربي الجمار ، والوقوف بعرفة ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثاني : مناسك الحج ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وهو قول ابن عمر .

والثالث : حلق الرأس ، قاله مجاهد .

(١) أي : معاشر الحنابلة .

(٢) وكذلك قال الامام النووي في « الروضة » : ١٩١/٣ طبع المكتب الاسلامي ، لأنه دم واجب ، ولكن الحنابلة - كما ذكر المصنف - أجازوا أن يأكل من هدي التمتع والقران ، وهو قول الحنفية بناءً على أصلهم أن دم التمتع والقران ، دم نسك ، لا دم جبران . وقد سح أن أزواج النبي ﷺ تمنع منه في حجة الوداع ، وأدخلت عائشة رضي الله عنها الحج على العمرة حين حاضت فصارت قارئة ، ثم دبح ﷺ عنهن البقر فأكلن من لحمها ، وثبت أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام أمر من كل بدنة بيضة فجعلت في قدر فأكل ﷺ هو وعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه من لحمها ، وشربا من مرقها . قال الشوكاني في « نيل الأوطار » ، (١٩٣/٥) : والظاهر أنه يجوز الأكل من الهدى من غير فرق بين ما كان منه تطوعاً وما كان فرضاً ، عموم قوله تعالى : (فكلوا منها) ، ولم يفصل .

(٣) في البخاري تعليقاً عن ابن عمر رضي الله عنهما : لا يؤكل من جزاء الصيد والنذر ، ويؤكل مما سوى ذلك ، قال الحافظ ابن حجر : ووصله ابن أبي شيبة بمناه .

والرابع : الشعر ، والظفر ، قاله عكرمة .

والقول الأول أصح ، لأن التفت : الوسخ ، والقذارة : من طول الشعر والأظفار والشمت . وقضاؤه : تقضه ، وإذها به . والحاج مغبر شمت لم يدهن ، ولم يستحد ، فاذا قضى نسكه ، وخرج من إحرامه بالخلق ، والقلم ، وقص الأظفار ، ولبس الثياب ، ونحو ذلك ، فهذا قضاء تفته . قال الزجاج : وأهل اللغة لا يعرفون التفت إلا من التفسير ، وكأنه الخروج من الإحرام إلى الإحلال .

قوله تعالى : (وليوفوا نذورهم) وروى أبو بكر عن عاصم : « وليوفتوا » بتسكين اللام وتشديد الفاء . قال ابن عباس : هو نحر ما نذروا من البدن . وقال غيره : ما نذروا من أعمال البر في أيام الحج ، فإن الإنسان ربما نذر أن يتصدق إن رزقه الله رؤية الكعبة ، وقد يكون عليه نذور مطلقة ، فالأفضل أن يؤديها بعمه .

قوله تعالى : (وليطوفوا بالبيت العتيق) هذا هو الطواف الواجب ، لأنه أمر به بعد الذبح ، والذبح إنما يكون في يوم النحر ، فدل على أنه الطواف المفروض . وفي تسمية البيت عتيقاً أربعة أقوال .

أحدها : لأن الله تعالى أعنته من الجبارة . روى عبد الله بن الزبير ، عن رسول الله ﷺ قال : « إنما سمى الله البيت : العتيق ، لأن الله أعنته من الجبارة ، فلم يظهر عليه جبّار قط »^(١) وهذا قول مجاهد ، وقتادة .

(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب ، ثم رواه من وجه آخر عن الزهري مرسلًا . قال ابن كثير : وكذا رواه ابن جرير عن محمد بن سهل الهاربي عن عبد الله بن صالح به ، وقال : إن كان صحيحاً . وذكره السيوطي في « الدر » : ٣٥٧/٤ ، وزاد نسبه للبخاري في « تاريخه » ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » عن عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه .

والثاني : أن معنى العتيق : القديم ، قاله الحسن ، وابن زيد .
والثالث : لأنه لم يملك قط ، قاله مجاهد في رواية ، وسفيان بن عيينة .
والرابع : لأنه أُعتق من الفرق زمان الطوفان ، قاله ابن السائب . وقد
تكلّمنا في هذه السورة في « ليقضوا » « وليوفوا » « وليطوفوا » .

﴿ ذَلِكُمْ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ
وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا بَتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ
مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ . حُنْفَاءُ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ
وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ
أَوْ تَهْوِي بِهِ فِي الرِّيحِ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ . ذَلِكُمْ وَمَنْ يُعَظِّمْ
شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ . لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ
أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

قوله تعالى : (ذلك) أي : الأمر ذلك ، يعني : ما ذكر من أعمال الحج
(ومن يعظم حرمات الله) فيجتنب ما حرم الله عليه في الإحرام تعظيماً لأمر الله .
قال الليث : الحرمة : ما لا يحل انتهاكه . وقال الزجاج : الحرمة : ما وجب القيام
به ، وحرمة التفريط فيه .

قوله تعالى : (فهو) يعني : التعظيم (خير له عند ربه) في الآخرة (وأحلّت
لكم الأنعام) وقد سبق بيانها [المائدة : ١] (إلا ما بتلى عليكم) تحريمه ، يعني [به] :
ما ذكر في (المائدة : ٣) من المنخقة وغيرها . وقيل : وأحلّت لكم الأنعام في حال
إحرامكم ، إلا ما بتلى عليكم في الصيد ، فإنه حرام .

قوله تعالى : (فاجتنبوا الرجس) أي : دعوه جانباً ، قال الزجاج : و « من »
ها هنا ، لتخليص جنس من أجناس ، المعنى : فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن . وقد
شرحنا معنى الرجس في (المائدة : ٩٠) .

وفي المراد بقول الزور أربعة أقوال .

أحدها : شهادة الزور ، قاله ابن مسعود . والثاني : الكذب ، قاله مجاهد .
والثالث : الشرك ، قاله أبو مالك . والرابع : أنه قول المشركين في الأنعام : هذا
حلال ، وهذا حرام ، قاله الزجاج ، قال : وقوله تعالى : (حنفاء لله) منصوب على
الحال ، وتأويله : مسلمين لا يُنسَبون إلى دين غير الإسلام . ثم ضرب الله مثلاً
للمشرك ، فقال : (ومن يشرك بالله) إلى قوله : (مسجيق) ، والمسجيق : البعيد .
واختلفوا في قراءة « فتخطفهُ » فقرأ الجمهور : « فتخطفهُ » بسكون الخاء
من غير تشديد الطاء . وقرأ نافع : بتشديد الطاء . وقرأ أبو المتوكل ، ومعاذ القاري :
بفتح التاء وفتح الخاء وتشديد الطاء ونصب الفاء . وقرأ أبو رزين ، وأبو الجوزاء ،
وأبو عمران [الجوني] : بكسر التاء وفتح الخاء وتشديد الطاء ورفع الفاء . وقرأ الحسن ،
والأعمش : بفتح التاء وكسر الخاء وتشديد الطاء ورفع الفاء . وكلّهم فتح الطاء .
وفي المراد بهذا المثل قولان .

أحدهما : أنه شبه المشرك بالله في بعده عن الهدى وهلاكه ، بالذي يخبر من
السيء ، قاله قتادة .

والثاني : أنه شبه حال المشرك في أنه لا يملك لنفسه نقماً ولا دفع ضر يوم
القيامة ، بحال الهاوي من السيء ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : (ذلك) أي : الأمر ذلك الذي ذكرناه (ومن يعظم شعائر
الله) قد شرحنا معنى الشعائر في (البقرة : ١٥٨) .

وفي المراد بها هاهنا قولان .

أحدهما : أنها البدن . وتعظيمها : استحسانها ، واستئسانها (لكم فيها منافع)

قبل أن يُسمِّيَهَا صاحبها هدياً ، أو يشعرها ويوجبها ، فإذا فعل ذلك ، لم يكن له من منافعها شيء ، روى هذا المعنى مقسم عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك . وقال عطاء ابن أبي رباح : لكم في هذه الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هدايا إذا احتجتم إلى شيء من ذلك أو اضطررتم إلى شرب ألبانها (إلى أجل مسمى) وهو أن تُنَحَرَ .

والثاني : أن الشعائر : المناسك ومشاهد مكة ؛ والمعنى : لكم فيها منافع بالتجارة إلى أجل مسمى ، وهو الخروج من مكة ، رواه أبو رزين عن ابن عباس . وقيل : لكم فيها منافع من الأجر والثواب في قضاء المناسك إلى أجل مسمى ، وهو انقضاء أيام الحج .

قوله تعالى : (فانها) يعني الأفعال المذكورة ، من اجتناب الرجس وقول الزور ، وتعظيم الشعائر . وقال الفراء : « فانها » يعني الفعلة (من تقوى القلوب) ، وإنما أضاف التقوى إلى القلوب ، لأن حقيقة التقوى تقوى القلوب .

قوله تعالى : (ثُمَّ مَحِلُّهَا) أي : حيث يحل نحرها (إلى البيت) يعني : عند البيت ، والمراد به : الحرم كله ، لأننا نعلم أنها لا تذبح عند البيت ، ولا في المسجد ، هذا على القول الأول ؛ وعلى الثاني ، يكون المعنى : ثم محل الناس من إحرامهم إلى البيت ، وهو أن يطوفوا به بعد قضاء المناسك .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَتِهِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِدَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولكل أمة جعلنا منسكاً) قرأ حمزة ، والكسائي ، وبعض

أصحاب أبي عمرو بكسر السين ، وقرأ الباقون بفتحها . فن فتح أراد المصدر ، من تَسَكَ يَتَسَكُ ، ومن كسر أراد مكان التَسَك كالمجلس والمطبخ . ومعنى الآية : لكل جماعة مؤمنة من الأمم السالفة جعلنا ذبح القرابين (ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) ، وإنما خص بهيمة الأنعام ، لأنها المشروعة في القرب . والمراد من الآية : أن الذبائح ليست من خصائص هذه الأمة ، وأن التسمية عليها كانت مشروعة قبل هذه الأمة .

قوله تعالى : (فَالْهَيْكَلُ إِلهٌ وَاحِدٌ) أي : لا ينبغي أن تذكروا على ذبائحكم سواه (فله أسدوا) أي : انقادوا واخضعوا . وقد ذكرنا معنى الإخبات في (هود : ٢٣) وكذلك ألفاظ الآية التي تلي هذه .

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (وَالْبُدْنَ) وقرأ الحسن ، وابن يعمر برفع الدال . قال الفراء : يقال : بُدُنٌ وَبُدُنٌ ، والتخفيف أجود وأكثر ، لأن كل جمع كان واحده على « فعلة » ثم ضم أول جمعه ، خُفِّفَ ، مثل أكمة وأكمت ، وأجفة وأجمت ، وخشبة وخشب . وقال الزجاج : « الْبُدْنَ » منصوبة بفعل مضمر يفسره الذي ظهر ، والمعنى : وجعلنا البدن ؛ وإن شئت رفعتها على الاستئناف ، والنصب أحسن ؛ ويقال : بُدُنٌ وَبُدُنٌ وَبُدْنَةٌ ، مثل قولك : عُمرٌ وَعُمُرٌ وَعُمُرَةٌ ؛ وإنما سميت بدنة ، لأنها تبْدُنُ ، أي : تسمن .

والمفسرين في البدن قولان .

أحدهما : أنها الإبل والبقر ، قاله عطاء .

والثاني : الإبل خاصة ، حكاه الزجاج ، وقال : الأول قول أكثر فقهاء الأئمة . قال القاضي أبو يعلى : البدنة : اسم يختص الإبل في اللغة ، والبقرة تقوم مقامها في الحكم ، لأن النبي ﷺ جعل البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة (١) . قوله تعالى : (جعلناها لكم من شعائر الله) أي : جعلنا لكم فيها عبادة لله ، من سَوَّعها إلى البيت ، وتقليدها ، وإشعارها ، ونحرها ، والإطعام منها ، (لكم فيها خير) وهو النفع في الدنيا والآخرة ، (فاذكروا اسم الله عليها) أي : على نحرها ، (صَوَّافٌ) وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وقناة : « صَوَّافِنَ » بالنون . وقرأ الحسن ، وأبو مجلز ، وأبو العالية ، والضحاك ، وابن يعمر : « صَوَّافِي » بالياء . قال الزجاج : « صَوَّافٌ » منصوبة على الحال ، ولكنها لا تنون لأنها لا تنصرف ؛ أي : قد صفت قوائمها ، والمعنى : اذكروا اسم الله عليها في حال نحرها ، والبعير يُنْحَرُ قائماً ، وهذه الآية تدل على ذلك . ومن قرأ : « صَوَّافِنَ » فالصافن : التي تقوم على ثلاث ، والبعير إذا أرادوا نحره ، تُعْقَلُ إحدى يديه ، فهو الصافن ، والجميع : صَوَّافِنَ . هذا ومن قرأ : « صَوَّافِي » بالياء وبالفتح بغير تنوين ، فتفسيره : خوالص ، أي : خالصة لله لا تشركوا به في التسمية على نحرها أحداً . (فاذا وجبت جنوبها) أي : إذا سقطت إلى الأرض ، يقال : وَجِبَ الحائط وَجْبَةً ،

(١) روى مسلم في صحيحه ، ٩٥٥/٢ عن جابر رضي الله عنه قال : نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة . وفي رواية لأحمد ، والترمذي ، وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنا مع النبي ﷺ فحضر الأضحى ، فذبحنا البقرة عن سبعة ، والبعير عن عشرة . قال الشوكاني في نيل الأوطار ، ١٨٥/٥ : ويشهد له ما في الصحيحين ، من حديث رافع بن خديج أنه ﷺ قسم فعدل عشرأ من الغنم ببعير .

إذا سقط . ووَجِبَ القلبَ وَجيباً : إذا تحرك من فزع . واعلم أن نحرها قياماً
سُنَّةً ، والمراد بوقوعها على جنوبها : موتها ، والأمر بالأكل منها أمر إباحة ،
وهذا في الأضاحي .

قوله تعالى : (وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) وقرأ الحسن : « وَالْمُعْتَرَّ »
بكسر الراء خفيفة . وفيها ستة أقوال .

أحدها : أن القانع : الذي يسأل ، والمعتر : الذي يتعرض ولا يسأل ،
رواه بكر بن عبد الله عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، واختاره الفراء .
والثاني : أن القانع : المتعفف ، والمعتر : السائل ، رواه علي بن أبي طلحة
عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والنخعي . وعن الحسن كالقوانين .

والثالث : أن القانع : المستغني بما أعطيه وهو في بيته ، والمعتر : الذي
يتعرض لك ويُلِمُّ بك ولا يسأل ، رواه العوفي عن ابن عباس . وقال مجاهد :
القانع : جارك الذي يقنع بما أعطيه ، والمعتر : الذي يتعرض ولا يسأل ، وهذا
مذهب القرظي . فعلى هذا يكون معنى القانع : أن يقنع بما أُعطي . ومن قال :
هو المتعفف ، قال : هو القانع بما عنده .

والرابع : القانع : أهل مكة ، والمعتر : الذي يمتد بهم من غير أهل مكة ،
رواه خصيف عن مجاهد .

والخامس : القانع : الجار وإن كان غنياً ، والمعتر : الذي يمتد بك ، رواه
ليث عن مجاهد .

والسادس : القانع : المسكين السائل ، والمعتر : الصديق الزائر ، قاله زيد
ابن أسلم . قال ابن قتيبة : يقال : قنع يقنع قنوعاً : إذا سأل ، وقنع يقنع
زاد السير • م (٢٨)

قَنَاعَةٌ : إذا رضي ، ويقال في المعتر : اعترني واعترائني وعراني . وقال الزجاج :
مذهب أهل اللغة أن القانع : السائل ، يقال : قنع يقنع قنوعاً : إذا سأل ،
فهو قانع ، قال الشماخ :

لَمَالُ الْمَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِيهِ مَفَاقِرَهُ أَعْفُ مِنْ الْقُنُوعِ^(١)

أي : من السؤال ؛ ويقال : قنع قناعة : إذا رضي ، فهو قنع ، والمعتر والمعتري واحد .
قوله تعالى : (كذلك) أي : مثل ما وصفنا من نحرها قاعة (سخرناها لكم)
نعمة منا عليكم لتمكنوا من نحرها على الوجه المسنون (لعلكم تشكرون)
أي : لكي تشكروا .

قوله تعالى : (لن ينال الله لحومها) وقرأ عاصم الجحدري ، وابن يعمر ،
وابن أبي عملة ، ويعقوب : « لن تنال الله لحومها » بالتاء (ولكن تناله التقوى)
بالتاء أيضاً .

سبب نزولها أن المشركين كانوا إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء
ينضحون بها نحو الكعبة ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ، فنزلت هذه الآية ، قاله
أبو صالح عن ابن عباس^(٢) . قال المفسرون : ومعنى الآية : لن تُرفع إلى الله لحومها
ولا دماؤها ، وإنما يُرفع إليه التقوى ؛ وهو ما أُريدَ به وجهه منكم . فمن قرأ « تناله
التقوى » بالتاء ، فانه أنت لفظ التقوى . ومن قرأ : « يناله » بالياء ، فلأن التقوى
والتقى واحد . والإشارة بهذه الآية إلى أنه لا يقبل اللحوم والدماء إذا لم تكن
صادرة عن تقوى الله ، وإنما يقبل ما يتقونه به ، وهذا تنبيه على امتناع قبول الأعمال
إذا عريت عن نيّة صحيحة .

(١) د مجاز القرآن ، : ٥١/٢ ، و الطبري ، : ١٦٨/١٧ ، و القرطبي ، : ٦٤/١٢ ،

و اللسان ، : قنع .

(٢) ذكره السيوطي في الدر ، : ٣٦٣/٤ من رواية ابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس .

قوله تعالى : (كَذَلِكَ سَخَّرَهَا) قد سبق تفسيره [الحج : ٣٧] ، (لَتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ) أي : على ما بين لكم وأرشدكم إلى معالم دينه ومناسك حجته ، وذلك أن يقول : الله أكبر على ما هداانا ، (وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) قال ابن عباس : يعني : الموحدين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ . أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِذَا مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾

قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « يدفع » « ولولا دفع الله » بغير ألف ، وهذا على مصدر « دفع » . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمة ، والكسائي : « إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ » بألف « ولولا دفع » بغير ألف ، وهذا على مصدر « دافع » ، والمعنى : يدفع عن الذين آمنوا غائلة المشركين عنهم منهم ونصرهم عليهم . قال الزجاج : والمعنى : إذا فعلتم هذا وخالفتم الجاهلية فيما يفعلونه من نحرهم وإشراكهم ، فإن الله يدفع عن حزبه . وال « خَوَّانٍ » فعال من الخيانة ، والمعنى : أن من ذكر غير اسم الله ، وتقرَّب إلى الأصنام بذيخته ، فهو خَوَّان .

قوله تعالى : (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظَلَمُوا) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ،

وحمزة ، والكسائي : « أُذِنَ » بفتح الألف . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر ، وحفص عن عاصم : « أُذِنَ » بضمها .
 قوله تعالى : (الَّذِينَ يقاتلون) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ؛ وأبو بكر عن عاصم : بكسر التاء . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : بفتحها . قال ابن عباس : كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فيقول لهم : « اصبروا ، فاني لم أؤمر بالقتال » حتى هاجر رسول الله ﷺ ، فأنزل الله هذه الآية ، وهي أول آية أنزلت في القتال ^(١) . وقال مجاهد : هم ناس خرجوا من مكة مهاجرين ، فأدركهم كفار قريش ، فأذن لهم في قتالهم . قال الزجاج : معنى الآية : أذن الذين يقاتلون أن يقاتلوا . (بأنهم ظلموا) أي : بسبب ما ظلموا . ثم وعدم النصر بقوله : (وإن الله على نصرهم لقدير) ولا يجوز أن تقرأ بفتح « إن » هذه من غير خلاف بين أهل اللغة ، لأن « إن » إذا كانت معها اللام ، لم تُفتح أبداً . وقوله : (إلا أن يقولوا ربنا الله) معناه : أخرجوا لتوحيدهم . قوله تعالى : (ولولا دفع الله الناس) قد فرنا في (البقرة : ٢٥١) . قوله تعالى : (لهدمت) قرأ ابن كثير ، ونافع : « كهدمت » خفيفة ، والباقون بتشديد الدال .

فأما الصوامع ، ففيها قولان .
 أحدهما : أنها صوامع الرهبان ، قاله ابن عباس ، وأبو العالية ، ومجاهد ، وابن زيد .
 والثاني : أنها صوامع الصابئين ، قاله قتادة ، وابن قتيبة .
 فأما البيع ، فهي جمع بيعة ، وهي بيع النصارى .

(١) « أسباب النزول » للواحد صفحة ١٧٧ بدون سند ، وذكره كثير من المفسرين هكذا بدون سند . وذكره ابن كثير في « البداية والنهاية » : ١٦٤/٣ في بيعة العقبة الثانية من رواية ابن إسحاق عن عبد الله بن كعب بن مالك .

وفي المراد بالصلوات قولان .

أحدهما : مواضع الصلوات . ثم فيها قولان . أحدهما : أنها كنائس اليهود ، قاله قتادة ، والضحاك ، وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي ، قال : قوله : (وصلوات) هي كنائس اليهود ، وهي بالعبرانية « صلوتا » . والثاني : أنها مساجد الصابئين ، قاله أبو العالية .

والقول الثاني : أنها الصلوات حقيقة ، والمعنى : لولا دفع الله عن المسلمين بالمجاهدين ، لانتقطعت الصلوات في المساجد ، قاله ابن زيد .

فأما المساجد ، فقال ابن عباس : هي مساجد المسلمين . وقال الزجاج : معنى الآية : لولا دفع بعض الناس ببعض الهدمت في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفي زمن محمد المساجد .

وفي قوله : (بذكرُ فيها اسم الله) قولان .

أحدهما : أن الكناية ترجع إلى جميع الأماكن المذكورات ، قاله الضحاك . والثاني : إلى المساجد خاصة ، لأن جميع المواضع المذكورة ، الغالب فيها الشرك ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ) أي : من ينصر دينه وشرعه . قوله تعالى : (الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ) قال الزجاج : هذه صفة ناصريه . قال المفسرون : التمكين في الأرض : نصرتهم على عدوهم ، والمعروف : لا إله إلا الله ، والمنكر : الشرك . قال الأكثرون : وهوؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ . وقال القرظي : هم الولاة .

قوله تعالى : (وَلله عاقبة الأمور) أي : إليه مرجعها ، لأن كل ملك يبطل سوى ملكه .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ
وَتَمُودُ . وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ
مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُمُ الْكَافِرِينَ لِيَأْخُذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ .
فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ
عُرُوشِهَا وَيَبْئُرُ الْمُعْطَلَةُ وَفَصَّرَ مَشِيدِ ﴾

قوله تعالى : (ثم أخذتهم) أي : بالعباد (فكيف كان نكير) أثبت
الياء في « نكير » يعقوب [في الحالين] ، ووافقه ورش في إثباتها في الوصل ، والمعنى :
كيف [أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب بالإهلاك ؟] والمعنى : [إنني] أنكرت
عليهم أبلغ إنكار ، وهذا استفهام معناه التقرير .

قوله تعالى : (أهلكتها) قرأ أبو عمرو : « أهلكتها » بالثاء ، والباقون :
« أهلكتها » بالنون .

قوله تعالى : (وبئر معطلة) قرأ ابن كثير ، [وعاصم] ، وأبو عمرو ،
وابن عامر ، وحمة ، والكسائي : « وبئر » مهموز . وروى ورش عن نافع بغير همز ،
والمعنى : وكم بئر معطلة ، أي : متروكة (وقصر مشيد) فيه قولان .

أحدهما : محصص ، قاله ابن عباس ، وعكرمة . قال الزجاج : أصل الشيد :
الخص والثورة ، وكل ما بني بهما أو بأحدهما فهو مشيد .

والثاني : طويل ، قاله الضحاك ، ومقاتل . وفي الكلام إضمار ، تقديره :
وقصر مشيد معطل أيضاً ليس فيه ساكن .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ
بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَتَنْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَنمَى
الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ . وَيَسْتَمْجِلُونكَ بِالْعَذَابِ وَلَئِن

يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ .
وَكَايِنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا إِلَيْهَا
الْمَصِيرُ ﴿

قوله تعالى : (أفلم يسيروا) قال المفسرون : أفلم يسر قومك في أرض
اليمن والشام (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) إذا نظروا آثار من هلك
(أو آذان يسمعون بها) أخبار الأمم المكذبة (فانها لانعى الأَبصار) قال
الفراء : الهاء في قوله : « فانها » عماد ، والمعنى : أن أبصارهم لم نعم ، وإنما عميت قلوبهم .
وأما قوله : (التي في الصدور) فهو توكيد ، لأن القلب لا يكون إلا في
الصدر ، ومثله : (تلك عشرة كاملة) [البقرة : ١٩٦] ، (يطير بجناحيه)
[الانعام : ٣٨] ، (يقولون بأفواههم) [آل عمران : ١٦٧] .

قوله تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب) قال مقاتل : نزلت في النضر بن الحارث
القرشي . وقال غيره : هو قولهم له : (متى هذا الوعد) [الملك : ٢٥] ونحوه
من استعجلهم ، (ولن يُخلف الله وعده) في إنزال العذاب بهم في الدنيا ،
فأنزله بهم يوم بدر ، (وإن يوماً عند ربك) أي : من أيام الآخرة (كألف
سنة مما تعدون) من أيام الدنيا . قرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « تعدون »
بالتاء . وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي : « يعدون » بالياء .

فإن قيل : كيف انصرف الكلام من ذكر العذاب إلى قوله : « وإن يوماً
عند ربك » ؟ فغنه جوابان .

أحدهما : أنهم استعجلوا العذاب في الدنيا ، فقيل لهم : لن يخلف الله وعده
في إنزال العذاب بكم في الدنيا ، وإن يوماً من أيام عذابكم في الآخرة كألف سنة
من سني الدنيا ، فكيف تستعجلون بالعذاب ؟ ! فقد تضمنت الآية وعدم بعذاب
الدنيا والآخرة ، هذا قول الفراء .

والثاني : وإن يوماً عند الله وألف سنة سواء في قدرته على عذابهم ، فلا فرق بين وقوع ما يستعملونه وبين تأخيره في القدرة ، إلا أن الله تفضل عليهم بالإمهال ، هذا قول الزجاج .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَمَعُوا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

قوله تعالى : (ورزق كريم) يعني به [الرزق] الحسن في الجنة .
قوله تعالى : (والذين سمعوا في آياتنا) أي : عملوا في إبطالها (معاجزين)
قرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمة ، والكسائي : « معجزين » بغير ألف . وقرأ
ابن كثير ، وأبو عمرو : « معاجزين » بألف . قال الزجاج : « معاجزين » أي :
ظانين أنهم يُعجزوننا ، لأنهم ظنوا أنهم لا يُبعثون وأنه لاجنة ولا نار . قال :
وقيل في التفسير : معاجزين : معاندين ، وليس هو بخارج عن القول الأول ؛
و « معجزين » تأويلها : أنهم كانوا يعجزون من اتبع النبي ﷺ وشبّطونهم عنه .
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى
أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ
يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ
فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ
لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
فِيؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى
تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ) الآية . قال المفسرون : سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه سورة (النجم) قرأها حتى بلغ قوله : (أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى) [النجم : ١٩ ، ٢٠] ، فألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرائق العلى ، وإن شفاعتهن لترجي ؛ فلما سمعت قريش بذلك فرحوا ، فأناه جبريل ، فقال : ماذا صنعت ؟ تلوت على الناس ما لم آتِكَ به عن الله ، فحزنت رسول الله ﷺ حزناً شديداً ، فنزلت هذه الآية تطيباً لقلبه ، وإعلاماً له أن الأنبياء قد جرى لهم مثل هذا . قال العلماء المحققون : وهذا لا يصح ^(١) ، لأن رسول الله ﷺ معصوم عن مثل هذا ، ولو صح ، كان المعنى أن بعض شياطين الإنس قال تلك الكلمات ، فانهم كانوا إذا تلا لغوا ، كما قال الله عز وجل : (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) [فصّلت : ٢٦] . قال : وفي معنى « تمنى » قولان .

أحدهما : تلا ، قاله الأكثرون ^(٢) ، وأنشدوا :

(١) قال ابن كثير ٢٢٩/٣ : قد ذكر كثير من الفرير هاهنا قصة الغرائق ، ولكنها من طرق مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح ، والله أعلم ، وسرد ابن كثير بعض الروايات في هذه القصة ، ثم قال في آخرها : وكلها مراسلات ، ومنقطعات والله أعلم . اهـ .
والحق أن روايات هذه القصة مطلة بالارسال والضعف والجهالة ، وليس فيها رواية صحيحة تصلح للاحتجاج ، بل فيها ما لا يليق بمقام النبوة والرسالة ، وُذكر في معظمها أن الشيطان تكلم على لسان رسول الله ﷺ ، فيه مدح لأصنام المشركين بهذه الجملة الباطلة : « تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترجي » ، وكيف يكون مثل ذلك مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله ﷺ ؟ ؛ وذلك ، بل على عدم صحة مثل هذه الروايات سنداً ومتناً . ومن تكلم من العلماء على هذه القصة ويشن بطلانها بكلام طويل ، القاضي أبو بكر ابن العربي ، والقاضي عياض ، والشوكاني ، والآلوسي ، وغيرهم .

(٢) قال الامام ابن القيم في « إغاثة الالهفان » : ٩٣/١ في فصل الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن - بعد أن عدّد وجوهاً - : ومنها أن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه ما أرسل -

تمنى كتاب الله أول ليله وآخره لاقى حمام المقادير^(١)

وقال آخر :

تمنى كتاب الله آخر ليله تمنى داود الزبور على رسل^(٢)

— من رسول ولا نبي ، إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، ثم قال : والسلف كلهم على أن المعنى : إلا إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته ، ثم قال : فإذا كان هذا فمله مع الرسل عليهم السلام ، فكيف بغيرهم ؟ ولهذا يغلط القارىء تارة ، ويخلط عليه القراءة ، ويشوشها عليه ، فيخبط عليه لسانه ، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه ، فإذا حضر عند القراءة ، لم يقدم منه القارىء هذا أو هذا ، وربما جمعها له ، فكان من أم الأمور الاستعاذة بالله تعالى منه . اه . وقال الامام ابن جرير الطبري في « التفسير » ، ١٧/١٩٠ بعد ما ذكر عن الضحاک أن معنى قوله تعالى : (إذا تمنى) : التلاوة والقراءة : وهذا القول أشبه بتأويل الكلام ، بدلالة قوله تعالى : (فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته) على ذلك ، لأن الآيات التي أخبر الله جل ثناؤه أنه يحكمها لا شك أنها آيات تنزيله ، فمعلوم أن الذي ألقى فيه الشيطان ، هو ما أخبر الله تعالى ذكره أنه نسخ ذلك منه وأبطله ، ثم أحكمه بنسخه ذلك منه ، فتأويل الكلام إذن : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تلا كتاب الله وقرأ ، أو حدثت وتكلم ، ألقى الشيطان في كتاب الله الذي تلاه وقرأه ، أو في حديثه الذي حدثت وتكلم (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) ، بقول تعالى : فيذهب الله ما يلقي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله . اه .

فهذا هو المعنى المراد من الآية الكريمة ، وليس فيها إلا أن الشيطان يلقي عند تلاوة النبي ﷺ للقرآن ما يفتن به الذين في قلوبهم مرض ، ولكن أعداء الاسلام ما فتنوا دائماً بدسون في هذا الدين ما ليس منه ، وما لم يقبله رسول الاسلام محمد عليه الصلاة والسلام ، فيذكرون ما لا يليق بمنصب النبوة ومقام الرسالة ، كما فعلوا في كثير من الآيات الواردة في غير نبينا محمد ﷺ ، كيوسف ، وأيوب ، وداود ، وسليمان عليهم السلام ، فيذكرون في تفسيرها من الاسرائيليات التي لا يجوز نسبتها لأحد الناس ، فضلاً عن نبي مرسل ، أو رسول مقدم ، فليتنبه المسلمون لذلك ، وليأخذوا التفسير من العلماء المحققين حتى لا يرموا الأنبياء والمرسلين فيما هم منه معصومون .

(١) « مجاز القرآن » : ٥٤/٢ ، و « اللسان » ، و « التاج » : مني .

(٢) « مجاز القرآن » : ٥٤/٢ ، و « اللسان » ، و « التاج » : مني .

والثاني : أنه من الأُمنية ، وذلك أن رسول الله ﷺ تمنى يوماً أن لا يأتيه من الله شيء ينفر عنه به قومه ، فألقى الشيطان على لسانه لما كان قد تمناه ، قاله محمد بن كعب القرظي (١) .

قوله تعالى : (فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ) أي : يُبطله ويُبذبه (ثم يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ) قال مقاتل : مُحْكِمُهَا مِنَ الْبَاطِلِ .

قوله تعالى : (لِيَجْعَلَ) اللام متعلقة بقوله : « ألقى الشيطان » ، والفتنة هاهنا بمعنى البلية والمحنة . والمرضُ : الشك والنفاق . (والقاسية قلوبهم) يعني : الجافية عن الإيمان . ثم أعلمه أنهم ظالمون وأنهم في شقاق دائم ، والشقاق : غاية العداوة .

قوله تعالى : (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) وهو التوحيد والقرآن ، وهم المؤمنون . وقال السدي : التصديق بنسخ الله .

قوله تعالى : (أَنَّهُ الْحَقُّ) إشارة إلى نسخ ما يلقي الشيطان ؛ فالمعنى : ليعلموا أن نسخ ذلك وإبطاله حق من الله (فيؤمنوا) بالنسخ (فتُخْشِيتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ) أي : تخضع وتذلل . ثم يسن بياقي الآية أن هذا الإيمان والإخبات إنما هو بلطف الله وهدايته .

(١) هذه الرواية من جملة الروايات التي تكلم عليها العلماء المحققون ، وبينوا بطلانها ، وأنه لا يجوز نسبتها إلى آحاد الناس ، فضلاً عن رسول الله ﷺ المعصوم . وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي : تأملوا فتح الله أغلاق النظر عنكم إلى قول الرواة - الذين هم بجملهم أعداء على الإسلام أكثر ممن صرح بعداوتهم - إن النبي ﷺ لما جلس مع قريش تمنى أن لا ينزل عليه من الله وحى ، فكيف يجوز إن معه أدنى مسكة أن يخطر بباله أن النبي ﷺ آثر وصل قومه على وصل ربه ، وأراد أن لا يقطع إنسه بهم بما ينزل عليه من عند ربه من الوحي الذي كان حياة جسده وقلبه ، وأنس وحشته ، وغاية أمنيته ، وكان رسول الله ﷺ أجود الناس ، فإذا جاءه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، أفيؤثر على هذا مجالسته للأعداء ؟ !

قوله تعالى : (في مِرْيَةٍ مِنْهُ) أي : في شك .

وفي هاء « مِنْهُ » أربعة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى قوله : تلك الغرائيق العلى ^(١) . والثاني : أنها ترجع إلى سجوده في سورة (النجم) . والقولان عن سعيد بن جبير ، فيكون المعنى : إنهم يقولون : ما باله ذكر آلهتنا ثم رجع عن ذكرها ؟ والثالث : أنها ترجع إلى القرآن ، قاله ابن جريج . والرابع : أنها ترجع إلى الدين ، حكاه الثعالبي ^(٢) .

قوله تعالى : (حتى تأتيهم الساعة) وفيها قولان .

أحدهما : القيامة تأتي من تقوم عليه من المشركين ، قاله الحسن .

والثاني : ساعة موتهم ، ذكره الواحدي .

قوله تعالى : (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) فيه قولان .

أحدهما : أنه يوم بدر ، روي عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي .

والثاني : أنه يوم القيامة ، قاله عكرمة ، والضحاك . وأصل العقم في الولادة ،

يقال : امرأة عقيم لا تلد ، ورجل عقيم لا يولد له ، وأنشدوا :

عُقِمَ النِّسَاءُ وَلَا يَلِدْنَ شَبِيهَهُ إِنَّ النِّسَاءَ بِمِثْلِهِ عُقِمُ ^(٣)

(١) مضى الكلام على قصة الغرائيق قبل قليل ، وأنها باطلة .

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٧/١٩٢ : وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال :

هي كناية من ذكر القرآن الذي أحكم الله آياته ، وذلك أن ذلك من ذكر قوله : (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك) أقرب منه من ذكر قوله : (فينسخ الله ما يلقى الشيطان)

والهاء من قوله : « أنه » من ذكر القرآن ، فالخاف الهاء في قوله : « في مِرْيَةٍ مِنْهُ » بالهاء

من قوله : « أنه الحق من ربك » أولى من إلحاقها بـ « ما » التي في قوله : « ما يلقى الشيطان »

مع بُعد ما بينها . اهـ .

(٣) « اللسان » ، و « التاج » : عقم .

وسميت الريح العقيم بهذا الاسم ، لأنها لا تأتي بالسحاب المطر ، فقيل لهذا اليوم : عقيم ، لأنه لم يأت بخير .

فعلى قول من قال : هو يوم بدر ، في تسميته بالعقيم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه لم يكن فيه للكفار بركة ولا خير ، قاله الضحاك .

والثاني : لأنهم لم ينظروا فيه إلى الليل ، بل قتلوا قبل المساء ، قاله ابن جريج .

والثالث : لأنه لا مثل له في عظم أمره ، لقتال الملائكة فيه ، قاله يحيى

ابن سلام .

وعلى قول من قال : هو يوم القيامة ، في تسميته بذلك قولان .

أحدهما : لأنه لا ليلة له ، قاله عكرمة .

والثاني : لأنه لا يأتي المشركين بخير ولا فرج ، ذكره بعض المفسرين .

﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَلَبُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (الملْكُ يومئذ) أي : يوم القيامة (لله) من غير منازع

ولا مدع (يحكم بينهم) أي : بين المسلمين والمشركين ؛ وحكمه بينهم بما ذكره

في تمام الآية وما بعدها . ثم ذكر فضل المهاجرين فقال : (والذين هاجروا في

سبيل الله) أي : من مكة إلى المدينة .

وفي الرزق الحسن قولان .

أحدهما : أنه الحلال ، قاله ابن عباس . والثاني : رزق الجنة ، قاله السدي .
 قوله تعالى : (ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا) وقرأ ابن عامر : « قُتِلُوا » بالتشديد .
 قوله تعالى : (لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا) [وقرأ نافع بفتح الميم] (يرضونه)
 يعني : الجنة . والمدخل يجوز أن يكون مصدراً ، فيكون المعنى : لِيُدْخِلَنَّهُمْ
 إِدْخَالَ بُكْرَمُونَ به فيرضونه ؛ ويجوز أن يكون بمعنى المكان . و « مَدْخَلًا »
 بفتح الميم على تقدير : فيدخلون مدخلاً . (وإن الله لعليم) ببيتهم (حلیم) عنهم .
 ﴿ ذَلِكِ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ
 لِيَتُصَّرَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . ذَلِكِ بِأَنَّ اللهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ
 فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . ذَلِكِ
 بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ
 هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

قوله تعالى : (ذلك) قال الزجاج : المعنى : الأمر ذلك ، أي : الأمر
 ما قصصنا عليكم (ومن عاقب بمثل ما عوقب به) والعقوبة : الجزاء ؛ والأول
 ليس بعقوبة ، ولكنه سمي عقوبةً ، لاستواء الفعلين في جنس المكروه ، كقوله :
 (وجزاء سيئةً سيئةً مثلها) [الثورى : ٤٠] لما كانت المجازاة إساءة بالمفعول به
 سميت سيئةً ، ومثله : (الله يستهزئ بهم) [البقرة : ١٥] ، قاله الحسن .
 ومعنى الآية : من قاتل المشركين كما قاتلوه (ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ) أي : ظلم
 باخراجه عن منزله . وزعم مقاتل أن سبب نزول هذه الآية أن مشركي مكة
 لقوا المسلمين لليلة بقيت من المحرم ، فقاتلهم ، فنادم المسلمون أن لا يقاتلهم في
 الشهر الحرام ، فأبوا إلا القتال ، فثبت المسلمون ، ونصرهم الله على المشركين ،

ووقع في نفوس المسلمين من القتال في الشهر الحرام ، فنزلت هذه الآية ^(١) ،
 وقال : (إن الله لعفوٌ) عنهم (غفور) لقتالهم في الشهر الحرام .
 قوله تعالى : (ذلك) أي : ذلك النصر (بأن الله) القادر على ما يشاء .
 فمن قدرته أنه (يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل وأن الله سميع)
 لدعاء المؤمنين (بصير) بهم حيث جعل فيهم الإيمان والتقوى ، (ذلك) الذي
 فعل من نصر المؤمنين (بأن الله هو الحق) أي : هو الإله الحق (وأن ما يدعون)
 قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحزمة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « يدعون »
 بالياء . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : بالتاء ، والمعنى : وأن
 ما يعبدون (من دونه هو الباطل) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ
 مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

قوله تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً) يعني : المطر (فتصبح
 الأرض مخضرة) بالنبات . وحكى الزجاج عن الخليل أنه قال : معنى الكلام
 التنبيه ، كأنه قال : أسمع ، أنزل الله من السماء ماءً فكان كذا وكذا . وقال
 ثعلب : معنى الآية عند الفراء خبر ، كأنه قال : اعلم أن الله ينزل من السماء
 ماءً فتصبح ، ولو كان استفهاماً والفاء شرطاً لنصبه .

قوله تعالى : (إن الله لطيف) أي : باستخراج النبات، من الأرض رزقاً
 لعباده (خبير) بما في قلوبهم عند تأخير المطر . وقد سبق معنى الغني الحميد في
 (البقرة : ٢٦٧) .

(١) ذكره السيوطي في الدر ، : ٣٦٩/٤ من رواية ابن أبي حاتم عن مقاتل .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ وَأَلْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ . وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾

قوله تعالى : (ألم تر أن الله سخر لكم مافي الأرض) يريد البهائم التي تركب (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) قال الزجاج : كراهة أن تقع . وقال غيره : لئلا تقع (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) فيما سخر لهم وفيما حبس عنهم من وقوع السماء عليهم . (وهو الذي أحياكم) بعد أن كنتم نطفاً ميتة (ثم يميتكم) عند آجالكم (ثم يحييكم) للبعث والحساب (إن الإنسان) يعني : المشرك (لكفور) لنعم الله إذ لم يوحده .

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لَّهُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٌ . وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ . اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (لكل أمة جعلنا منسكاً) قد سبق بيانه في هذه السورة [الحج : ٣٤] (فلا ينازعك في الأمر) أي : في الذبائح ^(١) ، وذلك أن

(١) قال ابن جرير الطبري ١٧/١٩٩ : بقول تعالى ذكره : فلا ينازعك هؤلاء المشركون بالله باعده في ذبحك ومنسكك بقولهم : أنا ناكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون الميتة التي قتلها الله ؟ فانك أولى بالحق منهم ، لأنك محق وهم مبطلون .

كفار قريش وخزاعة خاصموا رسول الله ﷺ في أمر الذبيحة ، فقالوا : كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله (١) ؟ ! يعنون : الميتة .

فان قيل : إذا كانوا هم المنازعين له ، فكيف قيل : « فلا يُنازِعُكَ »

في الأمر ؟

فقد أجاب عنه الزجاج ، فقال : المراد : النهي له عن منازعتهم ، فالمعنى : لا تنازعهم ، كما تقول الرجل : لا يخاصمك فلان في هذا أبداً ، وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون إلا من اثنين ، لأن المجادلة والمخاصمة لا تتم إلا باثنين ، فإذا قلت : لا يجادلنك فلان ، فهو بمنزلة : لا تجادلنّه ، ولا يجوز هذا في قولك : لا يضربنك فلان وأنت تريد : لا تضربنّه ، | ولكن | لو قلت : لا يضاربنك فلان ، اكان كقولك : لا تضاربن ، ويدل على هذا الجواب قوله : (وإن جادلوك) .

قوله تعالى : (وادع إلى ربك) أي : إلى دينه والإيمان به (٢) . و « جادلوك » بمعنى : خصموك في أمر الذبائح ، (فقل الله أعلم بما تعملون) من التكذيب ، فهو يجازيكم به . (الله يحكم بينكم يوم القيامة) أي : يقضي بينكم (فيما كنتم

(١) رواه الطبري بنحوه : ١٦/٨ ، ١٧ ، وذكره السيوطي في الدر ، : ٤٢/٣ ، في سورة (الأنعام : ١٢٢) عند قوله تعالى : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق . . .) الآية . وقد تقدم نحو ذلك في الجزء ١١٤/٣ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : ١٩٩/١٧ : يقول تعالى ذكره : وادع يا محمد منازعيك من المشركين بالله في نسكك وديحك إلى اتباع أمر ربك في ذلك بالألا تأكلوا إلا ما ذبحوه بعد اتباعك ، وبعد اتصديق بما جنتهم به من عند الله ، وتجنبوا الذبائح والآلهة والأوثان ، وتبرؤوا منها ، إنك أملي طريق مستقيم ، غير زائل عن حجة الحق والصواب في نسكك الذي جهه لك ولأمتك ربك ، وهم الضلال عن قصد السبيل ، لخافتهم أمر الله في دبتهم ومطاعهم وعبادتهم الآلهة .

راد السير ه (٢٩)

فيه تختلفون) من لدين ، أي : تذهبون إلى خلاف ما ذهب إليه المؤمنون ؛ وهذا أدب حسن علمه الله عباده ليردوا به من جادل على سبيل التعنت ، ولا يجيبوه ، ولا يناظروه .

﴿ فصل ﴾

قال أكثر المفسرين : هذا نزل قبل الأمر بالقتال ، ثم نسخ بآية السيف . وقال بعضهم : هذا نزل في حق المنافقين ، كانت نظر من أقوالهم وأفعالهم فلتات تدل على شركهم ، ثم يجادلون على ذلك ، فوكل أمرهم إلى الله تعالى ، فالآية على هذا محكمة .

قوله تعالى : (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض) هذا استفهام يراد به التقرير ؛ والمعنى : قد علمت ذلك ، (إن ذلك) يعني ما يجري في السموات والأرض (في كتاب) يعني : اللوح المحفوظ ^(١) ، (إن ذلك) أي : علم الله بجميع ذلك (على الله يسير) سهل لا يتعذر عليه العلم به .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ . وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِذُنُوبٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ تُبْشِرُونَ بِذُنُوبِكُمْ أَلَيْسَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ يَّاتِيهِمْ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَارْتَبِعُوا صُلُوبَكُمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ أَلْقَوْهُم بِالْحَيِّطِ الْمَكْفُوفِ الَّذِي يَحْتَدُّ الْمَاءَ لَمِثْلُ النِّعْتِ الْمَقْنُونِ أَلَيْسَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا نَارُ الْجَهَنَّمَ أَلْوَنًا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾

(١) روى مسلم في صحيحه ٢٠٤٤/١ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة - قال : - وعرشه على الماء . »

قوله تعالى : (وَيُعْبُدُونَ) يعني : كفار مكة (ما لم ينزل به سلطاناً) أي : حجة (وما ليس لهم به علم) أنه إله ، (وما للظالمين) يعني : المشركين (من نصير) أي : مانع من العذاب . (وإذا نُتلى عليهم آياتنا) يعني القرآن ؛ والمنكر هاهنا بمعنى الإنكار ، فالمعنى : أثر الإنكار من الكراهة ، وتعبير الوجوه ، معروف عندهم . (يكادون يسقطون) أي : يبطشون ويوقعون بمن يتلو عليهم القرآن من شدة الغيظ ، يقال : سطا عليه ، وسطا به : إذا تناوله بالعنف والشدة . (قل) لهم يا محمد : (أفأنبتكم بشر من ذلكم) أي : بأشدّ عنكم وأكره إليكم من سماع القرآن ، ثم ذكر ذلك فقال : (النار) أي : هو النار .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْتَنْبِئُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْبِئُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الظَّالِمُ وَاطْمَأْوَءُ الْمُقَدِّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ) قال الأخفش : إن قيل : أين المثل ؟

فالجواب : أنه ليس هاهنا مثل ، وإنما المعنى : يا أيها الناس ضُرِبَ لي مثل ، أي : شبهت بي الأوثان (فاستمعوا) لهذا المثل . وتأويل الآية جميع المشركون الأصنام شركائي فعبدوها معي فاستمعوا حاشاً ؛ ثم بين ذلك بقوله : (إن الذين تدعون) أي : تعبدون (من دون الله) ، وقرأ ابن عباس ، وهورزين ، وابن أبي عمير : « يدعون » بالياء المفتوحة وقرأ ابن السكيت ، وأبو رجا ، وعاصم الجحدري : « يدعون » بضم الياء وفتح العين ، يعني : الأصنام . (لن يخلقوا ذبَابًا) ولذبَاب واحد . واجمع القليل : أذبة ، والكثير : الذبَابان ، مثل :

غُرَابٍ وَأَغْرِبَةَ وَغَيْرَ بَانَ : وَقِيلَ : إِنَّمَا خَصَّ الذُّبَابَ لِمَبَاتِهِ وَاسْتِقْدَارِهِ وَكَثْرَتِهِ .
 (وَلَوْ اجْتَمَعُوا) يَعْنِي : الْأَصْنَامَ (لَهُ) أَي : لِخَلْقِهِ ، (وَإِنْ يَسْلِبُهُمْ) يَعْنِي :
 الْأَصْنَامَ ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانُوا يَطْلُونَ أَصْنَامَهُمْ بِالزُّعْفَرَانِ فَيَجْفَى ، فَيَأْتِي الذُّبَابُ
 فَيَخْتَلِسُهُ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : كَانُوا إِذَا ضَيَّبُوا أَصْنَامَهُمْ عَجَنُوا طَبِيبَهُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْحُلُوهِ ،
 كَالعسلِ وَنَحْوِهِ ، فَيَقَعُ عَلَيْهَا الذُّبَابُ فَيَسْلِبُهَا إِيَّاهُ ، فَلَا تَسْتَطِيعُ الْآلِهَةُ وَلَا مَنْ
 عِنْدَهَا أَنْ يَنْعَمَ ذَلِكَ . وَقَالَ السُّدِّيُّ : كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلْآلِهَةِ طَعَامًا ، فَيَقَعُ الذُّبَابُ
 عَلَيْهِ فَيَأْكُلُ مِنْهُ . قَالَ تَعَلَّبَ : وَإِنَّمَا قَالَ : (لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ) فَجَعَلَ أفعالَ الْآلِهَةِ
 كَأفعالِ الْآدَمِيِّينَ ، إِذْ كَانُوا يَعْظِمُونَهَا وَيَذْبَحُونَ لَهَا وَتُخَاطَبُ ، كَقَوْلِهِ : (يَا أَيُّهَا
 النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ [انعم : ١٨] لَمَّا خَاطَبَهُمْ جَعَلَهُمْ كَالْآدَمِيِّينَ ، وَمِثْلُهُ : (رَأَيْتُمْ
 لِي سَاجِدِينَ) [يوسف : ٤] ، وَقَدْ يَدْنَى هَذَا الْمَعْنَى فِي (الْأَعْرَافِ : ١٩١) عِنْدَ
 قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَهُمْ يُخَلِّقُونَ) .

قوله تعالى : (ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ .

أحدها : أَنَّ الطَّالِبَ : الصَّنَمَ ، وَالْمَطْلُوبَ : الذُّبَابَ ، رَوَاهُ عَطَاءٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ .
 وَالثَّانِي : الطَّالِبُ : الذُّبَابُ يَطْلُبُ مَا يَسْلُبُهُ مِنَ الطَّيِّبِ الَّذِي عَلَى الصَّنَمِ ،
 وَالْمَطْلُوبُ : الصَّنَمُ يَطْلُبُ الذُّبَابَ مِنْهُ سَلْبًا مَا عَلَيْهِ ، رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا .
 وَالثَّلَاثُ : الطَّالِبُ : عَابِدُ الصَّنَمِ يَطْلُبُ التَّقَرُّبَ بِعِبَادَتِهِ ، وَالْمَطْلُوبُ : الصَّنَمُ ،
 هَذَا مَعْنَى قَوْلِ الضَّحَّاكِ ، وَالسُّدِّيِّ (١) .

(١) قَالَ ابْنُ حَرِيرٍ الطَّاهِرِيُّ : ٣٠٣/١٧ : وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا ، مَا ذَكَرْتُهُ
 عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ أَنَّ مَعْنَاهُ : وَعَجَزَ الطَّالِبُ ، وَهُوَ الْآلِهَةُ ، أَنَّ تَسْتَنْقِذَ مِنَ الذُّبَابِ مَا سَلِبُهَا إِيَّاهُ ،
 وَهُوَ الطَّالِبُ وَمِثْلُهُ ، وَالْمَطْلُوبُ : الذُّبَابُ .
 قَالَ : وَإِنَّمَا هَلَّتْ : هَذَا الْقَوْلُ أَوْلَى بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ ، لِأَنَّ ذَلِكَ فِي سَبَاقِ الْخَبَرِ عَنِ الْآلِهَةِ —

قوله تعالى : (ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) أي : ما عظّموه حقَّ عظمتِهِ . إذ جعلوا هذه الأصنام شركاء له (إن الله لقويّ) لا يُقهر (عزّز) لا يُرام .

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

قوله تعالى : (الله يصطفي من الملائكة رسلاً) كجبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت ، (ومن الناس) الأنبياء المرسلين ، (إن الله سميع) لمقالة العباد (بصير) عن بتخذه رسولاً . وزعم مقاتل أن هذه الآية نزلت حين قالوا : « أُنزل عليه الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » [ص : ٨] .

قوله تعالى : (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) الإشارة إلى الذين اصطفاهم ؛ وقد بيّنّا معنى ذلك في آية الكرسي [البقرة : ٢٥٥] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

— والذباب ، فإن يكون ذلك خبراً عما هو به متصل ، أشبه من أن يكون خبراً عما هو عنه منقطع ، وإغنا أخبر جل ثناؤه عن الآلهة بما أخبر به عنها في هذه الآية من ذهابها ومهاتها ، تقريباً منه بذلك عبودتها من مشركي قريش ، يقول تعالى ذكره : كيف يجعل لي مثل في العبادة ، ويشرك فيها معي ما لا قدرة له على خلق ذباب ، وإن أخذ له الذباب وسلبه شيئاً عليه ، لم يقدر أن يمنع منه ولا ينتصر ، وأنا الخالق ما في السموات والأرض ، وما لك جميع ذلك ، والمهي من أردت ، والمعبود ما أردت ومن أردت ؟ ! إن فاعل ذلك لا شك أنه في عابَةِ الجبل .

قوله تعالى : (اركعوا واسجدوا) قال المفسرون : المراد : سألوا ، لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود ، (واعبدوا ربكم) أي : وحدوه (وافعلوا الخير) يريد : أبواب المعروف (لعلكم تفلحون) أي : لكي تسمدوا وتبقوا في الجنة .

فصل في الحج

لم يختلف أهل العلم في السجدة الأولى من (الحج) واختلفوا في هذه السجدة الأخيرة ؛ فروي عن عمر ، وابن عمر ، وعمار ، وأبي الدرداء ، وأبي موسى ، وابن عباس ، أنهم قالوا : في (الحج) سجدتان ، وقالوا : فضلت هذه السورة على غيرها بسجدتين ، وبهذا قال أصحابنا ، وهو مذهب الشافعي رضي الله عنه . وروي عن ابن عباس أنه قال : في (الحج) سجدة ، وبهذا قال الحسن ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم ، وجابر بن زيد ، وأبو حنيفة وأصحابه ، ومالك ؛ ويدل على الأول ماروي عقبة بن عامر ، قال : قلت : يا رسول الله أفى (الحج) سجدتان ؟ قال : « نعم ، ومن لم يسجدها فلا يقرأها »^(١) .

(١) رواه الامام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، من حديث عبد الله بن طهبة به ، وقال الترمذي : ليس بقوي . قال ابن كثير : وفي هذا نظر ، فإن ابن طهبة قد صرح فيه بالسجدة ، وأكثر ما تقدموا عليه تدايهه ، ثم قال ابن كثير : وقد رواه أبو داود في المراسيل ، عن خالد بن معدان رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال : « فضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين » ، ثم قال أبو داود : وقد أسند هذا ، يعني من غير هذا الوجه ، ولا يصح . قال ابن كثير : وقال الحافظ أبو بكر الاسماعيلي : حدثني ابن أبي داود ، حدثنا يزيد بن عبد الله ، حدثنا الوليد ، حدثنا أبو عمرو ، حدثنا حفص بن غياث ، حدثني نافع ، قال : حدثني أبو الحزم أن عمر سجد سجدتين في الحج وهو بالجابية ، وقال : إن هذه فضلت بسجدتين ، قال : —

﴿ فصل ﴾

واختلف العلماء في عدد سجود القرآن ، فروي عن أحمد روايتان ، إحداهما : أنها أربع عشرة سجدة . وبه قال الشافعي ، والثانية : أنها خمس عشرة ، فزاد سجدة (ص : ٢٤) . وقال أبو حنيفة : هي أربع عشرة ، فأخرج التي في آخر (الحج) وأبدل منها سجدة (ص : ٢٤) .

﴿ فصل ﴾

وسجود التلاوة سنة ، وقال أبو حنيفة : واجب . ولا يصح سجود التلاوة إلا بتكبيرة الإحرام والسلام ، خلافاً لأصحاب أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي . ولا يجزئ الركوع عن سجود التلاوة ، وقال أبو حنيفة : يجزئ . ولا يسجد المستمع إذا لم يسجد التالي ، نص عليه أحمد رضي الله عنه . وتكره قراءة السجدة في صلاة الإخفات ، خلافاً للشافعي .

قوله تعالى : (وجاهدوا في الله) في هذا الجهاد ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه فعل جمع الطاعات ، هذا قول الأكثرين . والثاني : أنه جهاد الكفار ، قاله الضحاك . والثالث : أنه جهاد النفس والهوى ، قاله عبد الله بن المبارك . فأما حق الجهاد ، ففيه ثلاثة أقوال .

— وروى أبو داود ، وابن ماجه ، من حديث الحارث بن سعيد المثنقي عن عبد الله بن مثنى عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدة ، قال ابن كثير : فهذه شواهد يشد بعضها بعضاً .

أحدها : أنه الجِدُّ في المجاهدة ، واستيفاء الإمكان فيها . والثاني : أنه إخلاص النبية لله عز وجل . والثالث : أنه فعل مافيه وفاء لحق الله عز وجل .

﴿ فصل ﴾

وقد زعم قوم أن هذه الآية منسوخة ، واختلفوا في ناسخها على قولين . أحدهما : قوله : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) . [البقرة : ٢٨٦] . والثاني : قوله : (فاتقوا الله ما استطعتم) [التغابن : ١٦] . وقال آخرون : بل هي مُحْكَمَةٌ ، ويؤكدده القولان الأولان في تفسير حق الجهاد ، وهو الأصح ، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها .

قوله تعالى : (هو اجتباكم) أي : اختاركم واصطفاكم لدينه . والخرج : الضيق ، فما من شيء وقع الإنسان فيه إلا وجد له في الشرع مخرجاً بتوبة أو كفارة أو انتقال إلى رخصة ونحو ذلك . وروي عن ابن عباس أنه قال : الخرج : ما كان على بني إسرائيل من الإصر والشدائد ، وضعه الله عن هذه الأمة .

قوله تعالى : (ملئة أيكم) قال الفراء : المعنى : وسع عليكم كلمة أيكم ، فاذا أقيت الكاف نصبت ، ويجوز النصب على معنى الأمر بها ، لأن أول الكلام أمر ، وهو قوله : « اركعوا واسجدوا » والزموا ملئة أيكم .

فان قيل : هذا الخطاب للمسلمين ، وليس إبراهيم أباً لكليتهم . فالجواب : أنه إن كان خطاباً عاماً للمسلمين ، فهو كالأب لهم ، لأن حرمة وحقه عليهم كحق الولد ، وإن كان خطاباً للمرب خاصة ، فإبراهيم أبو العرب قاطبة ، هذا قول المفسرين . والذي يقع لي أن الخطاب لرسول الله ﷺ ، لأن إبراهيم أبوه ، وأمة رسول الله ﷺ داخلة فيما خوطب به رسول الله .

قوله تعالى : (هو سمّاكم المسلمين) في المشار إليه قولان .

أحدهما : أنه الله عز وجل ، قاله ابن عباس ، وبجاهد ، والجمهور : فعلى هذا في قوله : (من قبل) قولان . أحدهما : من قبل إنزال القرآن سمّاكم بهذا في الكتب التي أنزلها . والثاني : « من قبل » أي : في أم الكتاب ، وقوله : (وفي هذا) أي : في القرآن .

والثاني : أنه إبراهيم عليه السلام حين قال : (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) [البقرة : ١٢٨] : فالمعنى : من قبل هذا الوقت ، وذلك في زمان إبراهيم عليه السلام ، وفي هذا الوقت حين قال : (ومن ذريتنا أمة مسلمة) ، هذا قول ابن زيد .

قوله تعالى : (ليكون الرسول) المعنى : اجتباكم وسمّاكم ليكون الرسول ، يعني محمداً ﷺ (شهيداً عليكم) يوم القيامة أنه قد بلغكم ؛ وقد شرحنا هذا المعنى في (البقرة : ١٤٣) إلى قوله : (وآتوا الزكاة) .

قوله تعالى : (واعتصموا بالله) قال ابن عباس : سألوه أن يعصمكم من كل ما يُسخط ويكره . وقال الحسن : تمسكوا بدين الله ^(١) . وما بعد هذا مشروح في (الأنفال : ٤٠) .

★ ★ ★

(١) قال ابن كثير : (واعتصموا بالله) أي : اعتضدوا بالله ، وتوكلوا عليه ، وتأبّدوا به ، (هو مولاكم) أي : حافظكم ، وناصركم ، ومطافركم على أعدائكم ، (فنعم المولى ونعم النصير) يعني : نعم المولى ونعم النصير من الأعداء . وقال ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى : (فنعم المولى ونعم النصير) : فنعم المولى الله لمن فعل ذلك منكم ، فأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وجاهد في سبيل الله حتى جهاده ، واعتصم به ، ونعم النصير ، يقول : ونعم الناصر هو له على من بغاه بسوء .

سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ .
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ .
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ
هُمُ عَلَىٰ صَدْقَاتِهِمْ حَافِظُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ
يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

سورة المؤمنین مکہ فی قول الجمع .

روی عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لقد
أنزلت علينا عشر آيات من أقامهن دنا الجنة ، ثم قرأ : (قد أفلح المؤمنون)
إلى عشر آيات » ، رواه الحاكم أبو عبد الله في « صحيحه »^(١) . وروى أبو سعيد الخدري

(١) هو جزء من حديث طويل رواه الحاكم ٣٩٢/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، —

عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى حاط حائط الجنة لبينة من ذهب ولبينة من فضة ، وغرس غرسها بيده فقال لها : تكلمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون ، فقال لها : طوبى لك منزل الملك » (١) . قال الفراء : « قد » هاهنا يجوز أن تكون تأكيدياً لفلاح المؤمنين ، ويجوز أن تكون تقريباً للماضي من الحال ، لأن « قد » تقرب الماضي من الحال حتى تلحقه بحكمه ، الأترام يقولون : قد قامت الصلاة ، قبل حال قيامها ، فيكون معنى الآية : إن الفلاح قد حصل لهم وإنهم عليه في الحال . وقرأ أبي بن كعب ، وعكرمة ، وعاصم الجحدري ، وطلحة بن مصرف : « قد أفلح » بضم الألف وكسر اللام وفتح الحاء ، على ما لم يُسم فاعله . قال الزجاج : ومعنى الآية : قد نال المؤمنون البقاء الدائم في الخير . ومن قرأ : « قد أفلح » بضم الألف ، كان معناه : قد أسيروا إلى الفلاح . وأصل الخشوع في اللغة : الخضوع والتواضع .

وفي المراد بالخشوع في الصلاة أربعة أقوال .

أحدها : أنه النظر إلى موضع السجود . روى أبو هريرة قال : كان رسول الله

— وتمتبه الذهبي فقال : مثل عبد الرزاق (أحد الرواة) عن شيخه ذا (وهو يونس بن سليم) فقال : أظنه لا شيء ، والحديث رواه أحمد في « المسند » ، والترمذي في « التفسير » : ١٤٦/٢ ، والنسائي ، وهو ضعيف ، لأن في سنده عندهم ، يونس بن سليم ، وهو مجهول . وقد ذكر هذا الحديث السيوطي في « الدر » : ٢/٥ وزاد نسبه لعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والعقيلي ، والبيهقي في « الدلائل » ، والضياء في « المختارة » ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(١) ذكره ابن كثير : ٢٣٨/٣ من رواية البزار عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً ، قال ابن كثير : ثم قال البزار : لا أعلم أحداً رفعه إلا عدي بن الفضل ، وأيس هو بالحفاظ ، وهو شيخ منقدم الموت .

ﷺ إذا صلى رفع بصره إلى السماء ، فنزلت : « الذين هم في صلاتهم خاشعون »
فنكس رأسه ^(١) . وإلى هذا المعنى ذهب مسلم بن يسار ، وقناة .

والثاني : أنه ترك الالتفات في الصلاة ، وأن تلتين كنفك للرجل المسلم ،
قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

والثالث : أنه السكون في الصلاة ، قاله مجاهد ، وإبراهيم ، والزهري .
والرابع : أنه الخوف ، قاله الحسن .

وفي المراد باللغو هاهنا خمسة أقوال .

أحدها : الشرك ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : الباطل ، رواه
ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث : المعاصي ، قاله الحسن . والرابع : الكذب ،
قاله السدي . والخامس : الشتم والأذى الذي كانوا يسمعون من الكفار ، قاله
مقاتل . قال الزجاج : واللغو : كل لعب ولهو ، وكل معصية فهي مطرحة مُلغاة .
فالمعنى : شغلهم الجيد فيما أمرهم الله به عن اللغو .

قوله تعالى : (للزكاة فاعلون) أي : مؤدئون ، فببر عن التأدية بالفعل ،
لأنه فعل .

قوله تعالى : (إلا على أزواجهم) قال الفراء : « على » بمعنى « من » .
وقال الزجاج : المعنى : أنهم يُلامون في إطلاق ما حُظر عليهم وأُمرُوا بحفظه ، إلا على
أزواجهم (أو مملكت أيمانهم) فانهم لا يُلامون ^(٢) .

(١) رواه الحاكم : ٣٩٣/٢ وقال : هذا حديث صحيح لولا خلاف فيه على محمد (بن

محمد بن سيرين) فقد قيل عنه مرسلًا ، ولم يخرجاه . وتعبه الذهبي فقال : الصحيح أنه

مرسل ، ورواه ابن جرير الطبري : ٢/١٨ عن محمد بن سيرين وعطاء بن أبي رباح مرسلًا .

(٢) قال ابن كثير ٢٣٩/٣ : وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم —

قوله تعالى : (فمن ابغى) أي : طلب (وراء ذلك) أي : سوى الأزواج والملوكات (فأولئك هم المادون) يعني الجائرين الظالمين ، لأنهم قد تجاوزوا إلى ما لا يحل ، (والذين هم لأماناتهم) قرأ ابن كثير : « لأمانتهم » وهو اسم جنس ، والمعنى : للأمانات التي اتُّمِنوا عليها ، فتارة تكون الأمانة بين العبد وبين ربه ، وتارة تكون بينه وبين جنسه ، فعليه مراعاة الكل . وكذلك العهد . ومعنى (راعون) : حافظون . قال الزجاج : وأصل الرعي في اللغة : القيام على إصلاح ما يتولاه الراعي من كل شيء .

قوله تعالى : (على صلواتهم) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « صلواتهم » على الجمع . وقرأ حمزة ، والكسائي : « صلواتهم » على التوحيد ، وهو اسم جنس . والمحافظة على الصلوات : أدائها في أوقاتها .

قوله تعالى : (أولئك هم الوارثون) ذكر السدي عن أشياخه أن الله تعالى يرفع للكفار الجنة ، فينظرون إلى بيوتهم فيها لو أنهم أطاعوا ، ثم تقسم بين المؤمنين فيرثونهم ، فذلك قوله : « أولئك هم الوارثون » . وقد شرحنا هذا في (الأعراف : ٤٣) عند قوله : (أورتموها) ، وشرحنا معنى الفردوس في (الكهف : ١٠٧) .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ ۗ ﴾

— الاستمناه باليد بهذه الآية الكريمة : (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أرواحهم أو مملكت أيانهم فانهم غير ملومين) قال : فهذا الصنيع خارج عن القسمين ، وقد قال الله تعالى : (فمن ابغى وراء ذلك فأولئك هم المادون) . اهـ .

خَلَقْنَا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ
لَمَيْتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٧﴾
قوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان) فيه قولان .

أحدهما : أنه آدم عليه السلام . وإنا قيل : « من سلالة » لأنه استلَّ
من كل الأرض ، هذا مذهب سلمان الفارسي ، وابن عباس في رواية ، وقادة .
والثاني : أنه ابن آدم ، والسلالة : النطفة استلَّت من الطين ، والطين :
آدم عليه السلام ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ^(١) . قال الزجاج : والسلالة :
فُعالة ، وهي القليل مما يُنزل ، وكل مبنية على « فُعالة » يراد به القليل ، من
ذلك : الفضالة ، والنخالة ، والقلامة .

قوله تعالى : (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ) يعني : ابن آدم (نُطْفَةً فِي قَرَارٍ) وهو الرحم
(مكين) أي : حرير ، قد هَبَّتْ لاسقراره فيه . وقد شرحنا في سورة
(الحج : ٥) معنى النطفة والعلقة والمُضْغَة .

قوله تعالى : (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ،
وحمة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « عظاماً فكسونا العظام » على الجمع .
وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « عَظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ » على التوحيد .
قوله تعالى : (ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) وهذه الحالة السابعة . قال علي عليه السلام :
لأنكون مؤوودة حتى تمرَّ على التارات السبع .

وفي محل هذا الإنشاء قولان .

أحدهما : أنه بطن الأم . ثم في صفة الإنشاء قولان . أحدهما : أنه نفخ

(١) قال ابن جرير الطبري ٨/١٨ : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : معناه : ولقد

خلقنا ابن آدم من سلالة آدم ، وهي صفة مائه ، وآدم هو الطين ، لأنه خلق منه .

الروح فيه ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال أبو العالية ، والشعبي ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك في آخرين . والثاني : أنه جعله ذكراً أو أنثى ، قاله الحسن .
 وبقول الثاني : أنه بعد خروجه من بطن أمه . ثم في صفة هذا الإنشاء أربعة أقوال . أحدها : أن ابتداء ذلك الإنشاء أنه استهل ، ثم دلّ على الثدي ، وعلّم كيف يبسط رجله إلى أن قعد ، إلى أن قام على رجله ، إلى أن مشى ، إلى أن فطم ، إلى أن بلغ الحُلُم ، إلى أن تقلّب في البلاد ، رواه العوفي عن ابن عباس .
 والثاني : أنه استواء الشباب ، قاله ابن عمر ، ومجاهد . والثالث : أنه خروج الأسنان والشعر ، قاله الضحاك ، فقيل له : أليس يولد وعلى رأسه الشعر ؟ فقال :
 وأين العانة والإبط ؟ . والرابع : أنه إعطاء العقل والفهم ، حكاه الثعالبي .

قوله تعالى : (فتبارك الله) أي : استحق التعميم والثناء . وقد شرحنا معنى « تبارك » في (الأعراف : ٥٥) ، (أحسنُ الخالقين) أي : المصورين والمقدرين .
 والخلق في اللغة : التقدير . وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية وعنده عمر ، إلى قوله تعالى : (خلقاً آخر) ، فقال عمر : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد خُتمت بما تكلمت به يا ابن الخطاب . »^(١)

فان قيل : كيف الجمع بين قوله : (أحسنُ الخالقين) وقوله : (هل من خالقٍ غيرُ الله) [فاطر : ٣] ؟

(١) ذكره السيوطي في الدر ، : ٦/٥ من رواية ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن صالح أبي الخليل قال : زلت هذه الآية على النبي ﷺ : (ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين) إلى قوله : (أنشأه خلقاً آخر) قال عمر : (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال : « والذي نفسي بيده إنها خُتمت بالذي تكلمت يا عمر . »

فالجواب : أن الخلق يكون بمعنى الإيجاد ، ولا موجد سوى الله ، ويكون
بمعنى التقدير ، كقول زهير :

[ولأنت تفرّي ما خلقتَ] وبمعنى - ضُ القومِ يخلقُ ثم لا يفرّي ^(١)

فهذا المراد هاهنا ، أن بني آدم قد بصورون ويقدرّون ويصنعون الشيء ، فالله
خير المصورين والمقدرين . وقال الأخفش : الخالقون هاهنا هم الصانعون ، فالله
خير الخالقين .

قوله تعالى : (ثم إنكم بعد ذلك) أي : بعد ما ذكر من تمام الخلق
(لميتون) عند انقضاء آجالكم . وقرأ أبو رزين العقيلي ، وعكرمة ، وابن أبي عمير :
« لمائون » بألف . قال الفراء : والعرب تقول لمن لم يمّت : إنك مائت عن
قليل ، وميت ، ولا يقولون للميت الذي قد مات : هذا مائت ، إنما يقال في
الاستقبال فقط ، وكذلك يقال : هذا سيد قومه اليوم ، فإذا أخبرت أنه يسودهم
عن قليل ، قلت : هذا سائد قومه عن قليل ، وكذلك هذا شريف القوم ، وهذا
شارف عن قليل ؛ وهذا الباب كله في العربية على ما وصفت لك .

﴿ وَاقْدُرْ خَلْقَنَا فَوْفَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ
غَافِلِينَ . وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا
عَلَى ذَهَابٍ بِهَاقِدِرُونَ . فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ
وَأَعْنَابٍ لِّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَشَجَرَةً
تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيِّئَةٍ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْأَكْلِينَ ﴾

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى ، وهو في شرح ديوان زهير : : ٩٤ ، و « مختار الشعر

الجمالي » : ٢٦٥/١ ، و « الطبري » : ١١/١٨ ، و « القرطبي » : ١١٠/١٢ ، و « اللسان »

و « التاج » : خلق .

قوله تعالى : (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) يعني : السموات السبع ، قال الزجاج : كل واحدة طريقة . وقال ابن قتيبة : إنا سميت « طرائق » بالتطارق ، لأن بعضها فوق بعض ، يقال : طارتُ الشيء : إذا جعلتَ بعضه فوق بعض . قوله تعالى : (وما كنا عن الخلق غافلين) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ما غفلنا عنهم إذ بيننا فوقهم سماءً أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب . والثاني : ما كنا نأركن لهم بغير رزق ، فأنزلنا المطر .

والثالث : لم نغفل عن حفظهم من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم .

قوله تعالى : (وأنزلنا من السماء ماءً بقدرٍ) يعلمه الله ، وقال مقاتل : بقدر ما يكفيهم للمعيشة ^(١) .

قوله تعالى : (وشجرة) هي معطوفة على قوله : (جناتٍ) . وقرأ أبو مجلز ، وابن يعمر ، وإبراهيم النخعي : « وشجرةٌ » بالرفع . والمراد بهذه الشجرة : شجرة الزيتون .

فإن قيل : لماذا خص هذه الشجرة من بين الشجر ؟

فالجواب من أربعة أوجه .

أحدها : لكثرة انتفاعهم بها ، فذكّرهم من نعمه ما يعرفون ، وكذلك

(١) قال ابن كثير : يذكر تعالى نعمته على عبده التي لا تعد ولا تحصى ، في إزاله القطر من السماء بقدر ، أي : بحسب الحاجة ، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار ، بل بقدر الحاجة إليه والسقي والشرب والانتفاع به ، حتى أن الأرض التي تحتاج ماءً كثيراً لزراعتها ، ولا تحمل دمنتها إزال المطر عليها ، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى ، ثم قال : فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور .

وقال ابن جرير الطبري في تمام الآية : (وإنا على ذهاب به لقادرون) يقول جل ثناؤه : وإنا على الماء الذي أسكنناه في الأرض لقادرون أن نذهب به وتهلكوا أيها الناس عطشاً وتخرّب أرضوكم فلا تنبت زرعاً ولا غرساً ، وتهلك مواشيتكم ، يقول : فمن نعمتي عليكم زكي ذلك لكم في الأرض جاريًا . زاد المسير ٥ م (٣٠)

خص النخيل والأعناب في الآية الأولى ، لأنها كانا جُلِّ ثمار الحجاز وما والاها ، وكانت النخيل لأهل المدينة ، والأعناب لأهل الطائف .

والثاني : لأنهم لا يكادون يتعاهدونها بالسقي ، وهي تُخرج الثمرة التي يكون منها الدهن .

والثالث : أنها تنبت بالماء الذي هو ضد النار ، وفي ثمرتها حياة للنار ومادة لها .

والرابع : لأن أول زيتونة نبتت بذلك المكان فيما زعم مقاتل .

قوله تعالى : (طور سيناء) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « طور

سيناء » مكسورة السين . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي ،

مفتوحة السين ، وكلثم مدّها . قال الفراء : العرب تقول : سيناء ، بفتح السين

في جميع اللغات ، إلا بني كنانة ، فانهم يكسرون السين . قال أبو علي : ولا تنصرف

هذه الكلمة ، لأنها جعلت اسماً لبقعة أو أرض ، وكذلك « سينين » ، ولو جعلت

اسماً للمكان أو المنزل أو نحو ذلك من الأسماء المذكورة لصرفت ، لأنك كنت

قد سميت مذكراً بمذكّر . والطور : الجبل .

وفي معنى « سيناء » خمسة أقوال .

أحدها : أنه بمعنى الحسن ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . وقال الضحاك :

« الطور » : الجبل بالسريانية ، و « سيناء » : الحسن بالنبطية . وقال عطاء : يريد :

الجبل الحسن .

والثاني : أنه المبارك ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أنه اسم حجارة بعينها ، أضيف الجبل إليها لوجودها عنده ،

قاله مجاهد .

والرابع : أن طور سيناء : الجبل المشجر ، قاله ابن السائب .

والخامس : أن سيناء : اسم المكان الذي به هذا الجبل ، قاله الزجاج ؛ قال
الواحدي : وهو أصح الأقوال ؛ قال ابن زيد : وهذا هو الجبل الذي نودي منه
موسى ، وهو بين مصر وأيلة ^(١) .

قوله تعالى : (تَنبَتُ بِالذَّهْنِ) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « تَنْبِتُ » برفع
التاء وكسر الباء . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي :
بفتح التاء وضم الباء . قال الفراء : وهما لغتان : نبتت ، وأنبتت ، وكذلك قال
الزجاج : يقال : نبت الشجر وأنبت في معنى واحد ، قال زهير :
رَأَيْتُ ذَوِي الْحَاجَاتِ حَوْلَ بَيْوتِهِمْ قَطِينًا لَهُمْ حَتَّى إِذَا أَتَبَتَ الْبِقْلُ ^(٢)
قال : ومعنى « تَنْبِتُ بِالذَّهْنِ » : تنبت ومعها دهن ، كما تقول : جاءني زيد
بالسيف ، أي : جاءني ومعه السيف . وقال أبو عبيدة : معنى الآية : تنبت الدهن ،
والباء زائدة ، كقوله : (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظَلَمٍ) [الحج : ٢٥] وقد بينا هذا
المعنى هناك .

قوله تعالى : (وَصَبَّغِ) وقرأ ابن مسعود ، وابن يعمر ، وإبراهيم النخعي ،

(١) قال ابن جرير الطبري ١٤/١٨ : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن سيناء
اسم أضيف إليه الطور ، يعرف به ، كما قيل : جبلا طيبا ، فأضيفا إلى طيبا ، ولو كان
القول في ذلك كما قال من قال : معناه : جبل مبارك ، أو كما قال من قال : معناه : حسن ،
لكان الطور متونا ، وكان قوله : « سيناء » من نعمته ، على أن سيناء بمعنى : مبارك وحسن
غير معروف في كلام العرب فيجمل ذلك من نعمت الجبل ، ولكن القول في ذلك إن شاء الله
كما قال ابن عباس من أنه جبل عرف بذلك ، وأنه الجبل الذي نودي منه موسى عليه السلام ،
وهو مع ذلك مبارك ، لا أن معنى سيناء معنى مبارك .

(٢) البيت في شرح ديوان زهير بن أبي سلمى : ١١١ ، و « مختار الشعر الجاهلي » :
٢٣٩/١ ، و « الطبري » : ١٤/١٨ ، و « القرطبي » : ١١٦/١٢ ، و « اللسان » ،
و « التاج » : نبت .

والأعمش : « وصَبِغًا » بالنصب . وقرأ ابن السميع : « وصِبَاغٍ » بألف مع الخفض . قال ابن قتيبة : الصَّبِغُ مِثْلُ الصَّبَاغِ ، كما يقال : دَبِغٌ وَدَبَاغٌ ، وَلِبَسٌ وَلِبَاسٌ . قال المفسرون : والمراد بالصَّبِغِ هَاهُنَا : الزَّيْتُ ، لِأَنَّهُ يَلْوَنُ الْخَبْرَ إِذَا غُمِسَ فِيهِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ إِذَا أُدَامَ يُصْبَغُ بِهِ .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَالَى الْفُلُوكِ تُحْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ) وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « نُسْقِيكُمْ » بفتح النون . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحزرة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : بضمها . وقد شرحنا هذا في (النحل : ٦٦) إلى قواه تعالى : (ولكم فيها منافع كثيرة) يعني : في ظهورها وألبانها وأولادها وأصوافها وأشعارها (ومنها تأكلون) من لحومها وأولادها والكسب عليها . قوله تعالى : (وعليها) يعني : الإبل خاصة (وعلى الفلوك تحمَلُونَ) فالإبل تحمَلُ في البرِّ ، والسفن تحمَلُ في البحر .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ مَثَرَتُمْ بِهَذَا حِينَ . قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ . فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنْزِيرُ فَاصْنَعْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .

وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الْكُفَرِ
 ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ . فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ
 فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَقُلْ رَبِّ
 أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ
 وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ . ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ . فَأَرْسَلْنَا
 فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا
 تَتَّقُونَ . وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ
 الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
 يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ
 بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ . أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ
 وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ . هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ
 لِمَا تُوعَدُونَ . إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ
 بِمَبْعُوثِينَ . إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ
 بِمُؤْمِنِينَ . قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي . قَالَ نَحْنُ قَلِيلٌ
 لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ . فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غَنَاءً
 فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ .
 مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ . ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا
 تَرَاكُلًا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا
 وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَابُؤْمِنُونَ ﴿

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه) قال المفسرون : هذا تعزية

لرسول الله ﷺ بذِكْرِ هذا الرسول الصابر ايتأسي به في صبره ، وليمعلم أن الرسل قبله قد كُذِّبوا .

قوله تعالى : (يريد أن يتفضل عليكم) أي : يعلوكم بالفضيلة ، فيصير متبوعاً ، (ولو شاء الله) أن لا يُعبد شيء سواه (لا نزل ملائكة) تلبسغ عنه أمره ، لم يرسل بشراً (ماسمعنا بهذا) الذي يدعوننا إليه نوح من التوحيد (في آياتنا الأولى) .
فأما الجنةُ فمعناها : الجنون .

وفي قوله : (حتى حين) قولان .

أحدهما : أنه الموت ، فتقديره : انتظروا موته . والثاني : أنه وقت منكر .

قوله تعالى : (قال رب انصرني) وقرأ عكرمة ، وابن محيصن : « قال رب »

بضم الباء ، وفي القصة الأخرى [المؤمنون : ٣٩] .

قوله تعالى : (بما كذبون) وقرأ يعقوب : « كذبوني » بياء ، وفي القصة

التي تليها أيضاً : « فاتقوني » [المؤمنون : ٥٢] « أن يحضروني » [المؤمنون : ٩٨]

« رب ارجعوني » [المؤمنون : ٩٩] « ولا تكلموني » [المؤمنون : ١٠٨] أثبتهن

في الحالين يعقوب ، والمعنى : انصرني بتكذيبهم ، أي : انصرني باهلاكهم جزاء

لهم بتكذيبهم . (فأوحينا إليه) قد شرحناه في (هود : ٣٧) إلى قوله : (فاسلك

فيها) أي : أدخل في سفينتك (من كل زوجين اثنين) قرأ ابن كثير ، ونافع ،

وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « من كل »

بكسر اللام من غير تنوين . وقرأ حفص عن عاصم : « من كل » بالتنوين .

قال أبو علي : قراءة الجمهور إضافة « كل » إلى « زوجين » ، وقراءة حفص تؤول

إلى زوجين ، لأن المعنى : من كل الأزواج زوجين .

قوله تعالى : (وَوَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنْزَلًا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « مُنْزَلًا » بضم الميم . وروى أبو بكر عن عاصم فتحها . والمنزِلُ ، بفتح الميم : اسم لكل ما نزلت به ، والمُنْزَلُ ، بضمها : المصدر بمعنى الإنزال ؛ تقول : أنزلته إنزالاً ومُنْزَلًا . وفي الوقت الذي قال فيه نوح ذلك قولان .

أحدهما : عند نزوله في السفينة . والثاني : عند نزوله من السفينة .

قوله تعالى : (إِنْ فِي ذَلِكَ) أي : في قصة نوح وقومه (لآيات وَإِنْ كُنَّا) أي : وما كنا (لَمُبْتَلِينَ) أي : لمختبرين إياهم بارسال نوح إليهم . (ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) يعني عاداً (فأرسلنا فيهم رسولا منهم) وهو هود ، هذا قول الأكثرين ؛ وقال أبو سليمان الدمشقي : هم ثمود ، والرسول صالح . وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (أُنْعِدْكُمْ أَنْتُمْ) قال الزجاج : موضع « أَنْتُمْ » نصب على معنى : أُنْعِدْكُمْ [أَنْتُمْ] مخرجون إذا مِثْم ، فلما طال الكلام أُعيد ذكر « أَنْ » كقوله : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ) [التوبة : ٦٣] .

قوله تعالى : (هِيَهَاتَ هِيَهَاتَ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمة ، والكسائي : « هِيَهَاتَ هِيَهَاتَ » بفتح التاء فيهما في الوصل ، وإسكانها في الوقف . وقرأ أبي بن كعب ، وأبو مجلز ، وهارون عن أبي عمرو : « هِيَهَاتَا هِيَهَاتَا » بالنصب والتنوين . وقرأ ابن مسعود ، وعاصم الجحدري ، وأبو حيوة الحضرمي ، وابن السميع : « هِيَهَاتُ هِيَهَاتُ » بالرفع والتنوين . وقرأ أبو العالية ، وقتادة : « هِيَهَاتِ هِيَهَاتِ » بالخفض والتنوين . وقرأ أبو جعفر : « هِيَهَاتِ هِيَهَاتِ » بالخفض من غير تنوين ، وكان يقف بالهاء . وقرأ أبو المتوكل

الناجي ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة : « هيهاتُ هيهاتُ » بالرفع من غير تنوين ،
 وقرأ معاذ القاري ، وابن يعمر ، وأبورجاء ، وخارجة عن أبي عمرو : « هيهاتُ
 هيهاتُ » باسكان التاء فيها . وفي « هيهات » عشر لغات قد ذكرنا منها سبعة
 عن القراء ، والثامنة : « إيهات » ، والتاسعة : « إيهان » بالنون ، والعاشر : « إيهيا »
 بغير نون ، ذكرهن ابن القاسم ؛ وأنشد الأحوص في الجمع بين لغتين منهن :
 تذكّرُ أياماً مَضِيّينَ من الصِّبَا وهيهاتِ هيهاناً إليك رجوعُها ^(١)
 قال الزجاج : فأما الفتح ، فالوقف فيه بالهاء ، تقول : « هيهاه » إذا فتحت ووقفت
 بعد الفتح ، فإذا كسرت ووقفت على التاء كنت ممن ينون في الوصل ،
 أو كنت ممن لا ينون . وتأويل « هيهات » : البعد لما توعدون . وإذا قلت :
 « هيهات ما قلت » ، فمعناه : بعيد ما قلت . وإذا قلت : « هيهات لما قلت » ،
 فمعناه : البعد لما قلت . ويقال : « أيهات » في معنى « هيهات » ، وأنشدوا :
 وأيهات أيهات العقيقُ ومن به وأيهات وصلُ بالعقيق نواصله ^(٢)
 قال أبو عمرو بن العلاء : إذا وقفت على « هيهات » فقل : « هيهاه » . وقال القراء :
 الكسائي يختار الوقف بالهاء ، وأنا أختار التاء .

قوله تعالى : (لما تُوعَدُونَ) قرأ ابن مسعود ، وابن أبي عملة : « ماتُوعَدُونَ »
 بغير لام . قال المفسرون : استبعد القومُ بعضهم بعد الموت إغفالاً منهم للتفكير في
 بدو أمرهم وقُدرة الله على إيجادهم ، وأرادوا بهذا الاستبعاد أنه لا يكون
 أبداً ، (إن هي إلا حياتنا الدنيا) يعنون : ما الحياة إلا ما نحن فيه ، وليس بعد
 الموت حياة .

(١) « القرطبي » : ١٢٢/١٢ ، و « اللسان » : هيه .

(٢) « القرطبي » : ١٢٢/١٢ ، وفيه : . . . وأيهات خيلُ بالعقيق نواصله .

فان قيل : كيف قالوا : (نموت ونحيا) وهم لا يقرؤون بالبعث ؟
فعنه ثلاثة أجوبة ذكرها الزجاج .

أحدها : نموت ونحيا أولادنا ، فكأنهم قالوا : يموت قوم ونحيا قوم .
والثاني : نحيا ونموت ، لأن الواو للجمع ، لا للترتيب .

والثالث : ابتداءونا موات في أصل الخلق ، ثم نحيا ، ثم نموت .

قوله تعالى : (إن هو) يعنون الرسول . وقد سبق تفسير ما بعد هذا

[هود : ٧ ، النحل : ٣٨] إلى قوله : (قال نعمًا قائل) قال الزجاج : معناه : عن
قليل ، و « ما » زائدة بمعنى التوكيد .

قوله تعالى : (ليُصْبِحَنَّ نادمين) أي : على كفرهم ، (فأخذتهم الصيحة بالحق)

أي : باستحقاقهم العذاب بكفرهم . قال المفسرون : صاح بهم جبريل صيحة رجفت

لها الأرض من تحتهم ، فصاروا شدتها غشاء . قال أبو عبيدة : الغشاء : ما أشبه الزبد

وما ارتفع على السيل ونحو ذلك مما لا يُنتفع به في شيء . وقال ابن قتيبة : المعنى :

فجعلناهم هلكى كالغشاء ، وهو ما علا السيل من الزبد والقمش^(١) ، لأنه

يذهب ويتفرق . وقال الزجاج : الغشاء : الهالك والبالى من ورق الشجر الذي إذا

جرى السيل رأته مخالطاً زبده . وما بعد هذا قد سبق شرحه [الحجر : ٥] إلى

قوله تعالى : (ثم أرسلنا رسالنا تترى) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر :

« تترى كلنا » منونة والوقف بالآف . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم ،

وحمزة ، والكسائي : بلا تنوين ، والوقف عند نافع وابن عامر بالف . وروى

هبيرة ، وحفص عن عاصم ، أنه يقف بالياء ؛ قال أبو علي : يعني بقوله : يقف بالياء ،

(١) القمش : الرديء من كل شيء ، وما كان على وجه الأرض من فئات الأشياء ،

ويقال لرذالة الناس : قماش .

أي : بالفِ مُمالة . قال الفراء : أكثر العرب على ترك التنوين ، ومنهم من نَوَّن ، قال ابن قتيبة : والمعنى : تُتابع بفترة بين كل رسولين ، وهو من التَّوَاتُر ، والأصل : وَتَرَى ، فقلبت الواو تاء ، كما قلبوها في التَّقْوَى والتَّخْمَةَ . وحكى الزجاج عن الأصمعي أنه قال : معنى وَاتَرْتُ الْخَيْرَ : أَتْبَعْتُ بعضه بعضاً ، وبين الخبرين هُنَيْيَةَ وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : ومما تضعه العامة غير موضعه قولهم : تَوَاتَرَتْ كُتُبِي إِلَيْكَ ، يعنون : اتصلت من غير انقطاع ، فيضعون التواتر في موضع الاتصال ، وذلك غلط ، إنما التواتر مجيء الشيء ثم انقطاعه ثم مجيئه ، وهو النفاعل من الوتر ، وهو الفرد ، يقال : وَاتَرْتُ الْخَيْرَ ، أَتْبَعْتُ بعضه بعضاً ، وبين الخبرين هُنَيْيَةَ ، قال الله تعالى : (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى) أحلها « وتترى » من الموازاة ، فأبدلت التاء من الواو ، ومعناه : منقطعة متفاوتة ، لأن بين كل نبيين دهرًا طويلاً . وقال أبو هريرة : لا بأس بقضاء رمضان تترى ، أي : منقطعاً . فإذا قيل : وَاِترَ فُلَانٌ كِتَابَهُ ، فالمعنى : تَابَعَهَا ، وبين كل كتابين فترة .

قوله تعالى : (فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا) أي : أَهْلَكْنَا الْأُمَّمَ بَعْضُهُمْ فِي إِتْرٍ بَعْضُ (وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) قال أبو عبيدة : أي : يُتَمَثَّلُ بِهِمْ فِي الشَّرِّ ؛ وَلَا يُقَالُ فِي الْخَيْرِ : جَعَلْتُهُ حَدِيثًا .

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخِيَّهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ . فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ مِنْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ . فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾

قوله تعالى : (فاستكبروا) أي : عن الإيمان بالله وعبادته (وكانوا قوماً عالين) أي : قاهرين للناس بالبغي والتطاول عليهم .

قوله تعالى : (وقومها لنا عابدون) أي : مطيعون . قال أبو عبيدة : كل من دان للملك فهو عابد له .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعني : التوراة ، أعطيتها جملة واحدة بعد غرق فرعون (لعلهم) يعني : بني إسرائيل ، والمعنى : لكي يهتدوا .

قوله تعالى : (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) وقرأ ابن مسعود ، وابن أبي عمير : « آيتين » على التثنية ، وهذا كقوله : (وجعلناها وابنها آية) [الأنبياء : ٩١]^(١)

وقد سبق شرحه .

قوله تعالى : (وآويناها) أي : جعلناها يأويان (إلى ربوة) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحزمة ، والكسائي : « رُبوة » بضم الراء . وقرأ عاصم ، وابن عامر : بفتحها . وقد شرحنا معنى الربوة في (البقرة : ٢٦٥) ، (ذات قرار) أي : مستوية يستقر عليها ما كنفها ، والمعنى : ذات موضع قرار . وقال الزجاج : أي : ذات مستقر (ومعين) وهو الماء الجاري من العيون . وقال ابن قتيبة : « ذات قرار » أي : يُستقرُ بها للعارة ، « ومعين » هو الماء الظاهر ،

(١) قال ابن كثير ٣/٢٤٦ : بقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى بن مريم عليها السلام أنه جعلها آية للناس ، أي : حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء ، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى . اهـ .

ويقال : هو مَفْعُولٌ مِنَ الْعَيْنِ ، كَأَنَّ أَصْلَهُ مَعْيُونٌ ، كما يقال : ثوبٌ كَنِيْطٌ ،
وَبُرٌّ مَكِيْلٌ .

واختلف المفسرون في موضع هذه الربوة الموصوفة على أربعة أقوال .
أحدها : أنها دمشق ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال عبد الله بن سلام ،
وسعيد بن المسيب .

والثاني : أنها بيت المقدس ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .
وعن الحسن كالقولين .

والثالث : أنها الرملة من أرض فلسطين ، قاله أبو هريرة .

والرابع : مصر ، قاله وهب بن منبه ، وابن زيد ، وابن السائب^(١) .
فأما السبب الذي لأجله أُوِيئَ إِلَى الرَبْوَةِ ، فقال أبو صالح عن ابن عباس :
فَرَّتْ مَرْيَمُ بِابْنِهَا عِيسَى مِنْ مَلِكِهِمْ ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى أَهْلِهَا بَعْدَ اثْنَيْ عَشْرَةَ سَنَةً .
قال وهب بن منبه : وكان الملك أراد قتل عيسى .

(١) قال الطبري : وأولى الأقوال بتأويل ذلك أنها مكان مرتفع ذو استواء وماء ظاهر ،
وليس كذلك صفة الرملة ، لأن الرملة لاماء بها معين ، والله تعالى ذكره وصف هذه الربوة
بأنها ذات قرار ومعين .

وقال ابن كثير عن القول الرابع الذي قاله وهب بن منبه : وهو بعيد جداً . ثم قال :
وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى : (وَأَوْبِنَاهُمْ إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ
قَرَارٍ وَمَعِينٍ) قال : المعين : الماء الجاري ، وهو النهر الذي قال الله تعالى : (قد جعل ربك
تحتك سرباً) وكذا قال الضحاك وقتادة (إلى ربوة ذات قرار ومعين) : هو بيت المقدس ،
فهذا - والله أعلم - هو الأظهر ، لأنه المذكور في الآية الأخرى ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً ،
وهذا أولى ما يفسر به ، ثم الأحاديث الصحيحة ، ثم الآثار .

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ . فذَرَهُمْ فِي تَخْمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ . أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (يا أيها الرسل) قال ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقادة في آخرين : يعني بالرسل هاهنا محمداً ﷺ وحده ، وهو مذهب العرب في مخاطبة الواحد خطاب الجميع ، ويتضمن هذا أن الرسل جميعاً كذا أمروا ، وإلى هذا المعنى ذهب ابن قتيبة ، والزجاج^(١) ، والمراد بالطيبات : الحلال . قال عمرو بن شرحبيل : كان عيسى عليه السلام يأكل من غزل أمته^(٢) .

(١) ذكر الطبري أن المراد بقوله تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) عيسى بن مريم عليه السلام ، كما تقول في الكلام الرجل الواحد : كلوا عنا إذا كنتم ، وكما قال تعالى : (الذين قال لهم الناس) والمراد رجل واحد . وقال القرطبي : قال بعض العلماء : والمخاطب في هذه الآية للنبي ﷺ وأنه أقامه مقام الرسل ، وقال : قال الزجاج : هذه مخاطبة للنبي ﷺ ، ودل الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا ، أي : كلوا من الحلال . وقال ابن كثير : بأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال ، والقيام بالصالح من الأعمال ، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح ، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام ، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ، ودلالة ونصحاً ، فجزام الله عن المباد خيراً ، قال : وقال الحسن البصري في قوله : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) قال : أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ، ولا حلوكم ولا حامضكم ، ولكن قال : انتهوا إلى الحلال منه . (٢) وفي صحيح البخاري ، من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم » قالوا : وانت يا رسول الله ؟ قال : « نعم ، وأنا كنت أرها على قراريط لأهل مكة ، وفي الصحيح » أيضاً « أن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده » . وفي صحيح مسلم ٧٠٣/٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، —

قوله تعالى : (وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « وَأَنَّ » بالفتح وتشديد النون . وافق ابن عامر في فتح الألف ، لكنه سكن النون . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « وَإِنَّ » بكسر الألف وتشديد النون . قال الفراء : من فتح ، عطف على قوله : « إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » وبأنَّ هذه أُمَّتُكُمْ ، فوضعها خفض لأنها مردودة على « ما » ؛ وإن شئت كانت منصوبة بفعل مضمر ، كأنك قلت : واعلموا هذا ؛ ومن كسر استأنف . قال أبو علي الفارسي : وأما ابن عامر ، فإنه خفف النون المشددة ، وإذا خففت تعلق بها ما يتعلق بالمشددة . وقد شرحنا معنى الآية والتي بعدها في (الأنبياء : ٩٢) إلى قوله : (زُبْرًا) وقرأ ابن عباس ، وأبو عمران الجوني : « زُبْرًا » برفع الزاي وفتح الباء . وقرأ أبو الجوزاء ، وابن السميع : « زُبْرًا » برفع الزاي وإسكان الباء . قال الزجاج : من قرأ « زُبْرًا » بضم الباء ، فتأويله : جعلوا دينهم كتباً مختلفة ، جمع زُبُور . ومن قرأ « زُبْرًا » بفتح الباء ، أراد قطعاً .

قوله تعالى : (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) أي : بما عندهم من الدين الذي ابتدعوه مُعْجِبُونَ ، يرون أنهم على الحق

وفي المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنهم أهل الكتاب ، قاله مجاهد .

والثاني : أنهم أهل الكتاب ومشركو العرب ، قاله ابن السائب .

— وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا) وقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ . . .) الآية ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب ، يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فإني يستجاب لذلك . . .

قوله تعالى : (فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ) وقرأ ابن مسعود ، وأبي بن كعب :
 « في غمراتهم » على الجمع . قال الزجاج : في غماتهم وحميرتهم ، (حتى حين) أي :
 إلى حين يأتيهم ما وعدوا به من العذاب . قال مقاتل : يعني كفار مكة .

﴿ فصل ﴾

وهل هذه الآية منسوخة ، أم لا ؟ فيها قولان .

أحدهما : أنها منسوخة بآية السيف . والثاني : أن معناها التهديد ، فهي محكمة .
 قوله تعالى : (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ) وقرأ عكرمة ، وأبو الجوزاء :
 « يُمِدُّهُمْ » بالياء المرفوعة وكسر الميم . وقرأ أبو عمران الجوني : « نَمُدُّهُمْ »
 بنون مفتوحة ورفع الميم . قال الزجاج : المعنى : أيحسبون أن الذي نمدم به
 (من مال وبنين) مجازاة لهم ؟ ! إنما هو استدراج ، (نَسَارِعُ لَهُمْ فِي
 الْخَيْرَاتِ) أي : نسارع لهم به في الخيرات . وقرأ ابن عباس ، وعكرمة ، وأيوب
 السخيتاني : « يُسَارِعُ » بياء مرفوعة وكسر الراء . وقرأ معاذ القاري ،
 وأبو المتوكل مثله ، إلا أنها فتحا الراء . وقرأ أبو عمران الجوني ، وعاصم الجحدري ،
 وابن السميع : « يُسْرِعُ » بياء مرفوعة وسكون السين ونصب الراء من غير ألف .
 قوله تعالى : (بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) أي : لا يعلمون أن ذلك استدراج لهم .
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ
 بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يَوْمَنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ .
 وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ .
 أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأَمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾

ثم ذكر المؤمنين فقال : (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) وقد شرحنا هذا المعنى في قوله : (وهم من خشيته مشفقون) [الأنبياء : ٢٨] ^(١) .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا) وقرأ عاصم الجحدري : « يأتون ما أتوا » بقصر همزة « أتوا » . وسألت عائشة رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقالت : يارسول الله ، أ هم الذين يُذنبون وهم مشفقون ؟ فقال : « لا ، بل هم الذين يصلون وهم مشفقون ، وبصومون وهم مشفقون ، ويتصدقون وهم مشفقون أن لا يُتقبل منهم » ^(٢) . قال الزجاج : فعنى « يؤتون » : يُعطون ما أعطوا وهم يخافون أن لا يُتقبل منهم ، (أنهم إلى ربهم راجعون) أي : لأنهم يوقنون أنهم يرجعون . ومعنى « يأتون » : يعملون الخيرات وقلوبهم خائفة أن يكونوا مع اجتهادهم مقصيرين ، (أولئك يسارعون في الخيرات) وقرأ أبو المتوكّل ، وابن السميع : « يُسرِّعون » برفع الياء وإسكان السين وكسر الراء من غير ألف . قال الزجاج : يقال : أسرعت وسارعت في معنى واحد ، إلا أن « سارعت » أبلغ من « أسرعت » ، (وهم لها) أي : من أجلها ، وهذا كما تقول : أنا أكرم فلاناً لك ، أي : من أجلك . وقال بعض أهل العلم : الوجع المذكور هاهنا واقع على مُضمَّر .

(١) قال ابن كثير ٣/٤٨٨ : أي : هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله ، خائفون منه ، وجلون من مكره بهم ، كما قال الحسن البصري : إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة ، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً .

(٢) رواه أحمد في « المسند » ، والترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وذكره السيوطي في « الدر » : ١١/٥ وزاد نسبه للفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي الدنيا في « نعت الخائفين » ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » عن عائشة رضي الله عنها .

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . بَلْ قَلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ . حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ . لَا تَجْتَرُوا أَيُّومَ إِنَّا نَكْتُمُ مِنْهَا لَا تُنصَرُونَ . قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنكِبُونَ . مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولدينا كتاب) يعني : اللوح المحفوظ (ينطق بالحق) قد أثبت فيه أعمال الخلق ، فهو ينطق بما يعملون (وهم لا يظلمون) أي : لا ينقصون من ثواب أعمالهم . ثم عاد إلى الكفار ، فقال : (بل قلوبهم في غمرة من هذا) قال مقاتل : في غفلة عن الإيمان بالقرآن . وقال ابن جرير : في عمى عن هذا القرآن . قال الزجاج : يجوز أن يكون إشارة إلى ما وصف من أعمال البر في قوله : (أولئك يسارعون في الخيرات) ، فيكون المعنى : بل قلوب هؤلاء في عمية من هذا ؛ ويجوز أن يكون إشارة إلى الكتاب ، فيكون المعنى : بل قلوبهم في غمرة من الكتاب الذي ينطق بالحق وأعمالهم مخصصة فيه .
فخرج في المشار إليه بـ « هذا » ثلاثة أقوال .

أحدها : القرآن . والثاني : أعمال البر . والثالث : اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : (ولهم أعمال من دون ذلك) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أعمال سيئة دون الشرك ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : خطايا من دون ذلك الحق ، قاله مجاهد . وقال ابن جرير : من

دون أعمال المؤمنين وأهل التقوى والخشية .

زاد السير ٥ م (٣١)

والثالث : أعمالٌ غير الأعمال التي ذُكِرُوا بِهَا سَيَعْمَلُونَهَا ، قاله الزجاج .

والرابع : أعمالٌ - من قبل الحين الذي قدَّرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعَذِّبُهُمْ عِنْدَ مَجِيئِهِ -

من المعاصي ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) إخبارٌ بما سَيَعْمَلُونَهُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ الْخَبِيثَةِ الَّتِي

كُتِبَتْ عَلَيْهِمْ لَا بَدَأَ لَهُمْ مِنْ عَمَلِهَا ^(١) .

قوله تعالى : (حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ) أَي : أَغْنِيَاهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ ، وَالْإِشَارَةُ

إِلَى قَرِيشٍ . وَفِي الْمُرَادِ « بِالْعَذَابِ » قَوْلَانِ .

أحدهما : ضَرْبُ السِّبْوَفِ يَوْمَ بَدْرٍ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَبِجَاهِدٍ ، وَالضَّحَّاكُ .

وَالثَّانِي : الْجُوعُ الَّذِي عَذَّبُوا بِهِ سَبْعَ سِنِينَ ، قَالَ ابْنُ السَّائِبِ . وَ(يَجَارُونَ)

بِعَنَى : يَصِيحُونَ . (لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ) أَي : لَا تَسْتَغِيثُوا مِنَ الْعَذَابِ (إِنَّكُمْ

مِنَ الَّذِينَ تُنصَرُونَ) أَي : لَا تُعْتَمِنُونَ مِنْ عَذَابِنَا . (قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ)

بِعَنَى : الْقُرْآنَ (فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنكِبُونَ) أَي : تَرْجِعُونَ وَتَتَأَخَّرُونَ عَنِ

الْإِيمَانِ بِهَا ، (مُسْتَكْبِرِينَ) مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ . وَقَوْلُهُ : (بِهِ) الْكِنَايَةُ عَنِ

الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَهِيَ كِنَايَةٌ عَنِ غَيْرِ مَذْكُورٍ ؛ وَالْمَعْنَى : إِنَّكُمْ تَسْتَكْبِرُونَ وَتَفْتَخِرُونَ

بِالْبَيْتِ وَالْحَرَمِ ، لِأَمْنِكُمْ فِيهِ مَعَ خَوْفِ سَائِرِ النَّاسِ فِي مَوَاطِنِهِمْ . تَقُولُونَ : نَحْنُ

أَهْلُ الْحَرَمِ فَلَا نَخَافُ أَحَدًا ، وَنَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ اللَّهِ وَوَلَاتُهُ ، هَذَا مَذْهَبُ ابْنِ عَبَّاسٍ

وغيره . قَالَ الزَّجَّاجُ : وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْهَاءُ فِي « بِهِ » لِلْكِتَابِ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى :

نَحْدِثُ لَكُمْ تِلَاوَتَهُ عَلَيْكُمْ اسْتِكْبَارًا .

قوله تعالى : (سَامِرًا) قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : مَعْنَاهُ : تَهْجُرُونَ سَمَارًا ، وَالسَّامِرُ

بِعَنَى السَّمَّارُ ، بِمَنْزِلَةِ طِفْلِ فِي مَوْضِعِ أَطْفَالٍ ، وَهُوَ مِنْ سَمَرَ اللَّيْلُ . وَقَالَ

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَي : قَدْ كُنْتُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالٌ سَيِّئَةٌ لَا بَدَأَ أَنْ يَعْمَلُوهَا قَبْلَ مَوْتِهِمْ

لِإِعْمَالِهِمْ لِنَحْنُ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ . اهـ .

ابن قتيبة : « سامراً » أي : متخذتين ليلاً ، والسَّمَر : حديث الليل . وقرأ
أبي بن كعب ، وأبو العالية ، وابن محيصن : « سَمَرًا » بضم السين وتشديد الميم
وفتحها ، جمع سامر . وقرأ ابن مسعود ، وأبو زجاء ، وعاصم الجحدري : « سَمَّارًا »
برفع السين وتشديد الميم وألف بعدها .

قوله تعالى : (تهجرون) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ،
وحمة ، والكسائي : « تَهْجُرُونَ » بفتح التاء وضم الجيم وفي معناها أربعة أقوال .

أحدها : تهجرون ذِكْرَ الله والحق ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : تهجرون كتاب الله تعالى ونبيه ﷺ ، قاله الحسن .

والثالث : تهجرون البيت ، قاله أبو صالح . وقال سعيد بن جبير : كانت

قريش تَسْمُرُ حول البيت ، وتفتخر به ولا تطوف به .

والرابع : تقولون هُجْرًا من القول ، وهو اللغو والمهذبان ، قاله ابن قتيبة .

قال الفراء : يقال : قد هَجَرَ الرجل في منامه : إذا هذى ، والمعنى : إنكم تقولون
في رسول الله ﷺ ما ليس فيه وما لا يضره .

وقرأ ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن محيصن ، ونافع :

« تَهْجِرُونَ » بضم التاء وكسر الجيم . قال ابن قتيبة : وهذا من الهُجْر ، وهو

السَّبُّ والإفحاش من المنطق ^(١) ، يريد سبهم للنبي ﷺ ومن اتبعه . وقرأ

أبو العالية ، وعكرمة ، وعاصم الجحدري ، وأبو نهيك : « تَهْجِرُونَ » بتشديد

الجيم ورفع التاء ؛ قال ابن الأنباري : ومعناها معنى قراءة ابن عباس .

(١) في « غريب القرآن » : وهو السب والإفحاش في المنطق .

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ .
أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ
بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَذَّابُونَ ﴾

قوله تعالى : (أفلم يدبّرُوا القول) يعني : القرآن ، فيعرفوا ما فيه من
الدلالات والعبّر على صدق رسولهم (أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين) المعنى : أليس
قد أرسل الأنبياء إلى أممهم كما أرسل محمد ﷺ ؛ (أم لم يعرفوا رسولهم) هذا
توبيخ لهم ، لأنهم عرفوا نسبه وصدقه وأماته صغيراً وكبيراً ثم أعرضوا عنه .
والجِنَّةُ : الجنون ، (بل جاءهم بالحق) يعني القرآن .

﴿ وَلَوْ انْتَبَعِ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ
وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ .
أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ وَإِنَّكَ
اتَدَعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (ولو انتبع الحق أهواءهم) في المراد بالحق قولان .
أحدهما : أنه الله عز وجل ، قاله مجاهد ، وابن جريج ، والسدي في آخرين .
والثاني : أنه القرآن ، ذكره الفراء ، والزجاج . فعلى القول الأول يكون
المعنى : لو جعل الله لنفسه شريكاً كما يحبون . وعلى الثاني : لو نزل القرآن
بما يحبون من جعل شريك لله (لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناكم
بذكرهم) أي : بما فيه شرفهم وفخرهم ، وهو القرآن (فهم عن ذكرهم
مُعْرِضُونَ) أي : قد تولوا عما جاءهم من شرف الدنيا والآخرة . وقرأ ابن مسعود ،
وأبي بن كعب ، وأبو رجا ، وأبو الجوزاء : « بل أتيناكم بذكرهم فهم عن
ذكرهم مُعْرِضُونَ » بألف فيهما . (أم تسألهم) عمتا جئتهم به (خرجاً)

قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم : « خَرَجاً » بغير ألف | « فخراج » بألف .
 وقرأ ابن عامر : « خَرَجاً فخرَج » بغير ألف في الحرفين . وقرأ حمزة، والكسائي :
 « خراجاً » بألف « فخراج » بألف في الحرفين . ومعنى « خَرَجاً » : أجراً ومالاً ،
 (فخراج ربك) أي : فما يُعطيك ربك من أجره وثوابه (خيرٌ وهو خير الرازقين)
 أي : أفضل من أعطى ؛ وهذا على سبيل التنبيه لهم أنه لم يسألهم أجراً ، لا أنه
 قد سألهم . والناكب : العادل ؛ يقال : نكَبَ عن الطريق ، أي : عدَل عنه .
 ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَأَبْوَتْ مِنْهُنَّ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ .
 وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجَّوْا فِي طُغْيَانِهِمْ
 يَعْمَهُونَ . وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ
 وَمَا يَنْتَضِرُونَ . حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ
 إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولو رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ) قال ابن عباس :
 الضَّرَّ هاهنا : الجوع الذي نزل بأهل مكة حين دعا عليهم رسول الله ﷺ فقال :
 « اللهم أعني على قريش بسنين كسني يوسف » ^(١) ، فجاء أبو سفيان إلى
 رسول الله ﷺ فشكا إليه الضَّرَّ ، وأنهم قد أكلوا القِدَّ ^(٢) والمظام ، فنزلت هذه
 الآية والتي بعدها ، وهو العذاب المذكور في قوله : (ولقد أخذناهم بالعذاب) .
 قوله تعالى : (حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد) فيه ثلاثة أقوال .
 أحدها : أنه يوم بدر ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

(١) رواه الواحدي في « أسباب النزول » : ١٧٩ ، وذكره السيوطي في « الدر » :
 ١٢/٥ ، وأصله في « الصحيحين » ، أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استمعوا فقال :
 « اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف » .
 (٢) قال في « اللسان » ، القيدُ : السير الذي يُقَدُّ من الجلد ، وذكر كثير من المفسرين
 أنهم أكلوا العليز ، وهو الوبر والدم .

والثاني : أَنَّهُ الْجُوعُ الَّذِي أَصَابَهُمْ ، قَالَه مَقَاتِل .

والثالث : بَابٌ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ فِي الْآخِرَةِ ، حَكَاهُ الْمَلُورِدِي .

قوله تعالى : (إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو المتوكل ،

وأبو نهبك ، ومعاذ القاري : « مبلسون » بفتح اللام . وقد شرحنا معنى المبلس

في (الأنعام : ٤٥) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا

مَاتَشْكُرُونَ . وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُعْشِرُونَ .

وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ . بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا

نُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ

قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قليلاً ماتشكرون) قال المفسرون : يريد أنهم لا يشكرون أصلاً .

قوله تعالى : (ذرأكم في الأرض) أي : خلقكم من الأرض .

قوله تعالى : (وله اختلاف الليل والنهار) أي : هو الذي جعلها مختلفين

بتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض (أفلا تعقلون) ماترون من صنعه ؛ وما بعد

هذا ظاهر إلى قوله : (قل لمن الأرض) أي : قل لأهل مكة المكذبين بالبعث :

لمن الأرض (ومن فيها) من الخلق (إن كنتم تعلمون) بحالها ، (سيقولون لله)

قرأ أبو عمرو : « لله » بنير ألف هاهنا ، وفي اللذين بعدها بألف . وقرأ الباقون :

« لله » في المواضع الثلاثة . وقراءة أبي عمرو على القياس . قال الزجاج : ومن قرأ :

« سيقولون لله » فهو جواب السؤال ، ومن قرأ « لله » فجيء أيضاً ، لأنك

إذا قلت ؛ مَنْ صاحبُ هذه الدار ؟ فقيل : لزيد ، جاز ، لأن معنى « مَنْ صاحب هذه الدار ؟ » : لمن هي ؟ وقال أبو علي الفارسي : من قرأ « الله » في الموضعين الآخرين ، فقد أجاب على المعنى دون ما يقتضيه اللفظ . وقرأ سعيد بن جبير ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء : « سيقولون الله » « الله » « الله » بألف فيهن كلهن . قال أبو علي الأهوازي : وهو في مصاحف أهل البصرة بألف فيهن . قوله تعالى : (قل أفلا تذكرون) فتعلمون أن من قدر على خلق ذلك ابتداءً ، أقدر على إحياء الأموات !

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (أفلا تتقون) فيه قولان .

أحدهما : تقون عبادة غيره . والثاني : تخشون عذابه . فأما الملكوت ، فقد شرحناه في (الأنعام : ٧٥) .

قوله تعالى : (وهو يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ) أي : يمنع [من] السوء من شاه ، ولا يمنع منه من أراد به سوء ، يقال : أجزت فلاناً : أي : حميته ، وأجزت عليه : أي : حميت عنه .

قوله تعالى : (فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) قال ابن قتيبة : أنى تُخدعون وتُصرفون عن هذا !

﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ . عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩١﴾

قوله تعالى : (بل أتيناهم بالحق) أي : بالتوحيد والقرآن (وإنهم الكاذبون)
فيما يضيفون إلى الله من الولد والشريك ؛ ثم نقاهما عنه بما بعد هذا إلى قوله :
(إذا ذهب كل إله بما خلق) أي : لا نفرد بخلقِه ولم يرص أن يُضاف
خلقُه وإنعامه إلى غيره ، ولمنع الإله الآخر عن الاستيلاء على ما خلق (ولما
بعضهم على بعض) أي : غلب بعضهم بعضاً .

قوله تعالى : (عالم الغيب) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن [عاصم] ، وحفص
عن عاصم : « عالم » بالخفض . وقرأ نافع ، وحزمة ، والكسائي ، وأبو بكر عن
عاصم : « عالم » بالرفع . قال الأخفش : الجرُّ أجود ، ليكون الكلام من وجه
واحد ، والرفع ، على أن يكون خبر ابتداء محذوف ، ويقويه أن الكلام الأول
قد انقطع

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِينِي مَا يُوعَدُونَ . رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي
أَقْوَمِ الظَّالِمِينَ . وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ . اِدْفَعْ
بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يُصِفُونَ . وَقُلْ رَبِّ
أَعُوذُ بِكَ مِنَ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾
قوله تعالى : (إمَّا تُرِينِي) وقرأ أبو عمران الجوني ، والضحاك : « تُرِينِي »
بالهمز بين الراء والنون من غير ياء . والمعنى : إن أُرَيْتِي ما يوعَدُونَ من القتل
والعذاب ، فأجعلني خارجاً عنهم ولا تهلكني بهلاكهم ؛ فأراه الله تعالى ما وعدهم
ببدر وغيرها ، ونجّاه ومن معه .

قوله تعالى : (ادفع بالتي هي أحسن السيئة) فيه أربعة أقوال .

أحدها : ادفع إساءة المسيء بالصفح ، قاله الحسن .
 والثاني : ادفع الفُحش بالسلام ، قاله عطاء ، والضحاك .
 والثالث : ادفع الشِّرك بالتوحيد ، قاله ابن السائب .
 والرابع : ادفع المنكر بالموعظة ، حكاه الماوردي . وذكر بعض المفسرين
 أن هذا منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : (نحن أعلم بما يصفون) أي : بما يقولون من الشرك والتكذيب ؛
 والمعنى : إنا نجازيهم على ذلك . (وقل رب أعوذ) أي : ألتجأ وأمتنع (بك)
 من همزات الشياطين) قال ابن قتيبة : هو نخسها وطعنها ، ومنه قيل للعائب :
 همزة ، كأنه يطعن وينخس إذا عاب . وقال ابن فارس : الهمز كالعصر ،
 يقال : همزت الشيء في كفي ، ومنه الهمز في الكلام ، لأنه كأنه يضغط الحرف ،
 وقال غيره : الهمز في اللغة : الدَّفْع ، وهمزات الشياطين : دَفْعُهُم بِالْإِغْوَاءِ
 إِلَى الْمَعَاصِي .

قوله تعالى : (أن يحضرونا) أي : أن يشهدونا ؛ والمعنى : أن يصيبوني
 بسوء ، لأن الشيطان لا يحضر ابن آدم إلا بسوء . ثم أخبر أن هؤلاء الكفار
 المنكرين للبعث يسألون الرجعة إلى الدنيا عند الموت بالآية التي تلي هذه ، وقيل :
 هذا السؤال منهم للملائكة الذين يقبضون أرواحهم .

فان قيل : كيف قال : « ارجعون » وهو يريد : « ارجعني » ؟

فالجواب : أن هذا اللفظ تعرفه العرب للمعظم الشأن ، وذلك أنه يخبر عن
 نفسه [فيه] بما تخبر به الجماعة ، كقوله : (إنا نحن نُحيي ونُميت) [ق : ٤٣] ،
 فجاء خطابه كإخباره عن نفسه ، هذا قول الزجاج .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ . فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ . فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تُلْفَعُ أُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾

قوله تعالى : (لعلتي أعمل صالحاً فيما تركت) قال ابن عباس : فيما مضى من عمري ؛ وقال مقاتل : فما تركت من العمل الصالح .
قوله تعالى : (كلاً) أي : لا يرجع إلى الدنيا (إنَّها) يعني : مسألته الرجعة (كلمةٌ هو قائلها) أي : هو كلام لا فائدة له فيه (ومن وراءهم) أي : أمامهم وبين أيديهم (برزخ) قال ابن قتيبة : البرزخ : ما بين الدنيا والآخرة ، وكل شيء بين شيئين فهو برزخ . وقال الزجاج : البرزخ في اللغة : الحاجز ، وهو هاهنا : ما بين موت الميت وبعثه .

قوله تعالى : (فإذا نُفِخَ في الصور) في هذه النفخة قولان .

أحدهما : أنها النفخة الأولى ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أنها الثانية ، رواه عطاء عن ابن عباس .

قوله تعالى : (فلا أنساب بينهم) في الكلام محذوف ، تقديره : لا أنساب بينهم

يومئذ يتفاخرون بها أو يتقاطعون بها ، لأن الأنساب لا تنقطع يومئذ ، إنما يرفع

التواصل والتفاخر بها .

وفي قوله : (ولا يتساءلون) ثلاثة أقوال .

أحدها : لا يتساءلون بالأُنساب أن يترك بعضهم لبعض حَقَّهُ .
 والذاني : لا يسأل بعضهم بعضاً عن شأنه ، لا اشتغال كل واحد بنفسه .
 والثالث : لا يسأل بعضهم بعضاً من أي قبيل أنت ، كما تفعل العرب لتعرف النسب فتعرف قدر الرجل . وما بعد هذا قد سبق تفسيره [الأعراف : ٨] إلى قوله : (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ) قال الزجاج : تلفح وتنفح بمعنى واحد ، إلا أن التلفح أعظم تأثيراً ، والكالح : الذي قد تسمرت شفته عن أسنانه ، نحو ما ترى [من] ^(١) رؤوس الغنم إذا برزت الأسنان وتسمرت الشفاه . وقال ابن مسعود : قد بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم كالرأس المشيط بالنار . وروى أبو عبد الله الحاكم في « صحيحه » من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال في هذه الآية : « تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته » ^(٢) .

﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ .
 قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا
 أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِندُنَا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَوْا فِيهَا وَلَا
 تُكَلِّمُونِ . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا

(١) زيادة من « اللسان » .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرک » ، ٣٩٥/٢ وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وهو من رواية أبي السمع دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال الحافظ في « التقريب » ، عن دراج أبي السمع : صدوق في حديثه ، عن أبي الهيثم ضعيف ، والحديث رواه أحمد في « المسند » ، والترمذي وقال : حسن غريب . وذكره السيوطي في « الدر » : ١٦/٥ وزاد نسبه لبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في « صفة النار » ، وأبي يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « الحلية » .

وَأَرْحَمُنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ مِخْرَبًا حَتَّى
 أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ
 بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿

قوله تعالى : (ألم تكن) المعنى : ويقال لهم : ألم تكن (آياتي تُتلى عليكم)
 يعني : القرآن . (قالوا ربنا غلبت علينا شِقْوَتُنَا) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، ونافع ،
 وأبو عمرو ، وابن عامر : « شِقْوَتُنَا » بكسر الشين من غير ألف ، وقرأ عمرو
 ابن العاص ، وأبو رزين المقبل ، وأبو رجاء المطاردي كذلك ، إلا أنه بفتح الشين .
 وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، والأعمش ،
 وحمزة ، والكسائي : « شِقَاوَتُنَا » بألف مع فتح الشين والقاف ؛ وعن الحسن ،
 وقيادة كذلك ، إلا أن الشين مكسورة . قال المفسرون : أقرَّ القوم بأنَّ ما كُتِبَ
 عليهم من الشقاء منهم الهدى .

قوله تعالى : (رَبَّنَا أَخْرَجْنَا مِنْهَا) أي : من النار . قال ابن عباس : طلبوا
 الرجوع إلى الدنيا (فأنَّ عُدْنَا) أي : إلى الكفر والمعاصي .
 قوله تعالى : (اخْسَوْوا) قال الزجاج : تباعدوا تباعد سخط ، يقال :
 خَسَّاتُ الْكَلْبِ اخْسَؤُهُ : إذا زجرته ليتباعد .

قوله تعالى : (وَلَا تَكْفُرُونَ) أي : في رفع العذاب عنكم . قال عبد الله
 ابن عمرو : إن أهل جهنم يدعون ما كانوا أربعين عاماً ؛ فلا يجيبهم ، ثم يقول :
 (إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ) [الزخرف : ۷۷] ، ثم ينادون ربهم (رَبَّنَا أَخْرَجْنَا مِنْهَا)
 فيندعهم مثل عُمر الدنيا ، ثم يقول : (إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ) ثم ينادون ربهم (رَبَّنَا
 أَخْرَجْنَا مِنْهَا) فيندعهم مثل عمر الدنيا ، ثم يردُّ عليهم (اخْسَوْوا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُونَ)
 فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة إن كان ، إلا الزفير والشهيق .

ثم يسن الذي لأجله أخسأهم بقوله : (إنَّه) وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران الجوني ، وعاصم الجحدري : « أنه » بفتح الهمزة (كان فريق من عبادي) قال ابن عباس : يريد المهاجرين .

قوله تعالى : (فَانْخَازْهُمْ) قال الزجاج : الأجود إدغام الذال في التاء لقرب المخرجين ، وإن شئت أظهرت ، لأن الذال من كلمة والتاء من كلمة ، وبين الذال والتاء في المخرج شيء من التباعد .

قوله تعالى : (سُخْرِيًّا) قرأ نافع ، وحمة ، والكسائي ، وأبو حاتم عن يعقوب : « سُخْرِيًّا » بضم السين هاهنا وفي (ص : ٦٣) ، تابعهم المفضل في (ص : ٣٢) . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : بكسر السين في السورتين . ولم يختلف في ضم السين في الحرف الذي في (الزخرف : ٣٢) . واختار الفراء الضم ، والزجاج الكسر . وهل هما بمعنى ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنها لغتان ومعناها واحد ، قاله الخليل ، وسيبويه ، ومثله قول العرب ، بحر لَجِيٍّ وَلَجِيٍّ ، وكوكبٌ دَرِيٍّ وَدَرِيٍّ .

والثاني : أن الكسر بمعنى الهمز ، والضم بمعنى : السخرة والاستعباد ، قاله أبو عبيدة ، وحكاه الفراء ، وهو مروى عن الحسن ، وقتادة .

قال أبو علي : قراءة من كسر أرجح من قراءة من ضم ، لأنه من الهزء ، والأكثر في الهزء كسر السين . قال مقاتل : كان رؤوس كفار قريش كأبي جهل وعقبة [والوليد] قد اتخذوا فقراء أصحاب رسول الله ﷺ كعمَّار وبلال وخبَّاب وصهيب سُخْرِيًّا يستمزنون بهم ويضحكون منهم .

قوله تعالى : (حتى أنسوكم ذِكْرِي) أي : أنساكم الاشتغال بالاستهزاء بهم ذِكْرِي ، فنسب الفعل إلى المؤمنين وإن لم يفعلوه ، لأنهم كانوا السبب في وجوده ، كقوله : (إنهنَّ أضلنَّ كثيراً من الناس) [إبراهيم : ۳۶] .

قوله تعالى : (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا) أي : على أذاكم واستهزائكم (أنَّهُم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « أنَّهُم » بفتح الألف . وقرأ حمزة ، والكسائي : « إنَّهُم » بكسرها . فن فتح « أنَّهُم » ، فالمعنى : جزيتهم بصبرهم الفوز ، ومن كسر « إنَّهُم » ، استأنف .

﴿ قَالَ كَمْ لَبِيتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِيتْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسئَلُ الْعَادِينَ . قَالَ إِنْ لَبِيتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ . وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ . وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (قال كم لبستم) قرأ نافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « قال كم لبستم » وهذا سؤال الله تعالى للكافرين . وفي وقته قولان .

أحدهما : أنه يسألهم يوم البعث .

والثاني : بعد حصولهم في النار .

وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي : « قل كم لبستم » وفيها قولان .

أحدهما : أنه خطاب لكل واحد منهم ، والمعنى : قل يا أيها الكافر .

والثاني : أن المعنى : قولوا ، فأخرجه مخرج الأمر للواحد ، والمراد الجماعة ، لأن المعنى مفهوم . وأبو عمرو ، وحمة ، والكسائي يدغمون ثاء « لبثتم » ، والباقون لا يدغمونها ؛ فمن أدغم ، فلتقارب مخرج الثاء والتاء ، ومن لم يدغم ، فلتباين المخرجين . وفي المراد بالأرض قولان . أحدهما : أنها القبور . والثاني : الدنيا . فاحتقر القوم ما لبثوا لما عاينوا من الأهوال والعذاب فقالوا : (لبثنا يوماً أو بعض يوم) قال الفراء : والمعنى : لاندري كم لبثنا .

وفي المراد بالمعادين قولان .

أحدهما : الملائكة ، قاله مجاهد .

والثاني : الحسّاب ، قاله قتادة . وقرأ الحسن ، والزهرى ، وأبو عمران الجوني ،

وابن يعمر : « العادين » بتخفيف الدال .

قوله تعالى : (قال إن لبثتم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ،

وابن عامر : « قال إن لبثتم » . وقرأ حمزة ، والكسائي : « قل إن لبثتم » على

معنى : قل أيها السائل عن لبثهم . وزعموا أن في مصحف أهل الكوفة « قل »

في الموضعين ، فقرأها حمزة ، والكسائي على ما في مصاحفهم ، أي : ما لبثتم في

الأرض (إلا قليلاً) لأن مكثهم في الأرض وإن طال ، فانه مُتَنَاهٍ ، ومكثهم

في النار لا يتناهى .

وفي قوله : (لو أنكم كنتم تعلمون) قولان .

أحدهما : لو علمتم قدر لبثكم في الأرض .

والثاني : لو علمتم أنكم إلى الله ترجعون ، فعملتم لذلك .

قوله تعالى : (أفحسبتم) أي : أظنتم (أنما خلقناكم عبثاً) أي :

للعبث ؛ والعبث في اللغة : اللعب ، وقيل : هو الفعل لا لغرض صحيح ، (وأنكم إلينا لا ترجعون) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم : « لا تُرْجَعُونَ » بضم التاء . وقرأ حمزة ، والكسائي بفتحها . (فتعالى الله) عما يصفه به الجاهلون من الشرك والولد ، (الملك) قال الخطابي : هو التام الملك الجامع لأصناف المملوكات . وأما المالك : فهو الخالص الملك . وقد ذكرنا معنى « الحق » في (يونس : ٣٢) .

قوله تعالى : (ربُّ العرشِ الكريمِ) والكريم في صفة الجواد بمعنى : الحسن . وقرأ ابن محيصن : « الكريمُ » برفع الميم ، يعني الله عز وجل . قوله تعالى : (لا بُرْهانَ له به) أي : لا حجة له به ولا دليل ؛ وقال بعضهم : معناه : فلا برهان له به .

قوله تعالى : (فاعنا حسابَه عند ربِّه) أي : جزاؤه عند ربِّه (١) .

تم - بعون الله تبارك وتعالى - الجزء الخامس من كتاب
« زاد المسير في علم التفسير » ويليه الجزء السادس
وأوله تفسير « سورة النور » .

★ ★ ★

(١) قال ابن جرير الطبري في تفسير تمام السورة : (إنه لا يفلح الكافرون) يقول : إنه لا ينجح أهل الكفر بالله عنده ، ولا يدركون الخلود والبقاء في النعيم ، (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) يقول تعالى ذكره لنبينا محمد ﷺ : وقل يا محمد : رب استر علي ذنوبي بمفوك عنها ، وارحمي بقبول توبتك وتركك عقابي على ما جرتمت ، وأنت خير الراحمين ، يقول : وقل : أنت يارب خير من رحم ذا ذنب ، فقبل توبته ، ولم يعاقبه على ذنبه . اهـ .

